الحجاج بن يوسف الثقفي

رحمه الله

المفترى عليه

د. محمود زيادة

رسالة دكتوراه

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

١٢٠ شارع الأزهر ـ ص.ب ١٦١ الغورية
ت: ٩٣٢٨٢٠ : ٢٧٤١٥٧٨ فاكس ٢٧٤١٧٥٠



مقدمة

باسمك اللهم أبدأ وبعونك أستعين . وبهديك أهتدي . راجيًا منك التوفيق في كل ما يخطه القلم ، والهداية إلى أقوم طريق .

وبعد . فإني في أثناء دراستي لاحظت أن العصر الأموي لم ينل حقه من الإنصاف وخاصة الحجاج بن يوسف الذي وصف بكل رذيلة وجرد عن كل فضيلة ، فأخذت في البحث عن أخباره والتنقيب عن آثاره - التي اختلط صحيحها بموضوعها اختلاطاً شديداً - من المصادر الدينية والتاريخية والأدبية المخطوطة والمطبوعة ، فكنت كلما أمعنت النظر فيه أغرمت به وامتلأ قلبي بحبه والإعجاب به .

وإذ نظرت في سياسته وجدته سائساً لا يخدع ، ومقدامًا لا تشق عصاه وخصماً يدين له الأعداء بالتسليم والإذعان ، قد مثل دوراً عظيماً من أدوار حياة الأمة الإسلامية فجمع كلمتها ونظم جهادها وقرز مصيرها .

وأذ بحثت في إدراته وجدته إداريًا حازمًا ، وإذ قصدت نحو تدينه وجدته ورعًا زاهدًا وإذ طلبت منه علماً وجدت الشريعة قد سلمت إليه بزمامها وألقت عنده بعصا تسيارها من جودة حفظ للقرآن الكريم والحديث الشريف إلى علم بالأحكام ، وإذ ما نشدت فصاحة وبلاغة هالني البحر الذي لا ينضب معينه ، وإذ طرقت باب إصلاحاته وجدته من أعظم المصلحين ، وإذ نظرت إلى وفائه وكرمه وإخلاصه وجدته المثل الأعلى الذي يجب أن ينسج على منواله المصلحون ويسير على هديه المجددون ، فهالني ما كتبه عنه المؤرخون وعولت على أن يكون الدفاع عنه موضوع رسالتي التي أتقدم بها لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ رغبة في أن أضع الأمور في نصابها وأن أعطي تلك الشخصية العظيمة التي لم تعطها أقلام الكتاب والمؤرخين في القديم والحديث حقها من التقدير ، وجعلت رائدي الإنصاف في الحكم للحقيقة والتاريخ .

أجل . قد أغرمت بالحجاج وامتلأ قلبي بحبه ؛ ولم لا أغرم به وهو من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي ؟!

ألم يل الأمور في دولة بني أمية والحالة تتطلب حزمًا وعزمًا ؟ فقد كان عصره عصرًا يموج بالثورات والاضطرابات ؛ فأعاد الجماعة السياسية في الدولة مرة ثانية ؟!

ألم يل شؤون العراق بعد فتنة ابن الزبير التي كادت تأتي على الخلافة الأموية ؟؟

ألم يل شؤونه والعراق يشق عصا الطاعة ويأبى أن يساهم مع المهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج الذين كانوا منتشرين في العراق يتربصون بالخلافة الدوائر ؟؟

فكان من الطبيعي أن يظهر لأهله بمظهر خشن وأن يلبس لهم ثوب الأسد وأن يعاملهم هذه المعاملة التي وصفت بالقسوة ، وإن كانت - في نظرنا وفي نظر كل منصف - لا تستحق هذا الوصف ، فقد أدب **العصاة** وأذل العتاة ووطد أمور المملكة ونشر الأمن : وهل ينجح الساسة بغير هذا ؟؟

وقد كانت له في العراق أعمال عمرانية وإصلاحات إدارية وسياسية : نشر راية الإسلام عالية خفاقة فأظلت بلادًا لم تصل إليها الفتوحات من قبله ولا من بعده فوصل بذلك إلى مستوى الساسة العظام والقواد الكبار والمصلحين الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

إذن فلم هذا التجني على الحجاج والحكم عليه حكما قاسيًا من وصف بعدم التدين إلى اتهام بالوحشية حتى ليخيل إلى القارىء أن الحجاج ليس من بني الإنسان ؟!!

إن ذلك يرجع في نظرنا إلى أن عقلية الحجاج عقلية غريبة عن الطبيعة العربية سبقت عصرها بالمئات من السنين فظهرت الوسائل التي لجأ إليها في سياسته وإدارته - في نظرهم - كأنها وسائل شيطانية فقالوا عنه : إنه إبليس من الأبالسة وإنه ساحر

لبعد تصرفاته عن عرفهم وتقاليدهم .

ويرجع الأمر كذلك إلى كثرة ما سمعوه وما قرؤوه في خطبه من التهديد والوعيد كما يرجع إلى تعصب الرواة والكتاب للأشخاص الذين اصطدموا بسياسته تعصبًا أعماهم عن النظر والتفكير ؛ وقد جرى الناس في كل زمان ومكان على رمي خصومهم بكل كلام شائن وقاتل يستثيرون عليهم العواطف فتًا في عضدهم وتَشْتيتًا لقوتهم وفضًا للأنصار من حولهم .

وتتفاوت الشهوات في رمي الأعداء بأنواع الجرائم حسب الظروف والأحوال والمباءات فهي في الأوساط الدينية غيرها في السياسية كما أنها في الأوساط المدنية غيرها في البدوية .

لهذا كله نسجوا حول الحجاج القصص الشائن ، وافتروا عليه وعلى قبيلته شتى المفتريات ، بل وصل بهم البغض والكراهية إلى أن يختلقوا على رسول الله ﷺ أحاديث في شأنه وشأن قبيلته مما تعرضنا لبيان كذبه في مطاوي رسالتنا : وإن بعض الذين عابوا الحجاج ثم ولوا شيئًا من أمور الدولة لم يستطيعوا إلا السير على طريقته .

فالحجاج كان ضحية المؤرخين الذين افتروا عليه شتى المفتريات تمشيًا مع روح العصر الذي يكتبون فيه ؛ ونرى أننا كلما بعدنا عن عصر الحجاج كثرت المفتريات والأباطيل .

ومن الإنصاف أن يسجل المؤرخ لمن يؤرخ له ما أصاب فيه بمثل ما يسجل عليه ما أخطأ فيه ، وقد كان الحجاج مسلمًا مخلصًا موهوبًا : وفي ضوء الأساليب الحديثة الصحيحة لا يسعنا إلا الإعجاب بمواهبه .

ولي العراق عشرين عامًا كان فيها سيفًا من سيوف الإسلام المسلولة ودعامة من أقوى دعائم الدولة الأموية .

وقد انتهجت في هذا البحث أن قسمته إلى خمسة أبواب تكلمت في الباب الأول عن الحجاج منذ أن ولد إلى إن وَلِيَ بلاد الحجاز وألممتُ في هذا الباب بشيء عن أسرته

ونشأته إلى أن ولي أمور الدولة بقدر ما سَمَحَتْ به المصادر من غموض وتناقض في حياته وحياة أسرته .

وفي الباب الثاني تناولت الحجاج بصفة كونه حاكمًا سياسيًا في الحجاز والعراق وبينت أعماله العمرانية والإنشائية وحددت علاقته بالبيت الأموي . وتكلمت في الباب الثالث عن الثورات في عهد الحجاج والتي لم تكن من عمله وعقدت بابا رابعًا للفتوح في عهد الحجاج وبابا خامسًا للحجاج في حياته الخاصة من علاقته بالشعراء وكتابته وخطابته وأخلاقه وتدينه ونسائه وتربيته لأولاده . ثم ختمت الرسالة بخاتمة عن نظرة في سياسة الحجاج وإدارته .

وقد اقتصرت في صفحات الرسالة على ذكر التاريخ الهجري فحسب إذ لا حاجة لنا في مثل هذه الرسالة إلى تحميل القارىء مشقة قراءة التواريخ الميلادية خلال الصفحات .

ولكني وضعت في آخر الرسالة ملحقا بأهم الحوادث وفق التقويمين الهجري والميلادي وقد جرت عادة الباحثين أن يكتبوا كلمة عن المراجع يذكرون فيها قيمة المرجع ومقدار الانتفاع به . ولكني لم أرضرورة لذلك لأن الكتابة في بيان قيمة المراجع أصبحت عملية مكررة سيما في المراجع التي تناولت موضوعي .

أما قيمة المراجع ومقدار انتفاعنا بها فقد بدت في صفحات الرسالة ذاتها فإننا قلما أوردنا رأيا لم تتفق عليه المصادر إلا ورجحنا مصدرًا على آخر وفق ظروف الحادث بذاته .

وفي رأينا أن كبوة المؤرخ مرة لا تؤخذ على المصدر بأكمله ، يضاف إلى ذلك أن بضعة آراء في تصرفات الحجاج كانت مثارًا لنقمة الناس والمؤرخين عليه نقمة أثبتت الأيام بعد ذلك أن لا محل لها . ولا يعاب على المؤرخ أن يكون قد ساير روح العصر الذي عاش فيه ، وإنما يعاب علينا نحن أن لا نحلل هذه الحوادث في ضوء

العقلية الحديثة .

وقد استطعنا بحمد الله أن نؤدي واجبنا من هذه الناحية مثبتين أن الحجاج كان يستحق الإعجاب بدلاً من النقد ؛ وعلى ذلك أكون قد كشفت عن ناحية من نواحي التاريخ فأكون قد ساهمت بقسط ولو يسير في حلبة النهضة القائمة في العالم اليوم .

ولا يسعني إلا أن أبدي عجزي وتقصيري عن الشكر للأستاذ الكبير محمد حبيب أحمد : أستاذ حياتي الدراسية من مبدئها إلى منتهاها . بمقدار ما أوسع لي من صدره وأفسح لي من وقته في الإشراف على هذه الرسالة واجتيازه معي الصخور التي كنت أكد فيها لإظهار الحقائق التاريخية وترجمته لي الكثير من المراجع الأوربية كما هو واضح من ثبت المراجع . فأسأل الله له حسن المكافأة . كما أشكر حضرات الدكاترة والأساتذه :

الدكتور محمد عبد الله ماضي لإمداده لي ببعض الإرشادات وترجمة جزء من الامبراطورية العربية وسقوطها لفلهوزن ؛ والدكتور على حسن عبد القادر فقد ترجم لي الكثير كما هو واضح من ثبت المراجع ، والأستاذ عبد العزيز عبد الحق فقد ترجم لي الكتاب الثالث من حياة الحجاج كما تراه المصادر العربية لبرييه ، وفصولاً من كتاب الطائف للامنس وما يتعلق بهذه الرسالة مما كتبه دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا ومما كتبه ڤان برشم عن الملكية العقارية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأوائل ، والأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي لترجمته لي جزء من الدعوة الإسلامية لأرنولد وما يتعلق بمدينة واسط من أرض بابل القديمة لاسترك وكذلك ما يتعلق بها من كتاب الأمثال العربية لفرايتاج والأستاذ مبروك نافع لترجمته لي ما يلزمني من كتاب الخلافة لموير .

وختامًا أرجو من الله أن يكافئهم عني جميعًا أحسن المكافأة وأن يوفقنا إلى الخير وخدمة هذا البلد الأمين .

الباب الأول

الحجاج منذ أن ولد إلى أن ولي بلاد الحجاز

الفصل الأول

من هو الحجاج . أبواه . أصل قبيلته . موطنها . دخولها الإسلام . أشهر رجالها ؟

الحجاج هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسى (ثقيف) وإليه تنسب القبيلة .

فوالده يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ؛ وذكروا أنه كان معلم صبيان بالطائف . وهم إذا قالوا معلم صبيان فإنما يقصدون بهذا الوصف التحقير فيكفي أن يكون الرجل عندهم من معلمي الصبيان ليبان أنه ضعيف العقل مأفون الرأي ساقط الهمة ؛ وقد ضربوا المثل بحماقة المعلم [١] .

ويبالغ البعض فيقول إن ذلك في عرف العرب يوازي الحكم بالأشغال الشاقة [٢] .

والسبب في احتقار العرب للمعلم أنهم كانوا يحتقرون الصناعات ، والتعليم من جملتها فلا يشتغل به إلا المستضعف الذي ليست له عصبيته ؛ فأوحى إليهم هذا الفهم الخاطىء ما أوحى من هجاء .

---

(١) وكيف يُرجى العقل والرأي عند من : يروح على أنثى ويغدو على طفل .
الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٢٠٨ .

(٢) لامنس ـ الطائف ص٢٥٥ .

أما الحجاج نفسه فلم تتفق المصادر على عمل كان يتولاه في صباه فقد ذكر البعض أنه كان معلم صبيان [١] بالطائف . بينما قال آخرون إنه كان دباغًا [٢] وقال فريق ثالث إنه كان بائع زبيب [٣] .

أما قصة أنه كان دباغًا أو بائع زبيب فذلك مستبعد لأننا إذا سلمنا بأن والده كان معلما فإن من العسير على أهل العلم أن ينشئوا أبناءهم في الصناعات ، والتعليم ميسور أمامهم ؛ وخاصة في تلك العصور التي كان فيها الأبناء يتوارثون وظائف الآباء .

ولعل الذين قالوا ذلك أرادوا أن ينالوا من الحجاج بعد أن أحرز من المجد ما أحرز فاصطنعوا عليه هذه القصص ونظموا في هجائه تلك الأشعار شأن الهجاة في كل عصر يبتكرون من خصب خيالهم ما يوحيه مزاجهم .

---

(١) قال مالك بن الزيب :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبدًا من عبيد إياد

زمان هو العبد المقر بذلة ... يراوح غلمان القرى ويغادي

ابن قُتيبة ـ المعارف ص٢٣٨ . وابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٥ .

وقال آخر :

أنيس كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

المبرد الكامل ص٢٩٠ وابن قتيبة ـ المعارف ص٢٣٩ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٢ وياقوت ـ معجم البلدان جـ٧ ص٢٩٠ ـ مع اختلاف في الشطر الثاني من البيت الأول فيروى « وتعليمه صبية الكوثر » ولعله يشير بذلك إلى قرية الكوثر الملحقة بالطائف التي نشأ فيها الحجاج .

(٢) قال كعب الأشقري :

إن ابن يوسف غره من غزوكم ... خفض الجناح بجانب الأمصار

ورأى معاودة الدباغ غنيمة ... أيام كان مخالف الإقتار

الأصفهاني ـ الأغاني جـ٣ ص٥٨ وابن نباته ـ سرح العيون ص١٠٣ .

(٣) راجع الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٣٠٣ .

على أن اختلافهم فيما بينهم في إسناد هذه المهن المتباينة إليه يقوم دليلاً على الاختلاق .

وأما أنه كان معلمًا وأن أباه كان من قبله معلمًا فهذه قصة سلم بها الكثيرون ؛ ولكنهم اختلفوا في تقدير العمل من حيث هو، فالتعليم وخاصة في صدر الإسلام لم يكن صناعة وإنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليمًا لما جهل من الدين على جهة البلاغ ؛ وكان القائمون بهذا الأمر أهل الأنساب والعصبية .

وكان والد الحجاج من سادات ثقيف وأشرافهم ، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش معروفة ، وإنما صار التعليم صناعة واشتغل به المستضعفون حينما استقرت قواعد الإسلام واشتغل أهل العصبية بأمور الملك والسلطان وتركوا التعليم [١] .

وبينما كان الحجاج يستهدف لقدح الغاصبين وهجاء الشعراء على هذا الوجه . كان يفاخر بأنه ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش [٢] ، ومن كان هذا حاله فيبعد كل البعد أن يشتغل بالدباغة أو بيع الزبيب ؛ ولكن من الجائز أن يشتغل بالتعليم على الوجه الذي ذكرناه آنفا .

ومهما يكن من الأمر فوالد الحجاج كان عظيمًا في قومه محبوبًا محترمًا يدلنا على ذلك أنه كان بمصر فمر عليه سليم بن عمرو التجيبي قاضي مصر فنهض إليه والد الحجاج وسلم عليه وقال له : إني أريد أن آتي أمير المؤمنين فإن كانت لك حاجة فأعلمني . قال حاجتي أن تسأله أن يعزلني عن القضاء .

فقال يوسف : والله لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا ؟! ثم انصرف .

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٧ .

فقال الحجاج لأبيه : من هذا الـذي قمت إليـه فقـال : سليم بن عمرو قـاضي أهل مصر وقاصُّهم .

فقال الحجـاج : يغفر الله لـك يـاأبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفي ؟! فقال : والله يابني ما أرى الناس يرحمون إلا بهـذا وأشبـاهـه . فقـال الحجـاج : والله ما يفسد على أمير المؤمنين الأمر إلا هذا وأشباهـه : يقعـدون ويقعـد إليهم أحـداث النـاس فيـذكرون سيرة أبي بكر وعمر فيخرجـون على أمير المـؤمنين والله لو صفـا لي الأمر لسـألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل أن أقتـل هـذا وأشبـاهـه . فقـال لـه أبوه : والله إني لأظن أن الله خلقك شقيًا [١] .

فنرى من هذا أن والد الحجاج يريد أن يفد على الخليفة وأن القضاة يرونه أهلا للشفاعة في حوائجهم وأن الحجاج يرى لوالده عظمة تسمو به عن القيـام لمثل قـاضي أهل مصر .

وإذا صحت هذه القصة فإنها تدل على مـا كان للحجـاج من نفس طموح وثـابـة وما كان يمتـاز بـه من علم بـالأنسـاب .

وكان والد الحجاج من الذين يحملون بعض الألوية في يوم الربذة [٢] حينما بعث مروان بن الحكم بن حبيش بن دلجة القيني لقتال ابن الزبير [٣] كما خرج مع مروان قبل ذلك في حملته على مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحـدم الفهري عـامل ابن الزبير [٤] .

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية جـ٩ ص١١٨ ، ١١٩ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٣ ، ١٠٤ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١١ .

(٢) الربذة . قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها ـ ياقوت ـ معجم البلدان جـ٤ ص٢٢٢ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ ص٣ والمعـارف ص١٧٣ والبـلاذري ـ أنسـاب الأشراف جـ٥ ص١٥٥ والطبري جـ٤ ص٤٧٥ وابن الأثير جـ٣ ص٣٤٧ .

(٤) الذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١١ .

وكان من كبار المُلَّاك في مكة [١] وقد تزوج بالفارعة سيدة نساء ثقيف وأكثرهن حليًا [٢] وقد مات والحجاج وال على المدينة فنعاه على المنبر [٣] .

وكانت أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي وكانت قبل زواجها بوالد الحجاج متزوجة بالمغيرة بن شعبة [٤] .

ويروى أنها طلقت منه لأنه دخل عليه مرة في السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألته عن السبب فأخبرها بأنه دخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فقال لها : إن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة . فقالت : كل ذلك لم يكن ولكني تخللت من شظايا السواك والله ما فرحنا إذ كنا ولا ندمنا إذ بِنَّا ؛ فندم المغيرة على ما بدر منه وخرج أسفًا فلقيه والد الحجاج فقال له : هل لك إلى شيء أدعوك إليه ؟؟ قال : وماذاك ؟ قال إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فإنها تنجب لك . فتزوجها فولدت له الحجاج [٥] .

فالمغيرة الذي أحصن العدد الجم من النساء [٦] يأسف على فراقها ثم يبين لوالد الحجاج أنها خليقة بأن تنجب ، وبأن تأتي برجل يسود [٧] ، مما يدل على عظمتها من ناحية ، وشخصية والد الحجاج من ناحية أخرى .

---

(١) أخبار مكة جـ٢ ص٢٤١ .

(٢) ابن الأثير جـ٢ ص١٨١ وابن كثير جـ٤ ض٤٣٥ .

(٣) المعارف ص١٧٣ .

(٤) ابن عبد ربه جـ٣ ص٥ والجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص١٨٢ والأغاني جـ٦ ص٢٣ وغرر الخصائص الواضحة ص٧٢ .

(٥) ابن عبد ربه جـ٣ ص٥ وابن كثير جـ٩ ص١١٨ .

(٦) فيروى أنه أحصن ثلثمائة امرأة وقيل ألف امرأة ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ١ ص٢٥٩ وأُسْد الغابة جـ٤ ٤٠٧ .

(٧) ابن كثير جـ٩ ص١١٨ ويروى العيني جـ١١ ص٤٠٠ أن المغيرة قال : إنها لخليقة أن تأتي بالرجل ويروى أنها كانت تحت الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب وطلقها لنفس السبب . المسعودي مروج الذهب جـ٢ ص٩٤ وابن خلكان .

وقد أنجبت من المغيرة بنتًا وإن الحجاج نازع عروة بن المغيرة بعد وفاة والـده في ميراث الفتاة ورفع القضية إلى ابن زياد [١] .

وكان الحاسدون للحجاج لا يدخرون وسعًا في محاولة النيل منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا : يقول ابن الجوزي في تنقيح فهوم أهل الأثر [٢] : إنه بينما كان عمر بن الخطاب يطوف بالمدينة إذ سمع امرأة تقول .

هل من سبيل إلى خمرٍ فأشربها : أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل : سهل المحيا كريم غير ملجاج

فقال عمر : لا أرى معي في المدينة رجلا تهتف به العواتق في خدورهن وسيَّره إلى البصرة .

ويذهب ابن الجوزي إلى أن هذه السيدة كانت أم الحجاج بينما يتردد ابن كثير [٣] فيروي أنها أمه مرة وأنها جدته من جهة أبيه مرة أخرى .

وهذه رواية قصد بها الحط من شأن الحجاج فإن مثل تلك الأمنية لا تتصور من هذه السيدة العظيمة في قومها بنسبها وزوجها ؛ فوالدة الحجاج جدها عروة بن مسعود عظيم القريتين [٤] ؛ وكانت هي من عظيمات نساء ثقيف حتى أن خولة بنت حكيم السلمية ـ زوجة عثمان بن مظعون قالت في حصار الطائف : يارسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان أو حلي الفارعة ؛ وكانتا من أكثر نساء ثقيف حليًّا [٥] .

---

(١) الأصفهاني ص٦ ص٢٣ .
(٢) تنقيح فهوم أهل الأثر ص٣٥٣ .
(٣) البداية والنهاية جـ٩ ص١١٨ .
(٤) المذكورتين في القرآن في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ سورة الزخرف آية ٣٠ والمقصود بها مكة والطائف والرجل الثاني الوليد ابن المغيرة المخزومي .
(٥) ابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص١٨١ وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ٤ ص٣٥٠ .

ولا يضيرها كما لا يضير الحجاج إن كانت تزوجت ثم طلقت ؛ فقد كانت متزوجة بسيد قومها ولها بينهم ما له من مكانة .

ولثقيف بين القبائل شرف رفعت بناءه بمآثرها ومكارم أخلاقها وظهور شخصيات عظيمة من أبنائها خدموا الدولة الإسلامية في العصر الأموي أجل الخدمات .

غير أنها مع هذا المقام السامي لا تتمتع بنسب ناصع ؛ ولعل ذلك راجع إلى الأمور الآتية .

أولاً : تأخر إسلامها .

ثانيًا : نزولها الطائف وهي مسكن ثمود في أول أمرهم (١) .

ثالثًا : إخلاص الكثير من رجالها للدولة الأموية ؛ ذلك الأمر الذي جر عليها الكثير من الادعاءات والأقاويل واختلاق أحاديث نسبت إلى الرسول ﷺ.

وسنحاول ذكر الروايات التي قيلت في نسبها ـ باختصار ـ وترجيح ما نعتقده . فتذهب رواية إلى أن نسب ثقيف يرجع إلى قبيلة ثمود التي بادت وانقرضت وأن أباها كان يدعى أبا رغال .

وتختلف الروايات في العمل الذي كان يتولاه وكيفية هلاكه . فمن قائل إنه كان ملكاً بالطائف ؛ وكان ظالًما لرعيته فمر مرة بامرأة ترضع صبيًا يتيمًا بلبن عنز فأخذها منها وبقي الصبي بلا مرضع حتى مات فرماه الله بقارعة أهلكته فرجم العرب قبره (٢) .

ومن قائل إن أبرهة لما توجه بجيشه إلى بلاد العرب خافت ثقيف أن يقصد اللات ـ صنمهم المعظم ـ فبعثوا معه مسعود بن معتب وهو أبو رغال ليدله على

---

(١) ابن خلدون ـ العِبَر وديوان المبتدا والخبر جـ٢ ص٣٢٨ .

(٢) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٤ ص٧٤ .

الكعبة وليحول نظره عن صنمهم فلما رماهم الله بالطير الأبابيل هلك أبو رغال فدفن بين مكة والطائف في مكان يسمى المغمس [١] ؛ فمر النبي بقبره فأمر برجمه فكان ذلك سنة للناس يرجمون ذلك القبر حينما يمرون به [٢] .

وقد هجا جرير الفرزدق فقال :

إذا مات الفرزدق فارجموه   كما ترمون قبر أبي رغال [٣] .

ومن قائل إن أبا رغال وجهه النبي صالح على صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قسي بن منبه فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم [٤] .

ومن قائل إن ثقيفًا كان عبدًا لأبي رغال ، وكان أصله من قوم نجوا من ثمود ثم انتمى بعد ذلك إلى قيس [٥]

فهذه النسب كلها تدور على أن ثقيف من ثمود سواء أكان أبو رغال والد ثقيف أم أن ثقيفًا كان عبدًا له !!

ويذكر الرواة في صدد ذلك أحاديث وآثار لا يخالجنا شك في أنها موضوعة مثل حديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفًا وإنه من ثمود وكان في الحرم فمنعه الله منه) وحديث (بنو هاشم والأنصار حلفان وثقيف وبنو أمية

---

(١) المغمس . موضع قرب مكة في طريق الطائف ـ ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص١٠٤ .

(٢) المسعودي جـ٢ ص٧ والأغاني جـ٤ ص٧٤ والأزرقي جـ١ ص٨٧ وابن كثير جـ٢ ص١٧١ وابن خلدون جـ٢ ص٦١ .

(٣) المسعودي جـ٢ ص٧ وقال غيلان بن سلمة وقد ذكر قسوة أبيهم على أبي رغال (نحن قسي وقسي أبونا) ويقول أمية بن أبي الصلت الثقفي .

نفوا عن أرضهم عدنان طرًّا   وكانوا للقبائل قاهرينا

وهم قتلوا الرئيس أبا رغال   بمكة إذ يسوق بها الوضينا

(٤) ابن قتيبة ـ المعارف ص٤١ والمسعودي جـ٢ ص٧

(٥) الأغاني جـ٤ ص٧٤ .

حلفان) وما روي عن علي بن أبي طالب من أنه مر بقوم من ثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم وقال : يا عبيد أبي رغال ، إنما كان أبوكم عبدًا له فهرب منه فثقفه (ظفربه) ثم انتمى إلى قيس . وأنه قال على منبر الكوفة : لقد هممت أن أضع الجزية على ثقيف لأن ثقيفًا كان عبدًا لصالح نبي الله وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث العامل معه بها فهرب واستوطن الحرم وإن أولى الناس بصالح محمد . وأن حسان بن ثابت قال :

إذا الثقفي فاخركم فقولوا ... هلم نعد شأن أبي رغال
أبوكم أخبث الآباء قِدْما ... وأنتم مشبهوه على مثالِ [1]

وقال مرة وهو جالس بمنى بعد أن كف بصره .

وكأن حافرها بكل جميلة ... صاع يكيل به شحيح معدم
عاري الأشاجع من ثقيف أصله ... عبد ويزعم أنه من يقدم

وكان المغيرة بن شعبة - وهو ثقفي - يسمعه فأرسل إليه بخمسة آلاف درهم يستهويه بها [2] .

إلى غير ذلك من الأخبار التي تنسب ثقيف إلى ثمود .

ويظهر أن نزولهم الطائف كان من الأسباب التي روجت هذه الفكرة وهذا فوق الأسباب التي ذكرناها من إسلامها متأخرة .

وإذا كان هذا سببًا فإن أغلب القبائل قد أسلمت متأخرة وإن الإسلام يقطع ما قبله ، وإذا كانت قد أشتدت في معاداة النبي ﷺ فقد كانت قريش كذلك لم تسلم إلا مكرهة .

على أن هذه الشدة في العداوة للإسلام تقابلها شدة أخرى في تمسكها به ، فإن جميع قبائل العرب ارتدت إلا قريشا وثقيفًا [3] وثمت سبب آخر هو أن نفوذ ثقيف امتد

(١) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة م١ ص٣٩٧ والأغاني جـ٤ ، ص٧٤ ، ٧٦

(٢) الأغاني جـ١٤ ص١٣٦ . (٣) ابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٢ ص٦٥ .

طوال الحكم الأموي وارتبطت الأسرتان ببعضهما برباط المصاهره ارتباطًا دفع الوضاعين أن يضعوا أحاديث على النبي في هذا الارتباط مثل قولهم « بنو أمية وثقيف حلفان » .

وقد فند الجاحظ نسبة ثقيف إلى ثمود فقال : وأما ثمود فقد أخبر الله عنهم بقوله ﴿ **وثمود فما أبقى** ﴾ ؛ ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ وأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود !! [١] . وكان الحجاج إذا سمع ذلك يقول : كذبوا فقد قال الله عز وجل ﴿ **وثمود فما أبقى** ﴾ .

وقال مرة « ولئن كنا من بقايا ثمود فما نجا مع صالح إلا خيارهم » .

فهو قد رأى فيها فخارًا وتقديرًا لأجداده لأنه لم ينج مع الرسول صالح إلا خيارهم فأهل الطائف هم أبناء هؤلاء الأخيار الذين رضي الله عنهم [٢] .

كما أنه إذا صح خطاب عبد الملك الذي حقر فيه شأن ثقيف بأن جدهم كان عبدًا لنبي الله صالح وأنه ائتمنه على الصدقات فهرب بها : فإن الحجاج انتهزها فرصة وأبان لعبد الملك بأن ثقيفًا كانت عِدْلَ قريش في الجاهلية حتى أنهم لما أرادوا المباهاة وقد نفخ الشيطان في مناخرهم قالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فوقع اختيارهم على الوليد بن المغيره وأبي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار بها صنوين ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي [٣] .

وبذلك يمكننا القطع بأن نسبة ثقيف إلى ثمود خرافة قد فطن إليها ابن خلدون [٤] وكذلك المستشرق لامنس [٥] ؛ فإنه يقول : وهذه القصة وأمثالها ليست مما يؤيده علم الأنساب والتاريخ بل هي خرافة أذاعها دعاة العباسيين الذين كان

---

(١) الجاحظ جـ١ ص١٦٤ .

(٢) راجع الأغاني جـ٤ ص٧٤ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ من ص٨ ـ ١٠ .

(٤) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٢ ص٢٤ (٥) الطائف ص١٧٠ .

يهمهم أن يحطوا من قيمة البيت الأموي وعماله الذين أخلصوا له .

وتذهب رواية أخرى إلى أن ثقيفًا من إياد بن نزار بن معد بن عدنان .

وأن قسيًا هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن دعميّ بن إياد بن نزار ... وأن النخع وثقيف من إياد [١] وأنها خرجا ومعهما عنز لهما يشربان لبنها فعرض لهما عامل صدقة ملك اليمن وأراد أخذها فأبيا عليه ورماه أحدهما فقتله فقال الآخر إنه لا يجمعني وإياك أرض فمضى النخع إلى بثية [٢] وأقام بها وصار في عداد مذحج ونزل قسي موضعا قريبًا من الطائف ، وتمكن من إرغام العدواني أبي عامر بن الظرب بن قيس بن عيلان على تزويجه بابنته من غير أن يستشير العدواني أحدًا .

فلما علم بذلك ابنه عامر قال : لله أبوه لقد ثقف أمره . فسمي من ذلك اليوم ثقيفًا .

وعير الناس العدواني بذلك وقالوا له قد زوجت ابنتك بعبد فسار إلى الكهان يسألهم فقال له بعضهم : إنه قسي وقسي عبد إياد ؛ وقال له البعض الآخر : إن قسيًا من ولد ثمود [٣] .

واستأنس أصحاب هذا الرأي بقول أخت الأشتر مالك بن الحارث النخعي ترثيه :

أبعد الأشتر النخعي نرجو ... مكاثرةً ونقطع بطن وادي
ونصحب مذحجًا بإخاء صدق ... وإن ننسب فنحن ذرا إياد
ثقيف عمنا وبنو أبينا ... وإخوتنا نزار أولو السداد [٤]

---

(١) الأغاني جـ٤ ص٧٥ . ويروى أنها أخوان لأب وأم . الأغاني جـ٢ ص٢٦٧ وابن أبي الحديد م٢ ص٣٩٢ وياقوت ـ معجم البلدان جـ٧ ص١٢ .

(٢) قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد اليمن ـ ياقوت معجم البلدان جـ٢ ص٣٣٤ .

(٣) الأغاني جـ٤ ص٧٥

(٤) الأغاني جـ٢ ص٢٦٧ .

ويقول شبيب بن يزيد الشيباني في دخوله الكوفة :

عبد دعي من ثمود أصله ... بل يقال أبو أبيهم يقدم [١]

ومن الواضح أن هذا النسب يكاد ينطق بعدم صحته فإن الرواية التي رواها الأصفهاني في هذا الشأن مضطربة ، فإن بعض الكهان قال إنه من إياد ، والآخر قال إنه من ثمود .

وقول أخت الأشتر لا يفيد إلا أن قبيلة مذحج لم تنصرهم ، وأرادت أن تتقرب لثقيف لتأخذ بيدها في محنتها . وأما ما أنشده شبيب من الشعر فهو قول خصم يريد أن يشهّر بعدوه ؛ ويكاد بعض المؤرخين [٢] ينفي ذلك وتذهب رواية ثالثة إلى أنه من هوازن فهو قسي (ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن .

وهذا ما صرح به كثير من النسّابين والمؤرخين [٣] وقد ارتضاه الثقفيون لأنفسهم واشتهروا به فنرى أن المغيرة بن شعبة سأل هند بنت النعمان وقد جاء خاطبًا لها : ما كان يقول أبوك في ثقيف فقالت : أذكر وقد اختصم إليه رجلان أحدهما ينتمي إلى إياد والآخر إلى هوزان فقضى للإيادي . وقال :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا ... ولم يناسب عامرًا ومازنًا

إلا قريبا فانشروا المحاسنا

فقال المغيرة : أما نحن فمن هوازن فليقل أبوك ما شاء [٤] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٧١ وابن الأثير جـ٤ ص٤٩ .

(٢) ابن خلدون ـ العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٢ ص٢٤ .

(٣) المقتضب من جمهرة أنساب العرب جـ٢ ص٦٢ والمبرد ص٢٦٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٥٥ وابن خلدون جـ٢ ص١٦٦ ، والمسعودي ـ التنبيه والأشراف ص٢٧١ وابن خلكان جـ١ ص١٥٤ .

(٤) المسعودى جـ٢ ص٤٩ والأغاني جـ١٤ ص١٣٦ والمبرد ص٢٦٧ والإبشيهي جـ٢ ص٢٢١ . وتقصد هند عامر ابن صعصعة بن بكر بن هوازن ومازن بن منصور .

وهذا ما نراه في نسب هذه القبيلة التي اضطربت الرواية في أخبارها والتي لم يقتصر الطعن فيها على أصلها بل وجه إلى جده [١] وإلى الحجاج نفسه على ما سنذكر إن شاء الله تعالى .

كانت الطائف في الجاهلية للعمالقة ثم نزلتها ثمود ـ قبل وادي القرى ـ ثم سكنها بنو عدوان ثم غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة . ثم تمكنت ثقيف بدهائها من احتلالها .

وذلك أن بني عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن كانوا يُصيفون بالطائف ويشتون بأرضهم من نجد وكانت ثقيف قد نزلت حول الطائف [٢] ؛ فحاولت ثقيف أن تمتلك الطائف حينما أعجبهم نباتها وطيب ثمرها فأبانت لبني عامر أنه في الإمكان أن تستغل أرض الطائف استغلالا تامًا ، كاملاً بحفر الآبار وعرضوا عليهم استعدادهم للعمل إذا ما مكنهم بنو عامر من الأرض ودفعوا لهم الماشية للعمل عليها ـ لأنه لم يكن لثقيف مواشٍ ـ نظير نصف ما يخرج منها .

فرحب بنو عامر بهذه الفكرة وسلموا إليهم الأرض ونزلت ثقيف البلاد فزرعت الأعناب والثمار ووفت بما اشترطت على نفسها حينًا من الزمن .

وفي ذلك الحين كان قد كثر عدد ثقيف وحصنت الطائف ببناء سور لها [٣] واستبدت بالأمر ولم تدفع شيئًا لبني عامر فحاول بنو عامر أخذ الأرض منهم بالقوة فلم يظفروا بشيء وتمت الغلبة لثقيف [٤] فلكت الطائف .

---

(١) فيروي ابن شاكر جـ٥ ص٢٥٦ بأن معتبًا جد الحجاج كان عبدًا روميًا يقال له فيروز ـ لبعض اليهود يبيع الخمر بالمدينة .

(٢) ابن قتيبة ـ المعارف ص٣٩ وابن خلدون جـ٢ ص ٣٣٨.

(٣) كانت الطائف قبل بناء السور تسمى بوج وبواج ـ البلاذري فتوح البلدان ص٦٣ والهمدانى ـ البلدان ص٢٢ .

(٤) ابن الأثير جـ١ ص٤١٨ ، ٤١٩ .

كانت ثقيف من القبائل المناوئة للإسلام في بدئه شأنها شأن كل القبائل العربيـة . ولما مات أبو طالب عم الرسول ونالت قريش منه مالم تنل من قبل فكّرَ الرسول ﷺ في قبيلة تعادل قبيلته وتساجلها في مذاهب العروبة وتنازعها في الشرف فوجـد ثقيفًا فسار إلى الطائف يلتمس من أهلها النصرة والمعونـة والمنعـة من قومـه [1] ولكن تمسك ثقيف بدينها جعلها لا تقبل الدعوة واستمرت كـذلـك حتى فتح الله مكـة على المسلمين وانتصر الرسول على قريش ذلك النصر العظيم فلم تخضع تلك القبيلة ولم تسلم بل اجتمعت وقررت أن تسير لحرب محمد .

علم الرسول بذلك فأرسل رسولاً لمعرفة حقيقة الأمر فـذهب عبـد الله بن حـدرد ورجع فأخبر بأن القوم قاصدون حرب المسلمين فخرج الرسول في اثني عشر ألفا منهم عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الـذين أسلموا يوم الفتح وهو أكثر جنـد خرج بـه الرسول وسـار حتى وصل وادي حنين في أول يـوم من شـوال من السنـة الثـانيـة للهجرة .

وكانت هوزان قد كمنت في جانبيـه فحملوا على المسلمين حملـة رجل واحـد فولى المسلمون لا يلوي أحـد على أحـد [2] وثبت الرسـول عليـه السـلام ومعـه عـدد قليـل ونـادى العبـاس وكان جهير الصوت فـاجتمع حول الرسـول نحـو المـائـة وحمي وطيس القتال وانتصر المسلمون وسار الرسول إلى الطائف وحاصرهم .

وصار يرميهم بالمنجنيق وهم يرمون جيشه بالنبـال حتى استشهـد عـدد عظيم من المسلمين في ذلـك الحصـار . رأى الرسول أن الحصـار سيطول أمـده وسيعرض المسلمين لخسائر فادحة فأمر برفع الحصار [3] .

---

(١) ابن خلدون جـ٢ ص١٥ وابن كثير جـ٣ ص١٣٥ .

(٢) ابن خلدون جـ٢ ص٢٣٨ والخضري بك جـ١ ص١٩٧ .

(٣) ابن خلدون جـ٢ ص٢٤٠ ، ٢٤١ وابن الأثير جـ٢ ص١٨١ وابن كثير جـ٤ ص٣٤٨ .

فقال رجل : يا رسول الله ادع على ثقيف . ولكن الرسول كان يعرف أهمية ثقيف وإسلامها فقال « اللهم اهد ثقيفا وأت بهم » .

وقال عيينة بن حصن الفزاري « أجل والله مجدة كراما » فقال رجل من المسلمين : قاتلك الله ياعُيينة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله ؟!! فقال والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفا ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها تلد لي رجلا فإن ثقيفًا قوم مناكير [١] .

وارتحل الرسول عن الطائف حتى نزل الجعرانة [٢] وكانت الأموال قد حبست بها ـ فأتاه هناك وفد من هوزان مسلمين فقالوا : يارسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فَمُنَّ علينا . وقال له رجل : إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك .

وبهذا وبمثله تنازل الرسول عما خصه من السبي الذي كان قد سباه من هوازن وتنازل كذلك المسلمون تبعًا للرسول ثم وفد عليه مالك بن عوف النضري ـ أحد الزعماء ـ فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الأبل فأسلم وحسن إسلامه واستعمله الرسول بعد ذلك على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف فضيق على الذين لم يسلموا باستباحة سرحهم وقطع سابلتهم [٣] .

ولما رأت ثقيف أن الذين يجاورونهم من العرب قد أسلموا وصاروا يناوئونهم فلا يخرج لهم مال إلا نُهِبَ ولا إنسان إلا أُخِذَ وأن الرسول قد خرج إلى تبوك [٤] ؛ فأرهب من لم يسلم وعقد المعاهدات مع أهل أيلة وأهل جربا [٥] وغيرهما لما رأت

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص١٨١ وابن كثير جـ٤ ص٣٥٠ .

(٢) الجعرانة ماء بين مكة والطائف وهي إلى مكة أقرب ـ معجم البدان جـ٣ ص١٠٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٢ ص١٨٢ ، ١٨٣ وابن خلدون جـ٢ ص٢٤٦ .

(٤) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام ـ ياقوت معجم البلدان جـ٢ ص٣٦٥ .

(٥) أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ـ ياقوت معجم البلدان جـ١ ص٣٩١ . وجرباء بلدة من بلاد الشام كان أصلها من اليهود ـ ياقوت جـ٣ ص٧٤ .

ثقيف ذلك اجتمعوا وقرَّ رأيهم على الإسلام طواعية قبل أن يكرهوا على ذلك بحرب فأرسلوا في رمضان من السنة التاسعة للهجرة وفدا من زعمائهم إلى الرسول ليتفاوضوا معه في أن لا يهدم اللات ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة فأبى الرسول عليه السلام ذلك مبينًا أن إسلامهم يجب أن يكون بمحو الوثنية ومظاهرها فقبلوا الإسلام بلا قيد ولا شرط (١) .

وبإسلام قريش وثقيف قدمت وفود العرب من كل حدب وصوب.

وكما كانت ثقيف شديدة في شركها حريصة على معتقداتها فقد كانت أقوى القبائل إيمانًا وأشدها تمسكًا بالإسلام . فإنه لما مات رسول الله ارتدت جميع قبائل العرب عدا قريش وثقيف (٢) .

واستمرت ثقيف في إخلاصها للإسلام والمسلمين وعملت بجد في خدمته وأخلصت للخلافة الإسلامية أي إخلاص . وقد اشتهر منها رجال كانوا رواة للحديث وعلماء في الطب واللغة والحرب والسياسة وسنلمح إلماحًا سريعًا لبعض تلك الشخصيات ليتم البحث .

فمن هؤلاء عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف ؛ وأحد الشخصيات البارزة في جزيرة العرب وأحد الرجلين اللذين قال فيهم العرب « لولا أنزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم » .

وكان غائبًا عن الطائف حينما حاصره النبي فقد كان بجرش يتعلم صناعة الدبابات والمجانيق (٣) .

ولما قدم الطائف بعد انصراف رسول الله قذف الله في قلبه الإسلام فخرج إلى رسول الله في شهر ربيع الأول من سنة تسع للهجرة فأسلم وَسُرَّ رسول الله بإسلامه

(١) ابن الأثير جـ٢ ص١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ وابن خلدون جـ٢ ص٢٤٧ .

(٢) ابن الأثير جـ٢ ص٢٣١ وابن خلدون جـ٢ ص٢٧٣ .

(٣) ابن سعد ـ الطبقات جـ٥ ص٣٦٩ وابن خلدون جـ٢ ص٢٤١ وجرش بلدة باليمن فتحت صلحًا سنة عشر .

ثم استأذن رسول الله في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام فقال لـه الرسول : إنهم قاتلوك . فقال : لو وجدوني نائمًا مـا أيقظوني [١] فسـار إليهم وأعلن إسلامـه فقتلـه قومه وكادت تقع بين بطون ثقيف الحروب لولا أنه تصدق بـدمـه على قـاتلـه ـ قبل موتـه ـ واعتبر ذلـك شهـادة سـاقهـا الله إليـه . وبلغ النبي ذلـك فقـال « مثل عروة مثل صاحب « يس » دعا قومه إلى الله فقتلوه [٢] .

الحـارث بن كلـدة : بن عمرو بن عـلاج الثقفي . طبيب العرب في وقتـه ، رحـل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار في الجاهلية وأجاد في هـذه الصنـاعـة وطب في موطن العلم وعالج بعض عظماء فارس فأهدى له بعضهم مع جـاريتـه سميـة مـالاً كثيرًا وتعلم صناعة العود في فارس أيضًا وكان له تقدم في النحو [٣] .

ولما مرض سعد بن أبي وقاص عاده النبي وأوصاه بأن يعرض نفسـه على الحـارث وأوصى كل من كانت به علة أن يعرض نفسه على طبيب العرب مما يدل على نضوجه وتفوقه [٤] .

ومنهم أبـو عمرو عيسـى بن عمر الثقفي النحـوي البصري : كانت بينـه وبين أبي عمرو بن العلاء صحبة ولهما مسائل ومجالس وقد أخذ عنه سيبوبه النحو وألف كتـابـا سماه الجامع في النحو ؛ ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطـه وعلق عليـه من كلام الخليل بن أحمد وغيره ثم نسبـه إلى نفسـه ؛ وهو الكتـاب المشهور بـاسم كتـاب سيبويه ولم يقتصر تأليفه على كتابه الجامع بل ألف نيفـا وسبعين كتـابـا في النحو ، قد ضاعت وحفظ لنا الزمن هذا الكتاب وآخر اسمه الإكمال .

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات جـ٥ ص٣٦٩ وقيل إنـه أدرك الرسول في الطريق حين رجوعـه من الطـائف . ابن الأثير جـ٢ ص١٩٣ .

(٢) ابن سعد ـ الطبقات جـ٥ ص٣٦٩ وابن الآثير جـ٢ ص١٩٣ وابن الأثير ـ أُسْد الغابة في معرفـة الصحـابـة جـ٣ ص٤٠٦ .

(٣) راجع القفطي ص١١١ ، ١١٢ والزوزني ص١٦١ .

(٤) ابن سعد الطبقات ج٥ ص٣٧١ ، ٣٧٢ والقفطي ص١١٢ ، والزوزني ص١٦٢ .

وكان عيسى نقادًا فكان يخطىء بعض الشعراء المشهورين مثل النابغة ؛ ومن تلاميذه الخليل في النحو والقراءات ، والأصمعي في القراءات . ومات في حدود سنة تسع وأربعين ومائة للهجرة [١] .

ومنهم أبو محجن الثقفي الشاعر : كان في جيش أبي عبيدة الثقفي يوم الجسر وقد أبدى من الشجاعة الشيء العظيم [٢] وقد تجلت شجاعته ووفاؤه في يوم أرماث [٣] .

ذلك أنه كان في حبس سعد بن أبي وقاص فاستأذن امرأة سعد في أن تحل قيده ليخرج إلى قتال الفرس فإن قتل فقد نال الشهادة وإن سلم رجع ثانية إلى حبسه . فحلت قيده وخرج فقاتل المشركين قتالاً شديدًا عجب منه الناس حتى قال بعضهم إنه نصر نزل من السماء إلى الأرض وظنه البعض الآخر هاشم بن عتبة الأمير المنتظر من الشام ؛ وبعد أن انتهت الموقعة رجع إلى قيده وفاءً بوعده [٤] .

ودخل ابنه يومًا على معاوية بن أبي سفيان فقال أبوك الذي يقول :

إذا مت فادفني إلى أصل كَرْمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقُها

فقال أبي الذي يقول :

لا تسألي الناس عن مالي وكثرته ... وسائلي الناس عن بأسي وعن خلقي
القوم يعلم أني من سراتهم ... إذا تطيش يد الرعديدة الفرق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق [٥]

---

(١) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ١ ص٤٩٧ ، ٤٩٨ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٦٠ .
(٣) أرماث ـ يوم من أيام القادسية .
(٤) الأغاني جـ٢١ ص١٣٨ ، ١٣٩ .
(٥) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص١٦٢ .

وغيلان بن سلمة بن شرحبيل الثقفي : أحد الوافدين على كسرى من ثقيف وقد أعجب به كسرى حين سأله عن أحب أولاده إليه وأجابه بقوله : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب ، وكان شاعرًا توفي في آخر خلافة عمر وكان من رواة الحديث (١) .

ومن رواة الحديث أيضًا من هذه القبيلة أوس بن أوس الثقفي وأبو عاصم الثقفي وابن أبي إبراهيم الثقفي (٢) .

والمغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب : أحد دهاة العرب الأربعة .

يروي أن الشعبي قال : إن معاوية للأناة والحلم وعمرو للمعضلات والمغيرة للبديهة وزياد للصغيرة والكبيرة (٣) .

ويقول عنه معاوية : إن المغيرة للأمر العظيم . ولي البصرة والكوفة لعمر بن الخطاب وأقره عثمان ثم عزله ولما قتل عثمان دخل المغيرة على علي ونصحه نصيحة لو عمل بها لاستقر له الأمر (٤) .

وكذلك نراه يقول لمعاوية بعد استقرار الأمر له ـ وقد رأى عمرو بن العاص بمصر والمغرب وعبد الله ابنه بالكوفة ـ تفعل هذا فتكون بين فكي الأسد .

فمشورته تدل على العقل الناضج والرأي السليم ؛ وقد شهد بيعة الرضوان وشهد حروب اليمامة وفتوحات الشام واليرموك ـ وقد ذهبت إحدى عينيه في هذه الموقعة ـ والقادسية وكان من الصحابة الأجلاء والأمراء النبلاء ؛ وهو أول من وضع ديوان الأمراء وأول من سلم عليه بالإمرة ولما حضرته الوفاة قال : اللهم هذه يميني بايعت بها نبيك وجاهدت بها في سبيلك . مات وهو أمير الكوفة في سنة خمسين من

---

(١) راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ ص٥٣٠ ، ٥٣١ .

(٢) راجع تنقيح فهوم أهل الأثر ص٢٥٢ .

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ١ ص٢٥٨ وأسد الغابة جـ٤ ص٤٠٦ .

(٤) راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ١ ص٢٥٨ .

هجرته ﷺ ؛ وقد رثاه بعض الشعراء [١] .

أبـو عبيـد بن مسعـود الثقفي : أول من لبى نـداء عمر بن الخطـاب في الخروج إلى العراق ؛ ولذا ولاه إمرة الجيش دون من خرج معه من المهاجرين والأنصـار ؛ وسـار حتى لقي الفرس بالنارق [٢] فهزمهم وأسر في الموقعة جابان قائـد الجيش ؛ وقـد أسره رجل من عامة الجيش وأمنه فوفى له أبو عبيد بالأمان ولم يقتله على الرغم من إلحـاح الذين معه بوجوب قتله [٣] .

وقد أبدى في يوم الجسر [٤] من الشجاعة والبسالة والإخلاص ما جعله في مصاف العظماء وقد قتل في ذلك اليوم وأخذ اللواء بعده أخوه الحكم فقتل ثم ابنـه جبر فقتل وصارت ثقيف تتداوله حتى قتل منها سبعة في ذلك اليوم [٥] .

المختار بن أبي عبيد الثقفي : كان طموحًـا وقـد بـدا طموحـه من صغره فنراه يشير على عمـه سعـد بن مسعـود الثقفي أمير المـدائن حينمـا جرح الحسن بن علي في مظلم ساباط ـ بالمدائن ـ بدفع الحسن إلى معاويـة للتقرب بـه إليـه فـأبى عمـه . ولهـذا عـد الشيعة المختار عثمانيا [٦] .

ولما ذهب مسلم بن أبي عقيل إلى الكوفة ، كان المختـار أحـد الـذين بـايعوه وقـد حبسه ابن زياد لذلك ثم توسط له زوج أخته عبد الله بن عمر فأطلق سراحـه فسـار إلى ابن الزبير واشترط عليه أن يوليه أفضل أعمـالـه وأن لا يقطع أمرًا دونـه فـأظهر

---

(١) راجع أسد الغابة جـ٤ ص٤٠٧ .

(٢) النارق ـ موضع قريب من الكوفة .

(٣) ابن الأثير جـ٢ ص٢٩٧ ، ٢٩٩ والخضري بك جـ١ ص٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) ويقال لها موقعة قس الناطف والمروحة . وقس الناطف موضع قريب من الكوفـة على شـاطىء الفرات الشرقي والمروحة بشاطئه الغربي ، وكانت تلك الموقعة في رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة .

(٥) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٦٠ ، ٢٦١ وابن الأثير جـ٢ ص٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٦) ابن الأثير جـ٣ ص٢٠٣ .

ابن الزبير قبول شروطه وشهد معه حصار الحصين بن نمير ولكن ابن الزبير لم يف له بالشرط فتركه [١] وسار إلى الكوفة حينما علم أن الفتنة قد برقت فيها ورعدت وقبل خروجه أتى محمد ابن الحنفية وأبان له أنه سيخرج للطلب بدم الحسين والانتصار لآل البيت فلم يأمره ولم ينهه وأوصاه بتقوى الله .

ويروى أنه قال إني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ؛ ولست آمر بحرب ولا إراقة دم فإنه كفى بالله ناصرا ولحقنا آخذا وبدمائنا طالبا [٢] .

وقد تذرع المختار بهذه الوسيلة التي أخذها عن المغيرة بن شعبة ذلك أنه بينما كان المغيرة راكباً بسوق الكوفة وكان معه المختار فقال المغيرة : أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال أقواماً فصاروا له أنصارا ثَمَّ لا سيما العجم الذين يقبلون ما يلقى إليهم . فقال المختار وما هي ياعم ؟!

قال : يدعوهم إلى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم . فكانت هذه الكلمة في نفس المختار حتى دعا [٣] .

وقد استعمل المختار دهاءه في ضم الناس إليه بما وهبه الله من فطنة ودهاء فإن المختار من دهاة ثقيف وثقيف من دهاة العرب [٤] .

وخرج بمن انضم إليه وناوأ الخلافة الزبيرية وتغلب على عمال عبد الله بن الزبير بالكوفة وظفر بأغلب قتلة الحسين وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير معارك انتهت بقتله في سنة تسع وستين للهجرة .

وسَمَّر مصعب يد المختار على حائط المسجد الجامع فلم تزل حتى قدم الحجاج بن

---

(١) البلاذرى ـ أنساب الأشراف جـ٥ من ص٢١٤ ـ ٢١٦ وابن الأثير جـ٣ ص٣٣٧ ، ٣٣٨ .
(٢) البلاذرى ـ أنساب الأشراف جـ٥ من ص٢١٤ ـ ٢١٨ .
(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ من ص٢٢٣ .
(٤) الأبشيهي ـ المستطرف من كل فن مستظرف جـ٢ ص٨٩ .

يوسف العراق فأمر بها فانتزعت ودفنت [١] .

محمد بن القاسم الثقفي : والي ثغر السند من قبل الحجاج في سنة تسع وثمانين وقد أخضع في ولايته هذه مكران وواصل تقدمه في المنطقة المعروفة الآن باسم بلوخستان وفتح الديبل والبيرون (حيدر أباد) واستمر في سيره شمالا حتى وصل الملتان في جنوب البنجاب [٢] .

وكان من نبوغه أن ولي قيادة الجيش وهو ابن سبع عشرة سنة [٣] فنجح ووفق توفيقًا عظيمًا .

يوسف بن عمر الثقفي : ولي اليمن لهشام بن عبد الملك في سنة ست ومائة للهجرة ثم ولي العراق في سنة عشرين ومائة ؛ وهو أحد المجددين للدراهم المسماة باسمه (اليوسفية) [٤] .

ولقد أتيت على هؤلاء بشيء من التفصيل لبيان أن عصر صدر الإسلام والعصر الأموي كان مليئًا بالثقفيين من مختلف الطبقات ؛ وليس هذا حصراً لمن تقدم في الدولة الإسلامية فإن غيرهم كثير فمنهم محمد بن يوسف والي اليمن في عهد عبد الملك ابن مروان وزائدة بن قدامة محارب الخوارج ، وأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور الذي كان يفكر في أنه سيكون النبي المبعوث . والحكم بن أيوب والي البصرة في عهد الحجاج .

وحقا لقد أخرجت لنا ثقيف رجالاً كانوا مروضين للبدو ، ضربوا بسهم وافر في

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ من ص٢٢٥ ـ ٢٥٥ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان من ص٤٤٢ ـ ٤٤٥ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ ، ص١٣٣ ، ١٣٤ ودحلان ـ الفتوحات الإسلامية جـ١ من ص١٨٨ ـ ١٩٠

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص١٣٤ .

(٤) ابن قتيبة ـ المعارف ص١٧٤ وابن خلكان جـ٢ ص٣٦٦ .

الحرب والسياسة والطب . وبهم فتحت الفتوح ومصرت المدن ، مما يدلنا على مكانة هذه القبيلة .

والحجاج أحد هؤلاء الذين لعبوا دورًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي وأكبر شخصية في عهد الوليد الأول بلا منازع [١] .

* * *

(١) لامنس ص١٢٩ .

الفصل الثاني

مولد الحجاج . نشأته . تعليمه

ولد الحجاج بقرية الكوثر [١] من قرى الطائف في سنة إحدى وأربعين من الهجرة [٢] وقد لقب طول حياته بالحجاج [٣] وكان يكنى بأبي محمد [٤] .

---

(١) ياقوت - معجم البلدان جـ٧ ص٢٩٠ .
وفي النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣٠ أنه ولد بمصر بدرب السراجين ؛ وأغلب المؤرخين على أنه ولد بالطائف ويذكر ابن عبد الحكم في كتابه أخبار مصر وفتوحها ص١٠٨ ، ١٠٩ أن الحجاج وأباه قدما على حبيب ابن أوس الثقفي بمصر ؛ وذلك يرجح أنه ليس بمولود بها .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢٥٦ وابن نباتة ص١٠٢ وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر جـ١ ص١٩٨ وابن خلدون جـ١ ص١٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ في أرجح روايتيهما .
ويذكر الطبري جـ٣ ص١٣١ وابن الأثير جـ٣ ص٢١٠ وابن خلكان جـ١ ص١٥٦ في روايتها المرجوحة أنه ولد في سنة اثنتين وأربعين .
وتردد المصادر الآتية مولده بين سنة تسع وثلاثين وسنة أربعين وإحدى وأربعين واثنتين وأربعين .
العيني - عقد الجمان جـ١١ ص٤٠٠ والأتابكي جـ١ ص٢٣٠ وابن عساكر جـ٤ ص٤٩ .
وينفرد ابن حجر العسقلاني في كتابه تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢١٠ بأنه ولد في سنة خمس وأربعين أو بعدها بيسير .

(٣) ويروي المؤرخون أن اسمه الحقيقي كليب .. ابن قتيبة المعارف ص٢٣٨ وابن عبد ربه - العقد الفريد جـ٣ ص٥ والمبرد - الكامل ص٢٩٠ وابن كثير جـ٩ ص١١٨ ومرآة الجنان ص٢٩٠ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١١٧ ويذكرون ما تقدم من الشعر مثل : أنيس كليب زمان الهزال : وتعليمه سورة الكوثر .
وما ذكره المبرد ص٢٩٠ من قول منسوب إلى رجل من الطائف .

كليب تمكن في أرضكم   وقد كان فينا صغير الخطر

ويعلل صاحب كنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١١٧ هذه التسمية بأسطورة هي أنه لما ولد ولم يقبل ثدي أمه قالوا : انظروا له كلبة سوداء ليس فيها بياض فاذبحوا له جروًا من جراوها .
وفي رأينا أن سبب ذلك أن العرب كانت تختار لأبنائها أسماء للدلالة على القوة والشدة كصخر وفهد وأسد وكلب ، فلعل أمه سمته بذلك جريًا على العادة القديمة فكان لقبًا له كما يقول ابن شاكر في عيون التواريخ جـ٥ ص٢٥٨ ثم أسمته بالحجاج للتفاؤل بأن يكون من المكثرين للحج .

(٤) والكنى عن العرب أشبه بالألقاب في عصرنا الحاضر فلابد للعربي من كنية يكنى بها ويتميز بها عن الموالي الذين لا يكتنون ، ولعله كني بأكبر أبنائه (محمد) .

وقـد أحـاط المؤرخون حيـاتـه الأولى بجو من الأسـاطير يرجعونهـا إلى مـا قبـل ميلاده للاستدلال على أنه كان محباً لسفك الدماء والجور والفساد [١] .

نشأ الحجاج بالطائف وهي مدينة تقع جنوبي شرقي مكة وعلى بعـد سـتـة فراسخ ونصف منها قائمة على طرف مرتفعـات نجـد الوسطى عنـد ملتقى الطرق الآتيـة من أطراف شبه جزيرة العرب وتحيط بها بساتين الفـاكهة والحقول الخصبـة التي ترويها المياه الغزيرة المتفجرة من الآبار والسدود .

ولقد كانت هذه المدينة هي الوحيدة التي جـارت مكـة قبل الإسلام فبينمـا نرى أن ازدهار مكة راجع لكونها مـدينـة مقـدسـة يحج إليهـا العرب في مواسم معروفـة - نرى ازدهار الطائف راجع لكونها محط القوافل التي تمر بها ، ولمحصولات حدائقها من الكروم .

---

(١) أقتصر من هـذه الأسـاطير على أسطورة أنـه لم يقبل ثـدي أمـه ولا غيرهـا فتصور الشيطـان لهم بصـورة الحارث بن كلدة الثقفي - طبيب العرب - فقال لهم اذبحوا له جديًـا أسود وأولغوه دمه ، وفي اليوم الثـاني افعلوا به كذلك فـإذا كان اليوم الثـالث فـاذبحوا لـه تيسـا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا لـه أسود سـالخًـا وأولغوه دمه واطلوا به وجهـه فـإنـه يقبل الثدي في اليوم الرابع .المسعودي - مروج الـذهب جـ٢ ص٩٤ وابن خلكان - وفيـات الأعيـان جـ١ ص١٥٤ وابن كثير جـ٩ ص١١٨ والعمادي - شـذرات الـذهب في أخبـار من ذهب جـ١ ص١٠٧ وصـاحب غرر الخصـائص الـواضحـة وعرر النقـائص الفـاضحـة ص٧٢ . والعيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ١١ ص٤٠١ .

ويعقب المسعودي على هذه الأسطورة بقوله : فكان بعد ذلك لا يصبر عن سفك الـدمـاء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا يسبق إليها أحد سواه .

واهتمام العرب برواية الأعمال الخارقة من ناحية وكرههم لحاكم العراق من نـاحيـة أخرى كل ذلـك أوحى لكتابهم هذه الأسطورة حول ولادته ، إذ كانوا يريدون أن يضعوا إبليس إلى جانب مهـده

ومن الكُتّاب من تمادى في ذلك فحدثنا عن الحجاج قبل ولادته ، وقـد يطول بنـا الحـديث لو تعرضنـا لشيء من هذه الروايات . راجع ابن عساكر - التـاريخ الكبير جـ٤ ص٤٩ وابن كثير جـ٩ ص١١٨ وابن شاكر جـ٥ ص٢٥٦ ، ٢٥٧ والعيني جـ١١ ص٤٠١ .

ولقد أطلق العرب على هاتين المدينتين اسم القريتين [١] .

ومناخها معتدل لحسن موقعها وإحاطة البساتين بها وقد اشتهر أهل الطائف بحضور البديهة وحسن التفكير .

وكانت لهجة أهل الطائف من أقوم لهجات الجزيرة العربية . حدث في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان أن قدمت نسخة للقرآن فوجد فيها خطأ فقال « نظن أن الناقل لم يكن من أهل الطائف وأنه لم يكتب تحت إملاء عربي من بني هذيل » [٢] .

ولقد كان أهل الطائف في مواطنهم على اتصال دائم ببدو هذيل أفصح وأشعر قبيلة في الحجاز بل وفي كل البلاد العربية ولهذا أرسل الخلفاء العباسيون بخدمهم الأجانب إلى الطائف ليتعلموا فيه اللغة المستقيمة وليحسنوا لغتهم العربية [٣] .

في هذا الجو ، وفي هذه البيئة نشأ الحجاج فكان لغويًا دقيقًا في لغته فصيحًا بليغًا في خطابته وقد حفظ القرآن في كَنَفِ أبيه وأجاده شأنه شأن كل الأطفال في جميع الأزمان والعصور .

وبدراستنا للحجاج نرى أنه كان عالمًا بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث حافظًا لكثير من أشعار العرب وأيامهم كثير الاستشهاد بذلك في المقامات المختلفة .

فأين دَرَسَ التفسير وروى الحديث والشعر ؟؟

والجواب على ذلك سهل إذا علمنا أن الطائف لا تبعد عن مكة كثيرًا ، وكانت مكة والمدينة أهم مراكز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر وكان بها كبار الصحابة والتابعين وكان الناس يجلسون إليهم يفسرون لهم القرآن ويعلمونهم السنة ويفتونهم

---

(١) ﴿ **وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ آية ٣٠ سورة الزخرف .

(٢) مجلة المنار س٥ ص٢٢ ولامنس الطائف ص٢٥٥ .

(٣) الأصفهاني الأغاني جـ٩ ص٤٦ .

في أمورهم ويروون لهم المغازي والسير والفتوح ؛ وعلمنا كذلك أن الحجاج رحل يافعاً إلى مكة كعبة الفصحاء والعلماء والشعراء . فازدهرت مواهبه كأثر للبيئة الجديدة التي عاش فيها . قيل عنه : إن عقول الناس كانت تقرب بعضها من بعض إلا ما كان من عقل الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح عقول الناس [١]

فسمع التفسير عن حبر الأمة ابن عباس وروى الحديث عنه وعن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الملك بن مروان [٢] .

وقد روى عنه موسى بن أنس وسعيد بن أبي عروبة ومالك بن دينار وثابت البنان وحميد الطويل والأعمش والربيع بن خالد الضبي وعوف الأعرابي وقتيبة بن مسلم وغيرهم [٣] .

وكان الحجاج من رواة الحديث إلا أن علماء المصطلح لا يوثقونه لا لضعف في مكانته العلمية وإنما أخذوا عليه أموراً أرجف بها المعادون له حتى قال عنه بعض علماء الحديث « فلولا ما ارتكب من العظائم والفتك لمشي حاله » [٤] .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن تلك العظائم وذاك الفتك الذي أشار إليه هؤلاء العلماء فموضوع ذلك في باب آخر . إلا أننا نقطع بأن الكثير مما أخذ على الحجاج كانت تقتضيه مصلحة الدولة والمصلحة العامة ، وبعضه تافه لا يستحق الذكر .

ولما كان الحجاج نشأ في بيئة تحيط بها البداوة من كل جانب ولا تسري إليها

---

(١) العيني ـ عقد الجمان جـ١١ ص٤٠٠ وابن عساكر جـ٤ ص٤٩ .

(٢) الذهبي ـ ميزان الاعتدال جـ١ ص٢١٦ وابن حجر العسقلاني ـ تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢١٢ والعيني جـ١١ ص٤٠١ وابن كثير البداية والنهاية جـ٩ ص١١٧ .

(٣) ابن كثير البداية والنهاية جـ٩ ص١١٧ وابن حجر العسقلاني ـ تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢١٢ .

(٤) الذهبي ـ ميزان الاعتدال جـ١ ص٢١٦ ويقول ابن حجر جـ٢ ص٢١٢ ليس بثقة ولا مأمون .

لوثة المدن فكان بذلك غاية في الفصاحة حتى قال عنه عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري [٥] . وخطبه في الكوفة والبصرة دالة على هذا .

ولقد روى الحجاج الشعر في مكة عن كثيرين ممن سبق ذكرهم وكان يتمثل به كثيراً في خطبه وكتبه .

فمن ذلك يتبين لنا أنه نشأ نشأة عظيمة وقضى جزءاً كبيراً من شبابه إلى الرابعة والعشرين ـ ببلاد العرب ثم اتصل بعد ذلك بخدمة الدولة الأموية . مما جعل بعض المؤرخين يرى أن نشأته كانت بالشام [٦] .

---

(٥) العيني ـ عقد الجمان جـ١١ ص٤٠٠ وابن الأثير جـ٢ ص١٣٢ وابن كثير جـ٩ ص١١٩ ويقول الأستاذ أحمد بك أمين « وكان الحسن البصري يقارن بالحجاج في فصاحته » فجر الإسلام جـ١ ص٢٢٨ .

(٦) روى الجاحظ في البيان والتبيين جـ٣ ص٢٦ والجهشياري في الوزراء والكتاب ص٢٤ أن جميل بن بصهري حين شكا إليه الدهاقين شر الحجاج قال : أخبروني : أين مولده ؟ قالوا : الحجاز . قال : ضعيف معجب قال : فمنشؤه ؟ قالوا الشام : قال ذاك شر . قال : ما أحسن حالكم أن تبتلوا معه بكاتب منكم « يعني من أهل بابل » .

الفصل الثالث
اتصاله بالخلفاء والأمراء

تمهيد . ذهابه إلى مصر . المدينة . اتصاله بعبد الملك بن مروان وإعجابه به . إرساله في وفد لمفاوضة زفر بن الحارث . ولايته لتبالة . ولايته شرطة فلسطين . إعداده الجيش الشامي لمحاربة مصعب بن الزبير .

شهد الحجاج عصر بني أمية من بدايته وشهد الحوادث فيه ورأى انقسام الجماعة الإسلامية إلى طوائف وأحزاب متنازعة كل جماعة تريد أن تطغى على الأخرى ويكفر بعضها بعضا ، ورأى كثيراً من الولاة والقواد الذين بلغوا الذروة من الشهرة في ميدان الحرب والسياسة أو سمع بأسمائهم ؛ ومما ضاعف الأثر في نفسه أن كان بعض هؤلاء من قبيلة ثقيف كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والمختار بن أبي عبيد الثقفي .

فكان لأخبار أولئك العظماء أثر في نفس الحجاج وطموحها إلى الانتظام في مصافهم وبلوغ مراتبهم وعمل على ذلك ؛ فبدأ حياته بانخراطه في سلك الجندية في سن الخامسة والعشرين ؛ وذلك كان في الحملة الذاهبة إلى مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري [١] ـ عامل ابن الزبير في عهد مروان بن الحكم وبقيادته بعد أن استقرت له الأحوال بالشام ـ فقبض مروان على ناصية الحال في مصر ورجع إلى الشام في رجب من سنة خمس وستين للهجرة [٢] .

وفي الشهر التالي (شعبان سنة خمس وستين) لعودة مروان إلى الشام أرسل جيشًا إلى المدينة بقيادة حبيش بن دلجة القيني لمحاربة ابن الزبير ؛ وكان والد

---

(١) ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ص١٠٩ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١١ وابن نباته ص١٠٣ وابن كثير جـ٩ ص١١٨ ، ١١٩ .

(٢) ابن الأثير جـ٣ ص٣٣٠ والأتابكي ـ النجوم الزاهرة جـ١ ص١٦٦ ، ١٦٧ .

الحجاج في هذا الجيش يحمل بعض الألوية فسار ذلك الجيش حتى وصل إلى الربذة حيث قابلته جيوش ابن الزبير بقيادة مسروق النصري قادمًا من مكة - وعباس بن سهل الساعدي - من المدينة - والحنتف بن السجف - من البصرة - ومحمد بن الأشعث - من الكوفة - ، وقد انتصر حبيش في بدء المعركة لولا أن الحنتف كان قد أكمن لهم كمينًا خرج عليهم فقتل حبيش وانهزم الشاميون ونجا الحجاج ووالده في ذلك اليوم [١] .

ثم اتصل الحجاج بروح بن زنباع فكان في جملة شرطته ، وكان روح صفي عبد الملك يستشيره في كل الأمور ولا يكاد يفارقه فكان له مقام الوزير [٢] .

ولما أراد عبد الملك التوجه لقتال زفر بن الحارث بقرقيسياء [٣] وجد صعوبة في تعبئة الجيش وجمع الجنود لأن الجيش كان مختل النظام لا يرحل برحيل قائده ولا ينزل بنزوله

وفاتح في ذلك روح بن زنباع واستشاره في الأمر فقال روح : ياأمير المؤمنين إن في شرطتي رجلاً يقال له الحجاج بن يوسف لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص٣٤٧ وابن قتيبة ص١٧٣ وأنساب الأشراف جـ٥ ص١٥٢ ، ١٥٣ واليعقوبي جـ٣ ص٣ ويروى ابن عبد ربه جـ٢ ص٢٢٩ أنه تحصن من جيش حبيش خمسمائة رجل على جبل بالربذة وفيهم والد الحجاج فأحاط بهم عباس بن سهل فطلبوا منه الأمان فقال انزلوا على حكمي فنزلوا على حكمه فضرب أعناقهم أجمعين . وهذا يخالف ما ذكرته بعض المصادر السابقة فإنها تروى أن الحجاج ووالده هربا وفي ذلك اليوم يقول يوسف بن توسعة بن تيم الله .

ونجى يوسف الثقفي ركض ... دراك بعدما سقط اللواء

ابن قتيبة ص١٧٣ والبلاذري جـ٥ ص١٥٣ .

(٢) ابن كثير جـ٩ ص٥٥ وابن نباتة ص١٠٤ وتعبر بعض المصادر بلفظ وزير عبد الملك . ابن عبد ربه جـ٣ ص٥ وابن خلكان جـ١ ص١٥٤ والقرماني ص١٣٣ .

(٣) قرقيسياء : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن عوف وهي مثلث بين الخابور والفرات - ياقوت - معجم البلدان جـ٧ ص٦٠ وذلك لأنه بعد موقعة مرج راهط في سنة خمس وستين للهجرة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس بسبب دعوته هو والنعمان بن بشير وزفر بن الحارث لابن الزبير ، خرج زفر من قنسرين إلى قرقيسياء وتحصن بها .

لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله . قال : فإنا قد قلدناه ذلك [١] فكان بعد ذلك لا يقدر أحد على التخلف إلا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم مرة وهم يأكلون وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فسخروا منه ووجهوا إليه ألفاظًا قارصة وطلبوا منه أن ينزل ليأكل معهم فأبى ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في المعسكر وقطع أطناب خيمهم وأشعل النار فيها .

علم بذلك روح بن زنباع فدخل على عبد الملك شاكيًا الحجاج فطلبه عبد الملك وقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما أنا فعلت يا أمير المؤمنين . قال : ومن فعله ؟!! قال الحجاج : أنت والله فعلت فإنما يدي يدك وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح عوض الفسطاط فسطاطين والغلام غلامين ، ولا يكسرني فيا قدمني له ؟! [٢] .

وتروي بعض [٣] المصادر أنه قال له عندما سأله عن فعل هذا بغلمان روح فقال : أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقي من العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يعوض عليهم ما ذهب ، وقد قامت الحرمة وتم المراد ؟!

فأعجب عبد الملك به وقال : إن شرطيكم لجلد ـ ثم أقره على ما هو عليه وزاد ذلك في منزلته عنده .

فلما طال القتال بين عبد الملك وزفر أرسل عبد الملك وفداً لمفاوضة زفر بن الحارث برئاسة رجاء بن حيوة فكان من بين أعضائه الحجاج بن يوسف فحدث أن حضر الوفد عند زفر في وقت وجوب الصلاة فقام رجاء فصلى مع زفر وصلى

---

(١) ابن عبد ربه جـ٣ ص٥ ، ٦ وابن خلكان جـ١ ص١٥٤ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص٥ ، ٦ وابن خلكان جـ١ ص١٥٤ وسرح العيون ص١٠٤ (٣) ابن نباتة سرح العيون ص١٠٤ .

(٤) ابن نباتة ص١٠٤

الحجاج وحده فسئل عن ذلك فقال : لا أصلي مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته [١] .

فسمع عبد الملك بذلك فزاد إعجابه بالحجاج ورفع قدره وولاه تبالة [٢] وهي أول ما ولي الحجاج ـ فلما قرب منها سأل عنها فقيل له إنها وراء هذه الأكمة فقال « أفّ لبلدة تسترها أكمة » ورجع عنها فقيل في المثل أهون من تبالة على الحجاج [٣] .

ويبدو لنا أنه عاد إلى أمير المؤمنين يعتذر له عن الولاية ويطلب منه عملا في الجيش فولاه عبد الملك بن مروان شرطة فلسطين لأخيه أبان بن مروان [٤] .

ولما استقرت الأحوال بالشام لعبد الملك بن مروان وأراد الخروج إلى العراق لتخليصها من مصعب بن الزبير ـ واليها من قِبَلِ أخيه عبد الله ـ جعل يستنفر أهل الشام فيبطؤن عليه ، فقال له الحجاج سلطني عليهم فوالله لأخرجنهم معك . فأذن له في ذلك فيروى أن الحجاج كان لا يمر على باب رجل من أهل الشام إلا أحرق عليه داره فلما رأى الناس ذلك سارعوا إلى الخروج [٥] .

ولربما اتهم الحجاج بالإفراط في القسوة في تنفير أهل الشام للقتال ولكنها وسيلة كانت تبررها غايةٌ ، تلك هي توطيد الملك وجمع الرعية حول الإمام وقد نجحت

---

(١) ابن نباتة ص١٠٤ .

(٢) البدء والتاريخ جـ٦ ص٢٧ وياقوت معجم البلدان جـ٢ ص٣٥٧ وابن نباتة سرح العيون ص١٠٤ ، ١٠٥ وفي معجم البلدان جـ٢ ص٣٥٧ تبالة بالفتح . وتبالة الحجاج بلدة مشهورة في طريق اليمن وبينها وبين مكة اثنان وخمسون فرسخا ـ فتحت سنة عشر من الهجرة . قال أبو اليقظان كانت تبالة أول عمل وليه الحجاج فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل : أين تبالة وعلى أي سمت هي ؟؟ فقال له ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة فقال : لا أراني أميرًا على موضع تستره عني هذه الأكمة أهون بها ولاية !! وكر راجعًا ولم يدخلها .

(٣) ابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٥ (٤) أنساب الأشراف جـ٥ ص١٦٦ والمعارف ص١٧٣ ، ١٥٥ والعيني جـ١١ ص٢١٧ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٢٧ .

(٥) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٢ .

واجتمع لدى عبد الملك جيش كبير حتى أنه لما نظر أصحاب مصعب إليه تواكلوا وشملهم الرعب وداخلهم الخوف والفزع [١] فأمكنه أن ينتصر على مصعب في مسكن [٢] بدير الجاثليق وقتله في ثلاث عشرة من جمادى الآخرة لسنة اثنتين وسبعين للهجرة وبقتل مصعب صفا العراق لعبد الملك بن مروان .

(١) الدينوري ـ الأخبار الطوال ص٣١٧ .

(٢) مسكن موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق - ياقوت - معجم البلدان جـ ٨ ص ٥٤ .

الفصل الرابع

الحجاج وابن الزبير

تفكير عبد الملك في حملة للحجاز . قيادة الحملة وإسنادها للحجاج . سيرها إلى مكة .

حصار الحجاج لعبد الله بن الزبير وحربه له . قتل عبد الله بن الزبير .

أسباب انتصار الحجاج . تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق .

وبعد مقتل مصعب آلت الأمور في العراق إلى عبد الملك بن مروان فصفا له الجو فيه وخفقت عليه أعلامه .

أما الحجاز فإنه كان لا يزال تحت إمرة عبد الله بن الزبير اعتصم به حيث سمي العائذ بالبيت [1] والتمس في أرض الحرمين معقلاً لم يرد الخروج منه بحال .

فكر عبد الملك في أمر هذا الخارج عليه المعتصم ببيت الله الحرام فرأى أن لا مندوحة له - إذا أراد أن يثبت عرشه - من أن يحارب هذا الخارج حتى يقضي عليه .

هل فكر عبد الملك وهو لا يزال بالعراق ؟؟ أو أنه عاد من العراق منتصرًا ففكر وهو في مقر ملكه ؟؟ وهل قطع برأي في ذلك وهو بالعراق فخرجت حملة الحجاز من العراق أو أنه قطع بذلك وهو في الشام فخرجت حملة الحجاز من الشام ؟؟

تذهب أكثرية المراجع - التي بين أيدينا - إلى أن خروج الحملة كان من العراق [2]

---

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٤ والمسعودي - مروج الذهب جـ٢ ص٧١ .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٥ والبلاذري - أنساب الأشراف جـ٥ ص٣١٨ والطبري جـ٥ ص٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٢٢ والعيني جـ١١ ص٢١٦ وابن شاكر جـ٥ ص١٠ وابن خلدون جـ٣ ص٣٧ .

بينما تذهب أقلية من المصادر المتأخرة [1] إلى أن الحملة خرجت من الشام ؛ وتوجه هذه المصادر ما ذهبت إليه بإيراد قصة عن حديث دار بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام ؛ وتصف لنا كيف أن هؤلاء الأخصاء استكبروا في أنفسهم تجريد حملة على الحرمين ، وأنهم قعدوا عن متابعة عبد الملك فيما يريد ، بل تزيد على ذلك أنه فاتحهم في الأمر فصمتوا حتى تقدم الحجاج فآل إليه أمر الحملة . ويذكرون في تفاصيل الحملة أنها في خروجها إلى مكة لم تتعرض للمدينة المنورة بسوء مما يرجح أن الحملة كانت آتية من الشام .

وفي رأينا أننا لا نستطيع أن نتجاهل إجماع المصادر على خروج الحملة من العراق ، بل إن إجماع هذه المصادر على كثرتها وأقدميتها إزاء قلة المصادر المتأخرة يسمح لنا بأن نقطع بأن الحملة خرجت من العراق .

أما قصة المرور بالمدينة المنورة وعدم التعرض لها فبين أيدينا من المعاجم الجغرافية ما يستدل منه على أن الطريق المطروقة بين العراق ومكة تمر بالمدينة كما تمر بها طريق الشام إلى مكة .

أما قصة الحديث الذي جرى بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام فلم يرد نص ـ في غير هذه المصادر المتأخرة ـ على أن الحديث جرى في دمشق ؛ وليس هناك ما يمنع من أن يكون الحديث قد جرى فعلا بينه وبين هؤلاء ولكن في الكوفة بدلاً من دمشق .

على أن الحديث في ذاته يبدو موضوعًا . ذلك أن حديثًا يماثله كل المماثلة قد أوردته بعض المصادر بصدد ولاية الحجاج للعراق [2] .

---

(١) سرح العيون ص١٠٥ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٢٥ والمنتقى في أخبار أم القرى ص٢٠ وكاتريمير المجلة الأسيوية الجديدة ص١٤٣ .

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٥ وابن نباتة سرح العيون ص١٠٥ والأبشيهي ـ المستطرف من كل فن مستظرف جـ١ ص٥٠ ، ٥١ .

وفي رأينا أن المؤرخين الذين قالوا بخروج الحملة من الشام قد جرهم إلى ذلك ما أجمعت عليه المصادر المتقدمة من أن الجيش الذي خرج به كان شاميًا ؛ والواقع أن الجيش الذي خرج به الحجاج من الكوفة وكان أغلبه شاميًا - هو بعض بقايا الحملة التي خرج بها عبد الملك - وتحت إمرة الحجاج - من الشام حيث حاربوا مصعب ابن الزبير وانتصروا عليه .

نخلص من كل ذلك إلى أن حملة الحجاز خرجت من العراق

وتجمع المصادر على أنها أسندت إلى الحجاج ولكنها تختلف في الطريقة التي أسندت بها هذه القيادة إليه فتروي بعض المصادر [١] أن عبد الملك بن مروان هو الذي أسند قيادة الحملة إليه بينما يروي البعض الآخر أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذه الحملة وعمل على أن يندبه لها عبد الملك .

وتذكر هذه المصادر قصصًا شتى عن السبيل التي سلكها الحجاج إزاء عبد الملك حتى يصل إلى هذا المنصب ، فمن قائل إنه عندما سكت أهل الشام عن إجابة عبد الملك قام الحجاج فقال أنا لها [٢] ومن قائل إنه قال لعبد الملك إني رأيت في المنام أني قتلته وسلخته فابعثني إليه وولني قتاله [٣] إلى غير ذلك من القصص التي يرويها المؤرخون تأييدًا لوجهات النظر التي يتجهون إليها .

وفي اعتقادنا أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذا الأمر فصادف هذا الترشيح

---

(١) المسعودى التنبيه الإشراف ص٢٧١ والبلاذرى أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٤٨ وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٣ ص٣٧ وابن سعد - الطبقات الكبرى جـ٥ ص١٦٩ والديار بكري - الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص٣٠٤ وأبو الفدا - المختصر في أخبار البشر جـ١ ص١٩٦ والسلامي ص ٢٠ .

(٢) الذهبي - تاريخ الإسلام جـ٣ ص٤٤٥ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٢٢ واليعقوبي جـ٣ ص١٣ وابن قتيبة - المعارف ص١٧٣ والدميري جـ٢ ص٥١ وابن نباتة - سرح العيون ص١٠٥ والإمامه والسياسة جـ٢ ص٢٣ .
ويروى صاحب المنتقى في أخبار أم القرى ص٢٠ أني لبست جُبته .

هوى في نفس الخليفة لما رآه في الحجاج خلال حملة العراق من حزم وقوة شكيمة وما أبداه من مهارة وإخلاص.

وفي اعتقادنا أيضًا أن الحجاج لم يكن متطفلاً في ترشيح نفسه على هذا الوجه . ذلك أنه كان طموحًا يريد أن يصل إلى قمة المجد فضلاً عن أنه كان يخلص للأمويين إخلاصًا صار مضرب الأمثال فكان يعتقد أنه يخدم الأغراض الأموية ويثبت العرش الأموي بترشيح نفسه لمحاربة الخارجين على هذا العرش .

خرج الحجاج من العراق على رأس جيش لا يزيد على ثلاثة آلافٍ من المقاتلين [1] فاخترق الصحراء غربًا ولكنه لم يقدم على المدينة بل عرج إلى الطائف فوصل إليها ونزلها دون مقاومة ولعله اختار النزول بالطائف لأسباب جمة . أهمها أن الطائف كانت ذات تربة خصبة تكثر فيها الحدائق ويطيب فيها النسيم فرأى الحجاج أن يجعل خاتمة مطاف جيشه في الصحراء أن ينزل الجند بأرض تطيب لهم الإقامة فيها ريثما يتم استعداده لمكة ويقضي بأمره فيها . ولعل الحجاج ـ وقد أصبح بأرض قومه ـ كان يعلم أن سراة مكة تربطهم بالطائف مجموعة من الروابط .

ذلك أن كانت لهم بها الحدائق الغناء التي يعتمدون على فاكهتها والمزارع النضرة التي تغذيهم بغلاتها والقصور الصيفية التي يهرعون إليها هربًا من قيظ مكة اللافح فإذا ما انقطعت هذه الأسباب جميعا عن أهل مكة نقموا على ابن الزبير أن كان موقفه من عبد الملك سببًا في حرمانهم من كل ذلك ـ ولربما أدى ذلك إلى الخروج عليه وقد حققت الأيام بُعْدَ نظر الحجاج في هذا .

والمتصفح لتاريخ الطائف في ذلك الوقت يرى أنها كانت مقام محمد ابن الحنفية

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٢٢ وابن خلدون جـ٣ ص٣٧ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٤٨ في إحدى رواياته ويروي الطبري جـ٥ ص٢٠ وابن سعد جـ٥ ص١٦٩ ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٤٨ في روايته الثانية أن عدد الجيش كان ألفين .

هذا بينما يروي كل من السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص١٤٢ والقرماني في أخبار الدول ص١٣٣ أن الجيش كان عدده أربعين ألف مقاتل .

وغيره من كبار الصحابة وأبناء عمومة الرسول وأبنـاء العباس أُخْرِجَ هؤلاء من مكة على يد عبد الله بن الزبير فلجأوا إلى الطـائف [١] خوفا على أنفسهم بعد أن حاول ابن الزبير إحراقهم لامتناعهم عن البيعة له [٢] .

ووجود هؤلاء في الطائف ـ إذا لم يكن من الأسباب التي دعت الحجاج للوقوف بها ـ فهو لا شك من الأمور التي رحب بها الحجاج ومما لا شك فيه أيضًا أنه استطاع أن ينتفع بها في رفع الروح المعنوية في جنوده الذين يوشكون أن يهاجموا بيت الله الحرام .

يضاف إلى كل ذلك أن الحجاج وهو قائد موهوب أراد أن يقف بجيشه على مقربة من مكة بدلا من أن يهاجمها أو يحاصرها بجيش أضناه السفر عبر صحراء وعرة، ولا يستطيع الحجاج منذ البداية أن يكلف هذا الجيش بأن يهاجم بيت الله الحرام دون أن يكون لذلك مبرر من ناحية ابن الزبير يدفع الجند الحجاجي إلى اقتحام المعركة بنفوس مطمئنة وهو في أثناء ذلك يدرس الموقف ويخط طريق الهجوم على ابن الزبير .

فكأنه ربض بالطائف انتظارًا لتطور الحوادث ومن يدري فمن المحتمل أن يكون قد بث دعاته بين أهل مكة على النظام المعروف اليوم بالطابور الخامس . وسابقة حرب عبد الملك لمصعب بن الزبير في العراق تؤيد وجهة نظرنا هذه .

على أن هجوم جيش إسلامي على مكة المكرمة وتهديد بيت الله الحرام لم يكن ـ وخاصة في مثل هذا الوقت ـ من الأمور الهينة وواجب على من يفكر في مثل هذا الأمر أن يعد له عدته وأن يهيئ النفوس لقبول ما هي مقدمة عليه . وآية ذلك أن

---

(١) الأخبار الطوال ص٢٩٩ وابن كثير جـ٩ ص٣٨ والمعارف ص٥٩ وابن خلكان جـ١ ص٥٦٨ وفوات الوفيات جـ١ ص٢١١ والأغاني جـ١٦ ص٦٠ .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ٣ ص٢٣٤ واليعقوبي جـ٣ ص١٧ والبدء والتاريخ جـ٦ ص١٩ والمسعودي جـ٢ ص٧٢ والأغاني جـ٩ ص١٥ .

الهيثم بن الأسود النخعي قال لعبد الملك بن مروان في مستهل هذه الحملة « مر هذا الغلام الثقفي أن لا يهتك أستار الكعبة ولا ينفر أطيارها ولكن يأخذ على ابن الزبير بشعاب مكة وفجاجها حتى يهلك فيها جوعا أو يخرج منها مخلوعا » [١] .

وإذا كان هذا النص يخفض من قيمة الحجاج بأن يسميه بالغلام الثقفي مع أنه كان في مستهل العقد الرابع من حياته فإننا لا نستطيع أن ننكر ما ورد به من حكمة سياسية حربية كانت تمليها ظروف مكة ومكانتها الدينية من الجزيرة العربية . وإذا كان الحجاج قد اضطرته الظروف على ألا يعمل وفق هذه السياسة فنرى في هذا الفصل أنه لم يحد عنها إلا مضطراً وأن ظروف الحوادث هي التي سارت به في السبيل التي سلكها .

عسكر الحجاج بالطائف وجعل منها مركزًا لقيادته ثم سير منها السرايا الراكبة إلى عرفات حيث كانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير فتصطدم بهم سبراً لغورهم والتماساً لمعرفة مدى قوتهم وكان فرسان الحجاج يعودون إلى الطائف في كل الأحوال غالبين [٢] . ولم يفكر ابن الزبير في أن يرسل إلى الطائف بعض طلائع جيشه ولعل السبب في ذلك أن الطائف كانت واقعة على رأس جبل غزوان فهي بذلك الاعتبار الجغرافي مدينة حصينة لا يدركها مهاجم إلا بصعوبة .

ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت كفة الحجاج على الدوام هي الراجحة تبين له ضعف خصمه فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك وينبئه بما تبينه من أمر ابن الزبير من تفرق بعض أصحابه عنه وفرار الكثيرين من جيشه ويسأله أن يمده بالمال والرجال وأن يأذن له في دخول الحرم للقضاء على ابن الزبير [٣] ، قبل أن يعمل ابن

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٥٧ وكنز الدرر جـ٤ القسم التاني ص١٢٤ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٥٧ والطبري جـ٥ ص٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٢٢ وابن خلدون جـ٣ ص٣٧ وابن شاكر جـ٥ ص١٠ والديار بكري جـ٢ ص٣٠٤ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٢٢ وابن خلدون جـ٣ ص٣٧ وابن شاكر جـ٥ ص١٠ والخميس جـ٢ ص٣٠٤ وابن سعد جـ٥ ص١٦٩ والمنتقى في أخبار أم القرى ص٢٥ .

الزبير فكره ويستجيش ويجمع إليه أنصاره وتؤوب إليه فلاله [١] .

هذا ما أجمعت عليه المصادر عن موقف الحجاج من مهاجمة مكة .

وينفرد صاحب أنساب الأشراف [٢] في إحدى روايتيه بأن عبد الملك هو الذي كتب للحجاج بذلك ويعلله بأن الزبير بعد مقتل مصعب كتب إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته ومعاونته وأن خبر ذلك قد ورد على عبد الملك بن مروان من أخيه بشر بن مروان بالعراق ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج (أن سر إلى ابن الزبير فانزل معه واشغله) .

كما يعلل موقف عبد الملك هذا من الحجاج بأن الشعراء في بلاط عبد الملك كانوا يحرضونه على قتال ابن الزبير ، ومن ذلك قول جواس بن القعطل الكلبي .

إن الخلافة ياأمية لم تكن ... أبدًا تدر لغيركم ثدياها
فخذوا خلافتكم بأمر حازم ... لا يحلبن الملحدون صراها
سيروا إلى البلد الحرام وشمروا ... لا تصلحوا وسواكموا مولاها
لا تتركن منافقين ببلدة ... إلا أقلتم بالسيوف طلاها [٣]

على أننا لا نستطيع أن نجزم أن جواس هذا قال هذه الأبيات في معرض التصريح للحجاج بمهاجمة الحرم ، ومقام هذه الأبيات بعد مقتل مصعب بن الزبير بالعراق والأمر بتسيير الحملة على الحجاز لاسيا وأنه لم يرد نص عن المقام الذي قال فيه الشاعر هذه الأبيات .

كانت المدينة قد آلت إلى عبد الملك بن مروان بعد أن كانت في يد ابن الزبير .

---

(١) الأخبار الطوال ص٣٠٤ وأنساب الأشراف جـ٥ ص٣٥٧ .

(٢) البلاذري جـ٥ ص٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٧٥ ، ٣٧٦ .

ذلك أن عبد الملك أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال ابن الزبير على المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القرى ، فلما انتصر عليهم وخرج عامل المدينة منها دخلها طارق بينما كان الحجاج مقيًما بالطائف [١] .

فلما أرسل الحجاج إلى عبد الملك يطلب إليه المدد أرسل عبد الملك إلى طارق ـ وقد صار واليًا من قبله على المدينة ـ في ذي القعدة يأمره أن يلحق بمن معه من الجنود ، فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار [٢] .

وبدراسة الموقع الجغرافي لمكة والمسالك المؤدية إلى غيرها من المدن نستطيع أن نقطع بأن الحجاج جاء إلى مكة عن طريق عرفات فمنى ثم نزل إلى أرباض المدينة من شمالها الشرقي بينما جاء جيش طارق من شمال غربي المدينة عن طريق وادي فاطمة .

فإذا حاولنا التوفيق بين المصادر العربية ـ التي لم تكن تعني بالتوقيعات الجغرافية عناية تذكر ـ وبين المواقع الجغرافية على ما هي واردة في المصورات القديمة والحديثة ترجح لدينا نزول جيش طارق بجبل قُعَيْقِعان في شمال غربي الحرم ونزول جيش الحجاج في شرقي الحرم عند بئر ميمون الواقعة بين المعلاة ومنى .

ولما كان هذا المكان يصلح لنزول الجيش دون أن يحقق الغرض الذي قصد إليه الحجاج وهو تهديد عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم فقد استغل الحجاج جبل أبي قبيس لذلك فنصب عليه المنجنيق وأقام عليه بعضا من جيشه [٣] .

على أنه لا يجوز لنا أن نتصور انقطاع الصلة بين الجيشين إذ إنهما تحت إمرة قائد

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص٢٢ وابن خلدون ـ العبر و ديوان المبتدا والخبر جـ٣ ص٣٧ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص٢٢ وابن خلدون ـ العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٣ ص٣٧ . والمنتقى في أخبار أم القرى ص٢٥ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٣ ص٤٤٥ .

(٣) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى جـ٥ ص١٦٩ والطبري ـ تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٢٢ ، ٢٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨ وعقد الجمان جـ١١ ص٢٧٧ .

واحد وهو الحجاج والمسافة بين منزليهما جد قصيرة .

خرج الحجاج على رأس جيشه من الطائف متجهاً نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين . ويروي البلاذري والدينوري . أنه قال لأصحابه : تجهزوا للحج [1] بينما تورد بقية المصادر خروج الحجاج إلى مكة دون الإشارة إلى قوله لأصحابه بأن يتجهزوا للحج . فهل خرج الحجاج بجيشه بحجة الحج أو الحرب ؟؟ وبعبارة أوضح هل عمل الحجاج على إغراء جيشه بالحج أو خرج بهم من الطائف وهم يعلمون أنهم خارجون لحرب ابن الزبير ؟؟ فإذا كان قد خرج بهم بقصد الحرب أفما كان الأوفق أن ينتظر حتى ينتهي موسم الحج ثم بعد ذلك يخرج لقتال ابن الزبير ؟

والواقع أن الحجاج أنصف بخروجه لابن الزبير في هذا الشهر ، ولو فرضنا أن خروجه في هذا الوقت إنما اقتضاه مسير جيش طارق لكان ذلك من حسن حظ الحجاج أيضًا إذ لو ترك ابن الزبير ومكة مليئة بوفود المسلمين من كافة الأقطار التي يحكمها الأمويون لبث دعايته ضد الدولة الأموية بين هؤلاء الوفود ولكانت لهم بعد عودتهم إلى أقطارهم مواقف من الدولة الأموية لايعلم مداها فمسارعة الحجاج إلى مهاجمة مكة في موسم الحج من طبيعته أن لا يمكن ابن الزبير من بث دعايته بين هؤلاء .

ورب قائل يقول بأن وقفة الحجاج ورغبته في مهاجمة الحرم فيها دعاية صامتة ضد الدولة الأموية التي وجهته لهذه الحرب وفي موسم الحج ، ولكن ظاهر الحق في جانب الأمويين ومبلغ نفوذهم في الأقطار المفتوحة وحديث انتصارهم على مصعب بن الزبير بالعراق كان مبعث اعتقاد لدى المسلمين بأنهم أصحاب حق لن يتنازلوا عنه وأنهم جاءوا مكة لمحاربة خارج على الخلافة الأموية معتصم ببيت الله الحرام بغير حق وهو إلى جانب ذلك أضعف من أن يخرج لمحاربة الحجاج خارج الحرم ، وأبخل من أن

(١) أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٥٧ والأخبار الطول ص٣٠٤ .

يكفي أصحابه شر العوز وخزائنه مملوءة بالأقوات ، والعالم الإسلامي لم ينس بعد موقف ابن الزبير من مجموعة من سادة المسلمين من الصحابة والتابعين وأبناء عمومة الرسول وكيف حاول أن يحرقهم بالنار أولاً ويضطرهم إلى الخروج إلى الطائف ثانيًا .

وبينما كان الحجاج قادمًا إلى مكة بجيشه ـ للحج أو للحرب ـ نراه أرسل فرقة من جيشه نصبت المنجنيق على جبل أبي قبيس فلما جاوز عامة الجيش منى [١] وصار أبو قبيس منها على مرأى رأوا المنجنيق قد نصب فهالهم ذلك [٢] .

وفي رأينا أن الحجاج خرج من الطائف وجنوده يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير إذ من غير المعقول أن يغري قائدٌ جيشه بالحج بينما هو خارج للقتال لاسيا وأنها خدعة لن تطول فإذا كان مسيرهم إلى مكة يحتاج إلى هذه الخدعة ففيم كان مسيرهم من العراق على ما نذهب ـ أو من الشام ـ على ما يذهب البعض الآخر عبر هذه الصحراء المترامية الأطراف ؟؟ وهل أغراهم الحجاج حين خروجهم بالحج أم كانوا يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير ؟ فإذا ثبت الشق الثاني ـ وهو ثابت ـ أصبح الحجاج في غير حاجة إلى إغراء جنوده حين مسيرهم من الطائف بالحج أو بغير الحج .

على أن صاحب البلاذري والدينوري لما آمنا بأن الحجاج أغرى جنوده بالحج صاغوا قصة رؤيتهم للمنجنيق على أبي قبيس وذعرهم لذلك ولكنهم لم يرتبوا نتائج لهذا الذعر فلم يحدثونا عن فتنة في جيش الحجاج أو خلاف في الرأي بين الجنود ، مما يدل على أن المقدمات التي ساقوها لا تتناسب مع النتائج التي أثبتها التاريخ ، مع ما رواه المسعودي [٣] من أن أهل دمشق لما بلغهم خبر حصار الحجاج لابن الزبير بمكة

---

(١) قرية بشرقي مكة على بعد نحو فرسخ منها ـ ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص١٥٩ .

(٢) البلاذري جـ٥ ص٣٥٧ـ والدينوري ـ الأخبار الطول ص٣٠٤ .

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص٨٩ .

والظفر بأبي قبيس كبروا سروراً بذلك النصر .

وإذا ثبت أن جند الحجاج ذعروا لرؤية المنجنيق فأغلب ظننا أنه لم يدر بخلدهم أن من برنامج الحملة هدم الحرم ونصب المنجنيق قد يدل على ذلك ، فإذا ذعروا لنصب المنجنيق كان ذعرهم في محله فهم مذعورون لذلك لا لحرب ابن الزبير .

ونرى بعض المصادر بأن المنجنيق نصب على أبي قبيس وقعيقعان [١] ، ونحن لا نرى بأسا من مجاراة هذه المصادر على هذا إذ كان جبل قعيقعان مجاوراً لمنزل جيش طارق ، ولا بأس في نظرنا أن ينصب المنجنيق على الحرم من ناحيتين إحداهما شرقية والأخرى غربية والجبلان على مسافة تكاد تكون متساوية من الحرم . لا سيا وأن نصب المنجنيق على كل من هذين الجبلين يحقق ما ذهبت إليه بعض المصادر من أن الحجاج جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير على الكعبة [٢] .

وقد كانت هذه الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من أبي قبيس وقعيقعان أمرًا ميسورًا دون أن تتعرض بقية الكعبة لأحجار المنجنيق هذا إذا أحكمت الرماية .

على أننا من جهة أخرى لا نحب أن نسلّم بأن رماية المنجنيق كانت من الدقة بحيث تصيب جزءًا من بناءٍ محدود وهو الكعبة دون جزءٍ آخر .

ولعل القائلين بأنه قصد الزيادة التي زادها ابن الزبير أرادوا أن يرفعوا عن الحجاج ما اعتقدوه إثماً وهو رمي الكعبة ذاتها بالمنجنيق فالتمسوا له مخرجا من هذا الإثم المزعوم بأن قالوا إنه رمى الزيادة دون الكعبة نفسها ، وسواء أرمى الحجاج الكعبة ذاتها أم الزيادة التي زادها ابن الزبير فقد كان يعمل مضطراً مكرهاً ، ذلك أن بعض أعوان ابن الزبير صعد فوق الكعبة وصار يوجه الضربات إلى جيش

---

(١) ابن عبد ربه جـ٢ ص٢٣٥ والقرماني ص١٣٣ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٧ ص٢٦٠ ومرآة الجنان جـ١ ص١٥٤ .

الحجاج مما اضطره إلى أن يوجه الضربات لهم ولا حيلة له في ذلك ، وسنرى فيا بعد أن أعيـان مكـة توسطوا لـدى الحجـاج طـالبين إليـه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم (والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت) ؟؟

كانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقـد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق ، ولما كان في ذلـك تعطيـلٌ لركن من أركان الحج فقـد تـدخـل في الأمر عبـد الله بن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له : اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قـدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا [١] .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفور المسلمين من استعمال المنجنيق في موسم الحج كان عامًا وأن جماعة من كبار الصحابة ـ لا عبد الله بن عمر وحده ـ ذهبوا بـأنفسهم إلى الحجاج وكلموه في أن يترك الضرب بالمنجنيق وأنه قد منع النـاس من الطواف . فأرسل الحجاج إلى طـارق بن عمرو بـأن يكف عن استعمالـه حتى ينتهي النـاس من الحج ، وقال لهم : والله إني لكاره لما ترون ، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت . [٢]

وأياً ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهى الناس من الطواف .

أمّا الفريقان المتحاربان فقد كان كل منهما يريد أن يؤدي فريضة الحج ، ولكن مناسك الحج كانت مقسمـة بينهما ففي يـد ابن الزبير الحرم والمسعى وفي يـد الحجـاج منى وعرفـات والجمرات ، لـذلـك نرى أن كـلا من الفريقين قـد أدى الفريضـة غير كاملة ـ أداها على ما بيده من مناسـك ـ فـابن الزبير وأتبـاعـه قـد طـافوا وسعوا ولم يقفوا بينما أن الحجاج ورجاله وقفوا ولكنهم لم يسعوا ولم يطوفوا [٣] .

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وابن خلـدون جـ٣ ص٣٨ وكنز الـدرر جـ٤ ق٢ ص١٢٤ وأنسـاب الأشراف جـ٥ ص٣٧٦ .

(٢) المنتقى في أخبار أم القرى ص٢٦ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وابن خلـدون جـ٣ ص٣٨ والعيني جـ١١ ص٢٧٦ والمنتقى في أخبار أم القرى ص٢٥ .

انتهى موسم الحج ، فنادى الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيستأنف ضد الملحد ابن الزبير[١] .

وفي يوم من الأيام بينما كان الحجاج يرمي بالمنجنيق أرعدت السماء وأبرقت فأكبر ذلك الشاميون وتوقفوا عن القتال أعتقادًا منهم أن هذا غضب من الله ، فأخذ الحجاج الحجارة بيده ووضعها في المنجنيق ورمى بيده أيضًا فرموا ، وفي اليوم الثاني جاءت الصواعق مرة جديدة ولكنها كانت أشد عنفًا من سابقتها فقتلت من الشاميين عددًا وقيل إنها أحرقت المنجنيق فضعفت عزيمة الجند وكفوا عن القتال ثقة منهم أن الخالق سبحانه لا يرضى عما يصنعون فقال لهم الحجاج : لا تنكروا هذا فأنا ابن تهامة وهذه صواعقها [٢] ، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا [٣] ، وسيصيبهم في الغد مثل ما أصابكم . وفي اليوم التالي لمقالته نزلت الصواعق فقتلت من أصحاب الزبير عددًا ، فقال الحجاج لجنده : أما قلت لكم إنهم يصابون ؟ وأنتم على الطاعة وهم على خلافها [٤] .

ونحن لا نرى بُدًا من أن نقف من هذه الحوادث وقفة : هل كانت هذه الصواعق أمراً طبيعيًا ؟ وهل كان الحجاج صادقًا فيا قال لجنده ؟

لقد حدثت هذه الصواعق في منتصف ذي الحجة من عام اثنين وسبعين وهو يوافق أوائل مايو من سنة ٦٩٢ (أي بداية فصل الصيف) . وإذا كانت بلاد العرب مشهورة بالجفاف على وجه العموم فمن المعروف أن أمطارها إذا نزلت تكون صيفية ، وكان هذا اليوم مطيرًا كما يقول البلاذري [٥] . ومثل هذه الأمطار تلازمها

(١) أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٧٦ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٣٠ وابن شاكر جـ٥ ص١٦ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨ .

(٤) ابن الأثير جـ٤ ص٢٣ والبلاذري جـ٥ ص٣٦٨ وقيل إنه قال لهم إن النار كانت على من قبلنا فتأكل قربان من تقبل منه ابن عساكر جـ٤ ص٥٠ وابن كثير جـ٨ ص٣٢٩ وكنز الدرر جـ٤ ق ٢ ص١٢٥ .

(٥) أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٦٨ .

الصواعق في كثير من الأحيان ، وفي هذا مايدلنا على أن الحجاج كان محقًا - ولو إلى حد - فيا قاله لأصحابه .

أما قوله إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ففي تقديرنا أنه أراد أن يرفع الروح المعنوية بين جنده وقد علم أن الصواعق إذا نزلت يومًا كان نزولها بعد ذلك أمراً محتملاً ، ولقد كان من حسن حظه أن أصابت صواعق اليوم التالي معسكر ابن الزبير دون معسكره هو ، ولم يكن هناك ما يمنع من أن تتكرر هذه المأساة في معسكر الحجاج .

استمر نطاق الحصار مضروبًا على ابن الزبير والتراشق بين الطرفين مستمرًا . وقد كانت وطأة الحصار شديدة على أهل مكة حيث أحدث مجاعة شديدة حتى بيع مد الذرة بعشرين درهمًا ، وقد كان من أثر ذلك أن خرج الكثيرون من أهل مكة إلى الحجاج بعد أن بعث إليهم بالأمان الذي أعطاه عبد الملك لهم ولابن الزبير حتى قيل : إنه خرج إليه عشرة آلاف منهم ابنا عبد الله بن الزبير حمزة وخبيب .

كانت المجاعة تأكل أهل مكة بينما خزائن ابن الزبير عامرة بالأقوات والأموال لم يخرج منها من الغلال والذرة والتمر إلا ما يسد الرمق وكان يقول في ذلك : إن أنفس أصحابي قوية مالم يفن هذا [١] .

وقد كان ابن الزبير يرجو أن يقنع أهل مكة بالكفاف حتى تنجلي غمة الحصار ويخرج من هذه الحرب منتصرًا ، كما كان يخشى أن فنيت أقواته أن يهرع رجاله إلى معسكر الحجاج ، وقد حدث ما كان يخشاه إذ فر هؤلاء إلى معسكر كان فيه الحجاج يغمر الناس بعطاياه وكانت المؤونة فيه موفورة تُحمل إليه من الشام والعراق ، ولقد بلغ من وفرة الأقوات في معسكر الحجاج أن بعض رجاله كان يبيع الزائد عن حاجته فقد حدَّثَ محمد بن عمر عن سعيد بن مسلم بن بانك عن أبيه أنه ابتاع من

---

(١) أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٦١ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨ .

بعضهم كعكاً بدرهم فكفاه هو ومن معه إلى أن بلغوا الجحفة ـ وكانوا ثلاثة نفر ـ [١] .

ولما كانت المسافة بين مكة والجحفة نحو المائتين والسبعين من الكيلو مترات يقطعها المسافر راكبًا فيا لا يقل عن خمسة أيام كان ما اشتراه هؤلاء من بعض جند الحجاج قد كفاهم ـ وهم ثلاثة ـ عشر وجبات على الأقل ويدلنا ذلك على وفرة الأقوات لدى جيش الحجاج وفرة يكاد لا يصدقها العقل .

فإذا سلمنا بما يحتمل أن تنطوي عليه هذه القصة من المبالغة فهي دليل ـ على كل حال ـ على اليسر في معسكر الحجاج .

وتبدو أهمية ذلك إذا وازنا بين هذا اليسر وما كان عليه أهل مكة من ضنك في المعيشة وقلة في الأرزاق واستطعنا أن نعلل هروع الآلاف من أهل مكة إلى معسكر الحجاج .

بعد خروج الآلاف من أهل مكة إلى الحجاج لم يبق مع ابن الزبير إلا عدد قليل ما بين متحمس له ومتورط معه ، فلما رأى ابن الزبير ذلك جمعهم للتفكير في الموقف فقال ما ترون ؟؟ فقال رجل من بني مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج [٢] .

وفي هذه المقالة ما يدل على مدى اليأس الذي تسرب إلى قلوب أصحابه وفيه إنذار بأن لا رجاء في القتال .

وقال له رجل آخر اكتب لعبد الملك بن مروان . فقال كيف أكتب ؟؟ من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان فوالله لا يقبل هذا أبدًا . أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟؟ فوالله لأن تقع الخضراء

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢١ والمنتقى في أخبار أم القرى ص٢٥ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٥ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٤ .

على الغبراء أحب إليّ من ذلك (١) .

وفي هذا الحوار دليل قاطع على أن ابن الزبير كان يأبى أن يسلم على أية صورة . وقال له رجل ثالث : بل نطلب الصلح . فقال ابن الزبير : أوحين صلح هذا ؟؟ فوالله لو وجدوكم في جوف الكعبة لقتلوكم (٢) .

ولقد أجمعت المصادر على أن ابن الزبير كان في حالة عصبية إذ حدث أن حاول أخوه عروة أن يقنعه بالكتابة إلى عبد الملك بن مروان قائلاً « إن الله قد جعل لك أسوة في الحسن بن علي إذ خلع نفسه وبايع معاوية » فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقد كان جالساً معه عليه (٣) .

كانت كل هذه العوامل تتناوب عبد الله بن الزبير فهو حائر ما بين استبساله وخذلان الأكثرية من أنصاره . دخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر وقد بلغت من العمر مائة سنة – فقال : يا أماه قد خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس معه أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ماأردت من الدنيا ، فما رأيك ؟؟ فقالت : أنت والله يابني أعلم بنفسك فإن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟؟ القتل أحسن . فقال ياأماه إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

فقالت : يابني إن الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٥ والإمامة السياسة جـ٢ ص٢٤ .

(٢) ابن شاكر ـ فوات الوفيات جـ ص٢١١ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٣ ص٤٤٥ والمنتقي في أخبار أم القرى ص٢١ .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٥ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٢٦ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٤ .

وبعد حديث طويل تناول يديها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد ادن مني حتى أودعك فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها - وكانت عمياء - على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك فقالت: إنه لا يشد متني، ولكن البس ثيابك مشمرة [١] ففعل وخرج بعد أن ودعها للانضمام إلى أصحابه بالحرم.

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الزبير إذا بالحجاج يخطب الناس مبيّنًا لهم ما صارت إليه حال ابن الزبير وما هو فيه، فقويت نفوسهم وتقدموا فملأوا ما بين الحجون إلى الأبواء [٢].

ورتب الحجاج جنده فوكل جماعة بكل باب من أبواب الحرم وكان من حسن رأيه أن جعل أهل كل جهة من جهات الشام على باب من أبواب الحرم بذاته حتى لا تحدث فتنة وحتى تتحدد المسؤولية، فجعل لأهل الأردن باب الصفا ولأهل فلسطين باب بني جمح ولأهل قِنّسْرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلى المروة [٣].

وبينما كان ذلك يجري خارج أبواب الحرم كان ابن الزبير ينصح البقية الباقية من أصحابه ويرتبهم فكان مما قاله لهم « لا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئٍ منكم قرنه ولا يسلم سلاحه فإن الرجل إذا سلم سلاحه فهو كالمرأة أعزل ولا تسألوا عني فإني في الرعيل الأول [٤].

ثم بدأ المحاصرون في مهاجمة ابن الزبير داخل الحرم فمرة يحمل في هذه الناحية

---

(١) اليعقوبي جـ٣ ص١٣ وابن الأثير جـ٤ ص٢٤ والطبري جـ٥ ص٣٠ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١٢٥ وابن شاكر جـ٥ ص١٨ والعيني جـ١١ ص٢٨١.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٧٣ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨.

(٣) الطبري جـ٥ ص٣٢ وابن الأثير جـ٤ ص٢٤ وابن شاكر جـ٥ ص٢١ والعيني جـ١١ ص٢٨٣.

(٤) الطبري جـ٥ ص٣٣ وابن الأثير جـ٤ ص٢٥ والذهبي - تاريخ الإسلام جـ٢ ص٤٤٧ وابن خلدون جـ٣ ص٣٩ والأخبار الطوال ص٣٠٥.

وأخرى في هذه الناحية كأنه أسد في أجمة يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم .

فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير ترجل وأقبل يسوق الناس حتى لا يتقهقروا .

وفي إحدى الحملات قتل صاحب علم ابن الزبير عند باب بني شيبة وصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج فاستشاط ابن الزبير غضبًا ثم حمل على جماعة من رجال الحجاج حتى أخرجهم من المسجد وتابعهم حتى بلغ بهم الحجون فرماه رجل بآجرة [١] **فأصابت وجهه فأرعش لها ودمى وجهه فتعاور عليه رجال الحجاج فقتلوه وقطعوا رأسه [٢] .**

وكان ذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى [٣] من سنة ثلاث وسبعين للهجرة .

ولما قتل ابن الزبير كبر أهل الشام فرحًا بقتله وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم إلى المدينة فنصبت بها ثم أرسلت إلى عبد الملك ابن مروان [٤] .

أما جثته فقد صلبت على الثنية اليمنى بالحجون [٥] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٣٣ ابن الأثير جـ٤ ص٢٤، ٢٥ وابن شاكر جـ٥ ص٢١ والعيني جـ١١ ص٢٨٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٩ والقرماني ص١٣٣ وقيل وقعت عليه شرفة من شراريف المسجد ـ دول الإسلام للذهبي جـ١ ص٣٤ والسلامي ص٢٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٣٣ وابن الأثير جـ٤ ص٢٥ والطبقات جـ٥ ص١٦٩ والديار بكري جـ٢ ص٣٠٥ والعيني جـ١١ ص٢٨٣ والذهبي ـ دول الإسلام والعيني جـ١١ ص٢٩٤ والقرماني ص١٣٣ والإمامة والسياسة جـ٢ **ص٢٥ والقرماني ص١٣٣ ويروى ابن عبد ربه جـ٢ ص٢٣٧ أن الحجاج هو الذي قطع رأس ابن الزبير بيده .**

(٣) الطبري جـ٥ ص٣٣ ، والطبقات جـ٥ ص١٦٩ والعيني جـ١١ ص٢٧٦ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٥ ويروي ابن الأثير جـ٤ ص٢٥ وابن خلدون جـ٣ ص٣٩ أن ذلك كان في جمادى الآخرة من السنة نفسها .

(٤) الطبري جـ٥ ص٣٣ ، ٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص٢٥ ، ٢٦ وابن عبد ربه جـ٢ ص٢٣٦ والعيني جـ١١ ص٢٨٣ والطبقات جـ٥ ص١٦٩ وابن خلدون ويقول الديار بكري إنها أرسلت من المدينه إلى خراسان جـ٢ ص٣٠٦ .

(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٦٨ وابن شاكر جـ٥ ص٣٢ والعيني وابن الأثير جـ٤ ص٢٦ .

وقطع الرؤوس وإرسالها من العوائد المعروفة فلم يأت الحجاج ببدع في هذا - وقد أرسلت أمه إلى الحجاج تستأذنه في تكفينه ودفنه فأبى ووكل بالخشبة من يحرسها وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه[1] وما كان من أمره، فكتب إليه يلومه ويقول له ألا خليت بينه وبين أمه ؟ [2] فأذن لها الحجاج فكفنته وصلى عليه عروة وقيل غيره ودفنه بالحجون [3] .

وبذلك انتهت حركة ابن الزبير التي استمرت زهاء اثنتي عشرة سنة ينافس فيها بني أمية الخلافة حتى كادت تعصف بالدولة الأموية لولا عزيمة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك يؤازرهم ويشد عضدهم رجال أقوياء كالحجاج .

وبإخماد حركة ابن الزبير أيضًا انتهت آخر محاولة حاولها الحجاز لاستعادة مكانته من أيدي الأمويين إذ انصرف الناس بعدها إلى الناحية العلمية كدراسة القرآن والحديث واكتفوا بهذا عن الكفاح بالسلاح [4] .

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٦٨ وابن الأثير جـ٤ ص٢٦ . ويروي الديار بكري جـ٢ ص٣٠٨ أن عبد الملك هو الذي أوصاه .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٢٦ وكنز الدرر جـ٤ القسم الثاني ص١٢٧ وابن شاكر جـ٥ ص٣١ وأنساب الأشراف جـ٥ ص٣٦٨ وابن خلدون جـ٣ ص٣٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٢٦ وابن خلدون - العِبَر جـ٣ ص٣٩ وأنساب الأشراف جـ٥ ص٣٦٨ .
وتروى بعض المصادر أن أمه دفنته بالمدينة - ابن شاكر - فوات الوفيات جـ١ ص٢١١ ويروي فريق ثالث أنه ألقي في مقابر اليهود .

(٤) سنوك هوجرنيه - أخبار مكة جـ١ ص٣٠ .
العيني جـ١١ ص٢٩٣ والنووي على شرح مسلم جـ١٦ ص٩٨ وابن كثير - البداية والنهاية جـ٨ ص٣٤١ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١٢٥ والديار بكري جـ٢ ص٣٠٨ .
وقد كثرت الأخبار في هذا الموضوع ونسجت قصص حول مقتله فمن قائل إنه سلخ جلده وحشاه تبنا - البدء والتاريخ جـ٦ ص٢٦ ومن قائل إن الحجاج صلبه سنة حتى عشش فيه الحمام وفرخ وعندما غسلته أمه تقطع ثم تماسك وحاضت أمه ونزل اللبن من ثدييها فقالت قد حنت إليه مواضعه ودرت عليه مراضعه القرماني في ص١٣٣ وابن شاكر فوات الوفيات جـ١ ص٢١٢ والديار بكري جـ٢ ص٣٠٦ وراجع ابن عبد ربه جـ٢ ص٢٢٨ .

أسباب انتصار الحجاج على ابن الزبير : يجدر بنا بعد مقتل عبد الله بن الزبير أن نقف قليلاً لنوازن بينه وبين الحجاج حتى نتعرف الأسباب التي أدت إلى هزيمة ابن الزبير مع وجوده في موطنه ومن حوله الكثير من الناقمين على الأمويين والراغبين في أن يظل الحجاز مركز الخلافة الإسلامية .

وإنا لموجزون الأسباب التي أفضت إلى ذلك فيما يأتي :

أولاً : وفرة موارد الحجاج وقلة موارد ابن الزبير : منذ أن خضعت العراق لعبد الملك وابن الزبير محصور بمكة لا يصله من العراق المادة والذخيرة والرجال فارتفعت أثمان الحاجيات حتى بيع مد الذرة بعشرين درهماً بينما كان الحجاج في رغد من العيش فكانت تأتيه العير من دمشق تحمل الكعك والسويق والدقيق بكثرة [1] .

ثانيًا : كرم الحجاج وبخل ابن الزبير : كان الحجاج يغمر الناس بعطاياه ويشجعهم بذلك على القتال فنراه يقول لهم « قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين » [2] بينما كان ابن الزبير حريصًا شحيحًا ، وكان عبد الملك يعرف ذلك منه فقال فيه « إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبدا عُجْبٌ قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه فلا يسود بها أبدًا » [3] وقال بعد قتل مصعب « لله در مصعب لو كان لأخيه سخاؤه وله شجاعة أخيه ما طمع فيهما » [4] .

ولم يكن البخل طارئًا على ابن الزبير لظروف مكة خلال الحصار بل كان بخيلاً

= وتروى بعض المصادر أيضًا أنه صلب معه كلبًا ميتًا أو سنورًا حتى لا تشم رائحة المسك منه ابن الأثير جـ٤ ص٢٦ .

(١) ابن الأثير جـ٤ صـ٢٣ والطبري جـ٥ صـ٢١ والمنتقى في أخبار أم القرى صـ٢٥ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٨ .

(٢) العقد الفريد جـ٢ صـ٢٣٦ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ٢ صـ٢٢ .

(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٤٧ .

طوال عهده . ذكرت لنا بعض المصادر[١] أن مصعبًا لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق فقال « ياأمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم نظيراً لتعطيهم من مال الله » فقال عبد الله « جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت » .

أما وقد صارت مكة في حالة حصار يتعذر معها الحصول على الأقوات فقد تابع ابن الزبير سياسة البخل فضن على أصحابه في أحرج الأوقات[٢] .

فبينما الناس يتضوَّرون جوعًا في شوارع مكة كانت خزائنه مملوءة بالقمح والشعير والذرة والتمر وكان لا يعطي للجندي سوى نصف صاع من تمر (في اليوم)[٣] وكان ابن الزبير يعتقد أنه يستطيع الاطمئنان إلى أصحابه طالما كانت خزائنه عامرة فكان يقول « أنفس أصحابي قوية ما لم يفن ما عندي »[٤]وعندما وجد تثاقلاً من أصحابه قال « أكلتم تمري وعصيتم أمري »[٥] .

ثالثًا : استمساك ابن الزبير بالبقاء في الحرم : كان من المحتم من الوجهة الحربية أن يخرج ابن الزبير عن مكة ليهاجم الحجاج بعد طول السفر في الطائف أو أن يعترض طريق دخوله مكة.أما بقاؤه في مكة عامة ، وداخل الحرم خاصة فقد كانت سياسة فاشلة من الوجهة الحربية فضلاً عن أنه عرض الحرم لسفك الدماء فيه وعرض نفسه وأصحابه لهلاك محقق .

رابعًا : أخطاء ابن الزبير السياسية :

(أ) على أثر مقتل الحسين بن على قام ابن الزبير في مكة خطيبًا مبينًا للناس جور بني أمية وقتلهم الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ فبايعه المسلمون على أن

---

(١) العقد الفريد جـ١ صـ٢٣١ والإمامة والسياسة جـ٢ صـ٢٠ .

(٢) اليعقوبي جـ٣ صـ١٧ والبدء والتاريخ جـ٦ صـ١٩ والبلاذري جـ٥ صـ٣٦٣ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ صـ١٣ .

(٤) أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٦١ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٣ .

(٥) اليعقوبي جـ٣ صـ١٢ والبدء والتاريخ جـ٦ صـ١٩ .

يكون الأمر شورى بعد الفتح . فلما نجحت حركته استبد بالأمر ولم يقتصر على تجاهل بني هاشم بل اضطهدهم وبلغ به العناد أن ترك الصلاة على النبي في خطبته قائلاً : « إن له لأهيل سوء يشرئبون لذكره إذا سمعوا به » [١].

وحينما امتنع ابن الحنفية وابن عباس مع آخرين عن البيعة له لأنه في فتنة [٢] حبسهم وعزم على إحراقهم بالنار لولا نجدة المختار بن أبي عبيد الثقفي لهم [٣] .

وليس من المستبعد أن يكون الحجاج قد استغل موقف ابن الزبير من بني هاشم إذ كان لا يترك فرصة إلا انتهزها . يدلنا على ذلك أن الحجاج سمع ابن الزبير يقول « ويل أمه فتح لو كان له رجال » . فقال « قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم » [٤] .

(ب) كان الحجاج يعرف كيف يستغل الظروف وينتهز الفرص : سمع أن الجراح ابن الحصين بن الحارث الجعفي ـ الذي كان عامل ابن الزبير على وادي القرى ـ حدثت مجاعة في عهد ولايته ففرق تمراً من تمر الصدقة على الناس فلما علم ابن الزبير بذلك غضب وعندما قدم عليه جعل يضربه بدرته ويقول « أكلت تمري وعصيت أمري » فدعا الحجاج الجراح في حصاره لابن الزبير ودعا وجوه الناس وقال له « حدثني حديث الملحد وحديثك » فحدثه والناس يسمعون فقال الحجاج « أهذا ممن يُرَجى لخير ؟! » [٥] .

تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق : ولقد كان موقف الحجاج من ابن الزبير اللائذ بالحرم وما تلا ذلك من اضطرار الحجاج لمهاجمته وضرب الكعبة

---

(١) اليعقوبي جـ٣ صـ٨ والعقد الفريد جـ٢ صـ٢٣٤ .

(٢) المنتقى في أخبار أم القرى صـ٣١ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ صـ٨ والعقد الفريد جـ٢ صـ٢٣٤ والبدء والتاريخ جـ٦ صـ١٩ والمسعودي جـ٢ صـ٧٢ .

(٤) العقد الفريد جـ٢ صـ٢٣١ والإمامة والسياسة جـ٢ صـ٢٥ .

(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٦٣ .

بالمنجنيق مثاراً لكثير من النقد لتصرف الحجاج حتى وقتنا هذا .

على أن نظرة مجردة لهذا الموقف تبين لنا أن الحجاج لا يستحق شيئًا مما وجه إليه من لوم أو نقد .

وأكبر ظننا أن الناقدين للحجاج قد استهوتهم منزلة ابن الزبير الدينية بصفة كونه أول مولود في الإسلام بعد الهجرة وابن بنت أبي بكر الصديق .

يضاف إلى ذلك ما قيل عنه من كثرة تعبده ، فتأثروا بهذا من جهة ونظروا إلى ضرب الكعبة ولم ينظروا إلى الظروف والدواعي التي دعت إلى ذلك من جهة أخرى ، فاستكبروا على ابن الزبير أن تكون عليه تبعة في حوادث مكة فألقوها على الحجاج .

ولو ناقشوا الأمر في ضوء غير هذا ونظروا غير متأثرين بما تأثروا به وربطوا الحوادث بظروفها ، لتبين لهم أن ابن الزبير كان خارجًا على الخلافة وأهل الشام يعتقدون ذلك كما كانوا يعتقدون أنه يحل قتاله في أي زمان وفي أي مكان .
يدلنا على ذلك أنهم لما علموا في دمشق أن الحجاج قد استولى على جبل أبي قبيس كبروا فرحًا وسرورًا [١] .

ولم يكن أهل الشام وحدهم يعتقدون ذلك بل شاركهم في هذه العقيدة أهل الحجاز ممن كانوا يتذكرون الحديث الشريف (يلحد بمكة كبيش قريش) [٢] أو (ليحرقن هذا البيت على يد رجل من آل الزبير اسمه عبد الله) [٣] .
أما الحجاج ففضلاً عن أنه كانت له مصلحة سياسية في حرب ابن الزبير فإنه كان يعتقد أعتقادًا راسخًا أنه خارج على الخلافة ، يدلنا علَى ذلك أنه حينما كلمه

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ صـ٨٩ .

(٢) منتخب كنز العمال صـ٢٢٧ والعيني جـ١١ صـ٢٩١ .

(٣) الأزرقي جـ١ صـ١٢٩ ومجمع الزوائد جـ٣ صـ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

جماعة من الصحابة في أن يكف المنجنيق حتى ينتهي الناس من الطواف قال : « إني والله لكاره لما ترون ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت والبيت لا يمنع خالع طاعة ولا عاصيًا ولو أنه اتقى الله وخرج إلينا فأصحر لنا فإما أن يظفر وإما أن نظفر فيستريح الناس من هذا الحصر[١] .

ولعله أخذ هذا من فعل الرسول وقوله فإن الرسول ﷺ أباح دم جماعة في فتح مكة فأُخبر عن بعضهم أنه متعلق بأستار الكعبة فقال إن الكعبة لا تعيذ عاصيًا ولا تمنع من إقامة حد وجب [٢] .

يؤيد ذلك أن الحجاج بعد مقتل ابن الزبير قابل أمه أسماء وقال لها : أرأيت كيف نصر اللّه الحق ؟ وإن ابنك ألحد في الحرم وقد قال اللّه تعالى : **﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾** [٣] .

وفضلاً عن اعتقاده الشخصي فإنه كان نائب الخليفة وقائد جيشه فكان لزامًا عليه أن يكون تحت إرادته وهو لم يدخل مكة إلا بعد استشارته وإذنه له في الحصار بل يروى أنه هو الذي أمره بالحصار[٤] .

يضاف إلى كل ذلك أن ابن الزبير أثار شعور المسلمين وأفزعهم بهدمه للكعبة وبنائها على أساس إبراهيم عملا بحديث صح عنده سمعه من خالته عائشة [٥] وبلغ من

---

(١) المنتقى في أخبار أم القرى صـ٢٦ .

(٢) السيرة الحلبية جـ٣ صـ١٠٥ وراجع الطبري جـ٣ صـ١١٩ وابن الأثير جـ٢ صـ١٢٠ وابن عبد ربه جـ٣ صـ٢٦٤ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧١ وراجع ابن سعد جـ٨ صـ١٨٥ وابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٣٧ (الحج ٢٥) .

(٤) انظر الكتاب ص٤١ .

(٥) راجع الأزرقي جـ صـ٨٠ ودول الإسلام للذهبي جـ١ صـ١٣٤ ومرآة الجنان جـ١ صـ١٥١ وابن كثير جـ٩ صـ٣ .

فزعهم أن خرجوا هاربين إلى الطائف ومنى [١] .

وأما نصب المنجنيق وإصابته للبيت فإن هذا لم يكن عملاً قصده الحجاج ، ولم يرد الحط من شأن البيت وإنما كان ما فعله ضرورة من ضرورات الحرب نظرًا لتحصن ابن الزبير به ورغبة الحجاج في إخراجه منه .

وليس أدل على أن الحجاج لم يرد إهانة الكعبة من أنه جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير وأنه أمر بكنسه وتنظيفه من الحجارة والدم بعد مقتل ابن الزبير [٢] .

---

(١) شذرات الذهب جـ١ صـ٨١ وراجع الأزرقي ـ أخبار مكة جـ١ صـ١٣٣ واليعقوبي جـ٣ صـ٧ .

(٢) البلاذرى ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٣ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩ .

الباب الثاني

الحجاج الوالي
الفصل الأول
حكومته في الحجاز

حال أهل مكة بعد مقتل ابن الزبير . خطبة الحجاج في أهل مكـة . موقفـه من عروة بن الزبير . الحجاج وابن الحنفية . تجديد ولايته على مكة . الحجاج والكعبة . ولايته للمدينة . بناؤه لمسجد في بني سلمة . وَسْمِهِ لجماعة من الصحابـة . وفـادتـه على الخليفة .

دخل الحجاج مكة وهي تضج بالبكاء على مقتل ابن الزبير ، لا لمكانته السياسية فيهم بل لصلاحـه وتقواه وعكوفـه على عبـادة الله . تلـك الأمور التي اشتهر بهـا ابن الزبير .

حزنت مكة لهـذا الأمر الـذي ظهر في نظرهم عظيمًـا ، ولعل الحجـاج ترقب من أهلها ثورة عليه بعد أن فتح بلدهم عنوة فكان اعتماده في مواجهة ذلـك على مقـدرتـه الخطابية بقـدر اعتماده على حنكتـه الحربيـة . لذلك قام في أهل مكة خطيبًا فقـال « يأهل مكة بلغني استكبـاركم واستفظـاعكم قتل ابن الزبير[1] ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها فألحـد في الحرم فـأذاقـه الله من عـذاب أليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الـزبير وإنه قـد كان في الجنـة وهي أشرف من مكة ولمـا خـالف وأكل من الشجرة أخرجـه منهـا فقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[2] .

وأكبر ظننـا أنـه أراد أن يبين رأيـه في موقف ابن الـزبير مبينًـا أنـه خـارج على

---

(١) ابن عساكر جـ٤ صـ٥٠ وابن كثير جـ٩ صـ١٢٠ .

(٢) ابن عساكر جـ٤ صـ٥٠ وابن كثير جـ٨ صـ٣٣١ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ صـ٢٢ .

الخلافة مستحق للقتل مستدلا على ذلك بآدم وما كان من أمره ؛ ثم بايعه أهلها لعبد الملك بن مروان [١] وأمر بكنس المسجد من الحجارة وتنظيفه من الدم [٢] .

بينما كان ذلك يجرى في مكة كان عروة بن الزبير في طريقه إلى الشام . ذلك أنه لما قتل عبد الله بن الزبير ركب أخوه عروة وسار مسرعًا فوصل إلى عبد الملك قبل وصول رسل الحجاج إليه فاستأذن للدخول فأذن له عبد الملك وأجلسه معه على سريره ثم تحدثا حتى جرى ذكر عبد الله على لسان عبد الملك فقال عروة إنه كان ، فقال عبد الملك : وما فعل ؟ قال : قتل . فخر ساجدًا ، فقال عروة إن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه . قال : نعم وكتب إلى الحجاج يعظم صلبه [٣] ويقول له « ألا خليت بينه وبين أمه ؟ [٤] .

تفقد الحجاج عروة فلم يجده فاعتقد أن عروة أخذ ما كان في بيت المال وهرب به وكان الحجاج قد وجد في بيت المال عشرة الآف درهم [٥] بينما كان الحجاج يعتقد أن ابن الزبير قد اكتنز الملايين ، فكتب إلى عبد الملك يقول له « إن عروة كان مع أخيه فلما قتل أخذ مالاً من مال الله وهرب به » ، فكتب إليه عبد الملك (إنه لم يهرب وقد أتاني مبايعًا وقد أحللته مما كان وهو قادم عليك فإياك وعروة) [٦] .

على أن عروة ظل بالشام وقتًا ما وقيل إن الحجاج عاود عبد الملك في أمر عروة فهم عبد الملك بإنفاذه إليه فلما شعر عروة بذلك قال « ليس الذليل من قتلتموه

---

(١) الطبري جـ٥ صـ٣٤ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩ والسلامي ـ مختصر التواريخ صـ٢٠ .
(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٣ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩ .
(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٦٨ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩ .
(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ ٥ صـ٣٦٨ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩ وابن شاكر جـ٥ صـ٣١ وكنز الدرر جـ٤ صـ١٢٧ .
(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١ صـ٣٧٦ .
ويروي صاحب المنتقى في أخبار أم القرى صـ٢٩ أن عروة أخذ أموالاً ووضعها عند قوم .
(٦) أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٦٨ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ .

ولكن الذليل من ملكتموه ، وليس بملوم من صبر فمات ولكن الملوم الذي فر من الموت » فسمع منه عبد الملك هذا الكلام فقال عبد الملك « ياأبا عبد الله لن تسمع منا شيئًا تكرهه »(١) .

وفي اعتقادنا أن الحجاج لم يعاود عبد الملك في شأنه ولم يفكر عبد الملك في تسليمه فقد كان عروة مسالمًا ، فقد أشار على أخيه بالصلح ولم تكن له مطامع سياسية فلا يخشى منه وكانت أمنيته في الحياة أن يؤخذ عنه العلم .

يروى أنه جلس هو وعبد الله بن عمر وأخواه عبد الله ومصعب فتمنى عبد الله الخلافة ، وتمنى مصعب إمارة العراقين والجمع بين سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وتمنى ابن عمر الجنة ، وأما تمني عروة فهو أن يؤخذ عنه العلم(٢) .

وبعد مقتل ابن الزبير أوفد ابن الحنفية إلى عبد الملك رسولاً يحمل كتابًا يشرح فيه موقفه من فتنة ابن الزبير ويعرض على عبد الملك بيعته هو ومن معه ويطلب منه أن يمنح الطالبيين أمانًا .

وإنا لموردون هنا نص الخطاب إثباتًا لما احتوى عليه من بيان لموقف ابن الحنفية من الخلافة الأموية :

(إني اعتزلت الأمة عند اختلافها فقعدت في البلد الحرام الذي من دخله كان آمنا لأحرز ديني وأمنع دمي وتركت الناس **﴿ قل كلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلًا ﴾** وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ونحن عصابة من أمتنا لانفارق الجماعة وقد بعثت إليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك ميثاقًا ونحن أحق بذلك منك فإن أبيت فأرض الله واسعة والعاقبة للمتقين)(٣) .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٠ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٢٨٥ وابن خلكان جـ١ صـ٣٩٩ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٢٨ .

فكتب إليه عبد الملك الكتاب الآتي يمنحه فيه الأمان أينما كان ويطلب إليه أن يخرج إلى الحجاج ليبايعه :

(قد بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التي معك فلك عهد الله وميثاقه أن لا تهاج في سلطاننا غائبًا ولا شاهدًا ولا أحد من أصحابك ما وفوا ببيعتهم ، فإن أحببت المقام بالحجاز فلن ندع صلتك وبرك وإن أحببت المقام عندنا فأشخص إلينا فلن ندع مواساتك .

ولعمري لئن ألجأناك إلى الذهاب في الأرض خائفًا لقد ظلمناك وقطعنا رحمك فاخرج إلى الحجاج فبايع فإنك أنت المحمود عندنا دينًا ورأيًا وخير من ابن الزبير وأرضى وأتقى)[1] . وكتب إلى الحجاج (ولا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه) وجاء في كتابه : (جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من شدة الحرب وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي) .

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين في أيامه[2] .

كان عبد الملك قد عقد للحجاج على مكة حينما خرج على رأس الجيش لقتال ابن الزبير وبعد قتله جدد له الولاية ثم كافأه على خدماته فأضاف إليه اليمن واليمامة . أما المدينة فقد ظل طارق واليًا عليها . وحج الحجاج بالناس في هذا العام – عام ثلاث وسبعين – فعمل على جمع المسلمين تحت لواء واحد بعد أن كانوا يحجون تحت ألوية مختلفة[3] .

= ويروي المسعودي جـ٢ صـ٩٠ أن ابن الحنفية كتب يقول : إن الحجاج قد قدم بلدنا وقد خفته فأحب أن لا تجعل له سلطانًا بيد ولا لسان فكتب عبد الملك إلى الحجاج (إن محمدًا قد كتب إليّ يستعفيني منك وقد أخرجت يدك عنه فلم أجعل لك عليه سلطانًا بيد ولا لسان فلا تتعرض له) .

(١) ابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٢٨ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٢٨ والمسعودي جـ٢ صـ١١٤ وهي رواية تصور لنا أن عبد الملك والحجاج اجتنبا دماء الطالبيين خوفًا من زوال الملك لا خوفًا من الله .

(٣) راجع اليعقوبي جـ٣ صـ١٠ .

قـدمنـا أن الأمـويين كانـوا يعتقـدون أن التغيرات التي أدخلهـا ابن الـزبير على الكعبة بدعـة في الـدين ٠

ذلك أن عبد الملك بن مروان ، وهو من رواة الحديث لم يصح عنـده الحـديث الذي رواه عبد اللّه بن الزبير عن خالته عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « لولا قومك حديثو عهد بكفر أو بجاهليـة لنقضت الكعبـة وأدخلت فيهـا الحِجْلا ولجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ، فإن قومك قصرت بهم النفقة فلم يـدخلوا فيهـا الحجر ولم يتمـوهـا على قـواعـد إبراهيم ، ورفعـوا بـابهـا ليـدخلـوا من شـاءوا ويمنعـوا من شاءوا »[١] .

وفي رواية أنه قال : « فإن بدا لقومك أن يبنوها فهلم لأريك مـا تركوه منهـا » فأراها قريبًا من سبعة أذرع[٢].

لذلك نرى عبد الملك يـأمر الحجـاج ـ أو يقره على ضرب الكعبـة بـالمنجنيق في أثناء الحصار كما تقدم ، فلما آلت الأمور إلى عبد الملك كتب الحجاج إلى عبـد الملـك يستشيره في أمر الزيادة التي زادها ابن الزبير ، فكتب إليـه عبـد الملـك : (أن سـد بابهـا الغربي وارفع بـابهـا الشرقي واهـدم مـا كان زاد فيهـا من الحِجْر واكبس أرضهـا بالحجارة التي تفضل منها)[٣] .

فنفـذ الحجـاج ذلـك بـأن نقض منهـا مـا كان ابن الـزبير زاده مما يلي الحجر وهـو ستـة أذرع وشبر وكبسها بالردم الـذي خرج منهـا وسـد البـاب الغربي الـذي أحـدثـه ابن الزبير ورفع الباب الشرقي ثم كساها بالديباج[٤] .

وعلى ذلـك فـالكعبـة الحـاليـة مـؤلفـة من بنـاء ابن الـزبير من جـوانبهـا الشرقي

---

(١) ابن كثير جـ٩ صـ٣٠٢، والذهبي ـ دول الإسلام جـ١ صـ٣٤ والأزرقي جـ١ صـ١٠٨ .

(٢) الأزرقي ـ أخبار مكة جـ١ صـ١٣٧، ١٩٥ والبلاذري جـ٥ صـ٣٧٣ والإعلام بأعلام بيت الله الحرام صـ٨٣ .

(٣) الـذهبي ـ تـاريخ الإسلام جـ٣ صـ٤٥٠ واليعقوبي جـ٣ صـ١٨ وابن كثير جـ٩ صـ٣٠٢ ومرآة الجنـان جـ١ صـ١٥١ والأزرقي جـ١ صـ١٣٧ وابن شاكر في إحدى روايتيه جـ٥ صـ٤٠ .

(٤) الأزرقي جـ١ صـ١٦٨ وابن خلدون جـ٢ صـ٣٣٨ والهمداني صـ٢٠ .

والجنوبي والغربي، وبناء الحجاج من جانبها الشمالي، ولم تنقض جميعها كما في بعض الروايات [١] .

وفي رأينا أن الحق كان في جانب عبد الملك يؤيد إلحاح الكثير من الصحابة وعلى رأسهم عبد الله بن عباس على ابن الزبير في عدم هدم الكعبة ، ولما لم يقبل منهم خرج الناس فرَقًا مما قد يصيبهم إلى منى والطائف [٢] .

ولقد ظلت هذه الفكرة ماثلة أمام أعين المسلمين حتى جاء العصر العباسي وفيه نرى الخليفة المهدي يهتم بنقض الكعبة وبنائها من جديد فإذا الإمام مالك بن أنس ينهاه عن ذلك بمثل ما نهى الصحابة عبد الله ابن الزبير [٣] .

ولو كان هذا الحديث المشار إليه صحيحًا لأقر هؤلاء الصحابة - ومن بعدهم الإمام مالك - عبد الله بن الزبير والخليفة المهدي ولكانت الكعبة الآن على غير ما هي عليه .

ولما كانت مكة قفرة من الأنهار وكان الاعتماد في الشرب والري على الآبار اتجه الحجاج إلى هذه الناحية فحفر بئر الياقوتة بمنى وأحكمها [٤] كما أنه عمل سدادًا في جبل المزدلفة على يسار الذاهب إلى منى لحبس المياه على وادي مكة وجعل مفيضه في سدرة خالد [٥] .

عزل عبد الملك طارق عن المدينة وأضافها إلى الحجاج ، فخرج إليها واستخلف على مكة نافع بن علقمة الكناني [٦] وسار إلى المدينة في صفر من سنة أربع وسبعين للهجرة .

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أخبار العرب جـ١ صـ٢٣٢ ، الذهبي في دول الإسلام جـ١ صـ٣٤ وابن شاكر جـ٥ صـ٤٠ في روايته الأخرى .

(٢) الأزرقي جـ١ صـ١٣٣ والعمادي - شذرات الذهب جـ١ صـ٨١ .

(٣) ابن كثير جـ٩ صـ١٣٢ .

(٤) الأزرقي جـ٢ صـ١٨١

(٥) المصدر السابق صـ٢٢٦،٢٢٧

(٦) أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٣ .

ففرق في أهلها عشرة الآف دينار وخطب فيهم قائلاً « أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوازل فاعذرونا » فقال رجل « لا عذر الله من يعذرك أنت أمير المصرين وابن عظيم القريتين » فقال الحجاج : صدقت ، واقترض أموالاً ممن هناك من التجار [١] وغمر الناس بعطاياه .

مكث الحجاج بالمدينة مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ولكنها على قصرها - طبعت الحجاج بطابع لم يهمله أحد من المؤرخين .

ذلك أنهم أجمعوا على أن الحجاج نكل بجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فختم البعض في يده والبعض الآخر في عنقه بخاتم من الرصاص كما كان يفعل بأهل الذمة وأغلظ القول لأحدهم فاتهمه بالكذب [٢] .

أجمعت المصادر على ذلك ولكنها لم تذكر لنا من أسماء هؤلاء الصحابة إلا ثلاثة هم جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد الساعدي .

وفي رأينا أن الحجاج لم ينكل بأحد من الصحابة غير هؤلاء الثلاثة وإلا لما قصرت المراجع في ذكر أسمائهم أسوةً بهؤلاء .

وإذا كانت المصادر التاريخية قد ساقت هؤلاء الصحابة منحية باللائمة على الحجاج متهمةً إياه بعبثٍ غير مغتفر ضد صحابة الرسول ﷺ فنحن لا يسعنا أن نمر على هذا الحادث دون تعليق . فهل كان الحجاج شَغِفًا بالتنكيل بالناس عامة وبهؤلاء خاصة !! أم كانت هناك أسباب دعت الحجاج إلى أن يعامل هؤلاء الصحابة الثلاثة هذه المعاملة ؟؟؟

طبع الحجاج في نظر المؤرخين بطابع القسوة ولكنه في نظرنا لم يكن قاسيًا بل

---

(١) المبرد صـ٢٩٢ وابن نباته صـ١٠٨ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٣٥ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٣٩،٤٠ وابن شاكر جـ٥ صـ٣٩ واليعقوبي جـ٣ صـ١٧ والأتابكي جـ١ صـ١٩١ .

كان حازمًا يقسو على خصومه كل القسوة ويلين لأنصاره كل اللين فكان بذلك لا يوجد مثله لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه [١] رائده في ذلك المصلحة العامة المطبوعة بطابع الإخلاص للدولة الأموية والأسس التي قامت عليها هذه الدولة .

وفي ضوء هذه المبادىء نرى الحجاج قد عامل أهل المدينة أحسن معاملة إذ فرق فيهم عشرة آلاف دينار واقترض أموالًا من التجار فوزعها أيضًا ، ثم لا يلبث هذا الحجاج بعينه أن يأتي بأصحاب رسول اللّه فينكل بهم ، ثم لا يلبث أن يعود إلى سابق عهده من غيرة إسلامية فيشيد مسجدًا في بني سلمة [٢] .

فقسوة الحجاج على هؤلاء الصحابة ولينه فيا بين موقفين من اللين والتقوى يدفعنا إلى تبرير موقفه من هؤلاء الصحابة . فهل نستطيع أن نلتمس له السبب من موقف هؤلاء الصحابة من الدعوة الأموية ؟ حيث اعتبرهم الحجاج مسؤولين عن مقتل عثمان [٣] ملومين على موقفهم في صف عليّ مؤاخَذين على نصرتهم لابن الزبير [٤] فتكون مواقفهم هذه كلها في صفوف خصوم الأمويين والمعارضين لهم مأخذًا أخذه عليهم الحجاج فنكل بهم ؟

على أن الذي لا شك فيه هو أن الحجاج على ما بلغت قسوته مع أهل الحجاز من مدنيين ومكيين كان في قسوته أخف مما رغبه منه أمير المؤمنين ، فقد استحقت سياسته في الحجاز أن تسمى الهوينا من عبد الملك .

ثم خرج من المدينة معتمرًا إلى مكة بعد أن مكث بها مدة وجيزة لا تزيد على

(١) الذهبي جـ٤ صـ٨١١ وابن عساكر جـ٤ صـ٧٢ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٣٥ والعيني جـ١١ صـ٢٩٦ والأتابكي جـ١ صـ١٩١ .

(٣) أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٣ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ وابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٢٩ ودوزي - تاريخ مسلمي إسبانيا صـ٦٣ .

(٤) ابن عبد ربه جـ٢ صـ٢٢٩ .

ثلاثة أشهر واستخلف عليها عبد الله بن قيس بن مخرمة [١] .

وقد بالغ المؤرخون في تصوير ضجره بأهل المدينة حيث نسب إلى أنه قال : « الحمد لله الذي أخرجني من أم نتن أهلها ، أخبث بلد وأغشه لأمير المؤمنين ، وأحسدهم له على نعمة الله ، والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار ، أعوادًا يعودون بها ورمة قد بليت يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله [٢] .

ومن المستبعد أن تصدر هذه العبارات من الحجاج وهو على ما ذكرنا وسنذكر من ورع وتقوى ، يدل على ذلك أن ابن خلدون أراد أن لا يتحمل تبعتها فقال « ونسبت إليه أقوال أمره فيها موكول إلى الله » [٣] كما أن كثيرًا من المؤرخين لم يشر إليها .

ولو فرضنا جدلاً أن الحجاج قال إبان خروجه من المدينة شيئًا مما نسب إليه فأغلب ظننا أنه وجد في أهل المدينة أشخاصًا متمردين على نظام الحكم الجديد بما فيه من حزم وربًما أحفظه عليهم أن خاصتهم كانوا يلتمسون الحظوة لدي الجماهير من التمسح بمخلفات الرسول وآثاره وكانوا يرتعون في بُحبوحة من العيش بهذا السبب ، والحجاج لا يقر شيئًا من هذا بعقيدته الإسلامية الصحيحة .

ولذلك نرى هذه الطبقة ـ وقد ناصبت الحجاج العداء ـ قد استحقت أن يقول فيها ما نسب إليه .

مضى على الحجاج زمن بالحجاز وهو يعمل على تعمير البلاد فأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول ﷺ وكفل لأهل مكة موارد الماء باشتقاق الآبار وإقامة السدود ، وبنى مسجداً في بني سلمة بالمدينة وسهر على إقامة حكومة حازمة عادلة . ثم فكر بعد ذلك في الوفود على أمير المؤمنين عبد الملك ، واستخلف على مكة عبد

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٦ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٧ والمبرد صـ١٢٧ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ صـ١٤٥ . والرواية مصدرها واحد وهو الواقدي .

(٣) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٣ صـ٤ .

الرحمن بن نافع وعلى المدينة عبد الله بن قيس، وقصد إلى دار الخلافة في نفر من أهل الحجاز منهم محمد ابن الحنفية .

ومما لا شك فيه أن ابن الحنفية كشف لعبد الملك عما يأخذه على سياسة الحجاج والتمس منه أن يوصي به الحجاج ، يؤيد ذلك أن عبد الملك أمر الحجاج أن لا يكون له على محمد ابن الحنفية سلطان ورده مكرمًا .

وسأل عبد الملك الحجاج عمن استخلفه على المدينة فقال الحجاج استخلفت عبد الله بن قيس . فقال عبد الملك : استخلفته من أحمق أهل بيت في قريش [١] . ثم رجع بعد ذلك بمن معه إلى الحجاز .

وفي يقيننا أن هذه الوفادة بما جرى فيها من مباحثات سياسية وإدارية كانت من الأسباب التي أدت إلى إسناد ولاية العراق للحجاج . مما سنذكره في الفصل الثاني إن شاء الله .

---

(١) أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٤ .

الفصل الثاني
ولاية الحجاج للعراق

سبب اختيار الحجاج لولاية العراق . كتاب التولية . مسيره للعراق . بيانه لسياسته في أهل الكوفة . خروج الجيش إلى المهلب . ولاية عبد الرحمن التيمي لشرطة الكوفة . ذهاب الحجاج إلى البصرة وخطبته فيها . خروجه إلى راستقباذ .

استقرت الأحوال لعبد الملك بن مروان في الحجاز بعدما وقع فيه من حوادث كادت تودي بالدولة الأموية لولا ما أوتيه عبد الملك من رباطة جأش وحسن سياسة وعظيم توفيق في اختيار الحجاج الذي أعاد السلام إلى الأرض المقدسة ووطد نفوذ الدولة الأموية فيها بالقضاء على ابن الزبير .

وبالقضاء على ابن الزبير تنفس عبد الملك الصعداء ولم يبق أمامه ما يشغل باله ويقلق فكره سوى بلاد العراق مهد الثورات وموطن الخارجين على الخلافة .

فالكوفة لم تزل متأثرة بالدعوة الشيعية على الرغم من قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي بينما ظلت البصرة مقر حركة الخوارج وثوراتهم المتتالية وذلك لعدم كفاية الولاة الذين عجزوا عن حفز همم أهل العراق والقضاء على الثائرين على الخلافة ، وفشلوا في توجيه القوم التوجيه الصحيح ضد الخوارج .

ولم يكن عبد الملك يحب أن يقضي بأمر حاسم في شأن العراق طالما كان أخوه بشر واليًا عليها وبينما كان عبد الملك يفكر في أمر هذه البلاد وما آلت إليه من فوضى تهدد كيان ملكه إذ وافته الأنباء بوفاة أخيه بشر في رجب من سنة أربع وسبعين للهجرة [1].

---

(١) الطبري جـ٥ صـ٣٤ وابن كثير جـ٩ صـ٧ والأتابكي جـ١ صـ١٩١ ويروي الطبري جـ٥ صـ٣٤ عن الواقدي أنه مات سنة ثلاث وسبعين .

فكان في موته مخرجٌ لعبد الملك مما كان يعانيه من حرج وفرصة ليسند إدارة هذه البلاد إلى عامل يستطيع أن يضع الأمور في نصابها .

ولم يتردد عبد الملك في إسناد ولاية العراق للحجاج فلقد رأى أنه لا يسد عنه خلل أهل العراق ولا يرد غارات الخوارج غيره [١] .

وقد أثبتت الحوادث بعد نظره فإنه وطد للدولة الأموية المنابر وذلل لها أهل العراق .

هذا في رأينا السبب الحقيقي في تولية الحجاج للعراق ، وقد اختلف المؤرخون في الطريقة التي اتبعها عبد الملك في هذه التولية ، فقال بعضهم : [٢] إنه كتب إليه بعهده عليه وهو في الحجاز ، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه خرج من المدينة إلى العراق رأسًا .

ويرى آخرون [٣] أن الحجاج ولي العراق في آخر وفادة له على عبد الملك في دمشق إذ تهيأت الفرصة لذلك بوفاة بشر بن مروان كما ذكرنا خلال هذه الوفادة .

على أننا نميل من جانبنا إلى الاعتقاد بأن العهد بولاية العراق أرسل للحجاج وهو بالحجاز وذلك لسببين :

أولهما : أن الخبر مروي في الطبري وابن الأثير وابن عساكر وابن خلدون وصاحب أنساب الأشراف - في أقرب روايتيه إلى الدقة - في حين أن قصة الشام لم ترد إلا في المسعودي والأبشيهي وأنساب الأشراف في رواية ظاهرة الضعف .

وثانيهما : أن أولئك الذين قالوا بتولية الحجاج العراق وهو بالشام قد أحاطوها بقصص تتحد في معناها وتختلف كثيرًا في مبناها ، واختلاف القصص في ذاته من

---

(١) العيني جـ١١ صـ٣٠٠ وابن كثير جـ٩ صـ٧ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٠ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٣ العيني جـ١١ صـ٣٣ وابن كثير جـ٩ صـ٧ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ والذهبي جـ٣ صـ٤٥٢ والمختصر في أخبار البشر صـ١٩٦ .

(٣) البلاذري أنساب الأشراف جـ٥ صـ٣٧٤ .

أدلة الوضع .

هذا إلى أن كل قصة بذاتها غير محتملة الوقوع فمن غير المعقول في نظرنا أن تصح القصة التي يرويها الأبشيهي [١] من أن يرشح الحجاج نفسه لأمارة العراق فيجيبه عبد الملك قائلاً « ومن أنت لله أبوك » فيقول الحجاج : « أنا الليث الضمضام والهزير الهشام أنا الحجاج بن يوسف » فيقول له عبد الملك « من أين » ؟؟ فيقول الحجاج : « من ثقيف كهوف الضيوف ومستعملي السيوف » فيقول عبد الملك « اجلس لا أم لك فلست هناك » [٢] .

إلى غير ذلك مما جرى على لسان كل من عبد الملك والحجاج مما لا يمكن أن يصدر عن أحدهما .

ذلك أن الحجاج لم يكن في نظر عبد الملك بالفكرة التي يصورها لنا الحديث فهو صاحب شرطته في حرب مصعب وقائده المجلى في الحجاز على ألد خصومه ، ومن غير المعقول أن يسأل الحجاج عن قبيلته فمن ذا الذي لم يكن ليعرف وقتذاك أن الحجاج من ثقيف ؟!

يضاف إلى كل ذلك أن الرواية مأخوذة عن الأبشيهي في كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » وهو كتاب لم يثبت مقامه بين مصادر التاريخ .

وفي تقديرنا أن أسلوب الرواية لا تصح نسبته إلى ذلك العصر لما فيه من ركاكة التعبير والميل إلى السجع المتكلف وهو ظاهرة العصور المتأخرة .

ومقارنة بريئة بين أسلوب هذه المحاورة وأسلوب خطب الحجاج تبين لنا البون الشاسع بين الأسلوبين

---

(١) المستطرف جـ١ صـ٥٠ .

(٢) راجع المستطرف من كل فن مستظرف جـ١ ص٥٠ ، ٥١ .

ومن غير المعقول كذلك أن تصح قصة المسعودي فقد بدأها بمحاورة بين عبد الملك والمهلب بن أبي صفرة مستبعدة الحدوث ، فكيف يعقل أن يشترط المهلب على عبد الملك أن يكون له خراج ما أجلى العصاة عنه ؟ وكيف يعقل أن يساومه الخليفة في ذلك فيعرض المهلب أن يكون له ثلثا الخراج فيأبى الخليفة ثم يعرض أن يكون له النصف ويقسم أن لا ينقص منه شيئًا ؟ (١) .

كيف يعقل أن تحدث هذه المساومة بين المهلب وعبد الملك ، والمهلب قد اشتهر بالطاعة ومتانة الخلق والإخلاص للخلافة ، بينما كان عبد الملك من قوة الشكيمة بحيث لا يجرؤ أحد قواده على أن يوجه له هذا القول مساومًا له في خراج أو غير خراج ؟! .

ويسترسل المسعودي في روايته فيروي لنا قصة أشبه بقصة الأبشيهي تصور لنا عبد الملك وهو يقول من للعراق ؟ فيجيبه الحجاج قائلاً : أنا لها مرة وثانية وثالثة فيقول عبد الملك له أنت زنبورها .

ومن طرائف الوضع في قصة تولية الحجاج للعراق ما جاء في بعض المصادر من أن الحجاج كتب إلى عبد الملك (إني قد ضبطت الحجاز بشمالي وبقيت يميني فارغة) (٢) وهو تقليد واضح لما يروى عن زياد مع معاوية إذ قال له « إني قد ضبطت العراق بشمالي وبقيت يميني فارغة » (٣) .

ولا يبعد أن يكون السبب في هذا التقليد ما يقوله المؤرخون من أن الحجاج كان يترسم خطى زياد بمثل ما كان زياد يترسم خطى عمر بن الخطاب (تشبه زياد بابن الخطاب فاشتط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك ودمر) (٤) .

---

(١) راجع مروج الذهب جـ٢ ص٩٤ .

(٢) ابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٥ .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٧ وشذرات الذهب جـ١ ص٨٥ .

(٤) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٧ والجاحظ جـ٢ ص٥١ وابن قتيبة جـ١ ص٣٢٩ وابن كثير جـ٩ ص١١٩ وابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ١ ص١٥٥ .

ومادمنا بصدد حديث الوفادات فلا بد لنا من أن نشير إلى ما أجمعت عليه المصادر من وفادة الحجاج على عبد الملك كأنها وفادة واحدة [١] وما انفرد به صاحب أنساب الأشراف من أنها كانت أكثر من وفادة [٢] .

والمعقول أن الحجاج وفد على عبد الملك بالشام بوفوده من عيون أهل الحجاز عدة مرات . منها تلك الوفادة الطبيعية التي لابد أن تكون قد حدثت على أثر مقتل ابن الزبير ، ومن المرجح أن الحجاج اصطحب معه فيها محمد ابن الحنفية . كما أنه من المؤكد أنه وفد مرة أخرى وبصحبته إبراهيم بن طلحة حيث جرى الحديث بينه وبين الخليفة ، وإليه ينسب بعض المؤرخين ظفر الحجاج بولاية العراق [٣] .

وقد أشار المؤرخون إلى وفادة ثالثة كان من أعضائها عيسى بن طلحة وعمر بن عبد الرحمن بن عوف وأجروا على لسان أحدهما حديثًا أشبه بحديث عيسى بن طلحة ورتبوا عليه نفس النتائج [٤] .

وفي تقديرنا أن الأقوال التي وردت على لسان الوفود المختلفة إن صحت فقد كانت دليلاً جديدًا على حنكة عبد الملك . إذ استطاع أن يرضي أهل الحجاز بإقصاء الحجاج عن بلادهم نزولاً ظاهريًا على إرادتهم ، بينما كان يريد أن ينتفع به في العراق حيث كانت الحال تتطلب شخصية قوية حازمة وهكذا ولي الحجاج العراق .

ويؤيدنا فيما نذهب إليه أن الخليفة كتب إلى الحجاج كتابًا بخطه جاء فيه (أما بعد ياحجاج فقد وليتك العراقين صدقة فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل أمامها أهل البصرة وإياك وهوينى الحجاز فإن القائل يقول هناك ألفا ولا يقطع بها

---

(١) ابن عبد ربه جـ١ ص١٤٩ ، ١٥٠ وثمرات الأوراق ص٢٢٦ وابن نباتة ص١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) البلاذري جـ٥ ص٣٧٤ .

(٣) راجع ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ١ ص١٤٩ ، ١٥٠ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٥ ، ١٠٦ وثمرات الأوراق ص٢٢٦ .

(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص١٦٦ ، ١٦٧ .

حرفًا ، وقد رميت بـك الغرض الأقصى فـارمـه بنفسـك وأرد مـا أردتـه بـك والسلام) (١) .

وفي هذا الكتاب رسم عبد الملك للحجاج الخطة التي يجب أن يسير عليها ، وبين له أن السياسة التي سار عليها في الحجاز لا تصلح للعراق وأنه ينبغي لـه أن يصل إلى الهدف الذي يريده منه وهو إعادة النظام وخلق روح الطاعة في نفوس المحاربين من أهل الكوفة والبصرة الـذين انتهزوا فرصة موت بشر بن مروان وعادوا إلى بيوتهم بغير إذن تاركين قائدهم المهلب بـ« رامهرمز » في ميدان القتـال مع الخوارج ؛ وأمره أن يبدأ بأهل الكوفة حتى تتسامع البصرة بما أصابهم فتدين لطاعته ؛ وبـذلـك يتم لـه إخضـاع هـؤلاء المتمردين على النظـام وإرغـامهم على الإقـلاع عن الفـوضى وإرهابهم من البداية ؛ وقد انتهج الحجاج السياسة التي رسمها له الخليفة .

مسير الحجاج إلى الكوفة وخطبته في أهلها :

خرج الحجاج من المدينة (٢) عندما أتاه كتاب ولايتـه على العراق في منتصف (٣)

---

(١) اليعقوبى جـ٣ ص١٩ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ ص٤٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٣ وابن كثير جـ٩ ص٧ وأبو الفدا جـ١ ص١٩٦ والعيني جـ١١ ص٣٠٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٠ والذهبي جـ٣ ص٤٥٢ .

(٣) الطبري في رواية أبي مخنف جـ٥ ص٤٦ .

ويروي صاحب أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٣ أنه دخلها في رجب بينما يروي الطبري جـ٥ ص٤٥ في رواية لـه أخرى وابن الأثير جـ٤ ص٣٦ وابن كثير جـ٩ ص٨ والعيني جـ١١ ص٣٠٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤١ أنه وصل الكوفة في رمضان .

وفي رأينا أن الحجاج دخل الكوفة قبل شهر شعبان لأن الحجاج نزل راستقباذ لحشد النـاس إلى المهلب لحرب الخوارج في أول شعبان ـ الطبري جـ٥ ص٤٦ ، ولأنـه كتب إلى المهلب في ٢٠ رمضان من سنة خمس وسبعين بمناهضة الخوارج – الطبري جـ٥ ص٤٦ – فأجلوهم عن رامهرمز في ٢٠ رمضان من نفس السنة . الطبري جـ٥ ص٤٦ والعني جـ١١ ص٣٠٣ وابن كثير جـ٩ ص١١ .

سنة خمس وسبعين[١] للهجرة فوصل الكوفة حين انتشر النهار في اثني عشر راكبًا[٢]

---

(١) الطبرى جـ٥ ص٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٣ وابن كثير جـ٩ ص٧ والعينى جـ١١ ص٣٠٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٠ والذهبي جـ٣ ص٤٥٢ **ويروي** صاحب كنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١٤٥ أن ولاية الحجاج للعراق كان في سنة سبع وسبعين .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٠ وابن الأثير جـ٤ صـ٢٣ وابن شاكر جـ٥ صـ٤٥ وابن خلدون جـ٣ صـ٤٠ وابن كثير جـ٩ صـ٧ والذهبي جـ٣ صـ٤٥٢ في إحدى روايتيه .

ويروي ابن عساكر جـ٤ ص٥٢ **والذهبي** في روايته الأخرى جـ٣ ص٤٥٢ أنه دخلها في ثمانية أو تسعة أما صاحب الأمامة والسياسة **فينفرد** برواية لا يقرها منطق الحوادث ولا يشاركه مصدر آخر فيما ذكر ذلك أنه يروي في جـ٢ ص٢٥ ، ٢٦ أن عبد الملك كتب إلى الحجاج يأمره بالمسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم فتوجه ومعه ألف رجل من مقاتلة أهل الشام وحماتهم وأربعة آلاف من أخلاط الناس وتقدم **بألفي رجل وتحرى دخول البصرة يوم الجمعة في أول الصلاة فلما دنا من البصرة أمرهم أن يتفرقوا** على أبواب المسجد . على كل باب مائة رجل بأسيافهم تحت أرديتهم وعهد إليهم (أن إذا سمعتم الجلبة في داخل المسجد **والوقعية** فيهم فلا يخرجن خارج من باب المسجد حتى تسبقة رأسه إلى الأرض) .

وكان المسجد له ثمانية عشر بابا يدخل منها إليه ، فافترق القوم على الأبواب فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة ودخل الحجاج **وبين** يديه مائة وخلفه مائة . كل رجل منهم مرتد بردائه وسيفه قد أمضى به إلى داخل أزاره وقال لهم : « إني إذا دخلت فسأكلم القوم في خطبتي وسيحصبوننى فإذا رأيتموني قد وضعت عمامتى على ركبتي فضعوا أسيافكم واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين » .

فلما دخل المسجد وقد حانت الصلاة صعدا المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس أن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عز وجل في بلاده وارتضاه أمامًا على عباده وقد ولانى مصركم وقسمة فيئكم **وأمرني** بأنصاف مظلومكم وإمضاء الحكم على ظالمكم وصرف الثواب إلى **المحسن البريء والعقاب إلى العاصي المسيء وأنا متتبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده وأرجو بذلك من الله عز وجل** الجازاة ومن خليفته المكافأة ، وأخبركم أنه قلدني بسيفين حتى توليته إياي عليكم سيف رحمة وسيف عذاب ونقمة أما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق وأما سيف النقمة فهو هذا » .

فحصبه الناس فلما أثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبته فجعلت السيوف تبرى الرقاب ... إلى أن يقول فقتل منهم بضعا وسبعين ألفا حتى سالت الدماء إلى باب المسجد والسكك .

ويروى المسعودى جـ٢ ص٩٥ أن الحجاج سار حتى القادسية ثم أمر الجيش أن يقيل وأن يروحوا وراءه ودعا بجمل عليه قتب بغير حشية ولا وطاء ثم جلس عليه ودخل وحده .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على رواية الإمامة والسياسة لبعدها عن الصواب فوجه الخطأ فيها ظاهر من بدايتها لنهايتها . كما لا نرى أننا في حاجة إلى التعليق على رواية المسعودى فهو كما قدمنا يجعل الخروج من الشام ولم تحدثنا المصادر التاريخية ولا هو نفسه عما فعل هذا الجيش ولم يأت له ذكر بعد .

فبدأ بالمسجد [١] فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء [٢] متقلدًا سيفًا متنكبًا قوسًا [٣] وقال علي بالناس ، فقام الناس نحوه فسكت سكتة طويلة أهمهم بها وأحبوا أن يسمعوا كلامه [٤] .

وكثرت الضوضاء وكثر الكلام فمنهم من كان يعرف أنه الأمير الجديد [٥] ومنهم من لم يكن يعرف ذلك فظنه وأصحابه خوارج [٦] ـ إذ إن طريقتهم في دخولهم المسجد كانت لا تختلف عن ذلك .

ولما طال السكوت قال عمير بن ضابىء لحاجب بن زرارة ولعبد الرحمن بن الأشعث ولابنه محمد « ألا أحصبه لكم » [٧] وتناول حصباء ليحصبه فقالوا له حتى نسمع ما يقول ، فقال عمير « لعن الله بني أمية حيث يستعملون مثل هذا ، وضَيَّع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميرًا كما هو لما كان بشيء » [٨] .

وقال محمد بن عمير بن عطارد « لعن الله هذا ولعن من أرسله أرسل إلينا غلامًا

---

(١) الطبري جـ٥ صـ٤٠ وابن الأثير جـ٤صـ٥٢ والبدء والتاريخ جـ٦ صـ٢٩ ، ويروي ابن عساكر جـ٤ صـ٥٢ وابن كثير جـ٩ صـ٧ أنه نزل عند قصر الإمارة ثم دخل المسجد كما يروى ابن عساكر جـ٤ صـ٥٢ أنه تحرى دخول الكوفة يوم الجمعة فجمع بهم ثم خطب وقد جاراه في ذلك الذهبي في تاريخ الإسلام جـ٣ صـ٤٥٢ وابن كثير جـ٩ صـ٧ ويروي صاحب أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٣ أنه خطبهم ثم نزل فقرأ ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٠ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٣ وابن كثير جـ٩ صـ٧ .

(٣) المبرد ، وابن عساكر جـ٤ صـ٥٣ .

(٤) ابن عساكر جـ٤ صـ٥٢ والذهبي تاريخ الإسلام جـ٣ صـ٤٥٣ وابن كثير جـ٩ صـ٧ .

(٥) المبرد صـ٢١٥ والأبشيهي جـ١ صـ٥١ .

(٦) الطبري جـ٥ صـ٤١ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٣ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ والعيني جـ١١ صـ٣٠٠ .

(٧) ابن شاكر جـ٥ صـ٤٨ ويروي الأبشيهي جـ١ صـ٥١ أنه قال لصاحب له ألا أسبه لكم ؟ فقالوا له اكفف حتى نسمع ما يقول . فأبى وقال مقالته .

(٨) ابن شاكر جـ٥صـ٤٨ والأبشيهي جـ١ صـ٥١ .

لا يستطيع أن ينطق عِيًّا [١] قاتله الله ما أغباه وأذمه والله لأني لأحسب خبره كروائه [٢] » وأخذ حصى بيده ليحصبه بها فقال له جليسه لا تعجل حتى ننظر ما يصنع [٣] وقال بعض الناس أعرابي ما أبصر حجته [٤] وقال البعض الآخر « حصر الرجل فما يقدر على الكلام » [٥] .

وبينما هم في لغطهم وضوضائهم إذ حسر اللثام عن فيه ونهض قائمًا فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

ياأهل الكوفة إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .

هذا أوان الشد فاشتدي زيم [٦] ... قد لفها الليل بسواق حطم [٧]

ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم [٨]

قد لفها الليل بعصلبي [٩] ... أروع خراج من الدّوي [١٠]

مهاجر ليس بأعرابي

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ٣ صـ٦ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤١ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٣ وابن كثير جـ٩ صـ٨ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٦٧ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ صـ٦ .

ولم يكن حصب العمال بجديد عليهم فقد حصبوا عاملاً قبله فخرج عنهم . ابن عساكر جـ٤ صـ٥٢ وابن كثير جـ٩ صـ٧ والذهبي جـ٣ صـ٤٥٣ .

ولعل العامل الذي تشير إليه هذه المصادر هو ما روي أن أهل الكوفة حصبوا عمرو بن حريث على المنبر عقب موت يزيد بن معاوية . وكان خليفة عبيد الله بن زياد على الكوفة فلزم داره . الطبري جـ٤ صـ٤٠٣ .

(٤) المسعودي جـ٢ صـ٩٥ .

(٥) المسعودي جـ٢ صـ٩٥ وابن شاكر جـ٥ صـ٤٥ .

(٦) زيم : اسم لفرس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب .

(٧) حطم : الحطم والحطمة . اسم للراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها بعضًا فلا يبقى من السير شيئًا .

(٨) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم ووقى اللحم من الأرض .

(٩) العصلبي الشديد القوي .

(١٠) والدوي : الفلاة المتسعة من الأرض التي تسمع لها دويًا بالليل (وإنما ذلك الدوي من أخفاف الإبل =

قد شمرت عن ساقها فشدوا ... وجدت الحرب بكم فجدوا

وليس القوس فيها وتر عرد [١] ... مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

إني والله ياأهل العراق ما يقعقع [٢] لي بالشنان [٣] ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم [٤] عيدانها فوجدني أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة [٥] ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم كأهل قرية **﴿كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾** [٦] .

وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق [٧] إلا فريت [٨] وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه [٩] .

= تنفسح أصواتها فيها) أي خراج من كل غماء شديدة .

(١) عرد : شديد .

(٢) القعقعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره .

(٣) الشنان : جمع شن ـ بالفتح ـ القربة البالية يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع . مثل يضرب لمن لا يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) عجم : عضها واختبرها ليعرف صلابتها من ضعفها .

(٥) السلمة : شجر كثير الشوك .

(٦) سورة النحل آية : ١١٢ .

(٧) الخلق : التقدير .

(٨) فريت : قطعت .

(٩) المبرد صـ٢١٥ .

ومما فعله الحجاج من أنه دخل المسجد على الهيئة التي وصفناها وصعوده المنبر ، يمكننا أن نقرر أن الحجاج كان موفقًا في سياسته من أول يوم دخل فيه العراق فقد عمد إلى نوع من التأثير النفسي جذب به انتباه القوم وأرهف أسماعهم لتلك النغمة القوية التي أعدها لهذا الموقف . بل نجح في أن أثار عند بعضهم نوعًا من الاستخفاف والزراية ببني أمية لاختيار مثله واليًا على العراق حتى إذا بلغ الاستغراب والتهيؤ من الناس مبلغه حسر اللثام عن وجهه ثم تكلم فملأ القلوب والأسماع دويًا ورنينًا .

ومن خطبته التي أوردها المبرد وغيره من المؤرخين والأدباء يمكننا أن نلخص ناموس الحجاج وخطته في سياسته فيما يلي .

أولاً : أبان لهم عن شخصيته القوية بعد أن أثار قدومه دهشتهم واستغرابهم ، وأفصح لهم عن أنه لا يعوقه عن قصده شيء مهما صعب المرتقى .

ثانيًا : أنه يعرف منذ البداية أنهم مغمورون في الشر وأنهم يستحقون القتل وبذلك يكون قد قدم العراق على علم بحال أهله .

= وهذه الخطبة قلما يخلو منها كتاب من كتب الأدب أو التاريخ فقد رواها – الجاحظ – في البيان والتبيين جـ٢ صـ٢٤٦ ـ ٢٤٨ وابن عبد ربه جـ٣ صـ٦ ،٧ والأصفهاني جـ١٣ صـ٣٦ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٦٧ ـ ٢٧١ والطبري جـ٥ صـ٤١ ، ٤٢ والمسعودي جـ٢ صـ٩٥ ، ٩٦ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٣ ، ٣٤ والقلقشندي جـ١ صـ٢١٨ ، ٢١٩ وابن عساكر جـ٤ صـ٥٣ ، ٥٤ وابن كثير جـ٩ صـ٨ . بألفاظ تزيد أو تنقص عن النص الذي اخترناه ، وإنما اخترنا نص المبرد لسببين .

أولهما : أن المبرد مصدر قديم وثقة في أخباره .

وثانيهما : أن نص المبرد لا يختلف كثيرًا عن النصوص التي أوردها أدباء أو مؤرخون قدامى مثل الجاحظ وابن عبد ربه والأصفهاني والطبري في روايته الأولى ـ فقد روى الخطبة بروايتين ـ

وأما بقية المصادر : المسعودي والبلاذري والقلقشندي وابن عساكر وابن كثير ففضلا عن تأخر أكثرها تزيد بعض ألفاظ مع ذكر ما أورده المبرد في ثنايا كلامها .

وينفرد ابن الأثير في أنه أدخل إحدى روايتي الطبري في الأخرى وجعلها خطبة واحدة .

وباختيارنا لنص المبرد نوافق المؤرخ الكبير ابن خلدون حيث يقول « وخير من أوردها المبرد في كتابه الكامل » ـ العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٣ صـ٤١ .

ثـالثًا : شرح لهم خطورة الموقف وحثهم على الجد والاجتهـاد وأعلن أنـه سوف لا يسير بهم سيرًا بطيئًا لأن الضرورة الحربية تقضي بالسرعة وأنـه كفيل بـذلـك فهو مجرب يعرف النفوس وما تنطوي عليه ، وأنـه لا تنفع فيهم سيـاسـة اللين وأن فعلهم مع المهلب وتركه في ميدان القتال معصية .

رابعًا : أنه قوي وأنه لا يخافهم وأن أمير المؤمنين ما عهد إليه بالعراق إلا بعد أن جربـه فـوجـده صلبًـا لا يلين ولا يكسر فـاختـاره لهم لمسـاوئهم إذ إنهم يخبـون في الفتن .

خامسًا : حرم عليهم الاجتماعات خشية أن تخل بالنظـام وتكون سببًـا للثورات كما يحدث في العصر الحديث وخاصة في الظروف العصيبة ، وقد سبق الحجاج في هذا نظم العصر الحديث . كما حرم عليهم التقول والإشاعـات المغرضـة التي من شـأنهـا أن تخلق الفوضى وتفت في عضـد المحـاربين ، وبلغـة العصر الحـديث قضى على الطـابـور الخامس فيهم .

سادسًا : بين لهم الحكمـة من هـذه الشـدة في المعـاملـة وهي أنـه لو ترك العصـاة ماجبي فيء ولا قوتل عدو ولتعطلت الثغور .

سابعًا : أعلن أنه سيعطيهم أعطياتهم ويوجههم لمحاربة العدو وأن من تخلف بعـد أخذ عطائه بثلاثة أيام سفك دمه ونهب ماله وهدم منزله ، وهـذه العقوبـة قـد سبق بها الحجاج العصر الحديث حيث جعل جزاء الفـار من ميـدان القتـال الإعـدام .

وقد بدت تلك الوسائل التي لجأ إليهـا الحجـاج غريبـة في نظر المسلمين في تلـك العصور إذ كانت عقوبـة المتخلف عن ميـدان القتـال في عهـد عمر وعثمان وعلي خلع عمـامتـه والتشهير بـه بين النـاس وفي عهـد مصعب بن الزبير صـارت بحلـق الرؤوس واللحى ثم تطورت في عهد بشر بن مروان إلى تسمير اليدين في الحائط [١] .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ ١١ صـ ٢٧٥ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ .

ومن الإنصاف للحجاج أن نقول إن الظرف الذي صادفه في العراق كان يستلزم المبالغة في الشدة.

وقد سار الحجاج على السياسة التي رسمها ونفذ تلك القوانين العسكرية فأحدثت أثرها المطلوب .

وبعد فراغه من خطبته التي رسم فيها سياسته قال « ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين » فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم » فلم يرد أحد السلام . فقال الحجاج « اقطع ياغلام » ثم قال مغضبًا : « ياأهل العراق ياعبيد العصا يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام أما والله لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب » [١] اقرأ ياغلام فلما وصل إلى السلام لم يبق أحد بالمسجد إلا وقال وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته [٢] .

وبعد فراغه من تلاوة الكتاب قال قوموا إلى بيعتكم فقامت القبائل قبيلة قبيلة تبايع وهو يستفهم عن كل قبيلة تتقدم إليه [٣] .

---

(١) ابن الأثير جـ٤ صـ٣٤ والطبري جـ٥ صـ٤٤ والمبرد صـ٢١٦ والمسعودي جـ٢ صـ٩٦ وابن شاكر جـ٥ صـ٤٨ وابن عساكر جـ٤ صـ٥٤ .
وتروي أغلب المصادر المتقدمة أنه قال قبل هذه العبارة (هذا أدب ابن نهية) الطبري وابن عساكر والمبرد أو ابن فهية أو أذينة . ابن شاكر أو ابن سمية ـ المسعودي . ويزعم المسعودي وابن شاكر والمبرد أنه كان صاحب شرطة بالعراق قبل الحجاج .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٤ والمسعودي جـ٢ صـ٩٦ والمبرد صـ٢١٦ .
أما بقية الكتاب فلم نهتد إليها في أي مصدر من المصادر التي بأيدينا .

(٣) الذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٣ ص٤٥٣ وابن عساكر جـ٤ ص٥٢ ويروي الذهبي وابن عساكر جـ٤ ص٥٣ قصة عن قبيلة النخع وهي أنه سأل عن كميل بن زياد فقالوا شيخ كبير فقال لا بيعة لكم عندي ولا تقربون حتى تأتوني به فأتوه به على سرير ووضعوه إلى جانب المنبر فقال الحجاج « ألا لم يبق أحد ممن دخل على عثمان يوم الدار غير هذا » ودعا بالنطع فضرب عنقه .
وفي رأينا أنها قصة موضوعة فإن كميل بن زياد أحد الخارجين مع ابن الأشعث في ثورته التي قام بها ضد الحجاج وعبد الملك ، وسيأتي ذلك إن شاء الله .

بعد ذلك أمر الحجاج بإعطاء الجند أعطياتهم [١] ثم دعا بالعرفاء فقال ألحقوا الناس بالمهلب وائتوني بكتبه بموافاتهم [٢] ولا أستبطئنّكم فأضرب أعناقكم [٣] ولا يغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهارًا حتى تنقضي هذه المدة [٤] .

وقال ليزيد بن علاقة السكسي ـ صاحب شرطته ـ « اجعل سيفك سوطًا فمن وجدته بعد ثالثة فاقتله » [٥] .

وعلى أثر ذلك انصرف الحجاج من المسجد إلى قصر الإمارة فلزمه [٦] ، وبينما كان الحجاج ملتزمًا داره كان أهل الكوفة أحد رجلين رجل يتأهب للحاق بالمهلب عملاً بأوامر الوالي الجديد ، ورجل يفكر في موقفه وآله وعصبته من هذا الطاغية الذي استهل عهده فيهم بالتهديد والوعيد ، وكان من الطبيعي أن يتبادل المتذمرون الرأي وأن يبيتوا لهم أمراً وهم المشهورون بالثورات .

ذلك أنه في اليوم الثالث اجتمعوا وكبروا تكبيرًا عاليًا في السوق فسمع الحجاج تكبيرهم فخرج إليهم وصعد المنبر وقال « ياأهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساويء الأخلاق إني سمعت تكبيرًا ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف ، يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامي ألا يربع رجل منكم على ظلعه ويحسن حقن دمه ويعرف موضع قدمه فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لمابعدها [٧] .

---

(١) المسعودي جـ٢ ص٩٦ وابن عساكر جـ٤ صـ٥٤ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧١ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٤ والطبري جـ٥ صـ٤٢ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧١ .

(٤) الطبري جـ٥ صـ٤٢ والمسعودي جـ٢ صـ٩٧ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٤ .

(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧١ .

(٦) ابن كثير جـ٩ صـ٩ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ صـ٥١ .

(٧) الطبري جـ٥ صـ٤٣ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧١ ، ٢٧٢ وابن عبد ربه جـ٢ صـ١٣٠ وابن =

وفي تقديرنا أن الحجاج كان موفقًا في يومه هذا فلو أنه لم يجابه مقدمات الثورة بهذه الشجاعة وهذا الحزم لصغر شأنه في أعين أهل الكوفة ولاستحال عليه أن يلزمهم الطاعة وهم الذين سبق لهم أن حصبوا عمر بن حريث فلزم داره [١] .

أما الحجاج فقد أبدى من الشجاعة والقوة ما أخمد الثورة في مهدها ، وبينما كان الحجاج في المسجد جالسًا يستعرض الناس بنفسه قام إليه عمير بن ضابىء الحنظلي التميمي سن أشراف الكوفة ، وقال : أصلح الله الأمير أنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل وابني هذا أشد مني ، فقال الحجاج هذا خير لنا من أبيه ثم قال ومن أنت قال : أنا عمير بن ضابىء قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟؟ قال : نعم . قال : ألست الذي غزا عثمان بن عفان ؟؟ قال بلى قال : ياعدو الله ، أفلا إلى عثمان بعثت بدلاً ؟ فما حملك على هذا ؟ قال : إنه حبس أبي - وكان شيخًا كبيرًا . قال : أوليس أبوك الذي يقول :

همت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

إني لأحسب أن فى قتلك صلاح المصرين [٢] وإنه لقبيح بمثلي أن يكون كذابا [٣] ياحرس اضرب عنقه . فضرب عنقه ونهب ماله [٤] .

= عساكر جـ٤ صـ٥٩ ، ٦٠ وابن كثير جـ٩ صـ٩ وابن شاكر جـ٥ صـ٥١ ، ٥٢ والجاحظ - البيان والتبيين جـ١ صـ٣٠١ والمبرد صـ٢١٦ .

(١) الطبري جـ٤ صـ٤٠٣ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٥ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٥ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ وابن كثير جـ٩ صـ٩ .

(٣) المسعودي جـ٢ صـ٩٦ .

(٤) الطبري جـ٥ صـ٤٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٥ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٥ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ وابن كثير جـ٩ صـ٩ والمسعودي جـ٢ صـ٩٦ .

وتروى المصادر السابقة والذهبي جـ٣ صـ٤٥٧ أن عنبسة بن سعيد بن العاص هو الذي عرف به الحجاج بأن قال له أتعرف هذا ؟؟ قال لا . قال : هذا أحد قتلة عثمان فقال الحجاج أي عدو الله أفلا إلى أمير المؤمنين عثمان بعثت بديلاً ؟! ثم أمر به فضربت عنقه .

ويبدو للبعض أن يرمي الحجاج بالقسوة المتناهية في معاملة هذا الشيخ المسن وربما اتهمه آخرون بأنه كان ينتقم منه لموقفه من مقتل عثمان .

على أن الواضح أن الحجاج وإن يكن قد تأثر إلى حد ما بموقفه من عثمان فإنه أراد أن يجعل منه أمثولة وعبرة لغيره وأن يلزم أهل الكوفة الطاعة .

هذا فضلاً عن أن لتصرف الحجاج هذا سبباً آخر هو أن ابن ضابىء تعدى بالضرب على أحد العرفاء حتى أدماه حينما أمره هذا العريف باللحاق بمعسكره فشكاه العريف للحجاج (١) فكان الأمر بينهما على ما ذكرنا .

بعد ذلك أمر الحجاج مناديًا فنادى (ألا إن عمير بن ضابىء أتى بعد الثالثة وكان قد سمع النداء فأمرنا بقتله (٢) ألا فإن ذمة الله بريئة ممن بات الليلة من جند المهلب) (٣) .

فلما فعل ذلك خرج الناس بكثرة حتى أنهم ازدحموا على القنطرة الموصلة بين الكوفة ورامهرمز فسقط بعضهم في النهر فأمر الحجاج بإنشاء قنطرتين أخريين (٤) فكان الناس يخرجون ويرسلون إلى ذويهم أن زودونا ونحن بمكاننا (٥) .

ويمثل لنا الرهبة التي حدثت في نفوس الناس وخروجهم إلى الأزقة أصدق تمثيل قول عبد الله بن الزبير الأسدي حينما لقي صديقه إبراهيم بن عامر فسأله عن الخبر :

تجهز وأسرع والحق الجيش لا أرى ... سوى الجيش إلا في المهالك مذهبا

تخير فإما أن تزور ابن ضابىء ... عميرًا وإما أن تزور المهلبا (٦)

---

(١) الطبري جـ٥ صـ٤٤ .

(٢) ابن كثير جـ٩ صـ٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ صـ٣٥ وابن شاكر جـ٥ صـ٥٣ والعيني جـ١١ صـ٣٠٠ وابن خلدون جـ٣ صـ٤١ .

(٤) المسعودي جـ٢ صـ٩٦ .

(٥) المسعودي جـ٢ صـ٩٦ والمبرد صـ٢١٧ .

(٦) المبرد صـ٢١٧ والطبري جـ٥ صـ٤٥ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٥ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٥ والأغاني ـ

وبذلك تطايرت العصاة إلى أمكنتهم التي رفضوها ولم يبق من أصحاب المهلب أحد إلا لحق به [١] حتى إنه لتروي بعض المصادر [٢] أنه خرج في تلك الليلة أربعة آلاف من مذحج فقط . فكان في قتل عمير صلاح المصرين .

وخرج العرفاء إلى المهلب وهو برامهرمز فأخذوا كتبه بالموافاة فقال المهلب حينما رأى ذلك « قدم العراق اليوم رجل ذكر اليوم قوتل العدو » [٣] .

أرسل الحجاج الحكم بن أيوب الثقفي إلى البصرة عاملاً عليها من قبله وأمره أن يشتد على خالد بن عبد الله فلما بلغ خالد الخبر خرج منها قبل أن يدخلها الحكم فشيعه أهل البصرة فقسم فيهم مليونًا [٤]! .

ولاية عبد الرحمن التميمي لشرطة الحجاج :

ولقد كانت مجافاة الحجاج لأهل الكوفة قاصرة على استنهاضهم للحاق بالمهلب . أما في شؤون الدولة الأخرى فقد جرى على استشارتهم إذ نراه يومًا يقول لأهل الكوفة « دلوني على رجل أوليه الشرطة » فقيل له « أي الرجال تريد » ؟؟ قال : «أريد رجلاً دائم العبوس طويل الجلوس . سمين الأمانة . أعجف الخيانة . لا يحنق في الحق على حرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في الشفاعة » فقالوا له « عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ؛ فأرسل إليه ليستعمله ، فقال « لست أقبلها إلا أن

= جـ١٣ صـ٤٠ وابن شاكر جـ٥ صـ٥٤ .

(١) أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٥ .

(٢) الطبري جـ٥ صـ٤٤ وابن كثير جـ٩ صـ٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ صـ ٣٥ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٤٤ وابن شاكر جـ٥ صـ٥٥ وابن كثير جـ٩ صـ٩ .

ويروي المسعودي جـ٢ صـ٩٧ أنه قال من هذا الذي استعمل على العراق ؟ من هذا الذي ذكر الرجال ؟ فويل والله للعدو إن شاء الله .

(٤) الطبري جـ٥ صـ٤٥ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ وابن كثير جـ٩ ص٩ وابن خلدون جـ٣ ص٣ والعيني جـ١١ ص٣٠٠ .

تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك » فقال الحجاج « ياغلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه »[١] .

وتبدو حكمة الحجاج في الصفات التي اشترط توافرها في صاحب شرطته . إذ نراه يريد رجلاً دائم العبوس حتى لا يطمع فيه أحد ، وطويل الجلوس حتى يمكنه أن يتفرغ لفهم القضايا فتصدر أحكامه عن روية واتزان ، وسمين الأمانة أعجف الخيانة حتى يؤتمن على الأرواح والأموال ، لا يحنق في الحق ولا يتأثر بوساطة الأشراف لديه فلا يطمع فيه أحد ؛ وبذلك تنقطع المحسوبية ويتساوى الجميع أمام القانون فتتحقق العدالة .

ويبدو بعد نظره في مسلكه إزاء عبد الرحمن . إذ إن عبد الرحمن اشترط ألا يتدخل أحد في عمله من عماله وولده وحاشيته حتى يتمكن من أداء مهمته فكان الحجاج عندما أراد فقدنادىمناديه أن الذمة بريئة من هؤلاء إذا تدخلوا في شؤونه .

ولما كان الحجاج قد كفل لصاحب شرطته كل ما أراد من ضمانات فقد استطاع صاحب الشرطة أن يكون مثلاً أعلى في إدارته فكان لا يحبس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وإذا أتى برجل نباش حفر له قبرًا ودفنه فيه حيًّا ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة أو أظهر سلاحًا قطع يده ، فربما أقام أربعين يومًا لا يؤتى إليه بأحد[٢] .

وبمثل ما كان الحجاج يحسن معاقبة المسيء كان يحسن مكافأة المحسن ؛ فسرعان ما تبين له توفيق عبد الرحمن في شرطة الكوفة فضم إليه شرطة البصرة فاستتب الأمن وساد النظام .

وبعد أن وضع الحجاج الأمور في نصابها في الكوفة وأخرج أهلها للقتال خرج

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٧ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ١ ص١٦ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٧ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ١ ص١٦ .

إلى البصرة واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة وكان أهلها قد علموا بما فعله بأهل الكوفة ، فخطبهم خطبة شديدة اللهجة فقال :

« أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه .

إن للشيطان طيفًا وللسلطان سيفًا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدفه بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه . إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه [١] ومن كان بالبصرة من جيش المهلب فليلحق به فمن وجدته بعد ثالثة ضربت عنقه [٢] .

وجلس لإعطاء الناس أعطياتهم فأتى بشريك بن عمرو اليشكري وكان عريفًا [٣] وقيل هذا عاص فقال « أصلح الله الأمير إن بي فتقًا وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائي قد جئتك به لترده إلى بيت المال » فأمر به فضربت عنقه [٤] لاستعفائه فلم يبق بالبصرة أحد من عسكر المهلب إلا لحق به فقال كعب .

لقد ضرب الحجاج بالمصر ضربة   تفرق منها بطن كل عريف [٥]

---

(١) نهاية الأرب جـ٧ ص١٤٤ والقلقشندي جـ١ ص٢٢٠ وسرح العيون ص١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٦ .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٦ والمبرد ص٦٦٦ .

(٤) ابن الأثير جـ٤ ص٣٦ وابن كثير جـ٩ ص١٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ والعيني جـ١١ صـ٣٠٠ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٦ والطبري جـ٥ صـ٤٦ .

(٥) المبرد صـ٦٦٦ وأنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٦ .

وبذلك تسابق الناس للخروج إلى القتال فكان الرجل منهم يسارع بالخروج ثم يطلب إلى أهل بيته إسعافه واللحاق به شأنهم في ذلك شأن أهل الكوفة .

رأى الحجاج أن يتابع سياسته في شد أزر المهلب بأن يخرج إلى مكان قريب من ميدان القتال فخرج إلى رُستقباذ [١] ومعه وجوه أهل البصرة وعندما نزلها قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « ياأهل البصرة هذا والله مكانكم جمعة بعد جمعة وشهرًا بعد شهر حتى يهلك الله عز وجل هؤلاء الخوارج المطلين عليكم [٢] » ، وبعث بالقرار إلى المهلب بن أبي صفرة وهو برامهرمز [٣] .

والمستعرض لسلوك الحجاج إزاء المهلب لا يسعه إلا أن يكبر في الحجاج صفات جمة . فهو رجل قد ملكت عليه العاطفة الدينية كل حواسه ، إذ نراه يعمل بكل ما في وسعه لتأييد حملة المهلب على الخوارج وهي حملة دينية إلى جانب كونها حملة سياسية .

وهو كذلك رجل يتفانى في الإخلاص للدولة الأموية إذ ركز كل جهوده في تأييد المهلب في حربه ضد الخارجين على الدولة الأموية حتى تلتئم الوحدة السياسية للدولة ، وهو رجل يعرف أقدار الرجال إذ نراه يؤيد المهلب دون أن تحدثه نفسه بأن يعمل على عزله ليتولى هو أو أحد أقاربه قيادة هذه الحملة كما فعل خالد بن عبد الله في عزله للمهلب وتوليته لأخيه عبد العزيز قيادة الحملة [٤] أو كما هم بشر بن مروان بعزله لولا إكراه عبد الملك له على غير ما يريد [٥] .

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ والطبري جـ٥ ص٤٦ .
ورُستقباذ مكان بينه وبين الأهواز ثمانية فراسخ وبينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخًا ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٧ وياقوت جـ٤ ص٣٠١ .

(٢) أنساب الأشراف جـ١١ صـ٢٧٧ وابن خلدون جـ٣ صـ٤٢ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٦ .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٨ .

(٤) الطبري جـ٥ صـ١٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٩ .

(٥) الطبري جـ٥ ص٣٦ وابن خلدون جـ ٣ صـ ٤٢ وابن الأثير جـ٤ صـ٣٢ .

وكانت الفرصة مواتية للحجاج ليفعل في هذا السبيل ما يريد فلو أرادها لنفسه لما مانع أمير المؤمنين في ذلك لمعرفته بكفاية الحجاج ، وخاصة بعد أن تهيأت لها أسباب النجاح بالتعبئة العامة التي أجراها الحجاج ، وما منعه عن ذلك إلا حسن تقديره للمهلب .

الفصل الثالث
إصلاحات الحجاج

عنايته بالقرآن . ضربه للعملة العربية . تحويله للديوان من الفارسية إلى العربية . إصلاحاته الزراعية في عهده ـ بناؤه للمدن . عنايته بالأسطول .

لم يقتصر نشاط الحجاج على الميدان السياسي ؛ ولم تقف همته عند القصاء على الثورات وتسيير الجيوش للفتوحات . بل تعدى كل ذلك إلى ميدان الإصلاحات الدينية والاجتماعية ..

عنايته بالقرآن :

أما في ميدان الدين فقد أجمعوا على أن الحجاج كان في مقدمة المسلمين الذين عملوا جاهدين على المحافظة على كتاب الله وكان يقرأ القرآن في كل ليلة [١] كما في بعض الروايات أو يقرأ ربعه كل ليلة كما في البعض الآخر [٢] ويروي ابن الجوزي [٣] أن الحجاج كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة في جوف الكعبة ؛ وفي شهر رمضان كان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء .

وبلغ من حرصه على أن يظل الكتاب الكريم بمنجاة عن أن يتطرق إلى رسمه تحريف أو أن يلابس تلاوته لحن أن أمر بمراجعة القرآن ونقط كلماته وشكله وتجزئته ثم كتابة عدة مصاحف منه وبعثها إلى الأمصار حتى لا يختلف الناس ؛ وكان سبب ذلك أن المصحف الذي كتبه الخليفة عثمان في سنة ثلاثين من الهجرة كان غير مشكول ولا منقوط .

فلما دخل في الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم وظهر اللحن على الألسنة خيف على القرآن أن يلحن في قراءته فطلب زياد بن أبيه إلى أبي الأسود الدؤلى أن

---

(١) السجستاني ـ المصاحف جـ١ ص١٢٠ والعيني جـ١١ صـ٤٠٠ .

(٢) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن جـ١ صـ٥٦ .

(٣) ابن الجوزي مختصر صفوة الصفوة ص١٥١ .

يضع للناس علامات تضبط قراءتهم فَشَكَل أواخر الكلمات وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته والضمة نقطة إلى جانبه وجعل علامة الحرف المنون نقطتين ؛ ومع هذا لم تحفظ الألسنة من اللحن ، وكثر التصحيف والتحريف في القراءة .

وانتشر في زمن الحجاج بن يوسف [١] فهاله ذلك الأمر وصمم على وضع حد نهائي لهذه الاختلافات فطلب من كتابه أن يضعوا علامات للحروف المشتبهة فكان نقط الحروف وشكل أولها وأوسطها وآخرها [٢] .

بدأ نصر بن عاصم الليثي فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها حتى لا تشتبه واستمر الناس زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا ؛ ولكن هذا العمل لم يكن كفيلاً بعدم وقوع التصحيف [٣] فعهد الحجاج إلى لجنة مكونة من الحسن البصري ويحيى بن يعمر بإحداث الشكل [٤] .

وقد جمع الحجاج القراء والحفاظ والكتاب وطلب منهم أن يحسبوا عدد حروفه وأن يحددوا نصفه وثلثه وربعه وسبعه فقاموا بهذا العمل في أربعة شهور [٥] وأما الأعشار فيروى أنها من عمله وقيل إنها من عمل المأمون [٦] .

وبمثل ما استهدف الحجاج للنقد في سياسته وإدارته وافتريت عليه في ذلك شتى المفتريات ، استهدف كذلك لشيء من الافتراء في هذه الناحية . فقد روى السجستاني بسنده أنه غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفًا [٧] ولأنها تهمة

---

(١) ابن خلكان جـ١ ص٥٥ والتعريف بالقرآن الشريف ص٩٠ ، ٩٢ ونولدكه - تاريخ القرآن جـ٣ ص١٢٤ .

(٢) ابن خلكان ج١ ص٥٥ ، والتعريف بالقرآن الشريف ص٩٢ .

(٣) ابن خلكان جـ١ ص١٥٥ ونولدكه - تاريخ القرآن جـ٣ ص١٠٣ ص٢٦٢ .

(٤) القرطبي جـ١ ص٥٤ .

(٥) راجع السجستاني جـ١ ص١١٩ وص١٢٠ والقرطبي جـ١ ص٥٥ ، ٥٦ .

(٦) القرطبي جـ١ ص٥٤ .

(٧) راجع المصاحف للسجستاني جـ١ ص٤٩ ، ٥٠ ، ١١٧ .

خطرة لو صحت لأوجبت إخراج الحجاج من عداد المسلمين ، ولشككت في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – رأينا أن نعالج هذه الرواية الفجة لنثبت أنها محض افتراء .

فبالرجوع إلى رجال الرواية نجد أن عبد الله بن أبي داود السجستاني صاحب كتاب المصاحف ـ مجروح كذبه أبوه [١] كما وجدنا أن عباد بن صهيب وهو أحد الرواة متروك الحديث [٢] .

من كل هذا نستنتج أن الإسناد غير صحيح وبالتالي فحديث السجستاني غير صحيح ـ هذا من الناحية العلمية البحتة .

أما من حيث الوقائع فنستطيع أن نقطع بأن الحجاج لم يفعل ما أسنده إليه السجستاني ، فلو أنه تناول المصحف بالتغيير لشاع ذلك في حياته ولاستهدف الحجاج لحملات لا قبل له بها من الصحابة والتابعين ولكانت تحت أيديهم وثيقة دامغة بكفر الحجاج ؛ ولا يمكن لنا أن نتصور أنهم خافوا بطش الحجاج فسكتوا فهذه مسألة من أهم أصول الذين لا يسكت عنها مسلم ولو كان السيف مسلطًا على رقبته .

وإذا فرضنا جدلًا أن الصحابة والتابعين من سكان العراق خافوا بطش الحجاج فكيف يسكت غيرهم من سكان الشام وأهل الحجاز ؟ وإذا كان هؤلاء جميعًا قد جبنوا عن أن يجابهوا الحجاج في هذا الأمر الجلل فهل يعقل أن يكونوا قد سكتوا على هذا التحريف بعد وفاته ؟ وإذا كان الصحابة والتابعين وكبار علماء الدين قد سكتوا عن ذلك لأي سبب من الأسباب فما الذي أسكت الخليفة على فعلة واليه ، تلك الفعلة التي تمس الدين في الصميم ؟؟!

وإذا فرضنا أن الخليفة ـ لسبب لا ندريه ـ قد سكت على هذه المحنة الكبرى والجريمة العظمى ....

---

(١) ميزان الاعتدال جـ١ ص٤٣ .

(٢) ميزان الاعتدال جـ٢ ص١٠ .

أفلم توهب الدولة الأموية بعد وفاة الحجاج خليفة يعرف ربه فيعود بكتابه إلى ما أنزل عليه ؟؟

وإذا كان الحجاج قد غير أحد عشر حرفًا في مصحف عثمان فهل ظل هذا المصحف مصحف عثمان أم أصبح مصحف الحجاج ؟ ولم لم يدلنا السجستاني صاحب الرواية على العهد الذي أبيدت فيه مصاحف الحجاج وأعيدت مصاحف عثمان المقروءة إلى يومنا هذا ؟؟

أما من الناحية التاريخية فنستطيع أن نقطع كذلك بأن الحجاج لم تمتد يده إلى مصحف عثمان بتغيير أو إبدال ، وإلا لجعله المؤرخون هدفًا لحملة شعواء ترتكز على أساس سليم . فها نحن أولاء قد رأيناهم يصبون عليه جام غضبهم لأمور قد يختلف عليها الرأي ويقيمون عليه الدنيا لأسباب لا تعدو أن تكون تافهة فكيف يعقل - والحالة هذه - أن يسكتوا عن هذا الحادث الجلل وتحت أيديهم الدليل على ما به يتهمون ؟! .

على أن قصة تحريف القرآن التي أوردها السجستاني قد آمن بها ورددها من المستشرقين نولدكه [١] فنسب إلى الحجاج أنه قام بأعمال في توحيد القرآن الكريم مثل الأعمال التي قام بها عثمان بن عفان وأنه حاول أن يضغط على مصحف ابن مسعود الذي كان له من يقرؤه بالكوفة وقتئذ .

وفي تقديرنا أن الموقف لا يعدو أن يكون الحجاج - وهو أحد المؤمنين بصحة مصحف عثمان - قد هاله أن يرى شيعة لابن مسعود يقرؤون مصحفه على ما فيه من اختلاف عن مصحف عثمان الذي أقره جمهرة الصحابة كما أنه رأى نسخًا فجة من القرآن يقرؤها غيرهم . لذلك أمر بالعود إلى مصحف عثمان ونهى عن تلاوة أي مصحف سواه . فإذا قال أشياع ابن مسعود إنه حرف في القرآن فإنه صحيح في

---

(١) تاريخ القرآن جـ١ ص١٠٣ .

نظرهم لأنه حرف في مصحفهم ، وهو باطل في نظر عامة المسلمين لأنه لم يحرف في مصحف عثمان .

أما المستشرق بربيه [1] فيقرر أن يعقوب الكندي المسيحي قد شهد أن الأمويين وجدوا في القرآن إشارات جارحة لأسرتهم وخاصة بأبي سفيان جدهم ولهذا أصدر الحجاج أمرًا باسم الخليفة عبد الملك بإتلاف النسخ القديمة وكتابتها من جديد بعد حذف بعض الفقرات وزيادة فقرات أخرى تريدها الأسرة الحاكمة ؛ واستبعد بربيه أن تكون التهمة التي رمي بها الحجاج على غير أساس .

وفي تقديرنا أن مستشرقًا كبربيه ـ وضع كتابًا عن الحجاج كما تراه المصادر العربية ـ كان يجدر به أن يعتمد على مصدر واحد إسلامي بدل أن ينقل لنا عبارة يعقوب الكندي المسيحي !!

ولعله أدرك ضعف مركزه في هذا النقل فاستبعد أن تكون التهمة التي رمي بها الحجاج من الكندي على غير أساس .

والواقع أنها تهمة على غير أساس . وذلك أن القرآن الكريم جمع في أيام أبي بكر الصديق ـ الخليفة الأول ـ ووضعت نسخة منه عند حفصة بنت عمر كانت هي فيما بعد مصحف عثمان .

وهذا المصحف بكل ما جاء فيه هو المصحف المعروف اليوم . فلو أنه جاء بهذا المصحف إشارات جارحة وماسة بالأسرة الأموية ـ كما يقول الكندي ـ لبقيت هذه العبارات حتى اليوم والمصحف اليوم لا يحتوي على عبارة واحدة مما يشير إلى هذا الأمر .

وقد قررنا في صدر هذا البحث استحالة أن تكون يد الحجاج قد امتدت إلى

---

(١) الحجاج كما تراه المصادر العربية ص٢٥٦ .

مصحف عثمان . من ذلك يُستنتج أن تهمة الكندي لا تقوم على أساس كما أن مجاراة بربيه له لا تقوم كذلك على أساس .

سك الحجاج للعملة :

كانت العملة الفارسية واليونانية متداولة في بلاد العرب في الجاهلية ؛ ولما ظهر الإسلام ظل العرب يتعاملون بها حتى كانت السنة الثامنة عشرة من الهجرة وقد كثرت الفتوحات في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فحاول ضرب النقود فضرب دراهم على نفس الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها (الحمد لله) وفي بعضها الآخر (محمد رسول الله) وفي بعض ثالث (لا إله إلا الله وحده) .

ثم جاء من بعده عثمان بن عفّان فضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر »

ولما استقر الأمر لمعاوية ضرب دنانير عليها تمثال متقلدًا سيفًا ، وكذلك ضرب عبد اللّه ابن الزبير دراهم مستديرة بمكة ونقش على أحد وجهيها «محمد رسول اللّه» وعلى الآخر « أمر اللّه بالوفاء »[١] ونقش بدورها « عبد اللّه » وضرب مصعب بن الزبير بالعراق دراهم[٢] .

ولكن المعاملات في الدولة الإسلامية إلى ذلك الوقت لم تقتصر على هذه العملة بل ما زالت العملة البيزنطية والعملة الساسانية تتمتع بمكانة ممتازة في العالم العربي ولم يكسبها الصبغة الرسمية إلا عبد الملك بن مروان .

وقد أورد المؤرخون أسبابًا لعمل عبد الملك هذا : فذكر فريق أن عبد الملك كتب إلى الإمبراطور جستنيان الثاني خطابًا ذكر فيه النبيّ ﷺ في التاريخ الهجري وبدأه بقول اللّه تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . فاستاء الإمبراطور من هذا الخطاب وأجاب بأنه إذا تكررت هذه الإشارة فسينقش على العملة الذهبية للإمبراطورية عبارات جارحة وماسة بالإسلام .

---

(١) المقريزي ـ النقود الإسلامية ص٤ ، ٥ .

(٢) المقريزي ـ النقود الإسلامية ص٥ والبلاذري فتوح البلدان ص٤٧١ وابن الأثير جـ٤ ص٥٤ وابن خلدون ـ المقدمة ص١٨٣ .

فكبر ذلك على الخليفة عبد الملك بن مروان فأشار عليه خالد بن يزيد [1] بتحريم دنانيرهم وضرب عملة للناس يتعاملون بها .

وذكر فريق آخر أن سبب ذلك أن عبد الملك حينما غير الطراز من الرومية إلى العربية لما ترجمت له العبارة المكتوبة عليه ، (باسم الأب والابن وروح القدس) وكتب عليه (لا إله إلا الله) استاء من ذلك ملك الروم وهدد عبد الملك بسب النبي على النقود .... إلخ مما يتفق مع الرواية السابقة [2] .

وروى فريق ثالث أن خالد بن يزيد قال لعبد الملك « ياأمير المؤمنين إن أهل الكتب الأول يذكرون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمرًا من قدس الله تعالى في دراهمه » فعزم عبد الملك على ذلك ووضع السكة الإسلامية [3] .

وفي رأينا أن الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى ذلك هي الرغبة في التنظيم المالي وإيجاد شخصية للدولة الإسلامية ؛ وقد شجعه على ذلك استمرار نار العداء بينه وبين قسطنطين الرابع وجستنيان الثاني [4] .

ولعل مسألة الخطاب أو تغيير الطراز كان سببًا مباشرًا للقيام بهذا العمل .

وأما ما رواه المقريزي فهو في رأينا من الأساطير التي تعود المؤرخون أن يحيطوا بها الحوادث .

وجَدَّ عبد الملك في ترويج عملة عربية خالية من كل نقش أجنبي ففرض على الناس التعامل بها وهدد من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وأوقف العمل بالنقود القديمة وسحبها وردها إلى دار الضرب لصوغها صياغة جديدة [5] .

---

(١) المقريزي ـ النقود الإسلامية ص٦ والبلاذري فتوح البلدان ص٢٤٩ وابن الأثير جـ٤ ص٥٣ .
ويروي الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٧٨ أن الذي أشار عليه بذلك محمد بن علي بن الحسين .

(٢) الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٧٧ .

(٣) المقريزي ـ النقود الإسلامية ص٦ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم . النظم الإسلامية ص٢٢٠ .

(٥) الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٧٨ .

وضرب عبد الملك بن مروان الدنانير عام الجماعة في دمشق من سنة أربع وسبعين من الهجرة وكتب إلى الحجاج أن اضربها قِبَلَكَ فضرب دراهم من الفضة سنة خمس وسبعين [١] ؛ ولكن الضرب لم يتخذ أهمية حقيقية ويعمم في جميع النواحي إلا في سنة ست وسبعين [٢] .

وقد وكل الحجاج أمر ضرب عملته الفضية ليهودي يدعى سميرًا ولهذا سميت عملته بالسميرية وقد كتب عليها الحجاج « بسم الله » « الحجاج » ثم بعد سنة نقش عليها ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [٣] .

وقد استهدفت نقود الحجاج السميرية لحملة الفقهاء وذلك أنهم كانوا يستنكرون أن يكتب عليها « بسم الله » في وقت هي عرضة لأن يأخذها الجنب والحائض [٤] .

وفي رأينا أن الفقهاء الذين استنكروا العملة السميرية أفرطوا في تعصبهم ضدها . بدليل أن المعتدلين لم يكرهوها فقد دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبها بقايا الصحابة فلم ينكروا منها سوى نقشها لأن به صورة .

وكان سعيد بن المسيب يبيع ويشتري بها ولا ينكر من أمرها شيئًا ، وسئل الإمام مالك عن الدراهم والدنانير التي فيها ذكر الله عز وجل فأفتى بأن التعامل بها لا شيء فيه محتجًّا بأن أهل المدينة لم ينكروا التعامل بها حين قدومها وأن ابن سيرين كان يبيع ويشتري بها . يضاف إلى ذلك أن عمر بن عبد العزيز امتنع من محو ما عليها من الكتابة حينما أشير عليه بذلك [٥] .

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٧٣ وابن خلدون ـ المقدمة ص١٨٣ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٧٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٣ والطبري جـ٥ ص٨٣ والمعارف ص١٧٦ والماوردي ص١٤٨ وابن خلدون المقدمة ص١٨٣ والماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٣٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٥٣ والبلاذري ص٤٧٣ والمقريزي ص٨ والماوردي ص١٣٩ ويروي أن عبد الملك هو الذي كتب عليها ﴿ قل هو الله أحد ﴾ المقريزي ص٧ .

(٤) البلاذري ص٤٧٣ المقريزي ص٨ وابن الأثير جـ٤ ص٥٣ .

(٥) المقريزي ـ النقود الإسلامية ص٦ .

وقد حدث في العصر العباسي ـ في خلافة المنصور ـ أن سميت نقود الحجاج بالمكروهة ورتب العلماء على هذا الأساس خلافًا لا محل له .

فقد ذكر[١] أن المنصور لم يكن يقبل من نقود بني أمية في الخراج غير الهبيرية والخالدية واليوسفية ؛ فسميت الدراهم الأولى (التي ضربها الحجاج) المكروهة .

ثم أورد البلاذري العلة في ذلك فأشار إلى العناية التي بذلت في ضرب النقود المذكورة حتى قال : فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية..

ومن ذلك يستنتج أن تصرف المنصور ضد نقود الحجاج كان لعلة مدنية بحتة هي الجودة في الصناعة ولم يكن لعلة دينية . فلم يكن من العدل أن تكون أساسًا لخلاف يرتبه العلماء .

وأنشأ الحجاج في الكوفة ثم في واسط دارًا للضرب أوجد بها السباكين فكان يضرب المال للسلطان بما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة .

ولكي يتلافى محاولات الغش والسرقة لم يكتف بمراقبة عمال الضرب مراقبة صارمة بل وسمهم بعلامة في أيديهم[٢] .

ولم يكن مع ذلك أشد المراقبين قسوة ففي عهد يزيد الثاني اشتد عمر بن هبيرة في تخليص الفضة . ثم ولي خالد القسري لهشام بن عبد الملك فاشتد أكثر من شدة ابن هبيرة حتى أحكم أمر النقود أبلغ من إحكامه ثم ولي يوسف بن عمر الثقفي من بعده فأفرط في الشدة على الطباعين واصحاب الغيار فقطع الأيدي وضرب الأبشار[٣] .

---

(١) البلاذري ص٤٧٤ وابن الأثير جـ٤ ص٥٤ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٧٤ .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٧٤ وابن الأثيرجـ٤ ص٥٤ .

وهكذا كان للحجاج فضل السبق في سك العملة العربية في الدولة الإسلامية وإنشاء دار للضرب ووضع القواعد والأصول التي تسير عليها ؛ فهو رجل الدولة بإصلاحاته ولم يكن مصلحًا فحسب بل كان مصلحًا ومجددًا .

تعريب الدواوين :

كان الحجاج أول من عمل على ترجمة دواوين السواد وسائر بلاد العراق .

وذلك أنه كان بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان قد وضعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب والآخر لوجوه الأموال وكان بالفارسية واستمر ذلك إلى عصر عبد الملك بن مروان [١] .

وكان الحجاج لما ولي العراق استكتب زادان فروخ بن بيري ويعاونه صالح بن عبد الرحمن - مولى بني تميم - فوصل زادان صالحًا بالحجاج فأحبه الحجاج وقربه إليه .

ولما شعر بذلك صالح من الحجاج قال لزادان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولا آمن أن يقدمني عليك وأنت رئيسي والسبب في وصولي إليه فتضيع مكانتك .

فأجابه زادان بقوله : لا تظن ذلك هو أحوج إلي منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري .

فقال صالح : والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . فقال زادان فحول منه شطرًا حتى أرى . ففعل صالح ذلك . [٢] فطلب منه زادان أن يتمارض . ولعله أراد بذلك أن يعرف مكانته عند الحجاج فأرسل الحجاج إليه طبيبه الخاص فلم ير به علة وبلغ زادان ذلك فأمره أن يظهر حتى لا يكشف الأمر وقد عرف قربه من الحجاج .

---

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص٢٣ .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص٢٣ والبلاذري - فتوح البلدان ص٣٠٨ والماوردي ص١٩٢ .

وقتل زادان في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من منزل إلى منزله [١] فاستكتب الحجاج صالحًا مكانه فأخبره بما كان بينه وبين زادان في نقل الديوان فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وعهد بهذا العمل إلى صالح فلما نجح صالح فيما أسند إليه قال له مردانشاه بن زادان « قطع الله أصلك كما قطعت أصل الفارسية » .

وقد آلم ذلك الأمر الفرس وحزَّ في نفوسهم فبذلوا لصالح مائة ألف درهم ليظهر عجزه عن نقل الديوان فأبى ونقله [٢] .

وقد تخرج على يديه كثير من الكتاب فكان عبد الحميد الكاتب يقول « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » [٣] .

وقد كان لنقل الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية فإنه عندما أصبحت العربية لغة الدواوين ساعد ذلك على تقلص نفوذ أهل الذمة وغير العرب من المسلمين بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب كما ساعد على ظهور طبقة من الكتاب العرب ونقل كثير من الاصطلاحات الفارسية [٤] .

وكان ذلك من أهم الأسس التي أقيم عليها بناء القومية العربية في الممالك الإسلامية وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها [٥] .

الزراعة :

ولي الحجاج شؤون العراق بعد فتنة ابن الزبير التي كادت تأكل الأخضر واليابس

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٢ والماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٩٣ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٠٨ والماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٩٣ ويروي الجهشياري ص٢٣ أن ذلك كان في سنة ثمان وسبعين .

(٣) ابن خلدون ـ المقدمة ص١٧١ ـ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٠٩ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم ـ النظم الإسلامية ص٢٢٠ .

(٥) كرد على ـ الحضارة العربية جـ٢ ص١٦٨ .

وتدك صرح الخلافة الإسلامية . ولي شؤونه والعراق يشق عصا الطاعة على الخلافة ويأبى أن يساهم مع المهلب بن أبي صفرة في حرب الخارجين على الخلافة . ولي شؤونه والخوارج في كثير من النواحي يتربصون بالخلافة الدوائر . ولي شؤونه والأقطار المتاخمة للدولة الإسلامية تنتظر الفتح .

إزاء هذه المشاكل العديدة ـ من داخلية وخارجية ـ لم يكن الحجاج يستهدف لأي لوم لو أنه أهمل شؤون العراق العمرانية ليعنى بهذه الشؤون الحيوية للدولة .

إلا أن هذا البطل المنقطع النظير كان واسع الأفق عالي الهمة لا يقاس به أترابه في هذا الشأن : فلقد اتسعت همته فوسعت تجهيز الجيوش وإدارة الحروب من ناحية والقيام بشتى الإصلاحات العمرانية من الناحية الأخرى .

ومما لا شك فيه أن الحجاج قد سبق عصره في طريقة تفكيره وحسن تدبيره فإذا قسناه بمن سبقه من الولاة أو الفاتحين كان مجتهدًا ، وإذا قسناه بمن أتى بعده كان مبتكرًا .

عرف الحجاج ـ الذي لم يألف حياة السواد من قبل ـ أن الدولة لا تقوم لها قائمة إلا إذا ساد الرخاء أرجاءها فاستطاع الزارع أن يدفع ما عليه للدولة من الخراج . فإذا ضنت عليه الأرض بما يريد من ثمرات ضن هو على الدولة ـ مضطرًا ـ بما تريده من خراج . لذلك عني الحجاج بإحياء موات الأرض بأن شق القنوات وحفر الأنهار وأصلح الأرض البور وجفف المستنقعات وأكثر من الثروة الحيوانية وبذل في كل ذلك جهد الجبابرة .[١]

وكان الحجاج في إصلاحاته لا يعرف كلمة (مستحيل) . سأل دهاقين العراق سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهرًا فكتب ابن أبي وقاص إلى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم فجمع الرجال لذلك فحفروا فيه حتى انتهوا إلى جبل لم يتمكن الفعلة من شقه فتوقف العمل فيه . واستمر الأمر كذلك حتى ولي الحجاج العراق

---

(١) راجع ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٦٠ .

فجمع الفعلة من كل ناحية وقال للقائمين بالأمر « انظروا إلى قيمة ما يأكل كل رجل من الحفارين فإن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تمتنعوا من الحفر » فأنفقوا عليه حتى استتموه فنسب الجبل إلى الحجاج والنهر إلى سعد بن حرام [١] .

ورأى الحجاج بأرض العراق الكثير من المستنقعات جفف القليل منها من سبقه من الولاة وقد بقي الأكثر على حاله فأمر الحجاج حسان النبطي مولى بني ضبة بتجفيف المستنقعات المحدودة المساحة فقام حسان بذلك واستخرج للحجاج أراضي صلحت للزراعة [٢] .

أما المستنقعات الواسعة فكان يستشير في أمر الإنفاق عليها أمير المؤمنين فقد أنفجرت بثوق غمرت جزءاً كبيرًا من الأرض فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه بها ويخبره أنه قدر لردمها ثلاثة ملايين من الدراهم فاستكثرها الوليد فقال له أخوه مسلمة أنا أنفق عليها على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيا الماء بعد إنفاق ما قدر لها وأن يتولى إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج بن يوسف » .
فأجابه الوليد إلى ما أراد وقام بالعمل تحت إشراف الحجاج فحصلت له أرضون كثيرة فحفر النهرين المسميين بالسيبين وتألف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأرضين .

وذهب إلى تلك الجهة أناس كثيرون لزراعة تلك الجهات عندما توفرت المياه العذبة ، سيا أن مسلمة بن عبد الملك كانت له ضياع هناك [٣] .

وكانت بالعراق أراضٍ كثيرة تبدو عليها الخصوبة ولكن تنقصها الأيدي العاملة لذلك نراه يُقطع هذه الأرض لمن يتوسم فيه المقدرة على زرعها ممن أخلص في خدمته مكافأة له على الإخلاص من ناحية وجنيًا للخراج من ناحية أخرى .
ومن أمثلة ذلك أنه أقطع بشار بن مسلم (أخا قتيبة بن مسلم) مئات من

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٨٣ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٠١ والماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٧١ .

(٣) ابن خرداذبة ـ المسالك والممالك ص٢٣١ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٠٢ .

الجربان فعمر بشار تلك الأرض بشق قناة فيها وزرعها [١] وأقطع خيرة بنت ضمرة القشيرية (زوج المهلب) عباسان [٢] .

وكان من رأى الحجاج ـ كما يرى ساسة اليوم ـ أن يساهم الشعب في جهود الإصلاح لا أن يترك الأمر كله للحكومة . لذلك نراه ينيط صيانة الجسور وترميم السدود بأصحاب الضياع التي تنتفع بها وخاصة إذا كانوا من الدهاقين الأغنياء . فإذا أهملوا ذلك ففاضت مياه الأنهار والقنوات على أراضيهم وقاموا يطالبون الحكومة بالتعويض أبى عليهم الحجاج ذلك حتى يكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم في المستقبل فيسهرون على صيانة أراضيهم من أن تطغى عليها مياه الفيضان .

ولا قيمة لما رُمي به الحجاج من أنه كان يضن بالتعويض على بعض الدهاقين لأنهم كانوا يناوؤن سياسته ؛ وليس لهم من الأموال ما يمكنهم من سد تلك الفتحات [٣] فالحجاج لا يلام على سياسته هذه من حيث المبدأ .

أما من حيث التطبيق فأكبر ظننا أن الحجاج ما كان ليمتنع عن مساعدة هؤلاء لو وثق بضيق ذات يدهم . يؤيد ذلك أن الحجاج كان لا يضن بالمال كلما كان لازمًا للمصلحة العامة أو عائدًا على بيت المال بالفائدة فكان يقرض الزراع مساعدة لهم على زرع أرضهم كما يفعل بنك التسليف الزراعي اليوم . ومحال على من يفعل ذلك أن يضن بالتعويض إذا كانت المطالبة عادلة .

وهال الحجاج إقبال الناس على ذبح البقر وما يتهدد البلاد من وراء ذلك من انقراض النسل وقلة الخيرات، فحرم ذبح البقر .

وقد بدت تلك الوسيلة غريبة شاذة في نظر الناس فتألموا من ذلك كل الألم فقال بعضهم :

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٦٩ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٧٦ .

(٣) ابن الأثير جـ١ ص٢٨٤ وبربيه ص٢٦٤ .

شكونا إليه خراب السواد   فحرم جهلاً لحوم البقر [١]

والمستعرض لهذا الإجراء في ضوء الأساليب الحديثة في العمران لا يسعه إلا الإعجاب بمواهب الحجاج فها نحن أولاء نرى اليوم حظر الذبح وسيلة من وسائل إنماء الثروة الحيوانية من لحوم وألبان ومستخرجاتها فضلاً عن أثر الحيوان في العمل في المزارع وتسميدها ،. فكان الحجاج قد سبق إلى أساليب العصر الحديث بعشرات المئات من السنين .

وهال الحجاج انصراف الناس عن الزراعة بالهجرة إلى المدن حيث تكثر البطالة وما يستتبعها من جرائم ، فضلاً عما يترتب على ذلك من بوار الأرض وما يتلوه من نقصان الخراج فأمر بإرجاع هؤلاء المهاجرين إلى قراهم واشتد في ذلك فأمر بأن يكتب على يد كل واحد منهم اسم قريته حتى لا يبرحها إلى غيرها [٢] .

ويتحدث المصلحون في العصر الحديث عن مشروعات المياه الصالحة للشرب . وها نحن أولاء نرى الحجاج في القرن الأول الهجري قد شيد صهريجًا للمياه بالبصرة عرف باسمه ليشرب الناس منه [٣] .

هذا ما حدثتنا به المصادر من إصلاحات الحجاج بالعراق ، ولو اتسع أفق المؤرخون لم تطغ عليهم حفيظتهم على الحجاج للأوا عن إصلاحاته المجلدات . ولكن الحجاج كان ضحية سمعته العامة من بطش وقسوة .

والمؤرخون المسلمون قد تملكتهم عليه الحفيظة فطمسوا من معالم إصلاحاته ما لو دُوِّنَ لكان منارًا لرجال الإصلاح في العصور المتأخرة ؛ ومع هذا القليل الذي أورده المؤرخون فإن الحجاج لم يفلت من نقدهم .

---

(١) الأغاني جـ١٥ ص٩٤ وابن خرداذبة ص١٤ وياقوت جـ٥ ص١٦٣ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٢ ص٧٧ والطبري جـ٥ ص١٨٢ والمبرد ص٢٨٥ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٧٧ .

يروي لنا المؤرخون أن تلك المجهودات لم ترجع إلى العراق رخاءه القديم وأن حالة العراق بعد موته كانت من أسوأ الحالات وأن سليمان بن عبد الملك لما ولى يزيد بن المهلب العراق نظر في نفسه وقال : « إن العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج [١] » ، وأن خراج العراق قد نقص نقصًا فاحشًا .

وقد أوردوا لنا أرقامًا عن الخراج في عهد عمر بن الخطاب ومعاوية والحجاج وعمر بن عبد العزيز محاولين إثبات أن الحجاج قد أخرب العراق .

وعلى الرغم من اضطراب المصادر وخلطها في هذا الشأن . نرى لزامًا علينا أن نناقش هذه الأرقام حتى نخرج منها بأن الحجاج لم يخرب العراق .

أما الاضطراب فيبدو في تفاوت الأرقام ، وإذا كان الخراج في وقت عمر بن الخطاب قد تراوح بين مائة مليون على رأي البلاذري [٢] ومائة وثمانية وعشرين مليونًا على رأي ياقوت [٣] والبشاري [٤] وابن خرداذبة [٥] وهذا فارق مستساغ إلى حد ، فإنا نراهم قد نزلوا بالخراج في أيام عمر بن عبد العزيز إلى ثمانين مليونًا على حد رواية ابن عساكر [٦] وابن كثير [٧] عن عمر بن عبد العزيز ، ويطغى إلى مائة وأربعة وعشرين مَليونًا على رواية ياقوت وابن عساكر أيضًا .

أما الحجاج فقد ذكر البشاري وابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر أنه وصل إلى

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٨٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٣ والعيون والحدائق جـ٣ ص٢٥ وابن الجوزي ـ مرآة الزمان ج٩ ص٢٧ .

(٢) فتوح البلدان ص٢٧٩ .

(٣) معجم البلدان جـ٥ ص١٦٢ .

(٤) أحسن التقاسيم ص٢٣ .

(٥) المسالك والممالك ص١٤ .

(٦) التاريخ الكبير جـ٤ ص٨٠ .

(٧) البداية والنهاية جـ٩ ص١٣٦ .

ثمانيـة عشر مليونًـا ٠

وذكر اليعقـوبي [١] أنـه وصـل إلى خمسـة وعشرين مليـونًـا وذكر البـلاذري وابن عساكر وابن كثير في روايـة عن عمر بن عبـد العزيز أنـه بلغ أربعين مليونًـا وينفرد الماوردي [٢] بذكر رقم محترم وهو مائة وثمانية عشر مليونًا .

ولا نستطيع أن نوفق بين الحد الأدنى وهو ثمانيـة عشر مليونًـا والحـد الأعلى وهو مائة وثمانية عشر مليونًا إلا بافتراض الخطأ في روايـة المـاوردي لأنهـا روايـة مفردة . بينما رواية الثمانية عشر رواها أربعة هم ابن خرداذبة وياقوت وابن عساكر والبشـاري على أننـا لا نستطيع أن نتـابع هـذا المنطق إذ إن المـاوردي متخصص فيما يكتب من هذه الأمور .

وثمة مظهر آخر من مظاهر الاضطراب في هذه الروايات فقد حدثنا بعض هؤلاء المؤرخين عن خراج العراق وحـدثنـا البعض الآخر عن خراج السـواد ؛ ونحن نعلم أن ولاية العراق في عهد الحجاج لم تكن كلها سوادًا . ومع ذلـك فنستطيع أن نعـذر من حدثونا عن السواد فنقرر أنهم قصدوا ولاية العراق كلها عندما تحدثوا عن السواد .

ولم تحدثنا هذه المصادر عن الأرقـام التي أوردتهـا هل كانت هي كل مـا جبي من العراق أو من السواد ؟ أو كانت هي ما أداه الحجاج للخليفـة ؟؟ والفـارق بين هـذا وذاك أن الحجاج قد يجبي الملايين ولا يؤدي منها إلى دار الخلافـة إلا النـزر اليسير . ذلك أنه انفرد من بين الولاة جميعًا بالإنفاق عن سعة على الحروب التي لم تهـدأ يومًـا طـوال عهـده وكان يضطر في كثير من الأحيـان إلى مضـاعفـة العطـاء وهي حروب ليس من ورائها فتح ولافيء فهي حروب داخلية قوامها إخضاع ثائرين مفلسين .

يضاف إلى ذلك أنه كان كما رأينا معنيًا بالإصلاحات الـداخليـة لا يـدخر وسعًـا ولا جهدًا في سبيل إنجازهـا . لـذلـك نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هولاء المؤرخين

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ٣ ص٣٥ .

(٢) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٦٧ .

قد تحدثوا عما أداه الحجاج لدار الخلافة من فائض الخراج بعد أن أنفق في العراق ما أنفق .

ولم تذكر المصادر في حديثها عن الجباية عامًا معينًا ، فإذا كانت الأرقام التي ذكرتها هي ما جبي أو ما أرسل إلى دار الخلافة زمن الثورات فمن الميسور أن نصدق ذلك وأن يكون الخراج قد نقص إلى هذا الحد .

ولم يؤمن بهذه الأرقام بعض الكُتّاب فإن ڤان ڤلوتن يقول : « وإنها قد لا تصور حالة البلاد إلا بعد الحرب الداخلية مباشرة » [١] والخضري بك يقول : « فإن الخراج قد نقص زمن العسف والفتن » [٢] .

على أنه ليس لدينا سجلات عراقية تثبت لنا مقدار خراج العراق ونفقته فقد أحرق الديوان في ثورة ابن الأشعث [٣] فبذلك ضاعت معالم الدخل والخراج .

على أن ما روي عن عمر بن عبد العزيز ويزيد بن المهلب بشأن خراب العراق قد صدر عن نفوس مبغضة للحجاج .

وفي تقديرنا أن رجلاً كالحجاج واجه من المصاعب ما واجه وأخضع من الفتن ما أخضع وأجرى من الإصلاحات ما أجرى كان يتحتم عليه أن لا يؤدي إلى دار الخلافة شيئًا وحسب دار الخلافة أنها تخلصت من المصاعب التي كانت تواجهها في العراق وكادت تودي بها لولا همة الحجاج ويقظته وحسن بلائه في الإنفاق على الجيوش واستهواء القلوب .

ومهما يكن من أمر فإننا نعتقد أن الحجاج كان من هذه الناحية موضع الرضى التام من عبد الملك بن مروان فقد أتته جباياته كثيرة موفورة [٤] ولو لم يكن كذلك

(١) السيادة العربية ص٤٣ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية جـ٢ ص٢٦٣ .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٨١ وأبو يوسف ـ الخراج ص٥٧ .

(٤) البلاذري أنساب الأشراف جـ١ ص٣١١ وابن عبد ربه جـ٢ ص٩٩ .

لنزعه عبد الملك في خلافته ولما أوصى به ابنه الوليد ؛ ولذا استحق هو وزياد الثقفي مثله أن يحسد العباسيون الأمويين عليهما فقد قال أبو جعفر المنصور « الخلفاء ثلاثة معاوية وكفاه زياد وعبد الملك وكفاه الحجاج وأنا ولا كافي لي »[١] .

بناء المدن :

كان الحجاج مهتما بالعمران وتوفير ، الرفاهية وتقديم الحال في عهده ؛ فإنه لم يكد ينتهي من حرب ابن الأشعث في سنة ثلاث وثمانين من الهجرة[٢] ، حتى بدأ في بناء مدينة واسط .

ويختلف المؤرخون في السبب الذي دعاه إلى بناء هذه المدينة فيروي ياقوت ، أن الحجاج لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة فآنس من أهلها الملال والبغض له فقال لرجل ممن يثق بعقله : « امض وابتغ لي كرشًا من الأرض أبني فيه مدينة وليكن على نهر جار»

فأقبل ملتمسًا ذلك حتى سار إلى قرية فوق واسط بيسير يقال لها واسط القصب فبات واستطاب ليلها واستعذب أنهارها واستمرأ طعامها وشرابها »[٣]

ويروى غيره أن الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان ؛ وكان فتى من أهل الكوفة حديث عهد بعرس فانصرف من العسكر إلى ابنة عمه ليلاً ؛ فطرق الباب طارق ودقه دقًا شديدًا فإذا سكران من أهل الشام فقالت العروس لزوجها

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص١٧٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٣ وياقوت معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٩ وأبو الفدا جـ١ ص١٩٨ وابن كثير جـ٩ ص٥١ والعيني جـ١١ ص٣٣٨ ويروي كل من البلاذري في فتوح البلدان ص٢٩٨ والمسعودي في التنبيه والإشراف البدء في بنائها بين سنة ٨٣ ، ٨٤ ويذكر ابن خلكان جـ١ ص١٥٥ والقرماني أنه بدىء فيها سنة أربع وثمانين ويجزم الجميع بالانتهاء منها في سنة ست وثمانين ويذكر ابن شاكر جـ٥ ص٨٢ وابن الجوزي في شذور العقود ص٥٥ أنه بدأ فيها سنة خمس وسبعين وانتهى منها سنة ثمان وسبعين .

(٣) ياقوت معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٠ .

« لقد لقينا من هذا الشامي شرًا يفعل بنا كل ليلة ما ترى (تريد المكروه) » .

وقد شكوته إلى مشيخة أصحابه . فقال لها زوجها إئـذني لـه فـأذنت لـه فـدخل وقال لها قد آن لكم ، وكانت المرأة قد بخرت منزلها وطيبته وبعد دخوله أغلق زوج المرأة الباب وقتله فلما أذن الفجر خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه : « إذا صليت الفجر فابعثي إلى الشاميين ليأخذوا صاحبهم فإذا أحضروك عند الحجاج فاصدقيه الخبر على وجهه ففعلت فأحضرت لدى الحجاج فأخبرته بحقيقة الأمر فقال للشاميين : « خذوا صاحبكم لا قود له ولا عقل فإنه قتيل الله إلى النار » ثم نادى مناديه (لا ينزلن أحد على أحد واخرجوا فعسكروا) وبعث روادًا يرتادون له منزلاً حتى اهتدى إلى مكان واسط فبنى فيه [١] .

وهكذا لم يشأ الحجاج أن ينزل الشاميين الذين لم تكن لهم منازل ثابتة على الكوفيين وذلك كي يمنع الخلل ويرفع المستوى الأدبي والأخلاقي لجنوده الشاميين فأمر ببناء واسط .

ونحن نرى أن أسبابًا أخرى فوق السببين السابقين اجتمعت لدى الحجاج دفعت به إلى بناء واسط :

أولاً : أن يكون الحجاج في مكان وسط بين البصرة والكوفة [٢] فاختار هذا الموقع الممتاز على الضفة الشرقية لنهر دجلة في موضع متوسط ـ تقريبًا ـ بين البصرة والكوفة والأهواز إذ إنها تبعد عن كل منها نحو الخمسين فرسخًا على رواية المسعودي وياقوت [٣] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٨٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٣ .

(٢) موير . الخلافة ص٣٤٩ .

(٣) المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص٣١١ وياقوت معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٨ وقد رجعنا إلى خريطة القيادة العليا البريطانية الصادرة في سنة ١٩٤٤ فوجدنا أن واسط تبعد عن الكوفة ٩٥ ميلاً وعن البصرة ١٥٥ ميلاً وعن الأهواز ١٧٥ .

ويجب أن يلاحظ أن هذا التقدير في نظرنا ليس دقيقًا الدقة كلها وأنه ساقه كتاب العرب على وجه التقريب [١] .

ثانيا : يبدو لنا أن الحجاج بعد أن أخضع الثائرين وهدأت الحال أراد أن يخلد ذكره ببناء مدينة عظيمة .

وكما اختلف المؤرخون في سبب بناء الحجاج لها اختلفوا كذلك في سبب تسميتها بهذا الاسم .

فيروي ياقوت خمسة عشر بلدًا تحمل كل منها اسم واسط ويقول إن واسط الحجاج أعظمها وأشرفها وأن سبب هذه التسمية أنه كان قبل عمارة واسط هناك موضع يسمى واسط قصب فلما عمر الحجاج مدينته سماها باسمها [٢] .

أما البلاذري والمسعودي [٣] فيعزوان تسميتها بواسط القصب أن واسط كانت أرض قصب فسميت بواسط القصب .

وفي رأينا أنها سميت بهذا الاسم لأن موقعها متوسط بين البصرة والكوفة والأهواز. ومهما يكن من أمر فقد كتب رائد الحجاج إليه بالخبر ومدح له الموضع فكتب إليه (اشتر لي متسعًا أبني فيه المدينة) .

وكان موضع واسط لرجل من الدهاقين فساومه بالموضع فقال له الدهقان : ما يصلح هذا الموضع للأمير . فقال : لم ؟؟ فقال أخبره عن ثلاث خصال تخبره بها ثم الأمر إليه ؛ قال وما هي . ؟؟ قال : هذه بلاد سبخة البناء لا يثبت فيها وهي شديدة الحر والسّموم وإن الطائر لا يطير في الجو إلا ويسقط ميتًا لشدة الحر ، وهي بلاد أعمار أهلها قليلة . فكتب بذلك إلى الحجاج فقال الحجاج هذا رجل يكره

---

(١) اشترك ـ أرض بابل القديمة أخذا عن الجغرافيين العرب ص٣١٨ .

(٢) معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٨ .

(٣) فتوح البلدان ص٢٩٨ والتنبيه والإشراف ص٣١١ .

مجاورتنا فأعلمه أننا سنحفر بها الأنهار ونكثر منها ومن الغرس فيها ومن الزرع حتى تغدو وتطيب وأما قوله أنها سبخة وأن البناء لا يثبت فيها فسنحكمه ثم نرحل عنه فيصير لغيرنا وأما قلة أعمار أهلها فهذا إلى الله تعالى لا إلينا وأعلمه أننا نحسن مجاورتنا له ونقضي ذمامه بإحساننا إليه .

فأخبر الرجل الدهقان بكلام الحجاج واشتراه منه [١] .

فسار الحجاج إلى المكان الذي ستبنى فيه مدينته لينظره ؛ ومن القصص المتواتر أنه لما وصل إليه إذا براهب قد أقبل على حمار له فلما كان بموضع واسط بال الحمار فنزل الراهب واحتفر ذلك البول واحتمله ورماه في دجلة والحجاج يراه فقال : عليَّ به فأتى به فقال : ما حملك على ما صنعته ؟ قال : نجد في الكتب أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده . فاختط الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد في ذلك الموضع [٢] .

وغني عن البيان أن أمثال هذه النبوءات في كتابات المؤرخين العرب كثيرة وسترى أمثالها في مواطن متعددة .

ويلاحظ ذلك الأستاذ ڤان ڤلوتن فيقول : [٣] إن هذه النبوءات أمر شائع في كتابات المؤرخين العرب ينقلونها عن رهبان النصارى وعن اليهود .

وتتكون واسط من بلدين يقعان على ضفتي دجلة ؛ البلد القديمة التي كانت مقام الدهاقين على الضفة الشرقية وهي كسكر ، فبنى الحجاج مدينته على الضفة الغربية وربط بين البلدين بقنطرة من المراكب [٤] وهذا يشبه ما كان في أمر الكوفة عند بنائها فقد بنيت قرب المدينة القديمة المسماة بالحيرة .

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٤ ، ١٨٥ وابن الأثيرجـ٤ ص٩٣ والعيني ـ عقد الجمان جـ١١ ص٣٣٨ .

(٣) السيادة العربية ص١١١ .

(٤) اليعقوبي ـ البلدان ص٣٢٢ .

المدينة اليوم واقعة على نهير بين دجلة والفرات يقال له شط الغراف (تراجع خريطة القيادة العليا =

وفي واسط الغربية بنى الحجاج مسجده وقصره والقبة الخضراء التي أطلق عليها اسم خضراء واسط [١] وأدار الحجاج سور المدينة وجعل حولها خندقين .

ويصف ياقوت بعض أبعاد العمائر فيقول إن القصر كان ذراعه أربعمائة في مثلها وذراع المسجد الجامع مائتين في مائتين [٢] كما يصف لنا أيضًا السجن الذي أقامه الحجاج داخل المدينة وكان يسمى ديماس [٣] ومشرعة الفيل التي سميت كذلك لأن محمد بن القاسم ـ والي السند ـ أهدى إلى الحجاج فيلاً فحمل من البطائح في سفينة فلما صار بواسط أخرج في المشرعة التي دعيت بعد ذلك بمشرعة الفيل [٤] ونقل الحجاج إلى قصره والمسجد الجامع أبوابًا من المدن المجاورة فضج أهل هذه المدن وقالوا : قد أومنا على مدننا وأموالنا فلم يلتفت إلى قولهم [٥] .

وقد نقل هذه الأبواب أبو جعفر المنصور فيما بعد من واسط وجعلها لمدينته الجديدة (بغداد) [٦] .

وقد أنفق الحجاج على قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم فقال له كاتبه صالح بن عبد الرحمن : هذه نفقة كبيرة وإن احتسبها لك أمير المؤمنين وجدها في نفسه .

فقال الحجاج : فما نصنع ؟ قال الحروب لها أجمل . فاحتسب منها في الحروب أربعة وثلاثين ألف ألف درهم واحتسب في البناء تسعة آلاف درهم [٧] .

ولما أتم الحجاج بناء القبة الخضراء جلس في صحنها ،وقال : « كيف ترون قبتي

= البريطانية طبعة سنة ١٩٤٤) ولم نستطع أن نحقق ما إذا كان دجلة يجري وقتئذ في هذا المجرى أم لا .

(١) اليعقوبي ـ البلدان ص٣٢٢ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٢ .

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٤ ص١٨٧ .

(٤) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨١ والبلاذري ص٢٩٩ .

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨١ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٦) تاريخ بغداد جـ١ ص٧٥ .

(٧) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨١ .

هذه » ؟ قالوا : « ما بني لأحد قبلك مثلها » قال : « فإن فيها مع ذلك عيبًا ، فهل فيكم من يخبرني به » قالوا : « لا نرى بها عيبًا » فأمر بإحضار الغضبان القبعثري - وكان في حبسه - لعلمه بصراحته وجرأته فأتى به يرسف في قيوده فلما دخل عليه قال له الحجاج « إني أراك قد سمنت » قال : « أيها الأمير القيد والرتعة ومن يكن ضيف الأمير يسمن » قال « فكيف ترى قبتي هذه » قال « أرى قبة ما بني لأحد مثلها إلا أن بها عيبًا فإن أمنني الأمير أخبرته به » قال « قل آمنا » . قال « بنيت في غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم فما لا يتمتع به من طيب ولا لذة » قال « ردوه فإنه صاحب الكلمة الخبيثة » ولكنه عفا عنه بعد ذلك [(١)]

ولما فرغ من بناء المدينة كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان (إني قد اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطًا) ولذلك سمي أهل واسط بالكرشيين [(٢)] .

واتخذ المناظر بينها وبين قزوين - وكانت قزوين ثغرًا حينئذ - حتى يمكن درء الخطر عن ذلك الثغر.

وبعد أن أتم الحجاج مدينته وما يلزمها وأصبح لا حاجة له بالأنباط الذين

---

(١) المسعودي - مروج الذهب جـ٢ ص١٠٥ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص٢٩٨ وياقوت - معجم البلدان جـ٨ ص٣٧٩ ، ٣٨٠ . وكان إذا مر أحد من سكان واسط بالبصرة ناداه أهل البصرة (ياكرشي) فتغافل عن ذلك وكأنه لا يسمع أو أن الخطاب ليس معه . ويروي ياقوت جـ٨ ص٣٨٢ ، ٣٨٣ أنه جاءه بخوارزم أحد أعيان أدبائها ؛وسأله عن هذا المثل « تغافل واسطي » وقال له : قد أطلت السؤال عنه والتفتيش عن معناه فلم أظفر به ؛ ولم يكن لي في ذلك الوقت به علم حتى وجدته بعد ذلك فأخبرته ثم وضعته أنا ههنا .

ويفسر الأستاذ فراتياج في كتابه الأمثال العربية جـ١ ص٢٥٠ هذا الحديث بأن الحجاج حين أرغم أهالي هذه الناحية على العمل في البناء كانوا يهربون وينامون على الحصير في الجامع فإذا دخل عليهم رجال الشرطة يصيحون بهم : ياأهل واسط فكانوا يتغافلون ويظهرون أن الخطاب ليس لهم حتى يتخلصوا بذلك من العمل فقيل هذا المثل .

استخدمهم في البناء أمر بإخراج كل نبطي بها وقال « لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة » [١] .

وقد وصف الصفدي الحارثي الحجاج بالحمق لأنه بنى تلك المدينة في بادية النبط وأمرهم بعدم دخولها فلما مات دلفوا إليها من قريب [٢] .

واتخذها الحجاج مقر حكومته وأسكنها الشاميين وبعض الأسر الأجنبية وكثيرًا من ترك ما وراء النهر معظمهم من بخارى جلبوا أسرى حرب [٣] وبعض وجوه المصرين (البصرة والكوفة) [٤] .

وفي تقديرنا أن الحجاج جعل من واسط مدينتين ، جعل إحداهما مساكن لجند الشام بعيدين عن أهل الكوفة منعًا لما يتطرق إليهم من هؤلاء من بذور الفتنة وتوسطًا بهم بين أمهات مدن العراق الثلاثة ، الكوفة والبصرة والأهواز . حتى إذا ما قامت فتنة في إحداها هرع إليها جند الشام من واسط .

أما المدينة الأخرى - أو بعبارة أدق الحي الآخر - فقد جمع فيه الحجاج بين أبهة الإمارة بابتناء المسجد والقصر وغير ذلك من المباني ، ثم أسكنه فئات مختلفة من الناس ؛ رأى مصلحته في أن يكونوا تحت بصره في العاصمة التي اتخذها مقرًا له بدل أن يقيموا بعيدًا عنه في الكوفة والبصرة فيكون لهم في غيبته عنهم فرصة لتفريخ المؤامرات . ويبدو أن هذا الخليط من الناس استمر يقيم بواسط حتى كانت أيام الدولة العباسية فقال فيهم بشار بن برد :

على واسط من ربها ألف لعنة ... وتسعة آلاف على أهل واسط

أيلتمس المعروف من أهل واسط ... وواسط مأوى كل علج وساقط ؟!

---

(١) ياقوت - معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٢ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين جـ١ ص٢٢٦ ، جـ٣ ص٢٣٢ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٤) ابن شاكر جـ٥ ص٨٢ .

نبيــط وأعــلاج وخــوز تجمعــوا　　　شرار عبـاد الله من كل غـائــط [١]

ومن طريف ما يروى من القصص في هذا الشـأن أن الحجاج كان معجبًا بقصره فبينما هو ذات يوم في مجلسه إذ أتاه بعض خدمه فـأخبره أن جـاريـة من جواريـه ـ وكان مائلاً إليهـا ـ قـد أصـابها لم فغمـه ذلـك ووجـه إلى الكوفـة يطلب إشخـاص عبد الله بن هلال الذي يقال له صديق إبليس ؛ فلما قدم عليه أخبره بذلـك فقـال : أنا أحل السحر عنها فحله عنها وزال ما كان بها فقال الحجاج : « ويلك إني أخـاف أن يكون هذا القصر محتضرًا » فقال : « أنا أصنع فيه شيئًا فلا ترى ما تكرهه » .

فلما كان بعد ثلاثة أيـام جـاء هلال بن عبـد الله ودخل على الحجـاج يخطر بين الصفين وفي يده قلة مختومة فقال : « أيها الأمير تأمر بالقصر أن يمسح ثم تدفن هـذه القلة في وسطه فلا ترى فيه ما تكرهه أبدًا » . فقال الحجاج : يا ابن هلال وما علامة ذلك » ؟ قال : « أن يأمر الأمير برجل من أصحابه بعد آخر من أشداء أصحـابـه حتى يـأتي على عشرة منهم فليجهــدوا أن يستقلوا بهـا من الأرض فـإنهم لا يقدرون » .

فأمر الحجاج من حضره بذلك فكان كما قال ابن هلال .

وكان بين يدي الحجاج مِخْصرة فوضعها في عروة القلة ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استـوى على العرش ﴾ [٢] ثم رفـع القلـة فـارتفعت على المِخْصرة فـوضعهـا ثم فكر منكسًا رأسه ساعـة ثم التفت إلى ابن هلال فقـال لـه : يـاابن هلال : « خـذ قلتـك والحق بأهلك » قال : ولِمَ ؟ قال : « إن هـذا القصر سيخرب بعـدي وينزلـه غيري ويحتفر محتفر فيجد هذه القلة فيقول لعن الله الحجاج إنما كان يبدأ أمره بالسحر » . فأخذها ولحق بأهله [٣] .

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

ولا يبعد أن تكون هذه القصة من الموضوعات على الحجاج فإذا افترضنا صحتها فإنها تدل على أن الحجاج كان لا يؤمن بالدجل والشعوذة .

وبقيت واسط مقرًا للحكومة حتى بعد موت الحجاج وصارت أعظم الأوساط الحربية في العالم الإسلامي واحتفظت بأهميتها من الوجهة « الاستراتيجية » طوال عهد الخلافة [١] .

وزادت ثروة واسط بعد عهد الحجاج ؛ وقد كان حولها قرى وبساتين كثيرة ومزارع خصبة ومروج بها النخيل الكثيرة وشجر الفاكهة .

أما السهل القريب منها فقد زرع فيه القمح الكثير وكان الناس يصيدون من دجلة كميات كبيرة من السمك .

وفي أيام ياقوت الحموي الذي زار واسط عدة مرات كانت تجارة المواد الغذائية وأسواقها رائجة رواجًا عظيمًا وكانت الأغذية رخيصة حتى أن جرة الزبد كانت بدرهمين وكان يشتري الناس بدرهم اثنتي عشرة دجاجة أو أربعة وعشرين فروخًا وبنفس هذا الثمن كان يشتري الإنسان اثنتي عشرة رطلاً من السمن وأربعين رطلاً من الخبز وكذلك مائة وخمسين رطلاً من اللبن وهكذا بقية صنوف الأطعمة [٢] .

ومع هذا فإن مدينة واسط لم تسلم من ألسنة أعداء الحجاج ولا من قدح الشعراء الساخرين [٣] وها هو ذا أيوب بن القرية يظهر الشفقة على الرجل الذي بنى هذه المدينة فيقول : « إنه بناها في غير بلده ويتركها لغير ولده » [٤] .

آثار واسط :

قد عنيت دار الآثار في بغداد بالتنقيب عن آثار واسط وأسفر التنقيب عن

---

(١) موير ـ الخلافة ص٣٤٩ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٣ .

(٣) راجع ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٩٨ .

اكتشاف مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وحصن وسوق ؛ وقد عرضت الآثار التي استخرجت من الحفائر المذكورة في غرفتين من غرف دار الآثار العربية (ببغداد) .

ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك في أن المسجد الذي اكتشف هو المسجد الذي شيده الحجاج بن يوسف الثقفي عند تأسيس المدينة ؛ وقد أسفرت أعمال الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتميترًا ؛ والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة [١] .

وقد بنى الحجاج مدنًا أخرى فمن ذلك مدينة النيل [٢] التي بناها على النهر الذي احتفره وسماه بهذا الاسم وفي عهده بنيت أيضًا بلدة مشهورة بنواحي خوزستان بالقرب من رستقباذ سميت بمكرم نسبة إلى مكرم بن معزاء الحارثي صاحب الحجاج [٣] ، وقيل مكرم مولى للحجاج أرسله الحجاج لمحاربة خُرَّزاد بن إياس حين عصى وتحصن بقلعة تعرف به ، فلما طال عليه الحصار نزل مستخفيًا ليلحق بعبد الملك بن مروان فلحق به مكرم وأخذه وبعث به إلى الحجاج [٤] .

وبنى محمد بن القاسم للحجاج أثناء ولايته لفارس مدينة شيراز [٥] . وبنى الحكم ابن نهيك الهجيمي في أرجان مسجدها ودار إمارتها - وكان والي كرمان من قبل الحجاج - [٦] .

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٢٤٧ من السنة السادسة (٢٨ مارس سنة١٩٣٨) .

(٢) بليدة صغيرة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير ينخلج من الفرات حفره الحجاج وسماه بنيل مصر - ياقوت - معجم البلدان جـ٨ ص٣٦٠ والبلاذري ص٢٩٨ .

(٣) ياقوت - معجم البلدان جـ٦ ص١٧٦ والبلاذري ص٣٩٠ .

(٤) ياقوت - معجم البلدان جـ٦ ص١٧٦ والبلاذري ص٣٩١ .

ويروى أن مكرمًا لم يبن المدينة من أساسها وإنما كانت قرية قديمة لم يزل مكرم يبني ويزيد فيها حتى صارت مدينة ومعسكراً للمسلمين . القلقشندي - صبح الأعشى جـ٤ ص١٠٠ والجندية في الإسلام ص٣٠ .

(٥) ياقوت - معجم البلدان جـ٥ ص٣٢٠ والاصطخري - المسالك والممالك ص١٢٤ .

(٦) البلاذري - فتوح البلدان ص٤٠٠ .

عنايته بالأسطول :

وأخيرًا نختم هذا الفصل بما قدمه الحجاج إلى الأسطول الإسلامي من خدمات فهو أول مجر لنوع من السفن وهي السفن المقيرة والمسمرة والمدهونة والمسطحة غير ذوات الجآجيء [1] .

وبذلك أضاف الحجاج إلى العمارة الإسلامية بالخليج الفارسي أنواعًا جديدة من السفن رآها أكثر ملاءمة للظروف التي عاش فيها .

(١) ابن رستة ـ الأعلاق النفيسة م٧ ص١٩٥ ، ١٩٦ والجاحظ ـ البيان والتبيين ج٢ ص٢٤٢ ، ٢٤٣ وسفن الأسطول الإسلامي ص١٠ ، ٢٢ .

الفصل الرابع
علاقة الحجاج بخلفاء وأمراء بني أمية

ولي الحجاج العراق عام خمسة وسبعين وظل واليًا عليه حتى توفي سنة خمس وتسعين . فهو بذلك قد عمل لخليفتين : عبد الملك والوليد .

أما ولايته لعبد الملك بن مروان فقد قامت إثر تجربة واختبار في الحجاز أنتجتا محبة وتقديرًا في العراق .

وأما ولايته للوليد فكانت وليدة وصية أوصاها عبد الملك لابنه في أخريات أيامه [١] ؛

أبلى الحجاج في حرب ابن الزبير في الحجاز أحسن البلاء وثبت بيمينه دعائم الملك الأموي بالقضاء على تلك الدعوة التي كادت تودي بالدولة ، واستهدف الحجاج في ذلك لكل أنواع القذف والاتهام ، فكان جزاؤه من عبد الملك ـ مهما قيل في قصة إقصائه عن الحجاز من أقوال ـ أن عينه واليًا على أكبر ولاية إسلامية في عصره وأسلم إليه من السلطات ما كاد به الحجاج يصبح الخليفة الحقيقي في العراق .

على أن عبد الملك لم يسلم للحجاج مقاليد الأمور دون مبرر . فلقد ولي الحجاج العراق ومرجل الثورة يغلي ونار الفتن تضطرم فلم يكد يصل إلى العراق حتى واجه ـ في عاميه الأولين ـ ثلاث فتن هي ـ فتن الأزارقة والصفرية ومطرف بن المغيرة ولم تكن نارها مشبوبة ضد الحجاج ـ فإن الحجاج لم تربطه بالقائمين بالفتن أية رابطة ـ وإنما كانت مشبوبة ضد الدولة الأموية .

جرد الحجاج سلاح الحزم والعزم وواجه الموقف بجنان ثابت ويد باطشة فكان له في النهاية ما أراد فكان الحجاج بذلك عند حسن ظن الخليفة عبد الملك كما كان الخليفة عند حسن ظن الحجاج.

ذلك أنه ما كاد ينتهي من إخماد الفتن حتى وسع الخليفة من دائرة ولايته

---

(١) المسعودي جـ٢ ص١١٠ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٦٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٧٢ .

فأصبحت في سنة ثمان وسبعين تشمل خراسان وسجستان .

لم يحدث خلال هذه الفترة بين الخليفة وواليه إلا أزمة واحدة تلك هي آزمة أنس ابن مالك التي عكرت صفو العلاقات بينهما فترة من الزمن ولكن المياه لم تلبث أن عادت إلى مجاريها واستمتع الحجاج من عبد الملك بما تعوده من ثقة .

ثم جاءت بعد ذلك ثورة ابن الأشعث ، وهي ثورة إذا قيست بما سبقها من ثوارت كانت هي الثورة الجدية التي تستأهل من والي العراق المزيد من الهمة واليقظة والحزم . تلك الثورة التي أحس فيها الحجاج بأن كيان الدولة في خطر والتي استنصر فيها هذا الثائر بملك من الملوك المعادين للدولة الإسلامية فكان لزامًا على الحجاج أن يفرط في القسوة في معاملة الخصوم قضاءً على روح الثورة في البلاد .

ومن هنا كانت موقعة دير الجماجم وما تلاها من أحداث رواها المؤرخون وكان لنا فيها رأي قررناه [١].

إلا أن الحجاج كان وقتئذ قد وصل إلى المرحلة التي تثير الحسد في نفوس منافسيه في بلاط الخليفة لذلك نرى هؤلاء قد صوروا الحجاج لعبد الملك مسرفًا فى الدماء والآموال ، مستهينًا بسلطة الخليفة .

حدث ذلك في وقت كان فيه عبد الملك قد استتب له الأمر بالقضاء على الثورات فتبادل والحجاج تلك الكتب التي عني المؤرخون القدامى بنقلها حرفيًا تدليلاً على ما ذهبوا إليه من غضب الخليفة على واليه في العراق من ناحية وعلى نزعة الطغيان في الحجاج من ناحية أخرى .

والموقف في تقديرنا لم يكن يستحق تلك الأهمية التي أضفاها عليه المؤرخون . فلقد حاول الخليفة أن يرضي خاصته بإغلاظ القول إلى واليه فإذا بذلك الوالى يدافع عن نفسه في كل مرة دفاعًا مقنعًا فلا تلبث العلاقة بينه وبين الخليفة أن تعود إلى سابق عهدها من الثقة فتقوم قيامة الخاصة مرة جديدة فيعيد التاريخ نفسه .

---

(١) راجع الكتاب ص٢٨٥ .

على هذا الوجه كانت العلاقة بين الحجاج وعبد الملك في أخريات أيامه .

ويبدو لنا أن أخصاء عبد الملك كانوا يهاجمون الحجاج عند الخليفة متذرعين بالدين وأحكامه مصورين الحجاج لسيده متجاوزًا الحدود الشرعية ، معتمدين في ذلك على أن الخليفة الأموي يجب أن لا يرضيه بُعْد واليه عن أحكام الدين ؛ وبذلك استطاعوا أن يستكتبوه تلك الكتب التي رمى فيها الحجاج بكل نقيصة من ناحية الدين وها هو ذا خطاب الخليفة للحجاج بعد موقعة دير الجماجم يقوم دليلاً على ما نذهب إليه إذ يقول :

« أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الخطأ الدية وفي العمد القود وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه فإنما أمير المؤمنين أمين اللّه وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المومنين أمران لين وشدة فلا يؤنسنك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وظن بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على القوم فلا تقتلن إلا جانحًا أو أسيرًا .

إذا أنت لم تطلب أمورًا كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنت طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلي هاربًا	إلى الله منه ضيع الدر حالبه
فإن تر منّي غفلة قرشية	فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تر مني وثبة أموية	فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تلمنّي والحوادث جمة	فإنك مجزي بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك مني وإن تعد	يقوم بها يومًا عليك نوادبه
ولا تدفعن للناس حقًا علمته	ولا تعطين ما ليس لله جانبه

وإن الباحث ليجد في هذا الكتاب ما لايتمشى مع منطق خليفة عرف بحسن

الإلمام بقواعد الدين إذ كيف يتأتى أن يُقِيد الحجاج نفسه فيمن قتلهم عامدًا ؟؟ أيقتل نفسه ؟؟ أم يكلف أحدًا من رجاله بأن يقتله ؟؟ وقصة إسراف الحجاج في الدماء قصة قد تناولناها في مكانها بالبحث والتعليق ودفعنا عن الحجاج ما وجه إليه فيها من اتهام .

وبعد فإذا كان الحجاج قد أسرف في الدماء فأكبر ظننا أن عبد الملك يجب أن يكون آخر من يتحدث إليه أو يكاتبه في ذلك . ألم يكن هو الذي أمر الحجاج بأن يعرض الناس على السيف فمن أقر منهم بالكفر خلى سبيله ومن لم يقر قتله [١] ؟؟ ألم يشفع الحجاج لسعيد بن جبير ؟؟ فأجابه عبد الملك قائلاً [٢] : « إني لم أبعثك مشفعًا وإنما بعثتك مناجزًا لأهل الخلاف والمعصية » [٣] ؟؟

ويبدو لنا أن الحجاج قد أدرك العوامل التي أملت على عبد الملك أن يكتب له هذا الخطاب كما أدرك أن عبد الملك لا يمكن أن يعني كل ما جاء في خطابه . إذ نراه في الرد عليه يقول : « فإن يكن قتلي للعصاة سرفًا وإعطائي أهل الطاعة تبذيرًا فليمض لي أمير المؤمنين ما يريد حتى أنتهي إليه ولا أتجاوزه [٤] ؛ وكأننا بالحجاج يقول لعبد الملك بلغة واضحة : أنت تأمرني بالإسراف في الدماء ثم تعود فتحاسبني على ذلك ؟؟ لتكن بعد ذلك أوامرك صريحة ألتزمها ولا أعاقب منك على التزامها .

ولو أن الحجاج أسرف في الدماء ـ إن صح أنه أسرف ـ بغير أمر الخليفة لكانت قصة القود في نظره من الأهمية بمكان ولتعرض لها في رده .

ومن عجب أن الخليفة الذي رعد وبرق في خطابه لواليه عاد فقال للكاتب : « اكتب إليه هدئ روعه . خاف أبو محمد صولتي ولن أعود لشيء يكرهه » [٥] .

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٨ وابن عساكر جـ٤ ص٦٧ والأبشيهي ـ المستطرف جـ١ ص٥٢ .

(٢) ابن عبد ربه جـ١ ص١٨٦ ، جـ٣ ص١٨ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤١ .

(٤) راجع المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٨ ، ٩٩ وابن عساكر جـ٤ ص٦٧ ، ٩٨ .

(٥) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٩ .

قال الخليفة ذلك على الرغم من أن الحجاج لم يجزع لكتـاب أمير المؤمنين اعتقـادًا منه أنه كان في جـانب الحق فيما فعل وأن أمير المؤمنين مـا كتب إليـه مـا كتب عن استقلال في الرأي وحسن علم بالأمور .

وإذا أعوزنا في هذين الكتابين الـدليل القـاطع على تـأثر عبـد الملـك بن مروان بحاشيته ومدى إدارك الحجاج للحال التي كانت قائمة في بلاط الخليفة بدمشق وجدنـا ذلك واضحًا في تصرف الخليفة يوم أن بعث للحجاج بكتاب شديـد اللهجـة على يـد مولاه نباتة ، وكذلك وجدناه واضحًا في رد الحجاج على ذلك الكتاب .

ألم تر أن الخليفة كان يقدر صولة الحجاج حق قدرهـا فيوعز إلى نبـاتـة قـائلاً : « العجل العجل حتى تأتي العراق فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب مـا يكون منه فإذا جبن عند قراءته واستيعاب ما فيه فاقطعه عن عملـه وانقلع معـه حتى تـأتي به .... وإن هش للجواب ولم تكشفه أرنبة الحيرة فخذ منه ما يجيب بـه وأقرره على عمله ثم اعجل عليَّ بجوابه » .

وعبارة الخليفة في ذلك واضحة لا تحتاج إلى تعليق فهذا مـدى خشيتـه للحجـاج وتقديره لسطوته في العراق .

أما رد الحجاج فقد قرر فيه ـ في صراحة واضحة ـ أن الخليفـة قـد وقع فيما كتب به إليه تحت تأثير حـاشيتـه إذ يقول « وقـد حجبني عن نواظر السعـد لسـان مرصـد ونافس حقد انتهز به الشيطان حين الفكرة فـافتتح بـه أبواب الوسواس بمـا تحتويـه الصدور فواغوثاه باستعـاذة أمير المؤمنين من رجيم إنمـا سلطـانـه على الـذين يتولونـه واعتصامًا بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قسم الأيمـان وصـادق السنـة . فقـد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقًا نبا عنه كيده وكثر عليه تحسره .... الخ .

ويظهر لنا شعور عبد الملك الكامن نحو الحجاج في تعليقه على الخطـاب بعـدَ أن قرأه مبتسمًا (فلما مضى فيه بدت له سن سوداء) ثم قـال : صلوات الله على الصـادق

الأمين (إن من البيان لسحرًا) [١] .

وخلاصة القول أن الحجاج قد تمتع في أيام عبد الملك بن مروان بكل مظاهر العز والسلطان .

هذا ولم يشب صفاء العلاقة بينهما إلا حادث فردي ذلك هو حادث أنس بن مالك ثم لم تلبث بعده المياه أن عادت إلى مجاريها .

أما تلك الكتب المتبادلة بينهما في أواخر أيام عبد الملك فقد قررنا أنها كانت نتيجَة ضعف عبد الملك لحاشيته ، التي كانت تنفس على الحجاج ما أصاب من مرتبة وجاه ، وما وصل إليه من عظمة ومجد .

وقصة هؤلاء الوشاة قصة طويلة ؛ ولو صح فيها كل ما كتبه المؤرخون لكان عبد الملك ألعوبة في يد اللائذين به يملون عليه ما يريدون ويتصرف هو على ما يشتهون .

كان عروة بن الزبير عاملاً لعبد الملك على اليمن فاتصل به أن الحجاج مجمع على مطالبته بالأموال التي بيده وعزله عن عمله ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوفًا من الحجاج فلما بلغ ذلك الحجاج كتب لعبد الملك كتابًا شديد اللهجة ختمه بقوله « فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام » .

فلما قرأ الخليفة الكتاب بعث به إلى عروة ثم قال له : « إن كتاب الحجاج قد ورد فيك وقد أبى إلا إشخاصك إليه » ثم قال لرسول الحجاج « شأنك به » فالتفت إليه عروة مقبلاً عليه ثم عاب استسلام الخليفة لرأي الحجاج ثم زاد على ذلك فعاب الحجاج قائلاً : « لئن كان الملك بجواز الأمر ونفاذ الرأي إن للحجاج لسلطان عليك

(١) راجع الخطابيين في العقد الفريد جـ٣ من ص٧ ـ ٩ .

ويحدثنا ابن الأثير جـ٤ ص١٨١ أن ابنة للحجاج تزوجت بابن لعبد الملك ولكن ابن الأثير لم يحقق لنا أية بنات الحجاج تزوجت أي أبناء عبد الملك . ومن يدري ؟ فقد يكون ابن عبد الملك في هذه القصة هو الحجاج وقد يكون هذا ألزواج هو الذي دعا أو عضد الحجاج على أن يهب الدار للحجاج .

ينفذ أموره دون أمورك .... وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه » .

قال فنظر في كتاب الحجاج مرة ورفع بصره إلى عروة تارة ثم دعا بدواة فكتب إليه كتابًا لا يعنينا عنفه وإنما يعنينا أنه احتوى تلك الألفاظ التي فاه بها عروة [١] .

وفي اعتقادنا أن مجال الوضع في تاريخ الدولة الأموية كان فسيحًا إذ كتب هذا التاريخ في ظل الدولة العباسية التي كان يطيب لخلفائها أن يشوهوا تاريخ الأمويين ؛ ولو استسلمنا لكل ما كتب عن الدولة الأموية عامة وعن الحجاج وعبد الملك خاصة لكان عبد الملك أضعف خليفة عرفه التاريخ ولكان الحجاج أقسى عامل ذكرت اسمه المصادر .

على أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن عبد الملك ما توفي إلا راضيًا عن الحجاج كل الرضى يؤيد ذلك أنه أوصى به ابنه الوليد خيرًا وكان يقول « الحجاج جلدة ما بين عينيّ » [٢] .

وكتب إليه مرة يلصقه بنفسه ويقول له « أوصيك بما أوصي به البكري زيدًا » [٣] .

وحظى منه بكل تقدير وإعجاب وقد بلغ من إعجاب عبد الملك أن سمى أحد أبنائه (بالحجاج) وقال :

سميته الحجاج بالحجاج   الناصح المغاور الرماج

نصحًا لعمري غير ذي مزاح [٤]

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ٣ ص١٥ .

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٢ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٤٩ وذيل الأمالي والنوادر ص٧١ .

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١١٤ وذيل الأمالي والنوادر ص٧١ .

(٤) أنساب الأشراف جـ١١ ص١٥٥ .

وقد أجاب الحجاج بن يوسف على ذلك بأن وهب لسميه دارًا لـه بـدمشق تعرف بدار الحجاج [١]

ومما دعم علاقة الحجاج السياسية بـالخليفـة أن الحجـاج كان أديبًـا فـذًا فقـد كان عبد الملك يحب مناقشته ويعجب بإجابته وكانت إجـابـة الحجـاج على الـدوام موضع الرضا والاستحسان .

وأمثلة ذلك كثيرة سنأتي على بعضها في حديثنا عن فصاحة الحجاج .

هذا ؛ ولم يـدخر الحجـاج وسعًـا في توطيـد الصلـة بينـه وبين عبـد الملـك فكان لا يرسـل إليـه إلا رسـولاً أمينًـا أو خـادمًـا ذكيًـا . كما أنـه كان على الـدوام يجيب عبد الملك إلى ما يطلب على أحسن وجه .

طلب منه عبد الملك مرة أن يرسل إليه شخصًا عـالمًـا بـالحلال والحرام والفرائض والسنن فأرسل إليه الشعبي [٢].

وبلغ من إعجاب الخليفة به أن أرسله في وفـادة إلى قيصر الروم [٣] كما طلبـه مرة أخرى ليعلم أولاده وليربيهم [٤] .

ويبـدو لنـا أن الحجـاج كان من ذلـك الطراز الأول من السيـاسيين إذ نراه مرة يقول للخليفة « إذا أردت رجلاً عاقلاً فاصلاً كتومًا للسر تتخذه لنفسك وتضع عنـده سرك وما لا تحب أن يظهر من أمرك فاستكتب محمـد بن يزيـد » فكتب إليـه عبـد الملك بحمله إليه فحمله الحجاج إليه [٥] .

وفي يقيننا أن الحجاج لم يرشح محمد بن يزيد إلا بعد أن وثق فيـه وأنـه سيكون

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص١٥٥ .

(٢) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٦ ص١٦٢ وياقوت ـ معجم الأدباء جـ١ ص٩٦ .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ١ ص١٤٩ .

(٤) الأصفهاني ـ الأغاني جـ١٤ ص٩٦ .

(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٤٢ .

في دار الخلافة له لا عليه .

وبذلك استطاع الحجاج بسياسته وكياسته أن يضع رجلاً من رجاله في مركز ممتاز في بلاط الخليفة .

وحدث أن وفد جرير الشاعر على الحجاج بواسط فمدحه واطنب ، فإذا بالحجاج يبعث بجرير إلى دار الخلافة ليمدح أمير المؤمنين (١) .

وفي تقديرنا أن الحجاج خشي أن يغتاب عند عبد الملك بأنه أصبح وله شاعر خاص فبادر بإيفاد جرير إلى دار الخلافة ردًا لهذه الوشاية وليدخل السرور على نفس عبد الملك .

ومن أعقد المشكلات التي اكتنفت علاقة الحجاج ببيت الخلافة موقفه من خالد ابن يزيد بن معاوية وموقف خالد منه .

كانت خلافة عبد الملك وخلافة أبيه مروان من قبل قائمة على أنقاض الفرع السفياني الذي كان يرجو أن تؤول الخلافة إلى خالد بن يزيد من بعد تنازل أخيه معاوية الثاني .

وكان من نتيجة الصراع الذي قام بين الفرعين ـ السفياني والحكمي ـ موقعة مرج راهط التي رجحت فيها كفة المروانيين على كفة السفيانيين .

وكان خالد وقتئذ يافعًا فلما اشتد ساعده في أيام عبد الملك فرض نفسه على بلاطه أميرًا لا يستهان به من أمراء البيت الأموي ؛ وكان عبد الملك لا يملك إلا أن يدنيه من مجالسه محافظة على الكيان الأموي ، ومنطقه في تقريبه ألا خطر منه ـ وإن كان عقله الباطن يوحى إليه بغير ما يفعل جهرة ـ .

أما الحجاج فكان خير من ينتفع بهذا الظرف الذي عرف خبيئته .

حدث في أيام أن كان الحجاج بالحجاز أن خطب خالد بن يزيد رملة بنت

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٧ ص٦٢ والجاحظ ـ التاج في أخلاق الملوك ص١٣٢ ، ١٣٣ وذيل الأمالي والنوادر ص٤٢ .

الزبير ، وكان الحجاج وقتئذ يجلي الزبير عن الحجاز لحساب عبد الملك . فبعث إلى خالد بكتاب يقول فيه « ما كنت أراك تخطب لآل الزبير حتى تشاورني ؛ وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء ؟ وكذلك قال جدك معاوية وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة وشهدوا عليه بالقبيح »[١] .

والمستعرض لهذا الكتاب لا يسعه إلا أن يتساءل : هل كان الحجاج يملك أن يحتج على أحد أفراد الأسرة المالكة في خطبته لأية زوجة ؟؟ .

وكيف سلم عبد الملك بتدخل الحجاج إلى هذا الحد ؟؟

والجواب على ذلك أن الحجاج لم يكن له وقتئذ أن يتدخل في خطبة أحد أعضاء البيت المالك لزوجة مّا ، ولكن خطبة خالد لرملة كانت من النوع الذي يفرض على الحجاج التدخل ، فإن مثل هذه الخطبة كان من شأنها أن تفسد على الحجاج الروح المعنوية في الحجاز فكيف يحارب هو آل الزبير بينما يخطب أبناء الخلفاء منهم ؟؟ .

لذلك رأى الحجاج من واجبه أن يتدخل وأن يعمل على إيقاف هذه الخطبة للأسباب المعنوية والحربية التي رآها .

وفي تقديرنا أن الحجاج ما لبس ثوب الأسد إزاء خالد إلا إعتماداً على ما كان يعلمه عن يقين من فرقة بين خالد وعبد الملك تضمن له تأييد عبد الملك له في مسلكه .

ولعل الحجاج أراد أن يستر كامن رأيه في هذه الخطية بأن التمس نقد خالد في هذه الخطبة بأن أشار إلى أن آل الزبير ليسوا بأكفاء لآل معاوية وأنهم قارعوا أباه على الخلافة وشهدوا عليه بكل نقيصة .

كبر ذلك على خالد فالحجاج لا يعدو أن يكون عربيًا من غير قريش ، فما باله

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص١٣٣ والأغاني جـ١٦ ص٨٥ ، ٨٦ .

اليوم يتطاول على قريش ويوجه لفرع من فروعها ما لا يجوز لعربي مهما عظمت مكانته أن يتطاول إليه .

لذلك نراه يكتب إلى الحجاج (قريش تتقارع فإذا أقر الله الحق مقره كان تعاطفهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم أما قولك إنهم ليسوا بأكفاء فقبحك الله ياحجاج ما أقل علمك بأنساب قريش أيكون العوام كفؤًا لعبد المطلب حتى تزوج صفية وتزوج رسول الله خديجة بنت خويلد ولا تراهم أكفاء لآل أبي سفيان ؟!) [١] .

هذا ؛ ولم يعبأ خالد بموقف الحجاج منه واستمر في خطبته لرملة فكانت زوجًا له . إلا أن خالدًا حفظ على الحجاج موقفه هذا فكان يناوؤه ولا يترك فرصة سانحة إلا ويحاول أن ينال من كرامته وعبد الملك بين هذا وذاك حائر لا يريد أن يرجح كفة خالد لئلا يفقد ولاء الحجاج كما لا يريد أن يرجح كفة الحجاج على خالد ففي ذلك نصرة لغير قرشي على قرشي .

والخليفة بين هذا وذاك يريد أن ينتفع بمواهب الحجاج السياسية والحربية بمثل ما يريد أن ينتفع بولاء خالد وحسن مشورته .

حدث بعد ذلك أن تزوج الحجاج من أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب فدخل خالد على عبد الملك يثير ثائرته على الحجاج فغضب عبد الملك من كلام خالد وقال : « أما كان الحجاج كفؤًا لعبد الله بن جعفر ؟ » [٢] ولكن خالدًا أتى عبد الملك من ناحية حساسة فقال : « ياأمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجاج إليهم فيسعى لحل سلطانه فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير ، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى أني ما أحب أكثر منهم حتى قلت :

أحب بني العوام طرًا لحبها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبًا

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص١٣٣ والأغاني جـ١٦ ص٨٥ ، ٨٦ .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢٦٤ والأغاني جـ١٣ ص١٠٢ ، ١٠٣ .

فأداء الأمانة حملني على ذلك يا أمير المؤمنين فقال عبد الملك : وصلتك رحم قد أديت الأمانة وقضيت الحق . ثم كتب عبد الملك إلى الحجاج إذا قرأت كتابي هذا فطلق ابنة جعفر قبل وضع الكتاب من يدك » فلما وصل إليه الكتاب طلقها [1] .

وبذلك كال خالد للحجاج بنفس الكيل ولكن الفارق بين الحالين أن عبد الملك في المرة الأولى كان لا يملك أن يمنع خالدًا من الزواج سيا وأنه وافق على مقدمات الخطبة . أما في الحالة الثانية فقد رأى أن هذا الزواج يعطي للعلويين فرصة في العراق ما كان أغناه عنها ولذلك أمره بطلاقها تثبيتًا لدعائم الدولة الأموية .

على أن الحجاج ـ وقد أحفظه سلوك خالد قبله في هذه الحادثة ـ صمم على أن يتزوج من هي أَمَسُّ بخالد رحمًا من مطلقته وقد نفذ ذلك فتزوج من أم الجلاس

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٢٦٥ وراجع ابن عساكر جـ٤ ص٥٢ وابن كثير جـ٩ ص١٢١ والمبرد ص١٩٧ .
ويروي ابن عبد ربه جـ١ ص١٤٦ والأبشيهي جـ٢ ص٢٢٠ أن الذي دخل على عبد الملك وطلب منه أن يطلق الحجاج بنت جعفر هو الوليد لا خالد ؛ ولكننا نرجح الرواية الأولى لأسباب ثلاثة .
أولها : أن العلاقة بين الوليد والحجاج كانت ودية .
وثانيها : كثرة المصادر التي روت أن الذي قام بهذه المهمة خالد لا الوليد .
وثالثها : ما روته بعض المصادر : ابن شاكر جـ ٥ ص٢٦٦ **وابن قتيبة** جـ٣ ص٣٠٥ والمبرد ص١٩٧ من أن الحجاج جلس بعد الطلاق يقول في خالد مقالة السوء .
ولعل الذي دفع بعض المؤرخين إلى أن ينسبوا هذا العمل للوليد أن ابن جعفر وفد على عبد الملك بدمشق بعد أن أمر عبد الملك بالطلاق ؛ ولم يعلم ابن جعفر بذلك واستقبال الوليد له استقبالاً جافًا أنبه فيه على ما فعل .
كما يروي المبرد ص١٩٧ أن الحجاج أكره عبد الله بن جعفر على هذا الزواج فاستأجله ابن جعفر في نقلها إليه سنة ليفكر في طريق للخلاص من هذا المأزق فهداه تفكيره إلى أن يخبر خالد بن يزيد فكتب إليه يعلمه بذلك وكان عبد الملك قد أذن للحجاج في هذا الزواج . فورد الكتاب على خالد ليلاً فلم ينتظر حتى الصباح واستأذن على عبد الملك فأذن له وقال له « فيم السرى يا أبا هاشم » فقال « أمر جليل لم آمن أن أؤخره فتحدث على حادثة فلا أكون قد قضيت حق بيعتك » قال : « وما هو » ؟ فذكر له العداوة التي كانت بين آل الزبير وآل أبي سفيان وأن زواجه برملة حببهم إليه ثم قال « فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون وما يقال فيهم والحجاج من سلطانه بحيث علمت » فشكره عبد الملك على نصيحته وكتب إلى الحجاج يأمره بطلاق ابنة جعفر .

بنت عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص [١] .

وكذلك كان خالد بن يزيد والحجاج يتبادلان « المقالب » فكلما رأى الحجاج خالدًا حاول أن يحط من قدره وكذلك كان يفعل خالد .

يروى أن الحجاج مر بخالد بن يزيد وهو جالس في المسجد وعلى الحجاج سيف محلى وهو يتبختر في مشيته فقال رجل من قريش : من هذا الخطار . ؟؟ فقال خالد : « بخ بخ هذا عمرو بن العاص » فسمعه الحجاج فرجع إليه فقال : قلت هذا عمرو بن العاص ؟! والله ما سرني أن العاص ولدني ولا ولدته ولكن إن شئت أخبرتك من أنا ؟؟ أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش والذي ضرب بسيفه هذا مائة ألف كلهم يشهد على أبيك بالكفر وشرب الخمر » . ثم انصرف وهو يقول هذا عمرو بن العاص [٢] .

ووفد الحجاج مرة على عبد الملك فدخل عليه وعنده خالد بن يزيد فقال له خالد : إلى كم هذا البسط إلى كم هذا القتل ؟ فقال : ما دام بالعراق رجل يزعم أن أباك كان يشرب الخمر . فسكت خالد ولم يتكلم [٣] .

سبق لنا أن قررنا أن علاقة الحجاج بعبد الملك كانت نتيجة تجربة واختبار وكذلك كانت علاقة الحجاج بالوليد هي الأخرى نتيجة تجربة واختبار مرن عليهما في حياة أبيه ، كما كانت نتيجة وصية من أبيه له بالاحتفاظ بالحجاج والاستماع لنصحه . فضلاً عن أن الحجاج كانت له على الوليد شبه منة إذ كان من الذين عملوا مخلصين على أن يعهد عبد الملك لابنه الوليد دون أخيه عبد العزيز .

---

(١) المبرد ص١٩٧ وابن شاكر جـ٥ ص٢٦٦ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٣ ص١٠٥ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٢ ص١٠٦ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص١٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٣ والأغاني جـ١٦ ص٨٧ ويروي ابن شاكر جـ٥ ص١٣٧ أنه قال له « كلهم يشهد أن أباك وجدك من أهل النار ثم لم أجد لذلك عندك شكرًا » .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص١٨٣ .

ولا نعدو الحقيقة إذ قلنا : إن الحجاج لكل هذه الأسباب عاش بمثابة الأستاذ للوليد كما عاش الوليد بمثابة التلميذ للحجاج يعمل بقوله ويستمع لمشورته ؛ فنرى الحجاج يكتب إلى الوليد عند توليته الخلافة يهنئه ويقول له « عليك بالإسلام فقوم أوده وشرائعه وحدوده ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم فإنهم قلما يؤتى الناس من خير وشر إلا أفشوه ثلاثة أيام والسلام » [١] .

وها هو ذا الوليد يكتب للحجاج يسأله طريقته في الحكم فيجيبه الحجاج قائلاً : « إني أيقظت رأيي وأنمت هواي فأدنيت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وصرفت السيف إلى النطق المسيء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب [٢] .

وبينما كان الحجاج - في حياة عبد الملك - يرمى بالإسراف في الأموال إذا بنا نراه أيام الوليد يأخذ على الوليد إسرافه ويكتب له في ذلك ينكر عليه هذا الإسراف ويبين له وجه الخطأ فيه فيقف الوليد منه موقف التلميذ من الأستاذ فيجيبه قائلاً « لأجمعن المال جمع من يعيش أبدًا ولأفرقنه تفريق من يموت غدًا [٣] .

ويبدو لنا أن الحجاج - بما أوتي من نفوذ في إمارته وحظوة لدى الخليفة - قد استهدف لعداوة غير واحد من أعضاء البيت المالك .

فهذا عمر بن عبد العزيز وكان واليًا على الحجاز يرى في تصرفات الحجاج في العراق ما لا يتمشى ونظرية الحكم الصالح فيكتب إلى الوليد ينبهه إلى عسف الحجاج مع أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية [٤] .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٧ ، ٤٨ .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ١ ص١٠ ، جـ٣ ص١٢ وابن قتيبة - عيون الأخبار جـ١ ص١٠ والنويري جـ٦ ص٤٢ .

(٣) ابن عبد ربه العقد الفريد جـ٢ ص١٥٩ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٢٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٩ والعيني جـ١١ ص٣٣٤ وراجع ابن كثير جـ٩ ص٨٨ والأتابكي جـ١ ص٢٢٢ .

ولعل عمر فعل ذلك إجابة لوحي من عقله الباطن إذ كان يأخذ على الحجاج أنه مالأ عبد الملك على أبيه عبد العزيز لمصلحة الوليد .

أما الوليد فأكبر ظننا أنه كان مدركًا لما بين الحجاج وعمر لذلك نراه لا يعير كتاب ابن عمه الأهمية التي تتناسب ومقام كاتبه ؛ وعندئذ نرى الحجاج يكيل لعمر بنفس الكيل فيكتب إلى الوليد (إن من َقبلي من سراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى مكة والمدينة وأن ذلك وهن) [١] .

ويقف الوليد من الحجاج موقفًا يختلف عن موقفه من عمر بن عبد العزيز يؤمن الوليد بما قاله الحجاج ويقرر في نفسه أن سياسة عمر في الحجاز لا تتناسب مع حزم الحجاج في العراق ويخرج من ذلك إلى الجزم بعدم صلاحية عمر للحجاز ؛ ولكنه يريد أن يدبر أمر الحجاز قبل إخطار عمر بعزله ويريد أن يدبر هذا الأمر بمشورة الحجاج فيكتب إليه (أن أشر عليَّ برجلين) فيرشح الحجاج عثمان بن حيان وخالد بن عبد الله ، فيعزل الوليد عمر ويولي بدله هذين : خالدًا مكة وعثمان المدينة [٢] .

وبذلك رجح الوليد كفة الحجاج على كفة عمر وقد ثارت حفيظته لذلك حتى قال « الحجاج بالعراق والوليد بالشام وعثمان بن حيان بالمدينة وقرة بن شريك بمصر امتلأت الدنيا ـ والله ـ جورا [٣] » .

ولعل الحجاج كان متأثرًا بهذه الخصومة يوم أن أذن له بالدخول على الوليد وهو في غلالة فدخل وعليه درع وكنانة وقوس عربية وأطال الجلوس عنده فبينما هو

(١) الطبري جـ٥ ص٢٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٩ والعيني جـ١١ ص٣٣٤ وراجع ابن كثير جـ٩ ص٨٨ والأتابكي جـ١ ص٢٢٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٩ وابن كثير جـ٩ ص٨٨ .

(٣) المبرد ص٢٩٤ والذهبي ـ دول الإسلام جـ١ ص٩١ والأتابكي جـ١ ص٩٦ وابن عبد الحكم ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٧٢ .

يحادثه إذ جاءت جارية فساررت الوليد ومضت ثم عادت فساررته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج « أتدري ما قالت هذه ياأبا محمد » ؟؟ قال لا والله . قال « بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة » فأرسلت إليها أنه الحجاج فراعها ذلك وقالت « والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق » فقال الحجاج « ياأمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ولا تطعهن في غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن في الأمور فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك » .

ثم نهض الحجاج وخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت : « ياأمير المؤمنين أحب أن تأمره غدًا بالتسليم علي » . فقال « أفعل » . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له « ياأبا محمد سر إلى أم البنين فسلم عليها » فقال « أعفني من ذلك ياأمير المؤمنين » . فقال « لابد من ذلك » .

فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ثم أذنت له فتركته قائمًا ولم تأذن له في الجلوس ثم قالت « إيه ياحجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد في الإسلام ؛ وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن فأضلتك رماحهم وأنجاك كفاحهم ولولا ذلك لكنت أذل من النقد ؛ وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت عنك أمك فما أحقه بأخذه عنك والقبول منك

وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل ولا مصغ إلى نصيحتك ، قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزاله الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة	فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى	بل كان قلبك في جناحي طائر

أخرجنه عني .

فدخل على الوليد من فوره فقال : « يا أبا محمد ما كنت فيه » ؟؟ فقال « والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظاهرها » فضحك الوليد حتى فحص الأرض برجله ثم قال « ياأبا محمد إنها بنت عبد العزيز »(١) .

وهذه قصة لو صحت لأسفرت عما يكنه آل عبد العزيز - عمر من ناحية وأم البنين من الناحية الأخرى - من حقد على الحجاج لموقفه من أبيهم مرة ومن عمر مرة أخرى .

على أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الحجاج لم يحمل الضغن لعمر بدرجة تجعله يناصبه العداء في كل شيء فلقد رأينا الحجاج - في أخريات أيام الوليد - يعمل على أن يؤول الأمر لعبد العزيز بن الوليد بدلاً من أخيه سليمان بن عبد الملك .

ونرى من الإنصاف للموقف أن نقول إن الحجاج - فيما أشار به على الوليد - لم يكن محابيًا لآل عبد العزيز بقدر ما كان ناظرًا لمصلحته الشخصية إذ كانت الخلافة توشك أن تؤول إلى سليمان بن عبد الملك وبينه وبين الحجاج ما سنرى .

ويبدو لنا أن برتولد(٢) أساء فهم الموقف بين الحجاج وآل عمر بن عبد العزيز حيث قال إن عداوة عمر وبقية عائلته للحجاج كانت من أجل ميوله الكلبية .

---

(١) المسعودي - مروج الذهب جـ٢ ص١٠٩ ، ١١٠ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٥ وابن قتيبة جـ١ ص١٦٩ .

(٢) إسلاميكا جـ٤ .

ولكن عند آخر حكومة الوليد الأول حصل الصلح بين آل عبد العزيز والحجاج بسبب أنه رغب في أن يرى ابن الوليد وأم البنين على العرش بدلاً من سليمان .

وواضح مما ذكرنا أن العداوة بينهما لم تهدأ في يوم من الأيام وأن الميول الكلبية إن كانت لها أي أثر في هذه العداوة فقد كانت أثرًا ثانويًا .

أما قصة الصلح التي فهمها برتولد فهي قصة لا أساس لها إذ الواقع أن الحجاج كان يعمل لمصلحته الذاتية فجاءت خدمته لبيت عبد العزيز عرضًا .

ويؤيد دعوانا في استمرار العداوة أنه عندما مات الحجاج قال « رغم أنفي لله أن قطع مدة الحجاج [١] وخر ساجدًا شكرًالله على موته » [٢] .

وعندما جلس الوليد للعزاء فيه لم يتكلم عمر كما تكلم غيره حتى ألجأه الوليد إلى الكلام فقال « وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا » [٣] ؟؟ .

وقد ظلت حفيظة آل عبد العزيز على الحجاج قائمة على رجاله بعد موته إذ أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج لما وجده فيه من الأمانة فأشار عمر بن عبد العزيز بأن لا يستخدمه فكان له ما أراد [٤] ؛ وقد تحاشى عمر في خلافته أغلب العمال الذين كانوا من مدرسة الحجاج [٥] .

وهذا سليمان بن عبد الملك ـ ولي العهد يكتب إلى الحجاج الكتب الكثيرة فلا ينظر فيها ؛ فيكتب سليمان كتابًا قاسيًا شديد اللهجة يصارحه فيه بالبغض والعداوة ويتوعده بالتنكيل إذا ما ولي الأمر ؛ فيجيبه الحجاج بقوله « إنك لصبي

---

(١) ابن عبد الحكم ـ مناقب عمر بن عبد العزيز ص٢٤ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٨ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٩ وراجع مناقب عمر لابن عبد الحكم ص٢٤ .

(٤) الجاحظ جـ١ ص٢١٠ وابن شاكر جـ٥ ص٢٨٠ والعيني جـ١١ ص٤٠٨ وابن خلكان جـ٢ ص٢٧٧ وشذرات الذهب جـ١ ص١٢٤ .

(٥) الطبري جـ٥ ص٣١٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٥٨ .

حديث السن تعذر بقلة عقلك وحداثة سنك .... فكان الجفاء من خليقتك والحمق من طبيعتك أقبل بك الشيطان وأدبر وحدثك أنك لن تكون كاملاً حتى تتعاطى ما يعيبك .... ثم يقول في آخر الكتاب : مع أني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لهما ؛ وإن نفخ الشيطان في منخريك فهو أمر أراد الله نزعه منك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك ؛ ولعمري إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلها قبل وإن تردها عليَّ اقتطعتها دونك وأنا الحجاج » (١) .

وفي اعتقادنا أن الحجاج لم يكن يجرؤ على مكاتبة أخ لأمير المؤمنين وولي العهد بهذه اللهجة القاسية إلا إذا كان مطمئنًا كل الاطمئنان لما يفعل ؛ ومن أين له الاطمئنان إلا بوثوقه بثقة الخليفة فيه وعدم استغنائه عنه ؟ .

ولا يصح أن يقال إن سليمان قد عاب الحجاج في خطابه عيبًا فاحشًا ففعل الحجاج ما يجب على كل أبي أن يفعل ، فما هكذا تكون علاقة الولاة بإخوة الخلفاء وولاة العهود .

وترجع عداوة سليمان للحجاج فوق السبب العام ـ من شعور أعضاء البيت المالك بالغيرة والحسد للحجاج على نفوذه الواسع وسلطته المطلقة ـ إلى كتبه الكثيرة إلى الخليفة الوليد مطالبًا بإرجاع أولاد المهلب إلى السجن بعد التجائهم إلى سليمان وتشدد الوليد مع سليمان في ذلك وإبائه إلا الإتيان بهم مما اضطر سليمان أن يوثق ابنه معهم في السلسلة ليدخلوا جميعًا على الوليد بهذه الصفة إشعارًا بأن سليمان قد وضع ابنه معهم على قدم المساواة مع أبناء المهلب . عسى أن يرق قلب الوليد .

وقد نجح سليمان في وسيلته هذه فقد قال الوليد : والله قد شققنا على سليمان . فأعادهم إليه وكتب إلى الحجاج (إني لم أصل إلى يَزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفف عنهم ، وانته عن الكتابة إليَّ فيهم) (٢) .

---

(١) راجع ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٤٠ .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص٢٣٣ ، ٢٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص١١٥ ، ١١٦ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٧ .

آلم ذلك الحجاج فحفظها لسليمان حتى إذا ما أراد الوليد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز ودعا الناس إلى ذلك أجابه الحجاج ورحب بالفكرة وعمل على نجاحها ؛ ولكن الظروف لم تساعد الوليد على إتمام هذا العمل فقد كتب إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه وكان بالرملة فأبطأ عليه فعزم الوليد على أن يخرج إليه هو فيخلعه ؛ وبينما هو يستعد إذ وافته المنية فمات [١] .

وكان الحجاج يخشى موت الوليد وهو حي وطالما سأل الله أن يجعل منيته قبل الوليد فحقق الله رجاءه ومات قبله .

وبلغ من خشية الحجاج خلافة سليمان أن مرض الوليد مرة واشتد عليه المرض حتى أغمي عليه وسار البريد إلى الحجاج بموت الوليد فاسترجع وشد في يده حبلاً إلى أسطوانة وقال : اللهم لا تسلط علي من لا يرحم فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتي قبله . فبينما هو كذلك يدعو إذ قدم عليه البريد بإفاقته فخر الحجاج ساجدًا لله وكتب إليه يهنئه ببراءته وأعتق كل مملوك له وبعث إليه بقوارير من أنبج الهند ثم شفع ذلك بأن وفد عليه في وفادة من أهل العراق .

ولقد كان الوليد على علم بموقف الحجاج من سليمان إذ قال عندما أفاق « ما أحد أشد سرورًا بعافيتي من الحجاج » [٢] .

مات الحجاج ومات الوليد وولي سليمان الخلافة بعد أن أفلت الحجاج من بين يديه بالوفاة فركز سليمان الحفيظة على أسرته ، بينما قرب آل المهلب محبة لهم من ناحية وتعويضًا لهم عما أصابهم من الحجاج من ناحية أخرى .

استهل سليمان عهده بأن قبض على كثير من آل الحجاج وأسلمهم إلى يزيد بن المهلب ليستخلص منهم الأموال ويعذبهم فلم ينج منهم أحد مهما بعدت شُقَّة السفر بينه وبين دار الخلافة .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٧ وابن الاثير جـ٤ ص١٣٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٦٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٨ .

ومن الرؤوس اليانعة التي عصفت بها حفيظة سليمان على آل الحجاج الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي [١] - والي البصرة في عهد الحجاج - ومحمد بن القاسم الثقفي أول من رفع راية الإسلام عالية في ربوع السند [٢] .

ولو أن سليمان لم تسيطر عليه عاطفة الانتقام من الحجاج في شخص محمد بن القاسم لتغير وجه التاريخ الإسلامي في ربوع الهند .

وقد اشتد آل المهلب في إيذاء آل الحجاج حتى جاوزوا في الشدة كل معقول فقد قبض يزيد على أم الحجاج [٣] على الرغم من أنها زوج يزيد بن عبد الملك وبذلك تغلبت حجاجيتها بالبنوة على ما كان لها من مكانة بالزواج ؛ ولم يشفع لها أنها كانت زوجة لأخي الخليفة .

وقد كبر الأمر على يزيد بن عبد الملك فأتى ابن المهلب في بيته ليشفع لها ويدفع ما عليها فلم يقبل فحمل يزيد بن المهلب منه ذلك . وكان مائة ألف دينار وقيل أكثر .

ولقد أثار سلوك بن المهلب ثائرة يزيد حيث قال « أما والله لئن وليت من الأمر شيئًا لأقطعن منك عضوًا » .

ويبدو أن شباب سليمان بن عبد الملك جعل ابن المهلب لا يعبأ بهذا التهديد فكان يقول في نفسه وأين هذا من الخلافة ولذلك نراه يرد عليه قائلاً « وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف » [٤] .

---

(١) ابن الجوزي - مرآة الزمان جـ٩ ص٣ وابن شاكر جـ٥ ص٢٨٩ .
(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص٤٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٤ .
(٣) ابن الأثير جـ٤ ص١٦٠ وقيل إن الذي قبض عليه أخت لأم الحجاج . نفس المصدر .
(٤) ابن الأثير جـ٤ ص١٦١ .

واستمر ابن المهلب يتمتع بنفوذ كبير في عهد سليمان حتى ولي عمر بن عبد العزيز فقبض عليه يزيد وحبسه لاعتقاده فيه الطغيان والجبروت [١] ؛ فلما اشتد بعمر بن عبد العزيز المرض هرب ابن المهلب من سجنه خوفًا من سميه واستعدادًا للثورة التي أقامها في عهد يزيد بن عبد الملك تلك الثورة التي انتهت بقتله [٢] .

وهكذا كان اتساع نفوذ الحجاج في أيام الوليد وابنه عبد الملك سببًا في نكبة آله من بعده على يد أولئك الأمراء الذين أغضبهم الحجاج في سبيل العمل على ما فيه صالح الخلافة .

عاصر الحجاج الوليد بن عبد الملك نحو عشرة أعوام كان فيها الساعد الأيمن للخلافة فتمتع بمحبة الوليد وإخلاصه وكان الوليد يرى فيه العامل المخلص والوالي الذي لا يستغنى عنه فكان يقول « إن أبي كان يقول إن الحجاج جلدة ما بين عيني ؛ وأنا أقول إنه جلدة وجهي كله » [٣] .

وكان الوليد والحجاج يتبادلان الاحترام والتقدير .

وفد الحجاج مرة على الوليد فوجده في بعض نزهه فاستقبله فلما رآه الحجاج ترجل له وقبل يده وجعل يمشي فقال له الوليد « اركب ياأبا محمد » فقال « دعني ياأمير المؤمنين أستكثر من الجهاد فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك » فعزم عليه الوليد حتى ركب ودخل الوليد داره وتفضل في غلالة وعلى الحجاج درع وكنانة وقوس عربية [٤] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٣١٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٥٧ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٣١٧ ، ٣٤٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٦٠ ، ١٧١ .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٨ والجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٢٣٧ ، جـ٢ ص١٦٤ ، ١٦٦ .

(٤) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٩ .

وقد بلغ من تقدير الوليد للحجاج ورغبته في أن يظل رجله أن زوج ابنه مسرورًا بابنةٍ للحجاج [١] .

من هذا يتبين أن الوليد كان يحب الحجاج ويجله ولم يكن الأمر بينهما على ما ذكره بريبه [٢] من أن الوليد أبقى الحجاج متبعًا لنصيحة أبيه مع أنه كان لا يحبه ؛ ولكنه احتفظ به لأنه في حاجة إلى خدماته . ويتبين لنا أيضًا أن الوليد كان يمتعه بسعة النفوذ واتساع السلطان .

ولا تحدثنا المصادر ـ فيما وصلنا إليه ـ عن مرة واحدة كتب فيها الوليد للحجاج مثل ما كان يكتب إليه عبد الملك من كتب شديدة اللهجة عندما كانت تثيره عليه الحاشية .

ومن ذلك نستطيع أن نستخلص أن الوليد لم يتأثر في معاملة الحجاج بتلك المؤثرات التي خضع لها عبد الملك .

وإن نعجب فعجبنا للسير وليم موير الذي عكس القضية فقال « إن الوليد كان يكبح جماح الحجاج أكثر مما فعل سلفه !! [٣] » .

ولما مرض الحجاج مرضه الأخير كتب إلى الوليد كتابًا جاء فيه .

(أما بعد فقد كنت أرعى غنمك أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه ؛ فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزق المَرْعيَّ كل ممزق ؛ وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانًا لخطاياه وتكفيرًا لما حمل من ذنوبه) ثم كتب في آخر الكتاب :

إذا ما لقيت الله عني راضيًا فإن شفاء النفس فيما هنالك
فحسبي بقاء الله من كل ميت وحسبي حياة الله من كل هالك

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٩ .

(٢) حياة الحجاج كما تراه المصادر العربية ص٢٧٢ .

(٣) الخلافة ص٣٦١ .

لقد ذاق هـذا الموت من كان قبلنـا ... ونحن نـذوق المـوت من بعـد ذلـك
فـإن مت فـاذكرني بكل محبب ... فقـد كان جمًا في رضـاك مسـالـك
وإلا ففي دبر الصـلاة بـدعـوة ... يُلَقَّى بها المسجـون في نـار مـالـك
عليـك سـلام الله حيًّـا وميتًـا ... ومن بعد ما تحيا عتيقًا لمالـك (١)

ثم مات بعد ذلك .

فلما مات تفجع عليه الوليد وجلس للعزاء فيه محزونًا عليه وما زال مهمومًا حتى دَخل عليه الفرزدق ـ الشاعر ـ فرثى الحجاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال :

ليبك على الإسلام من كان باكيًا ... على الدين من مستوحش الليل خائف
وأرملـة لمـا أتـاهـا نَعِيُّـه ... فجـادت لـه بـالواكفـات الـزوارف
وقـالت لعبـديهـا أنيخـا فعجـلا ... فقد مـات راعي ذودنـا بـالتنـائف
فليت الأكف الـدافنـات ابن يوسف ... يقطعن أو يجثـن فـوق السقـائف
فمـا ذرفت عينـاي بعـد محمـد ... على مثلـه إلا نفوس الخلايف (٢)

وتتـابع النـاس في دخولهم على الوليـد يعزونـه في الحجـاج ويثنون عليـه خيرًا . وقد وجد الوليـد على عمر بن عبـد العزيز لأنـه لم يقل في الحجـاج شيئًـا وألجـأه إلى الكـلام فقـال « وهـل كان الحجـاج إلا رجـلاً من أهـل البيت فنحن نُعزى فيـه ولا نُعَزِّى» (٣) .

وقال الوليد « لأشفعن في الحجاج عند الله» (٤) .

ووفاءً لذكرى الحجاج أقر الوليد العمال الذين استخلفهم (٥) .

---

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ١ ص١٥٦ وأبو علي القالي ذيل الأمالي والنوادر ص١٧١ .
(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٩ وديوان الفرزدق ص٢١٢ .
(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٩ ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٤ .
(٤) الجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص١٢٦ والأتابكي ـ النجوم الزاهرة جـ١ ص٢١٨ .
(٥) الطبري جـ٥ ص٢٦٤

الباب الثالث

الثورات في عهد الحجاج
الفصل الأول
ثورة ابن الجارود

خطبة الحجاج برستقباذ . المناقشة بين الحجاج وابن الجارود بشأن زيادة العطاء . قيام الثورة والحرب بين الحجاج وابن الجارود . قتل ابن الجارود وتشتيت شمل أصحابه . موقف الحجاج من أنس بن مالك . ثورة الزنج .

سبق أن ذكرنا أن الحجاج عندما ذهب إلى البصرة خرج إلى رستقباذ ليشد أزر المهلب في حربه مع الأزارقة [١] ولما كان برستقباذ قام يومًا خطيبًا فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال « إن الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون . ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرًا ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا . ألا وإنما الدنيا عرض زائل يأكل منها البر والفاجر والآخرة آجل مستأخر يحكم فيها ملك قاهر . ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر ؛ وإعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة والشر كله بحذافيره في النار . ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ؛ ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره [٢] .

ألا وإن الزيادة التي زادها ابن الزبير في أعطياتكم زيادة فاسق منافق لسنا نجيزها » [٣] .

---

(١) راجع الكتاب ص١٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص١٣١ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ ص٥٦ .
وفي رأينا أنها مقدمة ساقها الحجاج للحديث على الزيادة في العطاء .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٨٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٦ وابن شاكر جـ٥ ص٥٦ .

فقال عبد الله بن الجـارود ـ وكان من أشراف البصرة ـ « إنهـا ليست بزيـادة ابن الزبير وإنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيـه بشر ابن مروان » فقال لـه الحجـاج « مـا أنت والكـلام ؟؟ !! لتحسن حمـل رأسـك أو لأسلبنك إياه » فقال : ولم ؟ إني لك لناصح وإن هذا قول من ورائي [1] . واستمرت المشادة العنيفة بين الحجاج وابن الجارود وكل منهما يجادل الآخر في أمر هذه الزيـادة فالحجاج يقول إنها زيادة ابن الزبير لا يلتزم هو بها ، وابن الجارود يقول إنها زيادة أجازها عبد الملك على يد أخيه بشر وهي بذلك ملزمة للحجاج .

ويلفت النظر في هـذا الموقف قول ابن الجـارود « إن هـذا قول من ورائي » ممـا يدل على أن أمر الزيـادة في أعطيـات الجنـد كان من المسـائل التي بيتهـا بعض أهل البصرة وأنابوا عنهم ابن الجارود في الكلام عليها .

وفي الوقت الذي لا نخفض فيـه من أمر أعطيـات الجنـد وأهميتهـا في نظرهم ـ نستطيع أن نقرر أن الأمور لو كانت سائرة بين الحجـاج وأهـل البصرة على مـا يرام لنوقشت مشكلة إعطاء الجند في جو أهدأ من هذا الجو ؛ ولكن أهل البصرة النـاقمون على الحجاج شدته وعنفه والذين تحملت نفوسهم منـه قبل مجيئـه للبصرة [2] مـا كانوا ليتركوا أمرًا من الأمور يثير الجـدل بينهم إلا التمسوه ، وأعطيـات الجنـد تكأة طيبـة للخروج على الحجاج في أمر يبدو بعض الحق في جانب الثائرين له .

وفي رأينا أن مصعبًا إن كان قد فرض زيـادة في أعطيـات الجنـد كما روت بعض المصادر من أنه زادهم في العطاء مائة مائة [3] فإنها لم تكن إلا من قبيل الوعـد الـذي يعطيه محرج ؛ ونرجح أنه إذا كان قد أعطى مثل هذا الوعد فإنه لم ينفذه .

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٨٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٦ وابن خلدون جـ ٣ ص٤٢ والذهبي جـ٣ ص٤٥٦ .

(٢) المبرد ـ الكامل ص٦٦٦ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٣٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ .

يدلنا على ذلك أن الجند في عهده كانت في حالة سيئة تشكو قلة المواد الغذائية فيقول بعضهم عندما نكح مصعب سكينة بنت الحسين أو عائشة بنت طلحة .

أبلغ أمير المؤمنين رسالة   من ناصح ما إن يريد متاعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل   وتبيت قادات الجيوش جياعا [١]

فإذا فرضنا أن الجند قد زيدت أعطياتهم في عهد مصعب فإننا نرجح أن هذه الزيادة ما فرضت إلا في أيام المحنة التي كان يعانيها مصعب في أواخر أيامه ؛ ولا يبعد أن يكون فرضها استثارة لهمة الجند وحفزًا لهممهم على الاستمرار في حرب عبد الملك الذي مناهم ووعدهم الوعود الكثيرة ومعرفة مصعب لذلك [٢] .

أما مصعب وقد قتل وجاءت إلى العراق حكومة جديدة فأكبر ظننا أن هذه الحكومة لم تبدأ عهدها بإلغاء الزيادة في أعطيات الجند اجتنابًا لثورة تقوم عليها قبل أن يستقر أمر العراق فتركت أعطيات الجند دون إقرار للزيادة أو عود إلى الأصل فظلت الحال كذلك إلى أن وفد الحجاج إلى العراق فواجهته هذه المشكلة .

ويبدو لنا أن ابن الجارود في يومه هذا لم يكن مطمئنًا كل الاطمئنان إلى مؤازرة أهل البصرة له وإن كان قد واجه الحجاج بقوله : « إن هذا قول من ورائي » إذ نراه يسدل الستار على هذا الفصل من مأساته ويرجيء الأمر إلى أن يتدبر الموقف .

أما الحجاج فقد رأى في وقفة ابن الحارود ما يحمله على أن يمكث شهرًا لا يذكر أمر هذه الزيادة لا بخير ولا بشر .

وفي خلال هذه الهدنة كان ابن الجارود يجمع إليه الأنصار والأعوان من معتنقي رأيه الراغبين في الخروج على الحجاج ، بينما كان الحجاج يستهوي البعض من أهل العراق للانضمام إلى جانبه .

---

(١) راجع أنساب الأشراف للبلاذري جـ٥ ص٢٨٢ .

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذري جـ٥ ص٣٣٧ ، ٣٣٩ والكامل لابن الأثير جـ٤ ص١٠ والطبري جـ٥ ص٧ .

فلقد أثيرت مرة أخرى مشكلة الأعطيات ؛ بينما كان ابن الجارود يوجه حديثه إلى الحجاج بمثل ما سبق إذا بمصقلة بن كرب العبدي يقول « إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها وقد سمعنا ما قال الأمير فسمعًا وطاعة فيما أحببنا وكرهنا » فشتمه ابن الجارود وقال له « ياابن الجرمقانية ما أنت وهذا » ؟؟ ومتى كان مثلك يتكلم وينطق بمثل هذا [1] ؟؟ .

أجتمع القوم إلى ابن الجارود وعلى رأسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي والهذيل بن عمران البرجمي وغيرهما من أشراف أهل البصرة وصوبوا رأيه وقوله وأبانوا أنهم معه وأعوانه ؛ وقالوا إن هذا الرجل غير كاف حتى ينقصنا هذه الزيادة فهلم نبايعك على إخراجه من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره فإن أبى خلعناه ، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج » .

فوافق الحاضرون على ذلك وبايعوا ابن الجارود وأخذوا المواثيق والعهود بعضهم على بعض بالوفاء . وقد سر أهل البصرة بتلك الحركة ، وتوسموا في ابن الجارود القائد الكفء والشخصية العظيمة [2] .

علم الحجاج بتلك المؤامرة الواسعة النطاق فأحرز بيت المال واحتاط فيه حتى يستعين به ولا يكون عونًا لهم في حركتهم هذه التي بدأت في ربيع الآخر من سنة ست وسبعين بقطع الجسر - وكانت خزائن الحجاج والسلاح من ورائه - فأرسل

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري جـ١١ ص٢٨١ والكامل جـ٣٦ ، ٣٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ .

(٢) ابن الأثير - الكامل جـ٤ ص٣٧ وابن خلدون - العبر وديوان المبتدا والخبر جـ٣ ص٤٢ .

وقد ظهر ذلك على لسان بعضهم فقال رجل من بني عجل :

أخلق بعبد الله أن يسوسا ... وأن يقود جحفلا خميسا

ويخلعوا الخليفة المقعوسا ... إذ قلدوا أمرهم الرئيسا

أكرم به من قائد قدموسا ... نحن قتلنا مصعبًا وعيسى

وكم قتلنا منهم بئيسا

البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٨٢ .

الحجاج إلى أعين صاحب حمام أعين بالكوفة ـ مولى بشر بن مروان ـ إلى ابن الجارود يستدعيه إليه فقال ابن الجارود للرسول « لا ولا كرامة لابن أبي رغال ولكن يخرج عنا مذمومًا مدحورًا وإلا قاتلناه » .

فلما قال ذلك أبلغه أعين رسالة الحجاج شفويًا فقال « أتطيب نفسًا بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك ؛ والذي نفسي بيده لئن لم تأتني لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة حديثًا للغابرين » . فقال ابن الجارود : « لولا أنك رسول والرسل لا تقتل لقتلتك » ؛ وأمر به فضرب وأخرج .

وبدأ زحفهم نحو الحجاج ـ والحجاج ليس معه إلا خاصته وأهل بيته ـ حتى وصلوا فسطاطه فنهبوا ما قدروا عليه من متاع ودواب واحتمل أهل اليمن امرأته بنت النعمان بن بشير وجاءت مضر فأخذت امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عمرو [١] .

ولعل الثوار كانوا يريدون إرهابه وتخويفه حتى يخرج من العراق دون حرب فيها خروج على الخليفة ، وأكبر الظن أنهم كانوا هائبين للحجاج .

يدلنا على ذلك أنه أتاه قوم من البصرة فصاروا معه فلما كثر إقبال الناس على الحجاج خائفين من الخروج على الخليفة بالحرب في صف ابن الجارود قال الغضبان ابن القبعثري الشيباني لابن الجارود « تعش بالجدي قبل أن يتغذى بك أما ترى من قد أتاه منكم ولئن أصبح ليكثرن ناصره [٢] ؛ فقال ابن الجارود « قد قرب المساء

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٣٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ والبلاذري جـ١١ ص٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٣٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ والبلاذري جـ١١ ص٢٨٤ .

يلفت النظر في قصة الغضبان وما ورد فيها من قوله : تعش بالجدي قبل أن يتغذي بك أن المصادر اختلفت في المناسبة التي أوردت فيها هذه القصة ؛ وقد انفرد المسعودي جـ٢ ص١٠٥ ، ١٠٦ بأيرادها على أنها حدثت مرتين الأولى قبيل وفود الحجاج على العراق . إذ قالها الغضبان لأهل الكوفة يستحثهم على الفتك بالحجاج قبل وصوله .

وفي رأينا أن المسعودي لم يوفق في إيراد القصة في هذا المقام . إذ المتواتر وما أجمعت عليه المصادر هو أن الحجاج وصل الكوفة دون أن يعلم بأمره أحد من أهلها .

ولكننا نعاجله بالغداة » .

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الجارود ، كان الحجاج يفكر في الأمر ويشاور خاصته ؛ وكان معه عثمان بن قطن الحارثي وزياد بن عمرو العتكي فأشار زياد - صاحب شرطة البصرة - بأن يأخذ له الأمان من ابن الحارود ويخرج فيلحق بأمير المؤمنين لأن الناس قد انصرفوا عنه .

وأشار عثمان بمخالفة هذا الرأي قائلاً : أن أمير المؤمنين قد شركك في أمره وخلطك بنفسه واستنصحك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير وهو أعظم الناس خطرًا فقتلته فولاك الله شرف ذلك وسناه وولاك أمير المؤمنين الحجاز ثم رفعت فولاك العراقين فحيث جريت إلى المــدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام ؟! والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من سلطان أبدًا وليتضعن شأنك . ولكني أرى أن تمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفرًا أو نموت كرامًا . فقال له الحجاج : الرأي ما رأيت . وحفظها لعثمان وحقدها على زياد .

ومن حسن فطنة الحجاج أنه لما جاءه عمر بن مسمع يقول له : قد أخذت لك أمانا من الناس جعل الحجاج يغالطه رافعا صوته ليسمع الناس ويقول : والله لا أؤمنهم أبدا حتى يؤتوني بالهزيل بن عمران وعبد الله بن حكيم . وبذلك استطاع الحجاج أن يوهم سامعيه بقدرته على أخماد الثورة وأن كفته لا تزال هي الراجحة .

على أنه بينما كان يفعل ذلك كان في الوقت نفسه يستثير زعماء البصرة لنجدته فقد أرسل إلى عبيد بن كعب النميرى يقول له : هلم إلى فامنعني . فقال عبيد للرسول قل له : أن أتيتني منعتك . فقال الحجاج بنفسه العالية : لا ولا كرامة .

= أما المناسبة الثانية التي أوردها المسعودي جـ٢ ص١٠٤ ، ١٠٥ ويتفق معه فيها الأبشيهي جـ١ ص٤٩ وصاحب الإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٧ ، ٢٨ فهي مناسبة ثورة ابن الأشعث .

وقد رأينا أن البلاذري وابن الأثير وابن خلدون قد وضعوها في ثورة ابن الجارود : وهذا في نظرنا أرجح لسببين :

الأول مكانة هؤلاء التاريخية مقارنة بمكانة أولئك .

والثاني أن القصة مستساغة الحدوث في ثورة ابن الجارود مستبعدة الوقوع في ثورة ابن الأشعث .

وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارد فقال : لاناقتي في هذا ولا جملي ؛ ولكن إن أتى منعته وهكذا لم يجبه أحد [١] .

ولما قعد هؤلاء عن تلبية طلبه أحس الحجاج بالحرج وكاد اليأس أن يتطرق إليه لولا أن صادفه ظرف لم يكن في الحسبان .

ذلك أنه بينما كان ابن الجارود وابن الهذيل وابن حكيم - زعماء الحركة - يتكلمون في رسم الخطط مر بهم عباد بن الحصين الحبطى فقال لهم : أشركونا في نجواكم . فقالوا : هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط ، فغضب وسار إلى الحجاج في مائة رجل فاطمأن الحجاج وقال : ما أبالي من تخلف بعدك .

وتبدو سياسة الحجاج وبعد نظره في قوله هذا فهي جملة من شأنها أن تستهوي عبادًا إذ كان أول منضم إلى الحجاج .

وسعى إلى الحجاج قتيبة بن مسلم في جماعة قائلا : والله لا ندع قيسيًّا يقتل وينهب ماله [٢] ثم جاءه سبرة بن علي وأسلم بن زرعة الكلابي وجعفر بن عبد الرحمن بن محنف وأرسل إليه سمع بن مالك (إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وثبطت الناس عنك) فقال له الحجاج : أقم وثبط الناس عني .

وقد أنصف الحجاج في اتباع هذه السياسة ، فتثبيط الناس عن الحجاج لا يقل أهمية عن القتال معه، ولم يأت الصباح حتى كان جمع الحجاج نحو الستة آلاف فعبأهم الحجاج .

وقد أرعب ذلك ابن الجارود واستشار عبد الله بن ظبيان في الموقف فقال ابن ظبيان : الرأي تركته بالأمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك ، وقد ذهب الرأى وبقي الصبر .

عبأ ابن الجارود أصحابه فجعل على ميمنته الهذيل وعلى ميسرته عبد الله بن ظبيان . أما الحجاج فجعل على ميمنته عباد بن الحصين وقيل قتيبة بن مسلم وعلى

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٣٧ ، ٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ والبلاذري جـ١١ ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

ميسرته سعيد بن أسلم . ودارت رحى المعركة مدة من الزمن كانت الغلبة فى مبدئها لابن الجارود وانتهت لمصلحة الحجاج بعد أن قتل ابن الجارود(١) .

عند ذلك نادى منادى الحجاج بأمان الناس جميعا ألا الهذيل وابن حكيم وأن يلحق الناس بأمصارهم(٢)

وكان من حسن سياسته عدم اتباع المنهزمين من عامة الناس فقد قال الاتباع من سوء الغلبة(٣) .

أما زعماء الحركة ـ أولئك الذين اعتبرهم الحجاج مسؤولين عن هذه الفتنة فلم تأخذه فيهم رحمة ولم تنفع فيهم لديه شفاعة ـ ذلك أن الحجاج كان يعتقد أنهم خرجوا عليه في أحرج الأوقات وهو مشغول بحرب الخوارج ولو نجحت فتنتهم لفسد عليه الأمر وتقوى العدو الذي كان يرقب الحالة عن كثب وينتظر هزيمة الحجاج .

تبع الحجاج هؤلاء فلم تنفع لديه الوساطات ولا الشفاعات مهما كان الشافع عظيما فقد تقدم إلى الحجاج ثلاثة من خيرة أصحابه هم عباد بن الحصين وسعيد بن أسلم وقتيبة بن مسلم يشفعون لابن هذيل وابن حكيم معتمدين في شفاعتهم على أن لهم فضلا عظيمًا في نصرة الحجاج ، ولكن الحجاج عندما أحس بأن هؤلاء سيحدثونه في شأنهم وأنه قد لا يستطيع ردهم بادر إلى قتلهم حتى يصبح الوسطاء لديه أمام الأمر الواقع(٤) .

وكان الحجاج يعتقد أن في قتل هذين الزعيمين قضاءً تامًا على الفتنة إذ أنه لو أبقى عليهما لألّبا عليه الناس ، شجع الحجاج على ما فعل أن الهذيل كان يرى في نفسه ألا سلطان لأحد عليه وأن الحجاج كان يحفظ عليه أنه دخل عليه مرة وهو يجر ثوبه فقال : ياهذيل ارفع ثوبك ! فأجابه هذيل إن مثلي أيها الأمير لا يقال

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٢ .

(٤) ابن الأثير جـ٤ ص ٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩١ .

له هذا القول [١] وما كان الحجاج ليرضى وهو يعاني أزمة الخوارج أن يبقى على ظهر الوجود رجل يجابهه بهذا القول ويشترك اشتراكًا فعليًا في ثورة كادت أن تفسد الأمر على الحجاج .

ولما كان انتصار الحجاج على ابن الجارود من شأنه أن يرفع الروح المعنوية في جند الخلافة الذي كان يحارب الخوارج ويفت في عضد الخوارج الذين كانوا ينتظرون هزيمة الحجاج أمام ابن الجارود فقد أستصوب الحجاج أن يبعث إلى معسكر المهلب بالأدلة المادية على انتصاره فبعث برأس ابن الجارود ورؤوس ثمانية عشر من أصحابه إلى ميدان القتال [٢] فكان لذلك من النتائج ما توقعه الحجاج .

وأما عبد الله بن ظبيان من صاحب ميسرة ابن الجارود فقد هرب إلى عمان عند سعيد بن الجلندي الأزدي فقيل لسعيد أن ابن ظبيان رجل فاتك فاحذره فأرسل له نصف بطيخة مسمومة وقال له هذا أول شيء جاءنا من البطيخ فأكله فمات واستراح الحجاج منه [٣] .

استتب الأمر للحجاج بالبصرة وأقبل على مجلسه كثير ممن خرج عليه فكان الحجاج يعاتبهم تارة ويلومهم أخرى ويستهزئ بهم ثالثة .

دخل عليه أشيم ابن شفيق الهذلي فقال له : يا أشيم أخرجت مع ابن الجارود فقال : نعم وقد أتى عفوك على ذلك [٤] .

أما موقف الحجاج من ابن عمير وابن كعب ـ وهما اللذان استنصر بهما الحجاج في بدء الثورة فلم يحسنا الرد عليه ورفضا معونته ـ فلم تأخذ الحجاج فيهما رحمة إذ استهزأ بهما أمام أصحابه ثم أمر بهما فحبسا فمات ابن كعب في سجنه [٥] وعفا عن محمد

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن خلدون جـ٣ ص٣٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٩ .
(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ والطبري جـ٥ ص٤٦ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٢ ، ٢٩٤ .
(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٠ .
(٤) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٢ وقيل قتله . نفس المصدر ص٢٩٢ .
(٥) أنساب جـ١١ ص٢٩٢ ، ٢٩٣ .

ابن عمير [١] .

وأما الغضبان بن القبعثري الذي قال لأصحاب ابن الجارود : تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك ، فقد أمر الحجاج بسجنه ولكن عكرمة بن ربعي كلم في شأنه روح بن زنباع ليشفع له لدى عبد الملك فشفع له وأمّنه [٢] وأرسل إلى الحجاج بأمانه فدعا الحجاج به وقال له : قد سمنت وصفا لونك . قال : القيد والرتعة ومن يكن ضيف الأمير يسمن . فقال له : أنت القائل تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك . فقال : ما نفعت من قيلت له ولا ضرت من قيلت فيه . قال : أوتحبني . قال : أوقر وحب ؟ قال : ولم لا تحبني ؟ قال : لأنك أخذت مالي ووضعت شرفي . قال : فإن رددت لك مالك ورفعت قدرك ؟ قال : الرضا مع الإحسان والسخط مع الغضب . قال : لأحملنك على الأدهم قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب : قال : إنه حديد قال : لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا .

فحمل بين يديه ليطلق من حديده فلما استقل به من حمله قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . فضحك الحجاج وعفا عنه [٣] .

انتصر الحجاج على ابن الجارود فأخمد ثورته ونكل بأنصاره ثم كتب إلى عبد الملك (أما بعد فالحمد للّه الذي حفظ أمير المؤمنين أني لما أنزلت منزلي من رُسْتَقباذ وثب عليّ أهل العراق فخالفوني ونابذوني ودخلوا فسطاطي وانتهبت أموالي وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا ففارقني البعيد وأسلمني القريب ويئس مني الشفيق ، فشددت عليهم بسيفي ولقيتهم بشيعتي وقلت الموت خير من البراح فواللّه ما رمت الفرصة حتى جعل اللّه لأمير المؤمنين منهم أنصارًا فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل اللّه عز وجل طاغية القوم عدو اللّه ابن الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم ، وضرب اللّه عز وجل وجوههم فأخذوا شرقًا وغربًا ثم أني

---

(١) الميداني مجمع الأمثال ص ١٤٤ والمبرد ص ١٧٤ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٨ وأنساب جـ ١١ ص ٢٩١ .
(٣) أنساب الأشراف جـ ١١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

أمنت الناس غائبهم وشاهدهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بـأمصـارهم ولله الحمـد كثيراً والسلام) .

فكتب إليـه عبـد الملـك يقول : « أمـا عبـد فقـد بلغني كتـابـك وأنت النـاصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدنـاهم يرعب منك أقصاهم والسلام »[١] .

تبين من هـذين الكتـابين المتبـادلين فطنـة الحجـاج وحسن تصويره للأمور بمـا يعتقد أن فيه إرضاءً لعبد الملك وبلاغة في عرض الموقف وما عاناه في سبيل الخلافـة مما جعل الخليفة يقر الحجاج على ما فعل ، ويوصيه بالشـدة في معـاملـة أهل العراق بعد أن كبر على الخليفة قيام الثورة ضده أو ضد عامله في قطر من الأقطار سيما وأن هذه كانت أول ثورة تقوم في عهده في قطر معروف بالثورات والتقلبات .

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النمط بين عبد الملك وواليه على العراق وردت على عبد الملك شكاوى أهل العراق يجأرون إليه من ظلم الحجاج ويسنـدون أن أمورا يحسن بالخليفة العادل أن يجعلهـا موضع تحقيق على الرغم ممـا أحـاط به عـاملـه من مظـاهر القسوة وما أوصاه بـه من الشدة مع أهل العراق في كتابه الأخير لذلك عمد الخليفـة إلى إيفاد عبد الرحمن بن مسعود للاستماع إلى شكوى أهل العراق ولعله أراد بذلك أن يستهوي القلوب إليه بهذا المظهر من مظاهر العدل والبعد عن التحيز .

وكان الخليفـة قـد شفع لـديـه لبعض الثـائرين فحمـل رسـولـه إلى العراق الأمر بـإطلاق سراح هؤلاء .

علم الحجاج بما يحملـه رسـول الخليفـة من أوامر تتعـارض مع رغبتـه الخـاصـة في التنكيل بخصـوم كاد أن يكون هو وأهل بيته أول ضحاياهم فـأراد أن يضع الرسول أمام الأمر الواقع كما كانت عـادتـه في سرعـة البت في أمثـال هـذه الأمور فـأمر قبيل

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٣ ، ٢٩٤ .

وصول ابن مسعود بأن يقطع أيديهم وأرجلهم وبذا فوت عليهم ما كانوا يريدون (١) .

وصل عبد الرحمن بن مسعود إلى البصرة والتقى بالحجاج فذهب إلى المسجد والقوم فيه مجتمعون ، فأخذ الحجاج طريقه إلى المنبر والرسول من خلفه ، ثم صعد الحجاج المنبر وصعد ابن مسعود درجتين اثنتين ثم اتجه ابن مسعود إلى القوم وقال ألا من يطلب الحجاج بمظلمة فليقم . ولو قام رجل واحد يشكو الحجاج لفقد الحجاج ولايته على العراق ذلك أن الشكوى كانت ستترى بحق وبغير حق ورسول الخليفة واقف يستمع ويحصي على والي العراق شكوى الناس منه .

على أن الحجاج لم تكن تعوزه سرعة البديهة ولا ينقصه حزم الرأي لذلك بادر إلى إسكات ابن مسعود قائلا : مه . فأجابه ابن مسعود (لا والله ما من مَهْ) .

ويخيل إلينا أن ابن مسعود استعرض موقفه سريعا فأدرك ما آل إليه أمره من حرج فوجه إلى الناس خطابًا هو أبعد يكون عما كلف به من الاستماع لشكواهم إذ قال : ياأهل العراق جمع الله لكم خير الدنيا والآخرة فإياكم والشقاق والفتنة . إني قد شركت ورائي جبلاً من حديد وقومًا لهم دين وليست لهم دنيا فإياكم أن تجمعوا دنياكم إلى دينهم » وبذلك اعتبر ابن مسعود أن مأموريته قد انتهت فقفل راجعا إلى عبد الملك .

خرج ابن مسعود من العراق دون أن يمكنه الحجاج من أداء مأموريته فحفظها في نفسه فقرر للخليفة أن واليه على العراق قد ظلم أهل البلاد ولم يكد الخليفة أن يتم استماعه إلى كلام ابن مسعود حتى جاءه كتاب من الحجاج مليء بالطعن على ابن مسعود إذ يقول « إنه امرؤ ظنين عليَّ وإنه قد بلغني أنه أساء الثناء علي وإن شيعة ابن الزبير لن تحبني أبدًا وهو من شرارها وفجارها وليس لمثله قرب ولا صدق والسلام » .

وورود هذا الكتاب على الخليفة في هذه المناسبة وبمثل هذه السرعة يقتضينا أن

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٥ .

نقر للحجاج باليقظة وسرعة الخاطر فلقد قَدَّر من البداية أن ابن مسعود لابد والغ في الطعن عليه لدى الخليفة فلم يشأ أن يصبر على ذلك مخافة أن يجد إلى قلب الخليفة سبيلاً فأراد أن يطعن على ابن مسعود فأصابه في ناحية حساسة من ماضيه ذلك أنه من شيعة ابن الزبير الأعداء الألداء لعبد الملك واتهمه بأنه من شرارها وفجارها وأن مثله لا يقرب ولا يصدق .

على أن تصرف الحجاج وإسرافه في الطعن السافر على ابن مسعود لم يصادف في نفس الخليفة هوى فكتب عبد الملك إلى الحجاج يدافع عن ابن مسعود قائلاً « أما بعد : فقد بلغني كتابك في ابن مسعود وليس مثله اتهم ولا ظُنَّ به ظن السوء والسلام » [١] .

بينما الحجاج سائر في سياسته مع الثائرين عاملاً على تحقيق سياسة الخليفة التي رسمها له ـ فإذا رابك من أهل العراق ريبٌ فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم ـ إذا به يواجه أزمة جديدة تلك هي أزمة أنس بن مالك .

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ذلك أن عبد الله بن أنس كان قد خرج مع ابن الجارود فقتل [١] .

فعندما وصل علم ذلك إلى مسامع الحجاج قال ولا أرى أنسًا يعين علي، فلما رجع إلى البصرة بعد مقتل ابن الجارود أخذ مال أنس ، وحين دخل عليه أنس وجه إليه ألفاظًا قاسية فكان مما قاله : « لا مرحبًا ولا أهلاً بك ياابن خبيثة شيخ ضلالة جوال في الفتن مرة مع أبي تراب ومرة مع ابن الزبير ومرة مع ابن الجارود [٢] .

والله لأجردنك جرد القضيب ولأعصبنك عصب السلمة ولأقلعنك قلع الصمغة .

فقال أنس من يعني أصلح الله الأمير قال « إياك أعني أصم الله صداك » [٣] فقال أنس : « إنا لله وإنا إليه راجعون والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت ولا أي ميتة مت » [٤] . ورجع إلى منزله .

فأخبر أولاده بما حدث فأشاروا عليه بأن يكتب للخليفة [٥] فكتب إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك أمابعد :

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٨ وابن الأثير جـ٤ ص٣٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ .

(٢) نفس المصادر وتروي بعض المصادر أن الخروج كان مع ابن الأشعث فقال الحجاج ومرة مع ابن الأشعث .
الجاحظ جـ١ ص٢٩٦ وابن كثير جـ٩ ص١٣٣ وابن عساكر جـ٤ ص٧٣ والعيني جـ١١ ص٤٠٩ وابن شاكر جـ٥ ص٢١٥ وينفرد ابن عبد ربه بأنه خرجت خارجة على الحجاج فعزم على أنس أن يخرج معه فأبى ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٢ .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٨ وابن الأثير جـ٤ ص٣٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ .

(٤) ابن عساكر جـ٤ ص٧٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣٣ والعيني جـ١١ ص٤٠٩ .

(٥) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٨ .

فإن الحجاج قال لي هجرًا وأسمعني نكرًا ولم أكن لذلك أهلاً فخذ لي على يديه فإني أمتٌ بخدمة رسول الله ﷺ وصحبتي إياه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » [١] .

ولما وصل عبد الملك هذا الكتاب استشاط غضبًا وكتب إلى أنس كتابًا يترضاه ويبين له أنه عند حسن ظنه به وأنه يعرف خدمته لرسول الله وصحبته إياه ، وكتب إلى الحجاج كتابًا اخر ملأه بقوارص الكلم مما يجعلنا نشك في نسبته كله - مع تسليمنا بواقعة الكتاب لما ترتب عليها من نتائج .

وإنا لموردون هنا نص الكتابين :

وكان كتابه إلى أنس (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أما بعد :

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج وما سلطته ولا أمرته بالإشارة إليك فإن عاد لمثلها فاكتب إليَّ بذلك أنزل به عقوبتي وتحسن لك معونتي والسلام) [٢] .

وكتابه إلى الحجاج (أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور ، فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك يا ابن المستفرمة[٣] بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت في مخرجك من بطن أمك .

أما تذكر حال آبائك بالطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومياههم ؟؟ أنسيت حال آبائك في اللؤم

(١) ابن عساكر جـ٤ ص٧٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣٣ والعيني جـ١١ ص٤٠٩ والذهب المسبوك ص٧ .

(٢) ابن عساكر جـ٤ ص٧٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣٤ والعيني جـ١١ ص٤١٠ والذهب المسبوك ص٧ .

(٣) المستفرمة : هي التي تجعل عجم الزبيب بخرقة وتتحمل بها لقطع رطوبة المكان .

والدناءة في المروءة والخلق ؟؟ وقد بلغ امير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقدامًا ، وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين في أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدمًا فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين ممسوح الجاعرتين ؛ ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب كثر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل إليك من يسحبك ظهرًا لبطن حتى يأتي بك أنسًا فيحكم فيك .

فأكرم أنسًا وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من حوائجه ولا يبلغن أمير المومنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك والقه في منزله مُتنصلاً له وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله والسلام) [١] .

وأرسل بالكتابين إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ؛ وكان مصادقًا للحجاج وقال له : دونك كتابيَّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق فابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ وادفع كتابه إليه وبلغه عني السلام ؛ وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أَمَتِكَ . [٢] .

فسار إسماعيل حتى وصل العراق وبدأ بأنس فأعطاه كتابه وأخبره برسالة الخليفة إلى الحجاج فلما قرأ الكتاب قال : « جزى الله أمير المؤمنين عني خيرًا وعافاه وكافأه عني بالجنة ، هذا الذي كان ظني به والرجاء منه » [٣] ؛ فقال له إسماعيل ياأبا

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٩ وابن شاكر جـ٥ ص٢١٦ ، ٢١٧ وابن عساكر جـ٤ ص٧٤ .

(٢) أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٩٩ والعيني جـ١١ ص٤١٠ وابن شاكر جـ٥ ص٢١٧ وخلاصة الذهب المسبوك ص٧ وابن عساكر جـ٤ ص٧٤ .

(٣) ابن كثير جـ٩ ص١٣٤ والعيني جـ١١ ص٤١٠ .

حمزة : « إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غناء ولا بأهل بيتك ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع فقاربه ودارِه [١] .

وتروي بعض المصادر أنه قال له : ياأبا حمزة إن أمير المؤمنين قد بلغ لك ما تريد واعلم أنه ليس عنده أحد يعدل الحجاج ، والصواب أن تمضي إليه فيعتذر إليك ولا تحوجه أن يركب هو إليك بأمر فيوغر ذلك صدره عليك ، وها أنا أمضي بكتابه إليك وأقرر لك ما يرضيك إن شاء الله [٢] .

ثم خرج إسماعيل من عنده وذهب إلى الحجاج فقال الحجاج مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاءه ؛ فقال له إسماعيل : وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به . فقال : وما أتيتني به . ؟؟ قال فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضبًا ومنك بعدًا ؛ فاستوى جالسًا مرعوبًا ؛ فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى فلما قرأ الكتاب كله قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه . فقال : لا تعجل . فقال الحجاج : كيف لا أعجل وقد كان من أمير المؤمنين ما كان [٣] . ؟؟ فقال له إسماعيل بل آتيك به وسار إلى أنس فأتى به ؛ فلما بصر به الحجاج رحب به [٤] ، وقال عجلت علينا أبا حمزة باللائمة والذي كان مني إليك كان على غير نية ولكن أهل العراق لا يحبون أن يكون لأحد عليهم سلطان ، فأردت أن يعلم منافقوهم وفساقهم أني إذا أقدمت عليك فهم عليّ أهون وأنا إليهم أسرع ولك عندنا العتبى [٥] .

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٢١٥ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٣ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٠ وابن عساكر جـ٤ ص٧٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣٤ .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢١٥ وراجع الدميري جـ١ ص٧٠ .

(٣) ابن عساكر جـ٤ ص٧٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣٦ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٣ ويروي صاحب الأخبار الطوال ص٣١٢ أن الحجاج هو الذي ذهب إلى أنس ؛ وهذا يخالف ما أجمعت عليه المصادر .

(٤) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٣ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٠ وابن الأثير جـ٤ ص٣٩ .

(٥) ابن شاكر جـ٥ ص٢١٧ والدينوري ص٣١٢ وابن الأثير جـ٤ ص٣٩ .

فقال أنس ما شكوت حتى بلغ مني الجهد وحتى زعمت أنا الأشرار وقد سمانا الله الأنصار ؛ وزعمت أنا أهل النفاق ونحن الذين تبوَّؤا الدار والإيمان ، وسيحكم الله بيننا وبينك فهو أقدر على التغيير لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب ؛ وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلمًا إلى مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عليك مني ؛ ولم يكن لي عليك قوة فوكلتك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين فحفظ من حقي ما لم تحفظ فو الله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدم عيسى ابن مريم يومًا واحدًا لعرفوا من حقه ما لم تعرف أنت من حقي وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ؛ وبعد فإن رأينا خيرًا حمدنا الله ؛ وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان .

فرد عليه الحجاج ما كان قد قبضه من ماله [١] ولم يزل مكرمًا له حتى مات [٢] .

وكتب إلى الخليفة خطابًا يعتذر فيه عما حدث منه في حق أنس ؛ وهذا نص الخطاب :

إلى أمير المؤمنين عبد الملك : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد :

أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدمناه فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين أعز الله نصره قدم علي بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه ، ويذكرني أمير المؤمنين جعلني الله فداه استطالة مني على أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ جرأة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته .

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٢١٨ وابن الأثير جـ٤ ص٣٩ .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢١٨ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٣ .

وأمير المؤمنين أصلحه الله في قرابته من محمد ﷺ إمام الهدى وخاتم الأنبياء أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي فأمهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه ؛ وما قلده الله من أمور عباده فرأى أمير المؤمنين أصلحه الله في تسكين روعتي وإفراج كربتي فقد ملئت رعبًا وفرقًا من سطوته وفجأة نقمته .

وأمير المؤمنين أقاله الله العثرات وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات وأعلى له الدرجات أحق من صفح وعفا وتحمل وأبقى ولم يشمت فيّ عدوًا مكبًا ولا حسودًا مصبًا ولم يجرعني غصصًا .

والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إليّ وتنويهه لي بما أسند من عمله وأوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه مجزي بالشكر عليه والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب له بالكفاية ؛ وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه نزولي عند مسرة أنس بن مالك وخضوعي عند كتاب أمير المؤمنين وإقلاقه إياي ودخوله بالمصيبة عليّ على ما سيعلمه أمير المؤمنين ويشهد إليه .

فإن رأي أمير المؤمنين طوقني الله بشكره وأعانني على تأدية حقه ؛ وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته ومد لي في أجله أن يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي ويطمئن به قلبي ؛ فقد ورد عليّ أمرٌ جليلٌ خطبه ، عظيم أمره ، شديدٌ عليّ كربه أسأل اللّه أن لا يسخط أمير المؤمنين وأن يثبته في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه ما يحمد به حسن رأيه وبعد همته . إنه ولي أمير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في أمره والسلام » .

ويقول لنا إسماعيل إنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال : ياكاتب أفرخ روع أبي محمد فكتب إليه بالرضا [١] .

وفي تقديرنا أن بعض فقرات هذا الكتاب قد وضع في عصر متأخر .

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٣ ، ١٤ .

ذلك أن أسلوب السجع الذي يحتويه لا يمثل روح العصر الذي ينسب إليه الخطاب ولا أسلوب الحجاج نفسه في غير هذه المناسبة سواء أكان ذلك في خطبه أم في كتبه .

يضاف إلى ذلك أن روح التمرغ التي بدت في هذا الخطاب لا تستسيغها عزة نفس الحجاج ولا إباؤه وكثيرًا ما كتب إلى أمير المؤمنين معتذرًا ومستغفرًا ولكن في أسلوب أرفع من هذا الأسلوب .

ولعل يد الواضعين قد امتدت إلى هذا الكتاب خفضًا لشأن الحجاج بمناسبة اصطدامه مع أنس بن مالك تحمسًا منهم لأنس ؛ ومن يدري فلعل أيدي هؤلاء الوُضّاع قد امتدت كذلك إلى خطاب أمير المؤمنين الموجه إلى الحجاج ـ على الرغم مما نسلم به من ثورة الغضب الحادة التي أصابت عبد الملك إثر وصول كتاب أنس إليه .

وعلى الرغم من ذلك نستبعد أن يصدر هذا الكتاب ـ بما احتواه من لاذع الكلم ـ عن عبد الملك المعروف بجم أدبه .

ثورة الزنج : (١)

كان من أثر قيام عبد الله بن الجارود بالثورة ضد الحجاج وانشغاله بإخمادها أن

(١) الزنج أصلهم من إفريقية الشرقية وكان يجلبهم التجار من موطنهم إلى البصرة حيث يباعون في أسواقها فيبتاعهم أهل البصرة لحفر النهيرات وكسح السباخ والعمل في مناجم الملح وغير ذلك من المهن الشاقة والحقيرة .

وطبعي أنه لم تكن لهم مكانة في المجتمع البصري بل كان ينظر إليهم الناس نظرهم إلى ماشيتهم ، فولد هذا عندهم الشعور بالحقد على هؤلاء الأسياد وترتب على ذلك أنهم كانوا ينتهزون الفرص للتخلص من هذه السيادة وهذه القيود الثقيلة ؛ فاجتمعوا بفرات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير ؛ وكان عددهم قليلاً فلم يتمكنوا من القيام بثورة بل قاموا بحركة تخريب فأفسدوا الزروع والثمار .

وفي ولاية عبد الله بن خالد البصرة كان قد كثر عددهم فشكا إليه الناس ما نالهم منهم ؛ فجمع لهم عبد الله جيشًا وأراد محاربتهم ؛ وعندما وصل علم ذلك مسامعهم تفرقوا ولكنه تمكن من القبض على بعضهم فقتله وصلبه .

راجع ابن الأثير جـ٤ ص٤٠ والبلاذري جـ١١ ص٣٠٤ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

انتهز الزنج تلك الفرصة وجمعوا صفوفهم وضموا إليهم لفيفًا من الرعاة وولوا عليهم رجلاً يسمى رباح شيرازنجي (أسد الزنج)[١] ؛ فغلب رباح هذا على كورة الفرات . وكان على الأبلة والفرات كُراز السُّلمي الذي وصله كتاب من شيرازنجي يحقره فيه ويضع من شأنه إذ يقول له : من أمير المؤمنين رباح شيرازنجي إلى كُراز السُّلمي . أما بعد : فقد حضرت ولادة سكة أم أمير المؤمنين فأرسل إليها امرأتك لِتَقْبَلها والسلام .

وعندما وصل هذا الكتاب كرازا هرب وخلى عمله وترك البصرة[٢] .

فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمر - وكان على شرطة البصرة - أن يرسل إليهم جيشًا بقيادة ابنه حفص فقتلوا حفصًا وهزموا جيشه ؛ وبذلك قويت شوكتهم .

فلما قدم الحجاج البصرة قال : ياأهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل[٣] .

وانتدب الناس من كل خمس من أخماس البصرة وجعل الأمير عليهم كراز السلمي[٤] .

ولعل الحجاج فعل ذلك ليجد كراز في قتلهم محوًا للعار الذي لحقه من كتاب شيرازنجي فقاتل الزنج حتى اضطرهم إلى الفرار إلى صحاري دورق[٥] . ثم اتبعهم إلى أن قتل زعيمهم شيرازنجي وجماعة كثيرة معه وقل من أفلت منهم .

وبذلك سكنت حركتهم ولم يظهر لهم أثر إلا في منتصف القرن الثالث الهجري .

---

(١) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٤ .

(٣) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

(٤) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٠٥ .

(٥) بلد بخوزستان - معجم البلدان جـ٤ ص١٠٠ .

الفصل الثاني
ثورة الخوارج الأزارقة

يجدر بنا قبل أن نتكلم عن حرب الحجاج مع الخوارج أن نقدم لذلك بمقدمة نتناول فيها الكلام عن تعريف الخوارج وانقسامهم إلى فرق .

فيقول الشهرستاني في تعريفهم : « كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا سواء أكان الخروج على الصحابة أيام الخلفاء الراشدين أم كان بعدهم على التابعين وتابعيهم من الأئمة في كل زمان » [١] .

ويقول البغدادي : « هم الذين خرجوا على علي لأنه رضي بالتحكيم فرفضوه كما رفضوا معاوية » [٢] .

وتعريف الشهرستاني تعريف عام لكل ثائر وخارج على الإمام .

وأما تعريف البغدادي فهو تعريف للطائفة المصطلح على تسميتها باسم الخوارج الذين نحن بصدد الكلام عليهم .

وقد انقسم الخوارج إلى فرق كثيرة يبلغ عددها نحو العشرين فرقة [٣] .

ويهمنا في كتابنا من هذه الفرق : الأزارقة . الصفرية (الصالحية والشبيبية) وسبب انقسامهم أنه عندما كان الحصين بن نمير محاصرًا لابن الزبير بمكة قدم إليها جماعة من الخوارج للدفاع عن الكعبة ؛ فلما وضعت الحرب أوزارها انصرف الخوارج عن مكة فعاد فريق إلى العراق سادتهم نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر وعبد الله بن صفار وعبد الله بن إباض ابن بهيس .

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص١٥٥ .

(٢) الفرق بين الفرق ص٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص٥٥ .

ونزلٍ فريق اليامة (١) .

نزل خوارج العراق بالبصرة ثم لم يلبث نافع بن الأزرق أن اختلف مع نجدة حول بعض المبادىء وأخصها التقية والإقامة في دار الكفر وتكفير القعدة من الخوارج واستحلال قتل الأطفال .

فلما استحال التوفيق بينهما رحل نجدة إلى اليامة فأسس فرقة النجدات (٢) .

وبعد ذلك بقليل رحل ابن الأزرق إلى الأهواز في شوال من سنة أربع وستين في ثلثمائة من أصحابه وكانت فكرته في الخروج من البصرة أنها دار كفر والإقامة فيها غير جائزة وأرسل كتابًا إلى من بقي بالبصرة من الخوارج فقرأه ابن إباض ولم ير ما أتى فيه وقال : « إن القوم كفار بالنعم فقط » وقرأه ابن صفار فقال : « برىء الله منك فقد قصرت وبرىء الله من نافع فقد غلا » .

وبذلك صارت فرق الخوارج في العراق ثلاث : الأزارقة والصفرية والإباضية (٣) .

مكث الأزارقة سنوات طويلة في الأهواز وما حولها يعترضون الناس ويقتلون الأطفال ويجبون الخراج نظام الحكم ما بين زبيري وأموي .

وفي سنة ثلاث وسبعين وأربع من الهجرة كان الأزارقة قد استطاعوا غزو الأهواز كلها وراء ظهورهم وصاروا بالفرات (٤) ؛ فلما ولى عبد الملك أخاه بشرًا البصرة ثم جمع له العراقين تعيينه عن وجوب العمل على القضاء على الخوارج الذين كانوا يهددون كيان الدولة كما بين له وجوب تعيين المهلب بن أبي صفرة لحربهم .

---

(١) راجع الطبري جـ٤ من ص٤٣٦ ، ٤٣٩ وابن الأثير جـ٣ ص٣٣٦ .

(٢) المبرد جـ٢ ص١٧٧

(٣) الطبري جـ٤ ص٤٣٩ ، ٤٤٠ وابن الأثير جـ٣ ص٣٣٧ . ويروي المبرد جـ٢ ص١٧٩ ، ١٨٠ إن الذي قال هذه المقالة أبو بهيس لا ابن إباض ؛ وأن سبب انفصال ابن صفار هو عدم تكفير العصاة بينما يروي البلاذري جـ١١ ص٨٣ أن سبب الانفصال هو مسألة استحلال قتل الأطفال .

(٤) المبرد جـ٢ ص٢١١ .

ولما كان بشر لا يميل إلى المهلب سيما وأن إمرته جاءت من قبل عبد الملك ، فقد رأى أن يوفق بين أمر أمير المؤمنين وبين الاستبداد بالأمر وحده فعين المهلب بن أبي صفرة قائدًا للجيش ثم كتب إلى الخليفة بالكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف فلما قدم هذا الجيش على بشر خلا بابن مخنف وأغراه بالمهلب ووجوب مخالفة أمره وإفساد رأيه (١) .

وسار الجيش قاصدًا الأزارقة فلما أحسوا بدنوا المهلب منهم انكشفوا عن العراق فتبعهم إلى الأهواز فنفاهم عنها ثم إلى رامهرمز فهزمهم فيها وأقصاهم إلى فارس ، ولم يلبث المهلب برامهرمز إلا عشرة أيام حتى أتاه نعي بشر بن مروان (٢) .

فاضطرب الجند على ابن مخنف وصاروا يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم قائلاً : « إنكم تذبون عن مصركم وحرمكم وفيئكم » فأقام جماعة وتسلل آخرون (٣) .

وبينما كان المهلب مقيمًا برامهرمز يحاول جمع فلول الجيشين وينتظر ما تأتي به الأقدار وفد على العراق الحجاج بن يوسف واضعًا نصب عينيه أن يلحق الناس بالمهلب وأن يقسو على العراقيين ما شاءت له القسوة عقابًا لهم على فرارهم من ميدان الحرب وتركهم المهلب في ميدان القتال .

ولم يقتصر الحجاج على تجنيد الجند وإرسالهم إلى المهلب في ميدان القتال بل خرج بنفسه إلى رستقباذ حتى يشرف بنفسه على حركة المهلب ثم بعث إلى المهلب وابن مخنف بكتاب قصير يقول فيه « إذا جاءكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج والسلام » (٤) .

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢١٢ والطبري جـ٥ ص٣٦ وابن الأثير جـ٤ ص٣٠ .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢١٢ والطبري جـ٥ ص٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٣٠ .

(٣) المبرد جـ٢ ص٢١٢ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٤٦ .

وفي هذا الكتاب تبدو عظمة الحجاج إذ اتجه ببعيد نظره إلى هـدفـه الأسمى وهو محاربة الخوارج وجعلها الكلمة الأولى والأخيرة في خطابه .

اطمأن المهلب وابن مخنف على مصير الحرب بفضل ما كان يبذله لهما الحجـاج من معونة وما يؤيـدهمـا بـه من جنـد فـاستطـاع المهلب أن يقوم بـالهجوم فـأجلاهم عن رامهرمز ولم يكلفـه هـذا الجلاء قتـالاً شـديـدًا فسـاروا حتى نزلوا بكازرون من أرض سابور والمهلب يتبعهم مارًا بأرجان وسردان ، وذلك في أول رمضـان من سنـة خمس وسبعين للهجرة [١] .

وحينما نزل خندق على نفسه وعسكره كما كانت عادته في حروبه .

أما الكوفيون بقيادة عبـد الرحمن بن مخنف فلم يخنـدقوا على أنفسهم رغم نصيحـة المهلب لهم بـذلـك فقـد ملأهم الغرور حتى أنهم ردوا على رسـول المهلب قـائلين « إنمـا خنادقنا سيوفنا » [٢] .

وكانت نتيجة هذا الغرور أن الخوارج زحفوا ليلاً فوجدوا المهلب قد أخذ حـذره فمـالوا على ابن مخنف فقـاتلوه فـانهـزم عنـه الكثير من جيشـه وثبت هـو في قلـة من أصحابه حتى قتل في عشرين من رمضان من سنة خمس وسبعين للهجرة [٣] .

هذه رواية أهل البصرة في سبب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله .

وأما رواية أهل الكوفة فهي أن الخوارج ضغطوا على المهلب ضغطًا شديـدًا حتى اضطروه إلى معسكره فأرسل إلى ابن مخنف يطلب منه المدد قائلاً لـه « إنمـا عـدونـا واحد وقد ترى ما لقي المسلمون فامدد إخوانك يرحمك الله » .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٤٧ والمبرد جـ٢ ص٢١٤ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٧ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٤٧ والمبرد جـ٢ ص٢١٦ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٨ وابن شاكر جـ٥ ص٣٩٨ .

(٣) المبرد جـ٢ ص٢١٦ والطبري جـ٥ ص٤٧ وابن أبي الحـديـد م١ ص٣٩٨ والعيني جـ١١ ص٣٠١ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ .

فأرسل إليهم المدد بقيادة ابنه جعفر فلما رأى الخوارج قلة من مع ابن مخنف جعلوا تجاه المهلب جزءًا من الجيش ليشغله وليحول بين المهلب وابن مخنف ، وحملوا على ابن مخنف ، فانكشف عنه الكثير وبقي في عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه .

علم المهلب بمكيدة الخوارج فأرسل إليه فرقة من الجيش لتنقذه كان منهم جعفر ابن عبد الرحمن بن مخنف إلا أن الخوارج حالوا بينه وبين أبيه فقاتلهم حتى صرع وفي هذه الأثناء كان عبد الرحمن قد قتل ، فوجه المهلب إليهم ابنه حبيبًا فكشفهم [١] .

ومما يلفت النظر أن بين الروايتين - رواية أهل البصرة من ناحية ورواية أهل الكوفة من الناحية الأخرى - تباينًا واضحًا ، فبينما يحاول رواة الكوفة إلصاق تهمة الهزيمة بأهل البصرة ويصورون أهل الكوفة أهل نجدة ومروءة نرى رواة البصرة يعزون الهزيمة إلى غرور الكوفيين واعتدادهم بأنفسهم وعدم اتباعهم لنصيحة المهلب .

وفي تقديرنا أن جيشًا مشتركًا من أهل الكوفة والبصرة في الربع الأخير من القرن الأول الهجري كان لابد له أن يلقى مثل هذا المصير ولابد للرواة من أن يتعمد كل جانب منهم أن يلتمس فخر النصر لفريقه وأن يلصق عار الهزيمة بالفريق الآخر .

فالمنافسة بين الكوفة والبصرة كانت وقتئذ قائمة على قدم وساق وفيما بين هاتين الروايتين نستطيع أن نرجح أن حملة الخوارج قد تركزت على ابن مخنف لسببين .

الأول : أن الخوارج يعلمون أن أكثرية الجيش الذي يحاربهم من أهل البصرة الذين يدافعون لا عن كيان الدولة الأموية فحسب بل عن كيان البصرة موطنهم التي كانت الهدف لإغارة الخوارج مما يستنتج منه أن الروح المعنوية فيهم كانت أقوى من الروح المعنوية في جيش ابن مخنف الذي لم يكن يدافع عن موطنه (الكوفة)

---

(١) الطبري جـ٥ ص٤٧ ، ٤٨ والمبرد جـ٢ ص٢١٦ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٨ .

إذ كانت بمنأى عن غارات الخوارج وإنما قدم جنده إلى ميدان القتال صدعًا بأمر الوالي وتأييدًا لجيش المهلب .

وجيش هذه روحه المعنوية نرجح أن يستهدف لحملات الأعداء قبل أن يستهدف الجيش الأساس وهو جيش البصرة .

الثاني : يتضح من النصوص التاريخية أن جيش الكوفة كان أقل عددًا من جيش البصرة ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا قد ركبهم الغرور فلما يأخذوا بنصيحة المهلب بالخندقة على أنفسهم بينما خندق البصريون .

ومهاجمة جيش قليل العدد غير مخندق كانت أيسر وأسهل على الخوارج من مهاجمة جيش عديد قد أخذ حذره وأعد للأمر عدته .

وأيا ما كان الأمر فقد قتل ابن مخنف وكتب المهلب بمصابه إلى الحجاج فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مروان وكان بمنى فنعى عبد الرحمن وذم أهل الكوفة [١] .

وبعث الحجاج على جيش الكوفة عتاب بن ورقاء وطلب منه أن يسمع ويطيع للمهلب فساءه ذلك ، ولكنه لم يجد بدًّا من طاعة الحجاج ولم يقدر على مراجعته [٢] .

وسار عتاب من أصبهان - وكان واليًا لها - إلى كازرون وقاتل الخوارج تحت إمرة المهلب ولكنه كان يستبد ببعض الأمور فيقضيها بدون أخذ رأيه .

كان من الطبيعي أن تثير تلك الأمور غضب المهلب فأراد أن يخفض من شأنه فاصطنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة وأغراهم بعتاب .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٤٨ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ وابن كثير جـ٩ ص١٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٤٨ وابن الأثير جـ٤ ص٤٠ وابن كثير جـ٩ ص١٠ وابن شاكر جـ٥ ص٥٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٣ .

وفي ذات يوم جرى بين عتاب والمهلب نقاش بخصوص أرزاق الجند أغلظ فيه كل منهما لصاحبه فرفع المهلب القضيب على عتاب فوثب إليه المغيرة بن المهلب وقبض على القضيب وقال « أصلح الله الأمير شيخ من أشياخ العرب وشريف من أشرافهم إن سمعت منه بعض ما تكره فاحتمله له فإنه لذلك أهل »[١] .

قام عتاب بعد ذلك من لدن المهلب فاستقبله بسطام بن مصقلة فشتمه ووقع فيه ، فلما رأى عتاب أن الخلاف بينه وبين المهلب قد استفحل خطره كتب إلى الحجاج يشكو إليه المهلب ويخبره أنه قد أغرى به سفهاء المصر ويسأله أن يضمه إليه .

فوافق ذلك من الحجاج حاجة إليه فيما لقي أشراف الكوفة من شبيب بن يزيد ابن نعيم الشيباني زعيم فرقة الصفرية التي ظهرت في المدائن فبعث إليه ان اقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلب ، فتركه وقدم فأرسل ابنه حبيبًا على أهل الكوفة[٢] .

وبينما كانت هذه الأمور تجري في معسكر المهلب قامت ثورة ابن الجارود فانشغل بها الحجاج ولكنه على الرغم من ذلك لم يلجأ إلى سحب بعض الجند من ميدان القتال لإخضاع الثورة الداخلية تقديرًا منه لأهمية وجود الجند في حرب الخوارج من ناحية وخوفًا من انهيار الروح المعنوية في الجيش إذا شعر الجند بتفاقم الثورة الداخلية من ناحية أخرى ، وعدم الظهور بمظهر الضعف من ناحية ثالثة .

وفي ذلك ما يدل على حنكة الحجاج وكياسته الحربية .

انتهى الحجاج من ثورة ابن الجارود فعاد يركز جهوده في تأييد المهلب فكانت باكورة أعماله أن بعث برؤوس زعماء الثورة إلى ميدان القتال إيذانًا بأنه قد تغلب على الثورة نهائيًا حتى ترتفع الروح المعنوية بين الجند إلى أقصاها وحتى يدب الرعب في نفوس الخوارج الذين كانوا يتنسمون أخبار ثورة ابن الجارود راجين هزيمة

---

(١) الطبري جـ٥ ص٤٩ وابن الأثير جـ٤ ص٤٨ وابن شاكر جـ٥ ص٥٧ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٤٨ والمبرد جـ٢ ص٢٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٤١ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٠ وابن كثير جـ٩ ص١٠ .

الحجاج حتى تكون لهم الغلبة على المهلب .

ظل المهلب مقيمًا بسابور يقاتل الأزارقة عامًا انقطعت فيه عنهم موارد فارس بسقوطها في يد المهلب ، وصاروا يعتمدون في تموينهم على كرمان البعيدة عنهم فتضايقوا . ولما اشتدت عليهم وطأة المهلب اضطروا إلى الجلاء نهائيًا عن إقليم فارس راجعين إلى « كرمان » فتبعهم المهلب إلى سرجان وحاربهم فيها حتى أقصاهم عنها إلى « جيرفت » عاصمة « كرمان » فتبعهم المهلب إليها .

وقد ظل المهلب يحاربهم بأرضهم ثمانية أشهر يطاردهم من مكان إلى مكان دون أن يحرز عليهم نصرًا حاسمًا وقد ظلت الحال كذلك إلى أن دب النزاع الداخلي بين الخوارج فقضوا على أنفسهم بأنفسهم [١] .

وبجلاء الخوارج عن فارس صارت كلها بيد المهلب وكان من الطبعي أن يجعل عليها ولاة من قبله ولكن الحجاج بادر فبعث بعماله عليها فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إلى الحجاج (أما بعد: فدع بيد المهلب خراج جبل فارس فإنه لا بد للجيش من قوة ولصاحب الجيش من معونة فدع كورة فسا ودرابجرد وكورة اصطخر فنفذ الحجاج ذلك وبعث المهلب بعماله عليها) [٢] .

طالت الحرب بين المهلب والخوارج وكان من رأي الحجاج أن لا يطاول المهلب العدو بل يسارع بالهجوم الخاطف ضد عدو كان الحجاج يستسهل الغلبة عليه ، والحجاج في ذلك يفكر بطريقته إذ كان رجلاً عمليًا يحب إنجاز الأمور على وجه السرعة يشهد بذلك تاريخه في محاصرة ابن الزبير ويؤيده سلوكه في حرب شبيب وثورة ابن الأشعث مما سيكون موضع بحث خاص في هذه الرسالة .

ولقد بلغ من اعتزازه بنفسه أن طلب مصورًا من قتيبة بن مسلم في حروبه في

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢٠ وابن الأثير جـ٢ ص٦٤ ويروي المبرد جـ٢ ص٢٢٥ أن المهلب هو الذي أرسل إلى الحجاج أن يتجاوز له عن اصطخر ودرابجرد لأرزاق الجند فأجابه إلى ما طلب .

بلاد ما وراء النهر ليدرس المواقع على الصور ويشير بالجهة التي ينبغي منها الهجوم فكان فيما أشار به موفقًا .

أما المهلب فكان يرى مطاولة العدو إضعافًا لقواه والتماسًا لقيام الخلاف في صفوفة وكان في رأيه هذا معتمدًا على ما خبر من شؤون الخوارج وما سبر من مبلغ قوتهم ، وقد كتب في ذلك مرة إلى الحجاج (إني منتظرهم إحدى ثلاث : موت ذريع أو جوع مضر أو اختلاف في أهوائهم) وكان اختلاف وجهة النظر بين المهلب والحجاج مثار خلاف دائم بينهما [١] .

وقد بلغت الحال بالحجاج أنه رمى المهلب بالجبن عن مواجهة خصمه تارة وبالمطاولة المغرضة أخرى ، فكان المهلب يجيب عن ذلك بالأدلة المادية على أنه لا يطاول الخوارج إلا تمشيًا مع مقتضيات الظروف التي يلمسها عن قرب .

وقد حقق الزمن نظر المهلب إذ وقع نزاع داخلي في صفوف الأزارقة كانت نتيجته القضاء عليهم .

ويطول بنا المقام لو تعرضنا لجميع الكتب التي تبودلت بين الحجاج والمهلب ولذا نرى أن نقتصر على البعض منها على سبيل المثال .

فمن ذلك أن الحجاج أرسل إلى المهلب رجلا من ثقيف - لم تسعفنا المصادر باسمه - فاستقبله المهلب ودعا بالغداء ، فجعل النبل يقع قريبًا منهم ، والثقفي يعجب من أمر المهلب [٢] .

وقد أراد المهلب بهذا أن يثبت للثقفي أنه لا تعوزه الشجاعة اللازمة لمواجهة الخوارج إنما هو يعمل وفق سياسته التي رسمها لنفسه .

وأرسل الحجاج البراء بن قبيصة وكتب إلى المهلب يقول (أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢١٧ وابن ابي الحديد م١ ص٣٩٨ .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢١٩ ، ٢٢٠ .

بهم الأرض حولك ؛ وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهض إليهم إذا قدم إليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست عندي بسائغة ولا جائزة والسلام) [١] .

فأخرج المهلب بنيه كل ابن له في كتيبة وأوقف البراء على تل مشرف على مكان المعركة وأنشبها وحمى وطيس القتال من الصباح إلى الظهيرة ثم انصرفوا فقال البراء للمهلب : « والله ما رأيت كبنيك فرسانًا قط ولا كفرسانك من العرب فرسانًا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس . أنت والله المعذور » .

وفي المساء نشبت المعركة ثانية وكانت حامية الوطيس قال عنها البراء : « رأيت قومًا ما يعينك عليهم إلا الله » ؛ فأحسن المهلب إلى البراء وأجازه وحمله . ثم انصرف إلى الحجاج فأخبره بعذر المهلب وقص عليه ما رأى [٢] .

وكتب المهلب ردًّا على خطاب الحجاج (أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير أصلحه الله واتهامه إياي في هذه الخارجة المارقة وأمرني الأمير بالنهوض إليهم وإشهاد رسوله ذلك وقد فعلت فليسأله عما رأى فأما أنا فوالله لئن كنت أقدر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت بعد ذلك لقد غششت المسلمين وما وفيت لأمير المؤمنين ولا نصحت للأمير ، فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ولا مما أدين الله به والسلام) [٣] .

كما أنه أرسل بعد ذلك الجراح بن عبد الله يستبطئه في مناجزتهم ويقول له في كتاب أرسله : أما بعد فإنك جبيت الخراج بالعلل وتحصنت بالخنادق وطاولت القوم وأنت أعز ناصرًا وأكثر عددًا ؛ وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبنًا ولكنك

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٢٠ وراجع المبرد جـ٢ ص٢١٧ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٢٠ .

ويروي أن المهلب كتب إلى الحجاج (إني منتظر بهم إحدى ثلاث : موت ذريع أو جوع مضر أو اختلاف في أهوائهم) . المبرد جـ٢ ص٢١٧ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٨ .

اتخذتهم أكلاً وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم فناجزهم وإلا أنكرتني والسلام .

ولما وصل الجراح إلى المهلب بيّن له المهلب أنه لم يترك حيلة إلا احتالها ولا مكيدة إلا كادها وأن الرأي يجب أن يكون لمن يبصره دون من يملكه . ثم أخرج الجنود للقتال مدة ثلاثة أيام حتى عذره الجراح ورجع إلى الحجاج ووصف له ما رأى .

وكتب المهلب إلى الحجاج يقول : أتاني كتابك يستبطئني في لقاء القوم على أنك لا تظن بي معصية ولا جبنًا وقد عاتبتني بمعاتبة الجبان وأوعدتني وعيد العاصي فاسأل الجراح ؛ والسلام [1] .

وما زال المهلب يسير على طريقته في حربهم : إذا وجد فرصة في قتالهم أو في الإيقاع بينهم انتهزها حتى تحقق له ما أراد .

فقد دب النزاع في صفوفهم واختلفوا وحارب بعضهم البعض حتى فشلوا وذهبت ريحهم .

اختلاف الأزارقة :

يحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن عقلية الخوارج قبل الكلام على أسباب اختلافهم لنعرف كيف كان المهلب يستغل تلك العقلية .

فالخوارج من أشد الفرق الإسلامية دفاعًا عن اعتقادهم وحماسة لأفكارهم واندفاعًا وتهورًا فيما يدعون إليه وما يفكرون فيه .

وهم في اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وجعلوها دينًا مقدسًا لا يحيد عنه مؤمن ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه إلى البهتان ودفعته إلى العصيان ، تستهويهم الألفاظ البراقة وتأخذ على مداركهم السبيل .

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢١٨ ، ٢١٩ والنويري جـ٧ ص٢٤٦ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٩ .

والسبب في ذلك أن جلهم من عرب البادية فكانوا في فقر مدقع قبل الإسلام فلما جاء الإسلام لم تزد حالتهم المادية حسنًا لأن كثيرًا منهم استمر في البادية وأصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكير وضيق في التصور وبعد عن العلوم فتكون من مجموع ذلك فيهم نفوس مؤمنة متعصبة لما ترى ومتهورة مندفعة زاهدة لأنها لم تجد .

وقد استغل المهلب حماستهم وشدة تعصبهم لآرائهم وسذاجة تفكيرهم وضعف مداركهم ، فأرث نيران العداوة بينهم وأجج لهيب الاختلاف في صفوفهم .

فانتهز فرصة وقوع نصال مسمومة في معسكره ، فجعل منها وسيلة لإيقاع الخلاف بينهم بتصوير هذا الحداد الذي يصنع السهام المسمومة متآمرًا مع المهلب على الخوارج يبيع له السهام .

وسبكًا لذلك أرسل رجلاً إلى معسكر الخوارج فألقى كتابًا موجهًا إلى الحداد يشكره على إرسال السهام ويطلب منه الزيادة وينبئه بأنه أرسل له برفقة الكتاب ألف درهم .

فلما وجدوا الدراهم في العراء رفع الأمر إلى قطري فثارت ثائرته ولم يخطر على باله أن قد يكون في الأمر دسيسة بل تَخوَّنَ الحداد فبعث إليه وسأله عن الكتاب والدراهم فقرر الحداد أنه لا يعرف عنها شيئًا ولكن قطريًا فرض أن الحداد يكذب عليه ولم يطاوله في السؤال والجواب بل أمر بقتله في الحال .

وبذلك خلق المهلب مشكلة في معسكر قطري إذ جاء عبد ربه الصغير - مولى بني ثعلبة - فقال لقطري : أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا برهان . ؟؟ فقال له : فما حال هذه الدراهم ؟؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذبًا ويجوز أن يكون حقًا فقال قطري : قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللإمام أن يحكم بما يراه صالحًا وليس للرعية أن تعترض عليه .

غضب عبد ربه لإجابة قطري الممتلئة اعتزازًا بالنفس وإنكارًا لحقوق الغير فحملها في نفسه فكانت نواة للنزاع بين قطري وعبد ربه .

ولما بلغ المهلب ما كان من فرقة بين قطري وعبد ربه أدرك نجاح خطته فشجعه ذلك على متابعة سياسة الدس والوقيعة بين الخوارج بعضهم بعضًا فبعث إلى قطري رجلاً نصرانيًا وأمره بالسجود لقطري فإذا سأله قطري عن هذا السجود أكد النصراني أنه يسجد له .

فلما فعل ذلك ورأى الأزارقة هذا السجود لقطري قال رجل منهم إنه قد عبدك من دون الله وتلا قوله تعالى ﴿ **إنَّكُمْ وما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ [1] فقال قطري : قد عبد النصارى عيسى فما ضر ذلك عيسى شيئًا ، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذميًا ؟ فاختلفت الكلمة [2] .

وبلغ ذلك أيضًا المهلب فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين إليهم فمات أحدهما في الطريق ووصل الآخر فامتحنوه فلم يجز المحنة فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة وأما الذي لم يجز المحنة فكافر . وقال البعض الآخر : هما كافران حتى يجيزا المحنة ؛ فكثر الاختلاف وخرج قطري إلى حدود اصطخر [3] ، فأقام شهرًا والقوم في اختلافهم . ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق : « ياقوم إنكم أقررتم عين عدوكم وأطمعتموهم فيكم بما يظهر من خلافكم فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة » .

وقد صادفت هذه الدعوة قبولاً لدى بعض زعمائهم فخرج عمرو القنا ونادى

---

(١) سورة **الأنبياء** آية ٩٨ .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢٢١ وابن الأثير في إحدى روايتيه جـ٤ ص٦٤ وابن نباتة ص١٢٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠١ .

(٣) مدينة بفارس قرب مدينة برسيبوليس وهي واقعة في الشمال الشرقي من شيراز واسمها الآن تشهيل منار . ياقوت جـ١ ص١٢ .

(أيها المحلون هل لكم في الطراد) فخرجوا إليه ونشبت بين الفريقين معركة أبلى فيها المغيرة بن المهلب بلاءً حسنًا [١] .

وبينما هم في حربهم إذ حدثت جملة من الخلافات كانت الأسباب الأخيرة لانفصالهم . وقد أعطاهم المهلب الفرصة للتمادي في الجدل بالقعود عن حربهم فأصبح معسكر الخوارج مسرحًا للمجادلات التافهة في كثير من الأحيان .

فمن ذلك أن المقعطر الضبي كان عاملاً على ناحية من كرمان فخرج في سرية فقتل رجلاً من الخوارج كان ذا بأس فيهم فطلب الأزارقة من قطري أن يمكنهم من المقعطر ليقتصوا للقاتل فأبى قطري وقال : رجل تأول فأخطأ في التأويل وهو من ذوي الفضل والسابقة فيكم [٢] .

ومن ذلك أن عبيدة بن هلال ـ أحد زعمائهم ـ اتهم بامرأة رجل نجار رأوه يدخل منزله مرارًا في غيبة صاحبه فذكروا ذلك لقطري فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ومن الجهاد بحيث رأيتم . فقالوا : إنا لا نقار على الفاحشة . ثم انصرفوا ، فأرسل قطري إلى عبيدة وأخبره بما حدث وقال له : أنا لا أقار على الفاحشة . فقال عبيدة : بهتوني ياأمير المؤمنين فما ترى . ؟؟

فقال قطري لعبيدة : إني جامع بينك وبينهم فلا تخضع خضوع المذنب ولا تتطاول تطاول البريء فجمع بينهم فتكلموا .

فقام عبيدة فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم** ﴾ إلى آخر الآية [٣] : فأثر

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢٢٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ في روايته الأخرى وابن شاكر جـ٥ ص٩٠ .

ويروي الطبري وابن شاكر هذا السبب لاختلافهم وأنه ترتب عليه خلع قطري من الزعامة ولا يرويان غيره .

وفي رأينا أنها جملة أسباب اجتمعت فأدت إلى خلع قطري .

(٣) سورة النور آية ١١ .

ذلك في الحاضرين وقاموا إليه فاعتنقوه وطلبوا منه أن يستغفر لهم .

وبتلك الحيلة أمكن لقطري إنقاذ عبيدة معتمدًا في ذلك على سذاجة تفكير الخوارج .

ولكن عبد ربه الصغير ـ وقد سبق له أن أخذ حذره من قطري في حوادث المهلب ـ لم تجز عليه هذه الخدعة فقال « لقد والله خدعكم » .

فتابعه كثير منهم ولكنهم لم يظهروا وصاروا يلتمسون الأسباب للخروج على قطري فتكلموا معه بشأن دهقان كان قد استعمله قطري فظهرت له أموال كثيرة قائلين « إن ابن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا » فقال لهم قطري « إني استعملته وله ضياع كثيرة وتجارات » فأوغر ذلك صدورهم .

فقالوا له ألا تخرج بنا إلى عدونا ؟ فقال لا ، ثم خرج . فقالوا قد كذب وارتد فاتبعوه يومًا فأحس بالشر فدخل دارًا مع جماعة من أصحابه فاجتمعوا عليه وصاحوا : اخرج إلينا يا دابة فخرج إليهم فقال : رجعتم بعدي كفارًا ؟ قالوا أو لست بدابة ؟! قال الله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [١] ولكنك قد كفرت بقولك إنا قد رجعنا بعدك كفارًا فتب إلى الله . فشاور عبيدة في ذلك فقال له : إن تبت لم يقبلوا منك فقل : إني استفهمت فقلت أرجعتم بعدي كفارًا ؟؟ فقال لهم ذلك فقبلوا منه ورجع إلى منزله [٢] .

ولما رأى قطري كثرة اختلافهم وظهور بغضهم له عزم على أن يبايع للمقعطر الضبي ويخلع نفسه فمهد لذلك بجعله أمير الجيش في الحرب فلم ترضهم إمارة المقعطر .

وقال له صالح بن مخراق : ابغ لنا غير المقعطر . فنهاهم قطري فقال صالح « إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاص عنهم ففعل ويجب على الإمام أن يعفي الرعية مما كرهت » فأبى قطري أن يعزل المقعطر .

---

(١) سورة هود آية ٦ .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢٢٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٢ ، ٤٠٣ .

فلما لم يجبهم إلى طلبهم خلعوه وبايعوا عبد ربه الكبير[١] وانفصل معه أكثر من الشطر جلهم من الموالي والعجم[٢] .

ويلفت النظر في حوادث الخلاف بين الخوارج ظاهرتان .

الأولى : أن المهلب كان يعلم أولاً بأول بدخيلة النقاش الديني بين الخوارج فكان يغذي الخلاف إما بإرسال كتب أو رسل من قبله تزيد شقة الخلاف ؛ وإما بالقعود عن حرب الخوارج لئلا تلتئم صفوفهم فيتركوا ما بينهم من خلافات أمام الخطر الخارجي .

الثانية : أنه عندما ازدادت شقة الخلاف بين الخوارج كان قطري في ناحية وعبد ربه في ناحية أخرى .

انقسم الخوارج أنفسهم إلى فريقين يتعصب كل منهما لبني جنسه فتعصب أغلب العرب لقطري لأنه عربي وتعصب أغلب الفرس لعبد ربه لأنه مولى .

ويستنتج فلهوزن[٣] من ذلك أن العنصرية كانت العامل الأساسي فيما أصاب الأزارقة من انقسام وأنها كانت كفيلة من حيث هي بانقسام الخوارج دون حاجة إلى ما دبره المهلب .

وفي رأينا أن منطق الحوادث يوحي بأن الخلاف على الأسس الدينية ذلك

(١) كما يروي الطبري جـ٥ ص١٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ وابن شاكر جـ٥ ص٩٠ وابن خلدون جـ٣ ص١٦١ . أما المبرد جـ٢ ص٢٢٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٢ ، ٤٠٣ فيسميانه عبد ربه الصغير ؛ وأما اليعقوبي جـ٣ ص٢٠ والبغدادي ص٦٥ فيذهبان إلى أنه كان بين الأزارقة خارجيان عبد ربه الصغير وعبد ربه الكبير وأنهما خرجا على قطري في وقت واحد ولأسباب واحدة بطريقة واحدة وكان مصيرهما أن حارب المهلب كلا منهما فقتل عبد ربه الصغير . أما الكبير فيذهب البغدادي إلى أنه قتل بينما يذكر اليعقوبي إلى أنه فرق جمعه فقط .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢٢٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٣ .

(٣) أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة ص٤١ .

الخلاف الذي أذكاه المهلب كان فاتحة الانقسام . أما العنصُرية فمع التسليم بوجودها فإنها كانت كامنة لم تظهر إلا عندما دفعتها الحوادث إلى الظهور .

افترق الأزارقة ، ففريق مع قطري وفريق مع عبد ربه ووقعت الحرب بين الفريقين فقتل في اليوم الأول ألف قتيل وفي اليوم الثاني أخرج العجم العرب من مدينة جيرفت فخندق قطري على نفسه خارج المدينة [١] .

أما المهلب فقد كتب إلى الحجاج بما كان من أمر الخوارج وما يراه من أن هذا الخلاف سيكون سبب خلافهم فكتب إليه الحجاج يطلب إليه انتهاز فرصة هذا الخلاف ومهاجمة الخوارج ؛ ولكن المهلب كان لا يرى هذا الرأي ما داموا يقتل بعضهم بعضًا وكتب بذلك إلى الحجاج [٢] .

وظل المهلب شهرًا لا يحارب الخوارج [٣] ، فكر في أثنائه أنه ربما يلتئم شملهم مرة ثانية فيجتمعون عليه فلا يسهل القضاء عليهم فدس إلى قطري [٤] دسيسة جعلته يترك هذا الميدان فنجح في ذلك وذهب قطري إلى طبرستان فسهل على نفسه وعلى غيره القضاء عليهم [٥] .

وعند ذلك ارتحل المهلب عن مكانه ونزل مكان قطري وصار يقاتل عبد ربه وأرسل يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره أنه مقيم على حرب عبد ربه ويسأله أن يوجه في أثر قطري رجلاً شجاعًا قسر الحجاج بذلك وكتب إلى المهلب يستحثه على مناجزة القوم ويجدّ في قتاله حتى يحسم الداء وأنه على استعداد لإمداده بالرجال وأمامه الأموال [٦] .

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢٢٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢١ ، ١٢٢ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٢٢ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ .

(٤) راجع المبرد جـ٢ ص٢٢٧ وابن أبي الحديد م١ ص ٤٠٥ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٢٢ وابن الأثير جـ٤ ص٦٤ .

(٦) راجع المبرد جـ ص١٢٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٤ .

فشدد المهلب الحصار على عبد ربه حتى اضطره هو وأصحابه إلى الخروج من جيرفت بحرمهم وأموالهم وما خف من متاعهم فدخلها المهلب ؛ فسار عبد ربه حتى نزل على أربعة فراسخ من جيرفت فسار المهلب في أثره والتحما في معركة أسفرت عن قتل عبد ربه وانهزام أصحابه فجلوا عن الميدان تاركين أربعةِ آلاف ما بين قتيل وجريح وأسير .

وبذلك تم النصر للمهلب على هذا الفريق من الأزارقة وكان ذلك سنة سبع وسبعين للهجرة [1] .

إرسال المهلب الرسل والكتب للحجاج :

وجه المهلب كعب بن معدان الأشقري [2] ومرة بن بليد الأزدي إلى الحجاج فلما وصلا إليه تقدم كعب فأنشده قصيدة تنيف على ثمانين بيتًا يذكر فيها أيام رامهرمز وسابور وجيرفت ومطلعها :

يا حفص إني عداني عنكم السفر   وقد سهرت فآذى عيني السهر [3]

فقال له الحجاج بعد أن فرغ من إنشادها « أشاعر أم خطيب ؟ » . قال شاعر فأقبل عليه الحجاج وقال خبرني عن بني المهلب فقال المغيرة سيدهم وفارسهم ، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة » .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٢٧ وابن الأثير جـ٤ ص٦٥ ويروي الذهبي جـ٣ ص٤٦٦ وابن شاكر جـ٥ ص٩٢ وابن كثير جـ٩ ص٢١ أن قتل عبد ربه كان في سنة ثمان وسبعين .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢٢ والمبرد جـ٢ ص٢٣١ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٥ .
ويروي المسعودي من جـ٢ ص١٠٦ أن الرسول كان بشر بن مالك الجرشي بينما يروي ابن خلكان جـ٢ ص١٩٥ وابن عبد ربه ج١ ص١٥٠ ، ٣٠١ أن الرسول كان مالك بن بشير وأن هذا كان بعد هزيمة قطري .

(٣) راجع الطبري جـ٥ من ص١٢٢ ـ ١٢٥ .

فقال له كيف خلفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا .

قال فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرج فإذا أليلوا ففرسان البيات قال : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها . قال : فكيف كنتم وعدوكم ؟ قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم » قال الحجاج : « إن العاقبة للمتقين » .

فكيف أفلتكم قطري ؟ قال كدنا وظن أن قد كادنا بأن صرنا منه إلى التي يحب قال . فهلا اتبعتموه ؟! قال . كان حرب الحاضر آثر عندنا من اتباع الفل . قال : فكيف كان المهلب لكم وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد . قال : فكيف كان اغتباط الناس به ؟ قال نشأ فيهم الأمن وشملهم الفضل قال : أكنت أعددت هذا الجواب ؟ قال . لا يعلم الغيب إلا الله . قال : هكذا تكون الرجال ، كان المهلب أعلم بك حيث بعثك [١] .

وأمر له بعشرين ألف درهم وحمله على فرس وأوفده على الخليفة عبد الملك بن مروان فأمر له بعشرين ألفًا أخرى [٢] .

وبعث المهلب إلى الحجاج كتابًا جاء فيه (الحمد لله الكافي بالإسلام فقهر ما سواه ، الحاكم بأن لا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد : فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسؤنا ويسؤهم منا أكثر مما يسرهم ـ على اشتداد شوكتهم ـ فقد كان علا أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت الفرصة منهم في وقت

---

(١) المبرد جـ٢ ص٢٣٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٦ ويراجع ابن الأثير جـ٤ ص٦٦ ، ٦٧ والمسعودي جـ٢ ص١٠٦ .

(٢) ابن أبي الحديد م١ ص٤٠٦ .

إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعارفت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله فقُطِعَ دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [١] .

الحجاج ينصف مواهب المهلب الحربية ويكافئه على إخلاصه وخدماته للدولة :

كتب الحجاج إلى المهلب يقول « أما بعد : فعل الله بالمسلمين خيرًا وأراحهم من بأس الجِلاد وثقل الجهاد ولقد كنت أعلم بما قِبَلَك فالحمد لله رب العالمين.. فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فيئهم ونفّل الناس على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقية من القوم بقيت. فخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وولِ الخيل شهمًا من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم عليّ وعجل القدوم إن شاء الله » .

ولى المهلب يزيد ابنه كرمان وقال له « يابني إنك لست اليوم كما كنت إنما لك من كرمان ما فضل عن الحجاج ولن تحتمل إلا على ما احتمل عليه أبوك فأحسن إلى من تبعك ثم إن أنكرت من إنسان شيئًا فوجهه إلي ، وتفضل على قومك » [٢] .

ثم قدم المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر بره وإكرامه وقال « ياأهل البصرة أنتم عبيد المهلب ثم مدحه وأنصف مواهبه الحربية فقال له أنت والله كما قال لقيط الإيادي [٣] :

وقلّــــــــــدوا أمركم لله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا يطعم النـوم إلا ريث يبعثـه	هَمٌّ يكاد حشـــاه يقصم الضلعـــا

(١) المبرد جـ٢ ص٢٣٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٧ ، ٤٠٨ وابن نباتة ص١٢٤ .

(٢) المبرد جـ٢ ص٢٣٢ ، ٢٣٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٨ .

(٣) المبرد جـ٢ ص٢٣٣ وسرح العيون ص١٢٥ وابن الأثير جـ٤ ص٦٧ ، ٦٨ وابن شاكر جـ٥ ص٩٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٨ .

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا غص مكروه بــه خشعــا
ما زال يحلب هـذا الـدهر أشطره ... يكــون مُتَّبِعًــا طــورًا ومتَّبعًــا
حتى استمرت على شزر مريرتـــه (١) ... مستحكم الرأي لا قحمًا ولا ضرعـا (٢)

فقال المهلب « أما والله ما كنا أشد من عدونا ولكن رفع الحق بـالبـاطل وقهرت الجماعة الفتنة وكان ما كرهنا من المطاولة خيرًا لنا مما أحببناه من المعـاجلـة » فقـال الحجـاج : صـدقت . ثم طلب الحجـاج منـه أسماء الـذين أبلوا في الحرب بلاءً حسنًـا فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغَنَاء وقدم بنيه وقـال « إنـه والله لو تقـدمهم أحـد لقـدمتـه عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قـال الحجـاج : صـدقت وما أنت أعلم بهم مني وإن حضرتَ وغبتُ إنهم لسيوف من سيوف الله » .

فكافـأ الحجـاج أولاد المهلب كـلاًّ منهم بـزيـادة ألفين في عطـائـه تقـديرًا لحسن بلائهم .

أمـا بقيـة المحـاربين ممن زكاهم المهلب فقـد كوفيء كل منهم على قـدر بـلائـه (٣) ، وبذلك ضرب الحجاج المثل الأعلى في تقـدير العـاملين ووضع كل إنسـان في موضعـه فلا يغمط لديه حق ولا يضيع عنده عمل عامل .

وكافأ المهلب بأن عينه واليًا على خراسـان وكانت هي وسجستـان للحجـاج منـذ

---

(١) شزر مريرتـه : هـذا مثـل يضرب يقـال شزرت الحبـل إذا كررت فتلـه بعـد استحكامـه راجعًـا عليـه والمريرة : الحبل .

(٢) القحم : آخر سن الشيخ ؛ والضرع : الصغير الضعيف .

ويروى أنه قام إلى الحجاج رجل فقال « أصلح الله الأمير والله لكأني أسمع السـاعـة قطريّـا وهو يقول : المهلب والله كما قال لقيط الإيادي ثم أنشد هذا الشعر . فسر الحجاج حتى امتلأ سرورًا . المبرد جـ٢ ص٢٣٣ وابن شاكر جـ٥ ص٩٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٨ .

(٣) المبرد جـ٢ ص٢٣٤ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٨ .

سنة ثمان وسبعين للهجرة بعد أن عزل العامل عليها وهو أمية بن خالد بن أسيد [١] .

وبينما كان ذلك يجري في معسكر المهلب كان الحجاج قد أرسل سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان قد انتهى من حربه مع شبيب كما سيأتي وكتب إلى إسحاق بن محمد ابن الأشعث قائد الكوفيين بطبرستان يأمره بالسمع والطاعة لسفيان فانضم إسحاق لسفيان وسارا يطلبان قطريّا حتى لحقاه في شِعْبٍ من شعاب طبرستان وقاتلوه فتفرق عنه أصحابه وسقط هو في أسفل الشِعْب فدحرج عليه رجل من أهل البلد حجرًا كبيرًا فأصاب وركه فأوهنه وجاء نفر من أهل الكوفة فقتلوه وحملت رأسه إلى سفيان فبعث بها إلى الحجاج وأرسلها الحجاج بدوره إلى عبد الملك بن مروان [٢] .

ثم توجه سفيان بعد ذلك إلى محاربة عبيدة بن هلال ومن معه وكان قد فارق قطريّا [٣] وتحصن في قصر بقومس فحاصروهم وشددوا عليهم الحصار حتى جهدوا وأكلوا دوابهم ثم خرجوا إليه فقاتلوه فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج [٤] .

وقد لاقى هؤلاء قدرهم في الوقت الذي لاقى فيه رفقاؤهم حتفهم في جيرفت على يد المهلب في سنة ثمان وسبعين للهجرة [٥] .

---

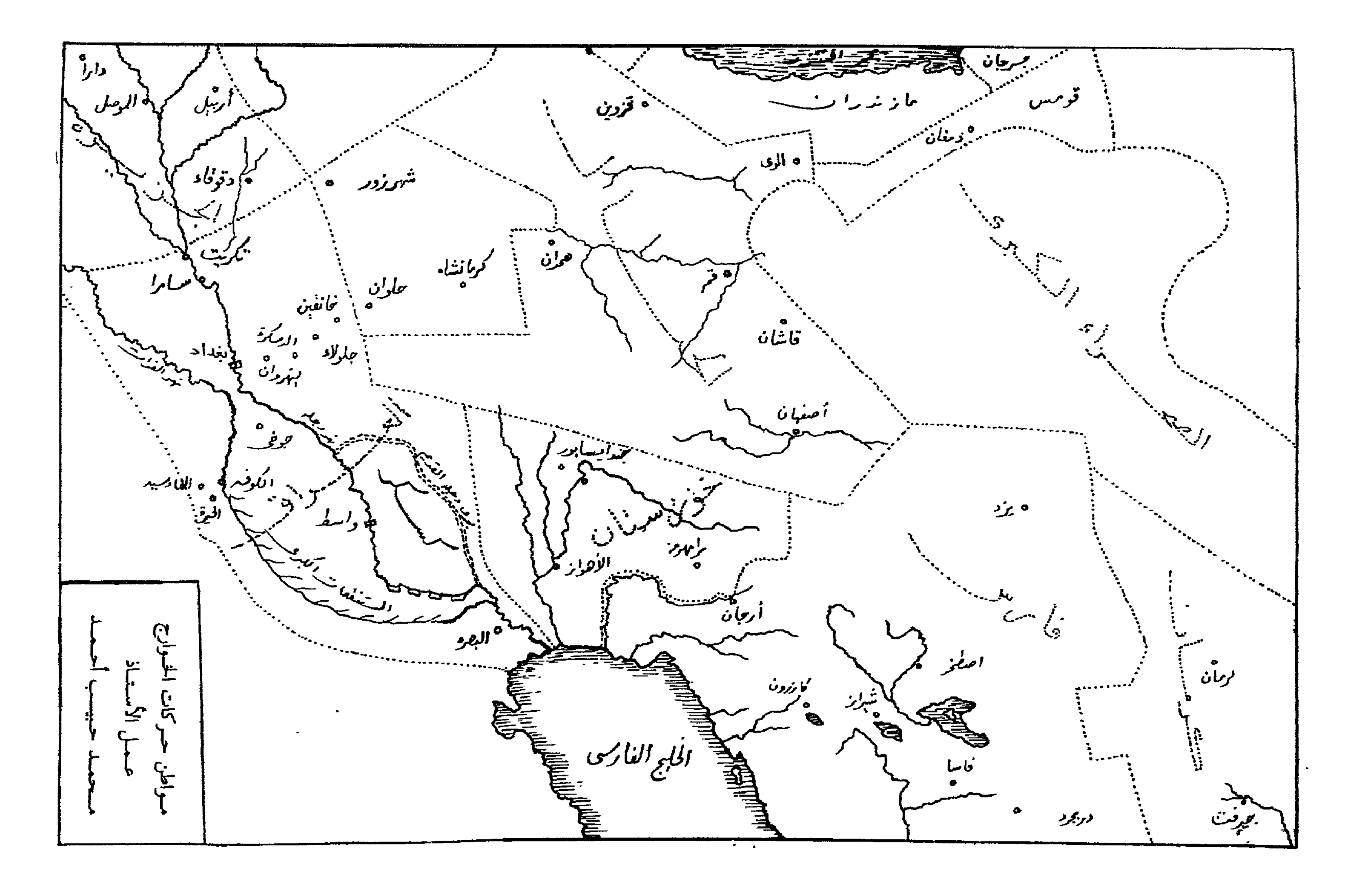
(١) الطبري جـ٥ ص١٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص٧١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٢٦ ، ١٢٧ وابن الأثير ص٦٨ ، ٦٩ وابن شاكر جـ٥ ص٩٣ .

(٣) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص٦٦ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٢٧ وابن الأثير ص٦٩ وابن شاكر جـ٥ ص٩٤ .

(٥) ابن شاكر جـ٥ ص٩٣ والذهبي جـ٣ ص٤٦٦ وابن كثير جـ٩ ص٢١ وشذرات الذهب جـ١ ص٨٦ .
ويروي الطبري جـ٥ ص١٢٦ وابن الأثير جـ٤ ص٦٨ أن قتل قطري كان سنة سبع وسبعين بينما يروي اليعقوبي جـ٣ ص٢١ أن هلاكه كان في سنة تسع وسبعين .


دارا
الموصل
أربيل
دقوقاء
شهرزور
تكريت
سامرا
خانقين
حلوان
كرمانشاه
همذان
قزوين
الري
مازندران
جرجان
قومس
دمغان
قم
قاشان
أصفهان
بغداد
جلولاء
بهروان
جوخى
الكوفة
القادسية
الحيرة
واسط
البطائح
البصرة
جنديسابور
خوزستان
الأهواز
برامهرمز
أرجان
كازرون
شيراز
اصطخر
فاسا
دربجرد
يزد
فارس
كرمان
جيرفت
الخليج الفارسى
الصحراء الكبرى
مواطن حركات الخوارج
عمل الأستاذ
محمد حبيب أحمد

الفصل الثالث
ثورة الخوارج الصفرية : الصالحية والشبيبية

في « دارا » بين نصيبين و « ماردين » كان يعيش صالح بن مسرح التميمي زعيم فرقة الخوارج الصالحية إحدى فرق الخوارج الصفرية [١] .

وكان له أصحاب يقرؤهم القرآن ويفقههم في الدين ويقص عليهم القصص ويوصيهم بتقوى الله والانتقام من الأئمة الظالمين ووجوب جهادهم محتجًا بأن الجور قد فشا والعدل قد عفا وأن الولاة لا يزدادون إلا علوًا وعتوًا وتباعدًا عن الحق وجرأةً على الرب [٢] .

ولم يكن صالح متعجلاً للعمل فقد قيل إنه بقي عشرين سنة يعلم الناس في هدوء وسكون [٣] .

وكان أهم أنصاره ومعاونيه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني وكانت قبيلته في ذلك الوقت تسكن على الشاطيء الأيمن للفرات في صحراء الكوفة وقصد في مبدأ أمره روح بن زنباع والتمس منه أن يسأل أمير المؤمنين عبد الملك أن يجعل عطاءه مساويًا لعطاء أهل الشرف فسأل روح عبد الملك ذلك فقال عبد الملك : « رجل لا أعرفه » .

فأبلغ ذلك روح بن زنباع لشبيب فقال : « يوشك أن يعرفني » [٤] .

فلما كانت سنة خمس وسبعين حج عبد الملك بن مروان وحج في هذا العام

---

(١) الصفرية كما عرفنا إحدى فرق الخوارج الرئيسية . ومن الصعب تعيين مؤسس هذه الفرقة شأنها في ذلك شأن معظم الفرق فقيل إنهم أتباع زياد بن الأصفر وقيل عبد الله بن صفار وقيل عبيد الله بن قبيصة وأنهم سموا بهذا الاسم لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى صفرة ألوانهم ويروى أن صالحًا كان أول من ناوأ الدولة من الصفرية ـ الطبري جـ٥ ص٥٠ والبغدادي ص٧٠ وابن شاكر جـ٥ ص٥٨ .

(٢) راجع القصص في الطبري جـ٥ ص٥٠ ، ٥١ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٥٢ .

(٤) الفرق بين الفرق ص٩٠ .

صالح بن مسرح ومعه شبيب بن يزيد وسويد .

همَّ شبيب بالفتك بعبد الملك وبلغ ذلك عبد الملك ، فبعد انصرافه من الحج كتب إلى الحجاج يأمره بطلبهم فضيق الحجاج على صالح - وكان صالح يأتي الكوفة فيقيم بها نحو الشهر ونحوه فيلقى أصحابه ليعلمهم ويعدهم للخروج على الأمويين - وصار يطلبه حتى نبت به الكوفة فتركها (١) إلى دارا .

وهناك طلب إلى أصحابه أن يستعدوا ويبعثوا لإخوانهم ليأتوهم فتراسل أصحابه وتلاقوا وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم المحلل بن وائل اليشكرى بكتاب من شبيب موجهًا إلى صالح بن مسرح يقول له فيه « أما بعد فقد علمت أنك كنت أردت الشخوص وقد كنت دعوتني فاستجبت لك فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك منا أحدًا وإن أردت تأخير ذلك اليوم فأعلمني فإن الآجال غادية ورائحة ولا آمن أن تخترمني المنية ولما أجاهد الظالمين فياله غبنًا وياله فضلاً متروكًا .

جعلنا الله وإياك ممن يريد الله بعمله ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام والسلام عليك (٢) .

فكتب إليه صالح كتابًا جاء فيه (إنه لم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك فأقبل إلينا فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ولا تقضى الأمور دونه) (٣) .

فلما وصل كتاب صالح إلى شبيب دعا نفرًا منهم أخوه مصاد والمحلل بن وائل اليشكري وغيرهما وخرج بهم حتى قدم على صالح بدارا فلما تقابلا قال شبيب لصالح « أخرج بنا رحمك الله فوالله ما تزداد السنة إلادروسا ولا يزداد المجرمون إلا

---

(١) الطبري جـ٥ ص٥٠ وابن الأثير جـ٤ ص٤١ وابن شاكر جـ٥ ص٥٩ وابن كثير جـ٩ ص١٠ والعيني جـ١١ ص٣٠١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٥٢ وابن الأثير جـ٤ ص٤٢ وابن شاكر جـ٥ ص٥٨، ٥٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٤٢ وراجع الطبري جـ٥ ص٥٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٩ وابن شاكر جـ٥ ص٥٨ .

طغيانًا » فبث رسله في أصحابه وواعدهم الخروج ليلة الأربعاء أول صفر من سنة ست وسبعين للهجرة [١] .

وفي الليلة المحددة اجتمعوا فبلغ عددهم مائة وعشرة أو مائة وعشرين ونصحهم زعيمهم بعدم قتال أحد إلا إذا أراد قتالهم [٢] وبين لهم أول شيء يجب عليهم أن يقوموا به (حتى يمكنهم الجهاد) فقال لهم : « إن معظمكم رجالة وهذه دواب لمحمد ابن مروان - أمير الجزيرة - فابدؤا بها فاحملوا عليها رجالكم وتقووا بها على عدوكم فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدواب وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة فنشروا الفزع والرعب في تلك الجهات فتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار .

علم محمد بن مروان بذلك فاستخف بهم وبعث إليهم عدي بن عميرة في ألف فساروا وكأنما يساقون إلى الموت كراهية للقتال . وفي سوق دوغان وقعت الموقعة فهزم فيها جيش عدي وهرب هو وحوى صالح ، ما في معسكره [٣] .

بلغ ذلك محمد بن مروان فغضب واستدعى خالد بن جَزْء السُّلْمى وبعثه في ألف وخمسمائة واستدعى أيضًا الحارث بن جَعْوَنة وبعثه في ألف وخمسمائة وقال لهما : « اخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجلا الخروج وأغذا السير فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه » .

فخرجا وجعلا يسألان عن صالح فعلما أنه توجه جهة آمد [٤] فذهبا إليه وخندقا على أنفسهما فأرسل صالح شبيبًا في جماعة إلى الحرث وتوجه هو إلى خالد واقتتل

(١) الطبري جـ٥ ص٥٢ ، ٥٣ وابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤٠٩ والعيني جـ١١ص٣٠٢ وابن شاكر جـ٥ ص٧٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٥٣ وابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٠ والعيني جـ١١ ص٣٠٢ وابن شاكر جـ٥ ص٧٢ ، ٧٣ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٥٤ وابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٠ وابن خلدون جـ٣ ص٥٢ وابن شاكر جـ٥ ص٧٣ .

(٤) آمد - على الضفة اليسرى للفرات .

الفريقان قتالاً عنيفًا لم يتغلب فيه صالح وقتل من عدد جيشه الضئيل ثلاثون ومن أصحاب محمد أكثر من سبعين [١] .

رأى صالح ذلك فاستشار أصحابه في الموقف فأشار عليه شبيب بوجوب الخروج من هذا المكان حيث العدو مخندق على نفسه فأصاب ذلك الرأي من صالح موقعًا حسنًا كانت نتيجته قرار الخروج .

فخرجوا من ليلتهم سائرين فقطعوا أرض الموصل وأرض الجزيرة وانتهوا إلى الدسكرة .

وبوصولهم إلى الدسكرة ألقيت مهمة حربهم على الحجاج وسرعان ما أرسل إليهم جيشًا من الكوفة يبلغ عدده ثلاثة آلاف تحت قيادة الحارث بن عميرة بن ذي الشعار .

ولما قارب الجيش الدسكرة خرج صالح نحو جلولاء وخانقين فاتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية المدبج ـ على تخوم ما بين الموصل وجوخي ـ وفي هذه القرية حدثت المعركة وكانت نتيجتها في غير مصلحة الخوارج فقد سقط زعيمهم صالح بن مسرح قتيلا وكان ذلك في يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الأولى لسنة ست وسبعين من الهجرة ـ ٣سبتمبر سنة٦٩٥م ، وصرع شبيب عن فرسه [٢] وظهرت الهزيمة في القوم فجاء شبيب إلى موقف صالح فوجده قد قتل فخشى شبيب تفرق أصحابه عنه فنادى (يامعشر المسلمين) فاجتمعوا إليه فقال لهم « ليجعل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا » .

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن فأحاط بهم الحارث وأشعل النار في الباب ـ

---

(١) الطبري جـ٥ ص٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٢ .

ويروي ابن شاكر جـ٥ ص٧٣ والعيني جـ١١ ص٣٠٣ وابن كثير جـ٩ ص١٣ أن عدد القتلى من جيش شبيب نحو السبعين ومن جيش ابن مروان نحو الثلاثين .

(٢) الطبري جـ٥ ص٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٠ والعيني جـ١١ ص٣٠٣ ، ٣٠٤ وابن كثير جـ٩ ص١٣ .

معتقـدًا أنهم لا يمكنهم الخروج منـه ـ وقـال لأصحـابه : « نصبحهم غـدًا فنقتلهم » ؛ وانصرف عنهم [١] .

فقال شبيب لأصحابه « ما تنتظرون فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم » « فقالوا مرنا بأمرك » فقال : « إن الليل أخفى للويل بـايعوني أو من شئتم منكم ثم اخرجوا بنا نشد عليهم في عسكرهم فإنهم لذلك منكم آمنون وأنـا أرجو أن ينصركم الله عليهم » قالوا : « ابسط يديك نبايعك » فبايعوه وكانوا نحو السبعين أو الثمانين [٢] .

وبذلك صار شبيب أميرًا عليهم وأتوا باللبود فبلوهـا بـالمـاء ثم ألقوهـا على النـار وخرجوا قـاصـدين عسكر الحـارث فبـاغتوهم ولم يشعر الحـارث وأصحـابـه إلا بوقـع السيوف فضاربهم الحارث حتى صرع واحتمله أصحابـه وانهزموا وخلوا لهم المعسكر بمـا فيه وساروا حتى نزلوا المدائن ، فكان ذلك أول جيش هزمه شبيب [٣] .

ارتحل شبيب بعـد ذلـك ومضى بهم في تخوم أرض الموصل وجـوخي ثم ارتفـع إلى أذربيجان ليجمع الأنصار ولينتقم من بعض أعدائه من شيبان وعنزة وليأخذ أمه التي كانت تسكن في تلك الناحية [٤] .

كان الحجاج في ذلك الوقت قد أرسل إلى سفيان بن أبي العالية يستدعيه من طبرستان وكان قد أمره أن يحارب صاحب طبرستان بألف فارس كانوا معه .

فلما تحرجت الحالة بين جيش الـدولـة والخوارج كتب الحجـاج إليـه يـأمره بـأن

---

(١) الطبري جـ٥ ص٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٤٤ وابن أبي الحـديـد م١ ص٤١٠ والعيني جـ١١ ص٣٠٤ وابن شاكر جـ٥ ص٧٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٤٤ وابن أبي الحديـد م١ ص٤١٠ ويروى البغـدادي ص٨٩ أن صالحًا انهزم فقط في الموقعة لجرح أصابه فلما أشرف على الموت قال لأصحابه « قد استخلفت عليكم شبيبًا لأنه رجل شجاع مهيب في عدوكم فليفته الفقيه منكم بفقهه » . ثم مات فبايعوا شبيبًا .

(٣) الطبري جـ٥ ص٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٤٤ وابن أبي الحـديـد م١ ص٤١١ والعيني جـ١١ ص٣٠٤ وابن شاكر جـ٥ ص٧٤ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٥٧ ، ٥٨ وابن الأثير جـ٤ ص٤٤ ، ٤٥ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٢ .

يصالح صاحب طبرستان وأن يسير حتى ينزل الدسكرة حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة وحتى تأتيه خيل المناظر ثم يسير إلى شبيب .

فأقبل بالألف فارس الذين معه حتى نزلوا الدسكرة ؛ ونودي في جيش الحارث بالكوفة والمدائن أن برئت الذمة من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يواف سفيان بن أبي العالية بالدسكرة ؛ فخرجوا حتى وافوه وأتته خيل المناظر وكانوا خمسمائة عليهم سورة بن أبجر التميمي لم يتخلف إلا نحو الخمسين رجلاً منهم وبعث سورة إلى سفيان بالتوقف حتى يلحقه ؛ ولكن سفيان تعجل في طلب شبيب فسار حتى لحقه بخانقين [1] .

ارتحل شبيب عنهم مظهرًا كراهيته للقتال ؛ وقد أكمن لهم أخاه مصادًا في منخفض من الأرض في نحو خمسين فارسًا وعندما رأوا شبيب جمع أصحابه ومضى في سفح الجبل مشرقًا قالوا : « هرب عدو الله » فاتبعوه . فقال لهم عدي بن عميرة : « أيها الناس لا تعجلوا حتى نضرب في الأرض ونسير فيها فإن يكونوا قد أكمنوا لنا كمينًا حذرناه وإلا فإن طلبهم لن يفوتنا » ، فلم يسمعوا منه ولم يلتفتوا إلى قوله وأسرعوا في آثارهم .

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين عطف عليهم شبيب وخرج عليهم الكمين من ورائهم فلم يحدث قتال ، وإنما كانت الهزيمة .

فقد هرب الناس وثبت سفيان في مائتي رجل فقاتلهم قتالاً شديدًا حتى كاد أن يقتل في هذه المعركة ؛ ولكنه تمكن من النجاة وكتب إلى الحجاج بما حدث وعرفه بوصول الجند إلا سورة بن أبجر .

فلما قرأ الحجاج الكتاب أثنى عليه وقال : من صنع مثل ما صنع هذا وأبلى كما أبلى ؟

---

(١) الطبري جـ٥ ص٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٤ ، ٤٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١١ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٣ .

فقد أحسن ، وعذره [١] .

وكتب إليه (أما بعد : فقد أحسنت البلاء وقضيت الذي عليك فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورًا إلى أهلك) .

كما كتب إلى سورة يلومه ويتهدده ويأمره أن ينتخب من المدائن خمسمائة ويسير بهم وبمن معه إلى شبيب ففعل ذلك سورة وسار نحو شبيب وشبيب يجول في جوخي ، وسورة في طلبه حتى انتهى شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فدخلها وأخذ منها دوابًا وقتل من ظهر له فقيل لشبيب هذا سورة قد أقبل فخرج حتى انتهى إلى النهر ـ تلك الأرض المقدسة لدى الخوارج بما قتل فيها من شهدائهم ـ فصلوا وترحموا على من قتل فيها وتبرءوا من علي وأصحابه . وبث سورة عيونه فأتته العيون بمنزل شبيب وبعدد أصحابه وأنهم لا يزيدون عن المائة فانتخب من أصحابه ثلثمائة وسار بهم نحو النهروان حيث منزل شبيب وجنده ولكن شبيب كان يقظًا فعلم بالجند المقبلة فعبئ أصحابه وحمل على سورة وأصحابه فهزمهم ورجعوا إلى المدائن وشبيب في طلبهم يرجو أن يدركهم قبل دخولهم المدائن ؛ ولكنهم كانوا قد سبقوا فدخلوا بيوتهم .

وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن وخرج ابن أبي عصيفر أمير المدائن لرد المغيرين عليها فرماهم الخوارج بالنبل ورماهم أهل المدائن بالحجارة ؛ فلما تعذرت المدائن على شبيب جلا عنها بأصحابه ومر على جلولاء فأصاب بها دوابًا للحجاج فأخذها ثم خرج يسير في أرض جوخي ثم مضى نحو تكريت [٢] .

ونظرًا لأنه كان يغير مكانه باستمرار ولا يثبت في جهة فقد ألقى الروع والفزع في نفوس أهل المدائن حتى أنهم أرجفوا بأنه يريد أن يبيت أهل المدائن ويغير عليهم فارتحل عامة الجند ؛ وأخذوا جميعًا يرجعون إلى بيوتهم بالكوفة .

ولما بلغ ذلك مسامع الحجاج قال قبح الله سَوْرة : ضيع العسكر والجند وخرج

---

(١) الطبري جـ٥ ص٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٤٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١١ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص٦٠ ـ ٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص٤٥ ، ٤٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤١١ ، ٤١٢ .

يبيت الخوارج أما والله لأسوءنّـه .

ودعا بالجزل وهو سعيد بن عثمان وطلب منه أن يتجهز للخروج وأمره أن لا يعجل عجلة الخرق ولا يحجم إحجام الواني الفرق ؛ فالتمس منه الجزل أن لا يبعث أحدًا من الجند المهزوم لأن روحهم المعنوية ضعيفة فأجابه إلى ملتمسه وجمع له جيشًا يبلغ عدده نحو أربعة آلاف ونادى منادي الحجاج أن الذمة بريئة ممن تخلف من هذا البعث .

فخرج الجزل بهذا الجيش وسار في طلب شبيب وصار شبيب يسير مظهرًا الخوف منه متنقلاً من مكان إلى آخر إرادة أن يفرق الجزل أصحابه في الجهات المختلفة فيلقاه في عدد يسير وعلى غير تعبئة ولا استعداد ولكن الجزل قلد طريقة المهلب فأخذ يطلبهم بالنهار ويتحصن منهم بالليل .

فلما طال الأمر على شبيب جمع أصحابه وكانوا مائة وستين رجلاً وفرقهم أربع فرق وجعل على كل فرقة رجلاً من أصحابه وأمر كل قائد من هؤلاء القواد أن يهاجم الجزل من جهة عينها له فنفذوا ذلك ولكنهم لم يقدروا منه على شيء .

رأى الخوارج حرص الجزل فساروا في أرض جوخي وغيرها يكسرون الخراج وسار الجزل في طلبهم على تعبية بالنهار وخندقة بالليل [١] .

طال ذلك الأمر على الحجاج الذي كانت خطته - كما رأينا فيما سبق - عدم المطاولة فكتب كتابًا قرىء على الناس (أما بعد : فإني بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه الناس وأمرتك باتباع هذه المارقة الضالة المضلة حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها فوجدت التعريس في القرى والتخييم في الخنادق أهون عليك من المضي لما أمرتك به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام) [٢] .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص٦٢ - ٦٧ وابن الأثير جـ٤ ص٤٥ ، ٤٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٢ ، ٤١٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٦٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٣ .

فشق ذلك على الجزل وأمر الناس بالسير الجد في قتالهم وأرجف الناس بأمره وقالوا سيعزله ؛ وما لبث أن بعث سعيد بن المجالد الهمداني بدله وطلب منه أن يزحف بالناس ولا يطاول الخوارج ولا يصنع كما صنع الجزل .

وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان وقد لزم عسكره وخندق عليهم ، فجاء سعيد حتى دخل عسكر أهل الكوفة وقام خطيبًا فيهم موبخًا ومعجزًا لهم ومشنعًا على الخطة التي اتبعت ؛ فقال له الجزل : فماذا تريد أنت أن تصنع . ؟ قال : « أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل » فقال له الجزل « أقم أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم وابرز إليهم فوالله ليقدمن عليك ولا تفرق أصحابك » فقال له « قف أنت في الصف » فبرىء من رأيه .

وكان شبيب في ذلك الوقت في طريقه إلى رامهرمز وكان يأكل هو وأصحابه عندما جاء النذير بأنه محاط بالعدو ومن جميع الجهات فأتم طعامه ـ هادئًا ـ ثم خرج وحمل على الناس وجعل سعيد يدلف الخيل نحوه .

ولما رأى شبيب تفرق أصحاب سعيد عنه قال لجماعته : « استعرضوهم فوالله لأقتلن أميرهم أو يقتلني »

وحمل عليهم مستعرضًا فهزمهم وثبت سعيد فحمل عليه شبيب وضربه بالسيف فقتله . وبقتله انهزم الجيش ورجعت الفلول إلى الجزل وناداهم الجزل (أيها الناس إليَّ) وناداهم عياض بن أبي لينة (إن كان أميركم القادم قد هلك فأميركم الميمون النقيبة المبارك حي لم يمت) ، فقاتل الجزل قتالاً شديدًا حتى حمل من بين القتلى جريحًا فحمل إلى المدائن وقدمت الفلول إلى الكوفة .

وكتب الجزل إلى الحجاج بالخبر ويدافع عن خطته ونصحه لسعيد ؛ فكتب إليه الحجاج يثني عليه ويشكره ويعلن رضاه لكل من الخطتين وأرسل إليه حيان بن أبجر ليداوي جراحته وألفي درهم لينفقها وبعث إليه عبيد الله بن أبي عصيفر بألف درهم وكان يعوده ويتعاهده بالهدية .

اطمأن شبيب إلى قوته فسار نحو المدائن فلما علم أن لا سبيل له إليها فضل أن يسير نحو الكوفة فأقبل حتى انتهى إلى الكرخ فعبر دجلة إليها وأرسل إلى سوق بغداد فأمنهم لبلوغه أنهم يخافون منه وهو يريد أن يشتري هو وأصحابه دوابّا وسيوفًا وأشياءً تلزمهم (١) .

ثم سار شبيب إلى الكوفة فنزل عند حمام عمر بن سعد وبلغ الحجاج ذلك فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن في ألفين وقال له « الق شبيبًا فإن استطرد لك فلا تتبعه » فخرج وعسكر بالسبخة فبلغه أن شبيبًا قد أقبل فسار نحوه .

فلما وصل إلى زرارة قيل له إن شبيبًا قد أتاك فنزل ونزل معه جل أصحابه وأمر الحجاج عثمان بن قطن أن يعسكر بالناس في السبخة .

علم شبيب بمكان سويد فترك الجهة التي هو فيها وسار يريد الكوفة من جهة أخرى فعبر الفرات من مخاضته وأتى دار الرزق فنزلها وبلغ ذلك سويدًا فأمر أصحابه بالركوب لاقتفاء آثارهم وتتبعهم وفي الوقت نفسه بلغ الذين مع عثمان .

أقبل شبيب إليهم فماج بعضهم في بعض وهموا بدخول الكوفة والعودة إلى ديارهم لولا أن علموا بأن سويدًا في أثر شبيب وأنه قد لحقه وهو يقاتله (٢) .

عندئذ عدل شبيب عن مهاجمة الكوفة وسار يقصد الحيرة وسويد في أثره لا يتركه فلما وجده قد بعد عن الكوفة تركه . وقد حدث خلال هذه المتابعة حملات من شبيب لم يفز فيها بطائل .

وقد أغار شبيب في سيره هذا على أطراف البادية فأخاف الناس وانتقم من بعض المعادين له ثم عرج على الفرات فذهب إلى الأنبار ثم اتجه شمالاً إلى أذربيجان فتركه الحجاج (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٦٥ ـ ٦٩ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٣ ، ٤١٤ وابن الأثير جـ٤ ص٤٧ .
(٢) الطبري جـ٥ ص٦٧ وابن الأثير جـ٤ ص٤٧ ، ٤٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٤ والعيني جـ١١ ص٣٠٥ .
(٣) الطبري جـ٥ ص٦٩ ، ٧٠ وابن الأثير جـ٤ ص٤٨ .

ظن الحجاج أن شبيبًا قد نأى فخرج من الكوفة إلى البصرة بعد أن استخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة .

وبينما أهل الكوفة في هدوئهم إذ جاء عروة ابن المغيرة كتاب من ماذرواسب دهقان بابل مهروذ يذكر له أن بعض التجار وجباة الخراج أخبره أن شبيبًا قد نزل خانيجار وهو على قصد الكوفة فأرسل عروة الكتاب إلى الحجاج بالبصرة فأقبل الحجاج مجدًا إلى الكوفة كي يصلها قبل شبيب وأقبل شبيب حتى انتهى إلى قرية حزلى على شاطىء دجلة فعبر منها ثم سار حتى نزل عقرقوف وقال لأصحابه « ياهؤلاء إن الحجاج ليس بالكوفة وليس دون أخذها شيء إن شاء الله فسيروا بنا نبادر الحجاج إليها » .

ولكن الحجاج كان يطوي المنازل مسابقًا شبيبًا إليها فسبقه ودخلها صلاة العصر [1] .

ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب فاستراح بها وصلى المغرب والعشاء [2] .

ثم هجم على الكوفة بالليل وكان معه في جيشه زوجه غزالة وأمه جهيزة وغيرهما قد تقلدن السيوف واعتقلن الرماح وسار شبيب بمن معه إلى قصر الإمارة فضرب بابه بعمود ضربة أثرت بالباب [3] وقال :

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص٤٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٤ والعيني جـ١١ ص٣٠٥ وابن كثير جـ٩ ص١٤ ويروي الطبري جـ٥ ص٧١ أن الحجاج دخل الكوفة صلاة الظهر .

(٢) الطبري جـ٥ ص٧١ وابن الأثيرجـ٤ص٤٩ وقد اختلف المؤرخون في عدد الجيش الذي دخل به شبيب الكوفة فمنهم من بالغ في العدد فوصل به إلى الألف ـ البغدادي ص٩٠ ، ومنهم من انحط به إلى ما دون العشرين . البدء والتاريخ جـ٦ ص٣٣ وأما ابن شاكر جـ٥ ص٧٧ وعماد الدين صاحب شذرات الذهب جـ١ ص٣٣ فيذكران أنه دخلها بسبعين .

وإنا لنستبعد أن يبلغ جيش شبيب في هذه السنة ألفًا ذلك أنه كان لا يعدو مائة وستين ، يؤيدنا في هذا أن جيشه في سنة سبع وسبعين بلغ ثمانمائة بعد أن طاف شبيب يجمع أنصار فكرته وأعداء الحجاج وغير هؤلاء من الطامعين في مال أو ثأر أو الذين يطلبون الحجاج بتبعات .

(٣) الطبري جـ٥ ص٧١ وابن الأثير جـ٤ ص٤٨ واليعقوبي جـ٣ ص٢٠ والعيني جـ١١ ص٣٠٥ والدميري جـ١ ص٢١ .

عبــــد دعي من ثمــود أصلــــه   لا بل يقال أبو أبيهم يقدم [١] .

وطلبت غـزالـة الحجـاج للمبـارزة فلم يجبهـا فقـال في ذلـك عمران بن حطـان السدوسي - وكان الحجاج يطلبه -:

أســد علي وفي الحروب نعــامــة   فتخـــاء تنفر من صفير الصـــافر
هلاّ برزت إلى غـزالـة في الـوغى   بل كان قلبك في جناحي طائر [٢]

ودخلت مسجد الكوفة فخطبت على منبره وجعلت تـذم بني مروان [٣] ، وصلت فيه ركعتين كانت قد نذرتها قرأت فيها بالبقرة وآل عمران [٤] - وهما أطول سورتين في القرآن - وقرأت وردها ؛ وشبيب واقف على الباب يحميها [٦] .

ثم خرج شبيب بأصحابه من المسجد بعد أن قتل كثيرًا من الذين كانوا بـالمسجـد من المصلين والمعتكفين وصاروا كلما رأوا شخصًا - في تلك الليلـة - قتلوه .
وبعد أن عاثوا في الكوفة فسادًا خرجوا جهة المردمة [٧] .

انتظر الحجاج في داره حتى جلا شبيب وأصحابه عن الكوفـة لأن جيوشـه كانت متفرقة وأمر المنادي فنادى (يـاخيل الله اركبي وأبشري) وهو فوق بـاب القصر وثَمَّ

(١) الطبري جـ٥ ص٧١ وابن الأثير جـ٤ ص٤٩ .
(٢) المبرد جـ٢ ص٦٧ وابن شاكر جـ٥ ص٧٧ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٣٣ ، ٣٤ .
(٣) البغدادي - الفرق بين الفرق ص٩٠ وابن كثير جـ٩ ص١٤ .
(٤) الطبري جـ٥ ص٩٧ وابن الأثير جـ٤ ص٦١ وابن خلـــدون جـ٣ ص١٥٨ وابن شـــاكر جـ٥ ص٧٧ والأبشيهي جـ١ ص٢٢٥ وشذرات الذهب جـ١ ص٨٢ .
(٥) الذهبي - تاريخ الإسلام جـ٣ ص٤٦٦ .
(٦) الأبشيهي جـ١ ص٢٢٥ .
(٧) الطبري جـ٥ ص٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٤٩ .
وكان دخـول شبيب الكـوفـة وضرب بـاب القصر وسفـك الـدمـاء في سنـة ست وسبعين . العيني جـ١١ ص٣٠٤ وابن كثير جـ٩ ص١٤ والـذهبي جـ٣ ص٤٦٦ . وأمـا ابن شـاكر وصـاحب شـذرات الـذهب فيذكران ذلك في حوادث سنة سبع وسبعين وهذا ما لا يمكن وقوعه في سنة سبع وسبعين لأنه لم يـدخل الكوفة ؛ وأما الطبري وابن الأثير فإنها يـذكران ذلـك علىأنـه من حوادث سنـة٧٦ ويـذكران حوادث =

مصباح مع غلام له فتهافت إليه الناس ؛ ولكنـه لم يفتح أبواب القصر ليلاً [١] فبات كل قـائـد في جماعتـه حتى الصبـاح . فبعث بشر بن غـالب الأسـدي في ألفي رجل وزائـدة بن قـدامـة الثقفي في ألفين وأبـا الضريس مولي بن تميم - في ألف من الموالي وأعين صاحب حمـام أعين - مولى بن بشر بن مروان - في ألف رجل ومحمـد بن موسى ابن طلحة في ألفي رجل [٢] ؛ وقال لهم الحجاج : « إن كان حرب فـأميركم زائـدة بن قدامة » .

فسـار هؤلاء الأمراء حتى نزلوا أسفل الفرات فترك شبيب الـوجـه الـذي هم فيـه وأخذ طريقه نحو القادسية .

وفي الوقت الذي أرسل فيه الحجاج هؤلاء القواد وجه زحْر بن قيس في جريـدة من نقاوة الفرسان تبلغ ألفًا وثمانمائة وأمره باتباع شبيب ومواقعته حيثما أدركه إلا أن يكون منطلقًا ذاهبًا فيتركه . فالتقى زحر بشبيب بالسيلحين .

ودارت رحى المعركة فانهزم زحر وأصحابه وأصـابـه بضع عشرة جراحـة مـا بين طعنة وضربة وظن شبيب أن قائد الجيش قد قتل ولكن كان قد أغمي عليه فلمـاكان

= أخرى على أبواب الكوفة على أنها من حوادث سنة ٧٧ ولم يذكر البغدادي واليعقوبي لـذلـك الحـادث تـاريخًا .

(١) الطبري جـ٥ ص٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٤٩ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٤ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٥ . ولعله أراد بذلك أن لا يتعرض لدسيسة من جمـاعـة شبيب إذ ربمـا كان خروجهم من المدينـة خـدعـة . وليس ذلك مما يعاب على الحجاج كما لا يعاب عليه عدم خروجـه لغزالـة كما عيره بعض النـاس بـذلـك . المبرد جـ٢ ص٦٧ والمسعودي جـ٢ ص١٠٩ وابن كثير جـ٩ ص٢٠ فإن الحجاج كان بعيد النظر في عدم الخروج لأنه كان في قلة من أصحابه ولم يقم بالمدينة مدة تكفي لجمع الجيوش والدفاع إنما أرجأ ذلك للغـداة حتى يكمل استعداده ؛ وفي هذا دليل قاطع على بعد نظر الحجـاج ، وقول عمران ووصفـه الحجـاج بـالجبن فهو قول أحد زعماء الخوارج الذين كان يطلبهم الحجاج ؛ فـأراد بـذلـك أن يثبت شجـاعـة غزالـة من جهـة ويشفي نفسه برمي الحجاج بالجبن من جهة أخرى .

(٢) وكان محمد بن موسى قد استعمله عبد الملك بن مروان على سجستـان وكتب إلى الحجاج ليجهزه ويسيره سريعًا فأقام يتجهز ؛ وفي أثناء ذلـك دخل شبيب الكوفـة فقـال لـه الحجـاج : « تلقى هـذه الخـارجـة ويكـون الظفر لـك فيطير اسمـك وتمضي إلى عملـك » فسيره معهم الطبري جـ٥ ص٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٤٩ .

الليل وأصابه البرد قام يمشي حتى دخل قرية فبات بها وحمل منها إلى الكوفة ثم أتى الحجاج وعلى وجهه القطن فأجلسه معه على السرير[١] وقال لمن حوله « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس وهو شهيد فلينظر إلى هذا »[٢] .

ولما هزم شبيب أصحاب زحر قال أصحابه له « قد هزمنا لهم جندًا انصرف بنا الآن وافرين » فقال لهم شبيب « هذه الهزيمة قد أرعبت هؤلاء الأمراء والجنود الذين في طلبكم فاقصدوا بنا نحوهم فوالله لئن قاتلناهم فما دون الحجاج مانع ونأخذ الكوفة إن شاء الله تعالى » .

ففوضوا إليه الأمر فسأل عن القوم فأخبر أنهم بروذبار ـ على أربعة وعشرين فرسخًا من الكوفة ـ فقصدهم .

علم الحجاج بمسير شبيب إلى الأمراء فأرسل إليهم يخبرهم ويطلب منهم الاستعداد لقتاله وتجديد قيادة زائدة بن قدامة فاستعدوا وعبؤوا الجيوش وأقبل إليهم شبيب وقد رتب أصحابه وتقابل الجيشان وحمى وطيس القتال وصبر زائدة للمعركة حتى قتل وقتل معه بعض الأمراء وجرح بعضهم[٣] .

ولما قتل القائد أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى بيعته فبايعه بعضهم بالليل وكان فيمن بايعه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقال شبيب لأصحابه « هذا ابن أحد الحكمين » فأرادوا قتله فقال شبيب « ما ذنب هذا » ؟؟ وتركه .

فلما ظهر الفجر أذن محمد بن موسى بن طلحة في أصحابه ـ وكان لم يبرح مكانه ـ فقال شبيب ظننت أن حمقه وخيلاءه يحمله على هذا .

وبعد صلاة الفجر حمل على محمد وأصحابه فانهزمت طائفة منهم وثبتت معه طائفة فقاتل حتى قتل .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٧٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٠ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٧٣ ، وابن الأثير جـ٤ ص٥٠ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٧٤ ، ٧٥ وابن الأثير جـ٤ ص٥٠ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٥ ، ٤١٦ .

وأراد شبيب أن يذهب إلى الكوفة لولا أن رأى أن أصحابه قد ضعفوا وببعضهم جراحات فعدل عنها وأخذ طريقه على نفر ثم على الصراة ثم إلى خانيجار فأقام بها [١] ؛ ولما بلغ الحجاج أن شبيبًا قد أخذ طريقه نحو نفر ظن أنه يريد المدائن وهي باب الكوفة ومن أخذ المدائن كان ما في يده من السواد أكثره ، فهاله الأمر وبعث إلى عثمان بن قطن فسرحه إلى المدائن [٢] .

وأرسل إلى عبد الرحمن بن الأشعث الكندي يأمره بالخروج لشبيب وأن يطلبه حيث كان وأمره أن ينتخب من الناس ستة آلاف فارس فانتخب منهم من كندة وحضرموت ستمائة وطلب منه الحجاج المسارعة بالخروج فخرج وعسكر بدير عبد الرحمن وكتب إليهم الحجاج :

« قد اعتدتم عادة الأذلاء ووليتم الدبر يوم الزحف وذلك دأب الكافرين وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة ومرة بعد مرة وإني أقسم لكم بالله قسمًا صادقًا لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعًا أكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلاً وقد أعذر من أنذر .

وقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

والسلام عليكم » [٣] .

وأرسل الحجاج ابن الأصم مؤذنه إلى عبد الرحمن عند طلوع الشمس يأمره بالارتحال والمناداة في الناس ببراءة الذمة من كل من تخلف ، فأذعن عبد الرحمن للأمر وخرج بالناس حتى مر بالمدائن فنزل بها يومًا وليلة اشترى فيها أصحابه ما يلزمهم وزار الجزل فأوصاه الجزل بالاحتياط وحذره من متابعة شبيب .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٧٥ ، ٧٦ وابن الأثير جـ٤ ص٥١ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٦ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٧٧ وابن الأثير جـ٤ ص٥١ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٦ .

(٣) الطبري جـ٥ص٧٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٦ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص٥١ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٥ .

واصل عبد الرحمن سيره إلى شبيب فلما دنا منه سار شبيب إلى دقوقاء وشهرزور فتبعه عبد الرحمن حتى إذا وصل التخوم لتلك الأرض قال : « هذه أرض الموصل فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم أو فليدعوا » .

علم الحجاج بقرار عبد الرحمن فكتب إليه (أما بعد فاطلب شبيبًا واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده والسلام) .

وعرج شبيب في اتجاه جلولاء وتحرك عبد الرحمن ثانية في طلبه وصار شبيب يراوعه ويخادعه فيتركه يسير وراءه حتى إذا ما دنا منه سار نحو العشرين فرسخًا فنزل في أرض خشنة غليظة .

وهو في ذلك يحاول أن يصادف من عبد الرحمن غرة ولكن عبد الرحمن كان حذرًا يقظًا ففي الليل كان يخندق على نفسه وفي النهار يعبيء الجيش ويستعد ، ومازال شبيب على هذا الحال في السير حتى أنهك جيش ابن الأشعث وأحفى دوابه ولقي منه كل بلاء .

ومع ذلك استمر عبد الرحمن في متابعته فمر شبيب بهم على خانقين وجلولاء وسامرا ثم أقبل إلى السبت وهي قرية من قرى الموصل ليس بينها وبين الكوفة إلا نهر يسمى نهر حولايا ـ وجاء عبد الرحمن فنزل عواقيل من النهر لأنه وجدها مثل الخندق والحصن الحصين .

كان عيد النحر قد أقبل فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يقول له « هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم فهل لكم في الموادعة حتى تمضي هذه الأيام » ؟؟ ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ـ وكان يحب المطاولة فكتب ـ عثمان بن قطن أمير المدائن ـ إلى الحجاج يقول له « أما بعد فإن عبد الرحمن قد حفرجوخي كلها خندقًا واحدًا وكسر خراجها وخلى شبيبًا يأكل أهلها والسلام » .

فكتب إليه الحجاج يأمره بالمسير إلى عبد الرحمن فيعزله ويتولى قيادة الجيش بدله وأرسل مكانه على المدائن مطرف بن المغيرة .

فسار إلى عبد الرحمن وعزله عن إمرة الجيش وتولى هو قيادته فأراد أن يناجز الخوارج في الحال فلم يساعده الجو إذ كانت الرياح تهب شديدة على الجيش فأقام يومًا وليلة بعد قدومه حتى هدأت الريح ثم عبأ جيشه وزحف به على شبيب وتقدم شبيب بأصحابه للقتال وكانوا نحوًا من مائة وثمانين رجلاً ودارت رحى معركة أسفرت عن هزيمة جيش عثمان وقتله ووقع ابن الأشعث من فوق فرسه فأنقذه بعض الجنود فسار حتى نزل دير اليعار.

وقُتِلَ من كندة في ذلك اليوم مائة وعشرون ومن سائر الناس ألف وقتل معظم العرفاء وأمر شبيب أصحابه أن يرفعوا السيوف عن الناس ودعوتهم إلى البيعة فأتاه قوم فبايعوه [١].

وبات عبد الرحمن تلك الليلة بدير اليعار فأتاه فارسان فصعدا إليه وقام آخر قريبًا منهما وخلا أحدهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه ثم نزل هو وأصحابه فتبين أن ذلك الرجل هو شبيب وأنه كان بينه وبين عبد الرحمن مكاتبة [٢].

وسار عبد الرحمن في آخر تلك الليلة عن هذا المكان ونزل بدير أبي مريم فاجتمع الناس إليه وقالوا له « إن سمع شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة قد ذهب الناس وتفرقوا وقتل خيارهم فالحق أيها الرجل بالكوفة » فرجع إلى الكوفة ودخلها متخفيًا من الحجاج حتى أخذ له الأمان منه [٣].

شبيب بالمصيف :

وأما شبيب فإنه أراد أن يستريح من شدة القتال وشدة الحر فأقام الصيف في الجبال على « ماه بهرذان » مدة ثلاثة أشهر وفي أثناء تلك الأشهر الثلاث كثر أتباعه فذهب إليه الكثيرون ممن يبغي المال أو الثأر.

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٧٩ ـ ٨٢ وابن الأثير جـ٤ ص٥٢ ، ٥٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص٨٣ وابن الأتير جـ٤ ص٥٣ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٨٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٣ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٨ .

وبعد انتهاء المدة خرج شبيب في ثمانمائة رجل وقصد المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة وجاء شبيب حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج : « أما بعد : فإني أخبر الأمير أصلحه الله أن شبيبًا قد أقبلَ حتى نزل قناطر حذيفة ولا أدري أين يريد » .

فلما قرأ الحجاج كتاب بابل مهروذ قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم أو لأبعثن إلى قوم هم أسمع وأصبر على الألواء والغيظ منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم »[1] .

فعملت هذه الكلمة عملها في النفوس من حيث إنهم لا يريدون أن يدخل عليهم أحد من أهل الشام ، وقاموا من كل جانب قائلين « نحن نقاتلهم ونرضي الأمير فليندبنا إليهم فإنا حيث سره » .

وقام إليه زهرة بن حوية ذلك الشيخ الطاعن في السن ووجه نصيحته للحجاج مبينًا أن سبب الهزائم هو إرسال الناس فرقًا فرقًا ولكن يجب أن يستنفر الناس كافة وأن يكون القائد ثبتًا شجاعًا مجربًا للحرب ممن يرى الفرار هضمًا وعارًا والصبر مجدًا وكرمًا .

فقال له الحجاج فأنت وذاك فاخرج فقال زهرة : « أصلح الله الأمير : إنما يصلح للناس في هذا الأمر رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس وأنا لا أطيق من هذا شيئًا وقد ضعفت وضعف بصري ولكن أخرجني مع الأمير في الناس فأكون معه وأشير عليه برأيي » . فشكره الحجاج وأثنى عليه وقبل منه نصيحته ونادى في الناس بوجوب سيرهم جميعًا .

فانصرف الناس يتجهزون ولا يدرون من أميرهم ؟؟

هذا ما فعله مع أهل العراق ، ولكنه في هذه المرة لم يطمئن إليهم لسابق تقاعسهم فكتب إلى عبد الملك يخبره أن شبيبًا قد شارف المدائن وأنه يريد الكوفة وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة ويطلب أن يبعث إليه جندًا من

---

(١) الطبري جـ٥ ص٨٤ ، ٨٥ وابن الأثير جـ٤ ص٥٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٨ .

أهل الشام يقاتلون الخوارج ويأكلون البلاد [١] ، وأرسل في الوقت نفسه أيضًا إلى عتاب بن ورقاء وهو مع المهلب في حرب الأزارقة على جيش ابن مخنف يستدعيه كما عرفنا ذلك فيما سبق .

فأجاب عبد الملك بن مروان طلبه وأرسل إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في أربعة آلاف و حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين [٢] .

أمر جيش الكوفة :

فجمع الحجاج أشراف الكوفة واستشارهم فيمن يتولى أمر هذا الجيش ففوضوا إليه الأمر فيمن يراه فأخبرهم أنه قد أرسل إلى عتاب بن ورقاء يستدعيه وأن موعد وصوله الليلة أو غدًا فظهر سرور أهل الكوفة من هذا الاختيار وقال شيخهم زهرة ابن حوية « رميتهم بحجرهم والله لا نرجع إليك حتى نظفر أو نقتل » [٣] .

كان في هذه الأثناء قد فشا الخبر بقرب وصول جيش شامي فتقدم قبيصة بن والق التغلبي بنصيحة إلى الحجاج بشأن إخوانه القادمين فقال :

« إن الناس قد تحدثوا أن جيشًا قد وصل إليك من أهل الشام وأن أهل الكوفة قد هزموا وهان عليهم الفرار فقلوبهم كأنها ليست فيهم فإن رأيت أن تبعث إلى أهل الشام ليأخذوا حذرهم ولا يبيتوا إلا وهم محتاطون فإنك تحارب جوَّلًا قلبًا طعانًا رحالاً وقد جهزت إليهم أهل الكوفة ولست واثقًا بهم كل الثقة وإن شبيبًا بينما هو في أرض إذا هو في أخرى ولا آمن أن يأتي أهل الشام وهم آمنون فإن يهلكوا نهلك ويهلك العراق » فقال الحجاج « لله أبوك ما أحسن ما رأيت وما أصح ما أشرت به » .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٨٥ وابن الأثير جـ٤ ص٥٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٨ . ٤١٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٨٥ وابن الأثير جـ٤ ص٥٥ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٨٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ .

وبعث من فوره إلى الجيش الشامي كتابًا يقول فيه : « أما بعد فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأنبار وخذوا طريقكم على عين التمر حتى تقدموا الكوفة إن شاء الله وخذوا حذركم وعجلوا السير والسلام » فأقبل القوم سراعًا وقدم عتاب في نفس الليلة التي عينها الحجاج فأمره الحجاج بالخروج بالناس فخرج وعسكر بحمام أعين [١] .

أقبل شبيب حتى انتهى إلى كلواذا فقطع فيها دجلة ثم سار ونزل مدينة بهرسير الدنيا فلم يكن بينه وبين مطرف إلا جسر على النهر فقطعه مطرف [٢] وأرسل إلى الحجاج « إن شبيبًا قد أطل عليّ فابعث إلى المدائن بعثًا » .

فبعث إليه سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف في مائتي فارس [٣] . وأرسل مطرف إلى شبيب يطلب منه رجالاً يدارسهم القرآن وينظر فيما يدعون إليه . وبعد مفاوضات في شأن البعث أجابه إلى طلبه وأرسل إليه قعنب وسويد والمحلل .

ودارت مناقشات مدة أربعة أيام لم يصلوا بها إلى نتيجة ترضي الطرفين وفشلت المفاوضات . فلما تبين لشبيب أن مطرفًا غير متابع له ولا داخل معه تهيأ للسير إلى عتاب وإلى أهل الشام [٤] .

وهذه الحركة التي قام بها مطرف لا نعرف على التحقيق المقصود منها : هل كان يريد أن يشغلهم عنه ؟؟ أم أنه كان يطمع في استمالتهم إلى جانبه ليتقوى بهم فيقوم بحركة كالتي قام بها فيما بعد ؟؟

ووثق مطرف أن الحجاج لابد عالم بما كان بينه وبين شبيب فخرج نحو الجبال بأصحابه وأخبرهم بذلك ما عدا سبرة فإنه كتم عنه الأمر إلى أن وصل إلى دسكرة

---

(١) الطبري جـ٥ ص٨٦ ، ٨٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص٥٦ .
(٢) الطبري جـ٥ ص٨٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ .
(٣) الطبري جـ٥ ص٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ .
(٤) الطبري جـ٥ ص٨٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ .

الملك فأعلمه بما يريد ودعاه لأمره فأظهر سبرة أنه معه ، ولما خرج من عنده بعث إلى أصحابه فجمعهم ورجع بهم إلى الكوفة (١) .

ومهما تكن نية مطرف في مفاوضته لشبيب فالواقع أن الجيش الشامي استفاد من تصرف مطرف إذ شغل شبيب بالمفاوضة عن مقابلته الجيش الشامي وهو في طريقه إلى الكوفة .

وقد عبر عن ذلك في حديث أفضى به لأصحابه فكان مما قاله : « إن هذا الثقفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام وذلك أني هممت أن أخرج في جريدة خيل حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام رجاء أن أصادف غرتهم قبل أن يحذروا وكنت ألقاهم منقطعين عن المصر ليس عليهم أمير كالحجاج ولا لهم مصر كالكوفة يعتصمون بها » .

ولما انتهت المفاوضات كانت أوائل الجيش الشامي قد دخلت عين التمر وكان عتاب قد سار بخمسين ألفًا منهم أربعون ألفًا من مقاتلة أهل الكوفة وعشرة آلاف من شبابهم ممن نشط للجهاد ورغب فيه حتى نزل سوق حكمة ، وقد هددهم الحجاج وتوعدهم قائلاً « ياأهل الكوفة اخرجوا مع عتاب بن ورقاء بأجمعكم لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا . ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة . ألا وإن للناكل الهارب الجفوة والهوان والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينكم كنفًا خشنًا ولأعركنكم بكلكل ثقيل » (٢) .

جمع شبيب أصحابه بعد أن عرفهم الموقف وقال يامعشر المسلمين : « إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان وأكثر من ذلك وأقل منه قليلاً فأنتم اليوم

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٨٧ ، ٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ .

مئون ومئون ألا وإني مصل بكم الظهر ثم سائر بكم »

فصلى الظهر ثم نودي في الناس (ياخيل الله اركبي وأبشري) فخرج في أصحابه فأخذ البعض يتخلف في الطريق فلما رأى شبيب ذلك أخذ يقص عليهم القصص ويذكرهم بالآخرة ويزهدهم في الدنيا ليتشجعوا ولا يكون لديهم رهبة ولا خوف من هذا الجيش الكبير وما زال سائرًا حتى أشرف على عتاب بن ورقاء وعسكره فنزل وصلى المغرب (١) .

معركة سوق حكمة :

كان عتاب قد عبئ أصحابه وصفهم ثلاثة صفوف صف لأصحاب السيوف وصف آخر لأصحاب الرماح والصف الثالث للرماة .

كذلك رتب شبيب جيشه الذي وصل إلى ميدان القتال وهو ستمائة وقد تخلف عنه ربعمائة فجعل مائتين في الميسرة ومائتين في القلب ومائتين في الميمنة .

ونشبت المعركة في تلك الليلة حين أضاء القمر فدارت الدائرة على عتاب وفر من جيشه كثيرون كان من بينهم عبد الرحمن بن الأشعث في ناس كثير .

وتحرج موقف عتاب فلم يبق معه إلا القليل فقاتل بهم ساعة حتى قتل ، وبعد ذلك أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم إلى البيعة فبايعه الناس خوفًا ولكنهم هربوا من ليلتهم وحوى شبيب ما في عسكرهم ثم أقبل إلى الكوفة (٢) .

وفي طريقه إلى الكوفة مر على سورا فقال لأصحابه أيكم يأتيني برأس عامل سورا ؟؟ فخرج جماعة من أصحابه إلى عامل سورا ودبروا مكيدة وخديعة خدعوا بها الناس بأن قالوا : أجيبوا الأمير فقال الناس أي الأمراء ؟؟ قالوا : أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق ـ يعني شبيبًا ـ : فاغتر بذلك العامل منهم ثم إنهم

(١) الطبري جـ٥ ص٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ وابن أبي الحديد م١ ص٤١٩ والعيني جـ١١ ص٣٠٧ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص٨٩ ـ ٩١ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ ، ٥٧ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٠ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٧ .

شهروا سيوفهم وحكموا حين وصلوا إليه وضربوا عنقه وقبضوا على ما كان في بيت المال ولحقوا بشبيب وأخبروه بالأمر فقال عن المال « لقد أتيتمونا بفتنة المسلمين هلم الحربة ياغلام ، فمزق بها البدور وأمر فنخست الدابة التي عليها المال فصار يتناثر من بدوره حتى وصل الصراة فقال : إن كان قد بقي شيء فاقذفه في الماء[1] » واستمر شبيب في مسيره حتى نزل موضع حمام أعين .

كان في ذلك الوقت قد وصل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي فيمن معهما إلى الكوفة فشدوا ظهر الحجاج واستغنى بهم عن أهل العراق الذين برهنوا على منتهى الجبن [2] .

وحينما وصلته أخبار هزيمة عتاب صعد المنبر فقال « ياأهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد منكم النصر اخرجوا عنا ولا تشهدوا معنا قتال عدونا الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب » [3] .

وما كاد الحجاج ينتهي من خطبته هذه حتى قدم سبرة بن عبد الرحمن من الدسكرة فلما علم بغضب الحجاج لم يرد أن يقابله وجهًا لوجه فدخل على سفيان بن

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٢ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢١ .
ولقد كانت هذه العبارة . « لقد أتيتمونا بفتنة المسلمين » ، وما تبع ذلك من ترك المال يتناثر من البدور ثم قذف باقيه في الماء ـ مثارًا لتعليق بعض الكاتبين ـ راجع تاريخ الإسلام السياسي جـ١ ص٤٧٢ فتحدثوا ـ معتمدين عليها ـ عن زهد الخوارج وتقشفهم .
على أننا لا نستطيع أن نوفق بين موقف شبيب إزاء هذا المال وما جرى بعد ذلك من أنه عند إخماد ثورته كان عسكره أكثر عسكر خلق الله خيرا . الطبري جـ٥ ص١٠٤ وابن الأثير جـ٤ ص٦١ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص٤٢٠ ولعل شبيبا أراد في هذا الموقف أن لا يشغل الناس بالمال وهم مقبلون على موقعة فاصلة .

(٢) الطبري جـ٥ ص٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢١ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٧ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٠ وابن كثير جـ٩ ص١٧ .

الأبرد وقص عليه قصته وأخبره بطاعته وفراقه مطرفًا وأنه من الذين لم يشهدوا قتال عتاب بل لم يشهد هزيمة في موطن من مواطن أهل الكوفة كما أن الذين معه لم يشهدوا هزيمة قط ومازالوا على الطاعة لم يدخلوا فتنة .

فدخل سفيان على الحجاج فأخبره بقصة سبرة فقال صدق وبرَّ . قل له فليشهد معنا قتال عدونا فخرج إليه سفيان وأعلمه بذلك (١) .

وأخذ الحجاج في إعداد العدة لقتال شبيب دون الاعتماد على أهل العراق فدعا الحارث بن معاوية بن أبي زرعة الثقفي فأرسله في ناس من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب وجماعة كانوا عمالاً في نحو مائتي رجل من أهل الشام وبلغ عدد الجميع نحو الألف خرج بهم الحارث حتى نزل زرارة .

ولما وصل علم ذلك إلى مسامع شبيب الذي كان سريعًا في حركاته ومحبًا لمعاجلة الجيوش فرادى أسرع إلى الحارث بن معاوية حتى إذا ما وصل إليه حمل عليه فقتله وانهزم أصحابه وجاء المنهزمون فدخلوا الكوفة (٢) وبذلك أصبح الطريق مفتوحًا إليها .

وفي اليوم الثاني أخرج الحجاج مواليه فأخذوا بأفواه السكك وخرج أيضًا أهل الكوفة فأخذوا بأفواه سككهم خوفًا من موجدة الحجاج وعبد الملك بن مروان وجاء شبيب فنزل السبخة وأسس بها مسجدًا .

وفي اليوم الثالث أخرج الحجاج أبا الورد ـ أحد مواليه ـ بهيئة عظيمة وأخرج غلمانًا له معه فقال أصحاب شبيب هذا الحجاج فحمل عليه شبيب فقتله وقال حين قتله : إن كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه ؛ ثم أخرج الحجاج غلامًا آخر له اسمه طهمان في مثل تلك العدة والحالة فقتله شبيب وقال مثل مقالته السابقة (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٥٨ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص٤٢١ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٩٣ ، وابن الأثيرجـ٤ ص٥٨ .

خروج الحجاج لشبيب :

عند ذلـك رأى الحجـاج أن يخرج بنفسـه لقتـال شبيب على رأس الجيش الخـارج ليقوي عزيمة الجند وليشهد قتـال الـذين فرت منهم الجيوش وقتلوا عـددًا من الأمراء والقواد فخرج عند ارتفاع النهار راكبًا إلى السبخة ولما رأى شبيبًـا نزل ورسم الخطـة التي يجب أن تتبع في قتال العدو[1] .

فجعل سبرة بن عبـد الرحمن على أفواه السكـك في جمـاعـة النـاس ودعـا بكرسي فقعد عليه ثم نادى (ياأهل الشام أنتم أهل السمع والطـاعـة والصبر واليقين لا يغلبن بـاطـل هـؤلاء الأرجاس حقكم غضـوا الأبصـار واجثـوا على الركب واستقبلـوا القـوم بأطراف الأسنة) .

فجثوا على الركب وأشرعوا الرمـاح وأقبل إليهم شبيب في ستمائـة فـارس حتى إذا ما دنا عبيء أصحابه ثلاثة كراديس وقال لقائد إحداها احمل عليهم في خيلك فحمل عليهم فثبت أصحاب الحجاج وصاروا يطعنونهم قُدُمًا حتى انصرف القـائـد بكردوسـه فصاح الحجـاج هكـذا فـافعلوا وقـدم كرسيـه حتى يضغطوا على العـدو ولا يتقهقرَوا فأمر شبيب قائد الكردوس الثاني بالحملـة عليهم ففعلوا بـه مثل فعلهم بزميلـه وصـاح بهم الحجاج هكذا فافعلوا وقدم كرسيـه . ثم إن شبيبًـا حمل عليهم بكردوسـه الثـالث فصنعوا به ما صنعوا بقائديه .

فلمـا رأى شبيب ذلـك أراد أن يسلـك معهم خطـة أخرى . تلـك هي أنـه أمر سويدًا ـ أحد قواده ـ أن يحمل على الآخذين بأفواه السكك فإذا ما تمكن من إزالتهم عن مواضعهم أتى الحجاج من ورائـه ، بينمـا يـأتيـه شبيب من الأمـام .

على أن خطة شبيب هذه كان مقدراً لها الفشل : ذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلثمـائـة رجل ردءًا لـه ولأصحـابـه لئلا يؤتوا من الخلف .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٤ وابن الأثير ج٤ ص٥٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢١ والعيني جـ١١ ص٣٠٧ وابن كثير جـ٩ ص١٨ .

وبينما كان سويد يقوم بمحاولته هذه دون أن يعلم بما أعد الحجاج له رُمِيَ من فوق البيوت وأفواه السكك بالحجارة فرجع [١] .

أدرك شبيب خطورة الموقف فجمع أصحابه ليحمل بهم جميعًا وقال لهم (ياأهل الإسلام إنما شرينا الله ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جنب الله الصبر الصبر شدة كشداتكم في مواطنكم الكريمة » .

ولما رأى الحجاج تجمع شبيب بأصحابه قال لأصحابه : « ياأهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ثم ورب السماء ما شيء دون الفتح » .

فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه فوثبوا في وجهه وما زالوا يطاعنونه بالرماح ويدفعونه وأصحابه حتى بلغوا المسجد الذي أسسه شبيب واستولوا عليه فقال الحجاج ياأهل الشام هذا أول الفتح .

وصعد الحجاج فوق المسجد وصعد معه جماعة نحو العشرين من أصحاب النبال وعند ذلك أمر شبيب فرسانه بالترجل فأمر الحجاج برشقهم بالنبال إن قربوا منهم واشتد القتال في ذلك اليوم الذي ظهرت فيه عبقرية الحجاج الحربية ووطن نفسه فيه على هزيمتهم [٢] .

وفي هذا الوقت أتى الحجاج خالد بن عتاب ـ من أعيان أهل الكوفة فكان بذلك لا يرغب الحجاج في اشتراكهم في القتال ولفراره عن أبيه ـ يلتمس من الحجاج أن يقاتل الخوارج حتى يثأر لأبيه وأبان أنه لا يتهم في نصيحته واستأذن في أن يغير عليهم من خلفهم فأذن له الحجاج فأتاهم من خلفهم في جماعة من أهل الكوفة فقتل مصادًا أخا شبيب وقتل امرأته غزالة [٣] وأضرم النار في عسكره

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٤ ، ٩٥ ابن الأثير جـ٤ ص٥٨ وابن الحديد م١ ص٤٢١ وابن كثير جـ٩ ص١٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٩٥ وابن الأثير جـ٤ ص٥٨ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٢ والعيني جـ١١ ص٣٠٧ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٩٥ ، ص٩٦ ابن الأثير جـ٤ ص٥٨ ، ص٥٩ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٢ والعيني جـ١١ ص٣٠٧ وابن كثير جـ٩ ص١٨ .

ويروى البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص٩٠ أن غزالة أمه .

بلغ ذلك الخبر مسامع الحجاج وشبيب فأما الحجاج فقد كبر تكبير النصر وأما شبيب فركب هو وأصحابه بعد أن كانوا راجلين فقال الحجاج لجنده شدوا عليهم فإنه قد أتاهم ما أرعبهم فحملوا عليهم فكانت الهزيمة لشبيب .

فقد ولى جماعة من أصحابه الدبر وتخلف هو في حامية من الناس ولكنه لم يلبث أن ولى الدبر هو أيضًا فنادى الحجاج (أن دعوه في حرق الله وناره) .

وكانت تلك الواقعة في سنة سبع وسبعين للهجرة [١] .

وبذلك انتصر الحجاج وجاء فدخل الكوفة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « والله ماقوتل شبيب قبلها ولّى والله هاربًا وترك امرأته يكسر في أستها القصب » .

وأراد الحجاج أن يقضي على شبيب قضاءً مبرمًا فنادى يوم الهزيمة من جاءنا فهو آمن فتفرق عن شبيب عدد كبير ثم بعث إلى عماله أن دسوا لأصحاب شبيب أن من جاءنا منهم فهو آمن .

ونظرًا لأن الكثير منهم سئم القتال وعرف أن لا فائدة ترجى من شبيب تركه ودخل في أمان الحجاج وخشي الحجاج أن يستطيع شبيب جمع أنصار جدد فأرسل في أثره حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف من أهل الشام وحذرهم من البيات وطلب منهم أن ينازلوه في أي مكان وجد لأن الهزيمة محققة له إذ إن حده قد فل ونابه قد قصم بقتل أخيه وزوجه وتفرق الكثير من أصحابه عنه .

فسار حبيب حتى نزل الأنبار وبلغ شبيب ذلك فأقبل إليهم حتى إذا دنا من عسكرهم نزل فصلى برجاله المغرب [٢] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٩٥ ، ٩٦ وابن الأثير جـ٤ ص٥٨ ، ٥٩ والعيني جـ١١ ص٣٠٨ وابن كثير جـ٩ ص٢٠ وابن شاكر جـ٥ ص٧٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٠٠ وابن الأثير جـ٤ ص٥٩ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٢ .

رتب حبيب أصحابه فجعلهم أرباعًا وطلب من كل ربع منهم أن يمنع جانبه وأن لا يعين فريق فريقًا وأفهمهم أن الخوارج لابد أن يبيتوهم.

وقد كان ، فبيتهم شبيب ولكنه أتاهم وهم مستعدون فحمل على ربع منهم فقاتلوه فما زلت قدم إنسان عن موضعه فترك هذا إلى ربع آخر فكان الأمر كذلك ثم الثالث ثم الرابع وفي كل الأحوال لم يفز بطائل فطاف بهم ونازلهم راكبًا وراجلاً واشتد القتال حتى بلغت القلوب الحناجر وصار الرجل يضرب بسيفه فلا يصنع شيئًا من شدة الإعياء .

وقتل في تلك الليلة نحو الثلاثين من الخوارج والمائة من جيش حبيب .

ولما يئس شبيب من النجاح أمر أصحابه بالركوب وترك القتال وسار بهم فقطعوا دجلة وأخذوا في أرض جوخي ثم قطع دجلة مرة أخرى عند واسط ثم ساروا إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم ارتفعوا إلى كرمان ليأخذوا فترة استجمام وراحة [1] .

إرسال الحجاج سفيان بن الأبرد إلى شبيب :

أراد الحجاج أن يجهز على شبيب ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه ، فلديه أهل السمع والطاعة الذين هزموا شبيبًا الذي طالما فر منه أهل الكوفة ، وهذه قوته قد انحلت .

فنادى بخروج الناس وقسم فيهم أموالاً عظيمة وأعطى الجرحى وكل ذي بلاء وطلب إلى سفيان بن الأبرد أن يسير بهم إلى شبيب .

شق ذلك على حبيب وقال للحجاج « تبعث سفيان إلى رجل قد فللته وقتلت فرسانه » ؟؟ ولكن الحجاج لم يتراجع في أمره وأمضاه فسار سفيان نحو شبيب .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٠ ، ص١٠١ وابن الأثير جـ٤ ص٥٩ ، وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٨ .

وقد تحرينا أن نورد رواية أبي مخنف في سبب هزيمة شبيب دون رواية عمر بن شبة لأن الأولى في نظرنا منسجمة في منطقها مرتبة في حوادثها فضلاً عن الثقة بأبي مخنف في الأخبار الكوفية .

لم يكتف الحجاج بهذا بل كتب إلى عامله بالبصرة ـ الحكم بن أيوب الثقفي ـ يأمره أن يرسل رجلاً شجاعًا شريفًا من أهل البصرة في أربعة آلاف ويلحق بسفيان ابن الأبرد وأن يسمع له ويطيع ، فبعث الحكم زياد بن عمرو العتكي فلم يصل إلى سفيان حتى كان سفيان قد التقى بشبيب بجسر دجيل الأهواز فانضم إليه ونشبت بين الفريقين معركة تكررت فيها الحملات حتى قيل إنها بلغت ثلاثين حملة لم يتزحزح أهل الشام في واحدة منها .

على أن شبيبًا وأصحابه أبلوا في الموقعة بلاءً ظن سفيان معه أنه سيعجز عن القضاء عليه واستمرت المعركة مائعة حتى أقبل الظلام فانصرف شبيب وأصحابه ؛ وأمر سفيان أصحابه بعدم اتباعهم .

وأمر شبيب أصحابه أن يعبروا جسر دجيل حتى إذا أصبحوا باكروهم ، فعبروا أمامه وتخلف في أخراهم وبينما كان يعبر شبيب على الجسر اضطربت به فرسه فسقط في الماء ولم يستطع النهوض لثقل سلاحه فغرق قائلاً (ذلك تقدير العزيز العليم) (١) وكان ذلك في سنة سبع وسبعين للهجرة (٢) .

وهنا نتساءل : هل كان غرقه هذا بسبب خيانة من بعض عسكره لأنه قد أصاب من عشائرهم وسادات قومهم فأرادوا أخذ الثار في هذه الساعة فقطعوا الجسر فمالت به السفينة ففزع حصانه وغرق ؟؟؟ أم كان السبب في هذا هو ما حصل من فرسه من أنها نزت على فرس أخرى ماذيانة كانت أمامها فاضطربت الماذيانة ونزل

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٢ ، ١٠٣ وابن الأثير جـ٤ ص٦٠ ، ٦١ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٣ والعيني جـ١١ ص٣٠٨ ، ٣٠٩ وابن كثير جـ٩ ص٢٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٠٢ في أقوى روايتيه وابن الأثير جـ٤ ص٦٠ والعيني جـ١١ ص٣٠٨ وابن شاكر في إحدى روايتيه جـ٥ ص٧٩ وابن كثير جـ٩ ص١٩ .

ويروى أن هلاك شبيب كان في سنة ثمان وسبعين . الطبري جـ٥ ص١٠٢ في روايته الأخرى واليعقوبي جـ٣ ص٢٠ والذهبي جـ٣ ص٤٦٦ وابن شاكر في الرواية الأخرى جـ٥ ص٧٩ .

حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء [١] ؟؟

وفي رأينا أن قصة المؤامرة أقرب إلى منطق الحوادث من قصة الماذيانة .

ذلك أنا لو فرضنا هذا الحادث العرض البحت كان هو السبب الوحيد في سقوطه في الماء لنزل بعض رجاله المخلصين لإنقاذه على الرغم من ظلام الليل فهو أميرهم ومفروض عليهم الفناء في الدفاع عنه .

أما وقد أصابه هذا الحادث دون أن يتقدم أحد لإنقاذه فمعنى ذلك أن الجماعة المحيطة به عن قرب كانت لا ترغب في نجاته مما يؤيد قصة المؤامرة ، وكذلك نرى أن قصة قطع الجسر كانت إيذانًا من الموتورين منه بقيام المؤامرة ضده .

كل هذا يرجح في نظرنا قصة المؤامرة فإنه فوق إصابته من عشائر بعضهم استثنى قرابته من القسوة التي كانت متبعة ضد الكفار [٢] فحقدوا عليه كما حقدوا عليه تركه الأسرى يذهبون عندما يقولون لا حكم إلا لله .

ولا ننسى قوة سلطانه التي أثارت حفيظة أمثال ثابت بن مصقلة الذي جادل في أثناء معركة السبخة وكان ممن يعبرون الجسر مع شبيب [٣] .

ومهما يكن من الأمر فقد انتهى شبيب ؛ وعندما سمع أهل الشام الخوارج يقولون غرق أمير المؤمنين عبروا إلى عسكرهم فلم يجدوا فيه أحدًا فنزلوا فيه وغنموه فكان أكثر عسكر خلق الله خيرًا [٤] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٣ وابن الأثير جـ٤ ص٦١ وابن كثير جـ٩ ص٢٠ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٤ . وابن شاكر جـ٥ ص٧٧ والذهبي جـ٣ ص٤٦٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٧٣ ؛ ١٠٤ وابن الأثير ص٤ ، ٦١ وابن أبي الحديد م ١ ص٤٢٤ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٩٩ وابن الأثير جـ٤ ص٦٠ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٠ .

(٤) الطبرى جـ٥ص١٠٤ وابن الأثير جـ٤ص٦١ وابن ابي الحديد م١ ص٤٣٠/ .

وقد أحاط النـاس موت شبيب بقصـة يزعمون فيهـا أن أهل الشـام شقوا بطنـه وأخرجـوا قلبـه فكان مجتمعًـا كأنـه صخرة وأنـه كان يضرب بـه الأرض فيثب قـامـة إنسان (١) .

كما أحاطوه بأساطير أرجعوها إلى ما قبل ولادته (٢) .

وبهلاك شبيب تخلص الحجـاج من عـدو خطير قوي الإرادة صلب العـزيمة دوخ قواد الدولة وعاث فيهـا فسـادًا وبعث الفزع والرعب في قلوب النـاس وبموتـه اطمأن الناس وانتظمت حالة البلاد للحجاج وتفرغ للفتح الخارجي .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٤ وابن الأثير جـ٤ ص٦١ وابن أبي الحـديـد م١ ص٤٢٤ والعيني جـ١١ ص٣٠٩ وابن شاكر جـ٥ ص٧٨ وابن عبد ربه جـ١ ص٤٤ .

(٢) فمن ذلك أن أمه حين حملت به رأت في المنام أنه خرج منهـا شهـاب من نـار فـذهب سـاطعًـا في السماء وبلغ الآفاق كلها فبينا هو كذلك إذ وقع في ماء كثير فخبا ، وأنه ولد في يوم السبت ١٠ من ذي الحجـه من سنة خمس وعشرين للهجرة فاستنتج من ذلـك أنـه لا يموت على فراشـه ولا يعمل فيـه السيف وأنـه سيكـون محبًـا لسفـك الـدمـاء وأن أمره سيكـون عظيمًـا . الطبري جـ٥ ص١٠٤ ، ١٠٥ وابن الأثير جـ٤ ص٦١ وابن أبي الحديد م١ ص٤٢٤ والعيني جـ١١ ص٣٠٩ وابن شاكر جـ٥ ص٧٨ .

الفصل الرابع
ثورة مطرف بن المغيرة

عرفنا فيا سبق المغيرة بن شعبة أحد الدهاة الأربعة وإخلاصه في خدمة دولة بني أمية في عهد معاوية ومركزه فيها .

وقد ورث بنوه هذا الإخلاص وهذا المركز ، ولما قدم الحجاج العراق لم يغمطهم حقوقهم بل عرف لهم نبلهم وصلاحهم ومنزلتهم من قومهم فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرفًا على المدائن وحمزة على همدان [١] .

فساروا في الناس سيرة حسنة بإجزال الثواب للمحسن وتشديد النكير على المسيء فاستتب الأمن وسارت الأمور في مجراها الطبيعي لا يزعجهم مزعج حتى قام مطرف بثورة ضد الدولة كانت سببًا في قتل نفسه وحبس أخيه حمزة .

كان مطرف كأبيه وأخويه من أحسن العمال وأخلصهم ، وليس أدل على ذلك من النهج الذي رسمه لنفسه عند توليته المدائن فقد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم وأمرني بالحكم بالحق والعدل في السيرة فإن عملت بما أمرني به فأنا أسعد الناس وإن لم أفعل فنفسي أوبقت وحظ نفس ضيعت . ألا أني جالس لكم العصرين فارفعوا إليّ حوائجكم وأشيروا علي بما يصلحكم ويصلح بلادكم فإني لن آلوكم خيرًا ما أستطعت » ثم نزل فجلس في الإيوان .

وقد أرضى ذلك النهج أهل المدائن فقد أقبل إليه حكيم بن الحارث الأزدي ـ أحد أشراف الأزد ـ وقال له : « أصلحك الله إني كنت منك نائيًا حين تكلمت وإني

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٦ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٩ وابن شاكر جـ٥ ص٧٩ .

أقبلت نحوك لأجيبك فوافق ذلك نزولك . إنا قد فهمنا ما ذكرت لنا أنه عهد إليك فأرشد الله العاهد والمعهود إليه وقد منيت من نفسك العدل وسألت المعونة على الحق فأعانك الله على ما نويت إنك تشبه أباك في سيرته برضى الله والناس (١) .

وقد استمر مطرف في عمله على النهج الذي رسمه لم يكدر صفوه مكدر حتى أقبل شبيب ونزل بهرسير الدنيا وصار بينه وبين مطرف جسر دجلة فقطعه مطرف وأرسل إلى الحجاج يخبره بمشارفة شبيب للمدائن ويطلب منه مددًا .

فأرسل إليه الحجاج أربعمائة من المقاتلة تحت قيادة سبرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن كناز (٢) .

وأرسل مطرف إلى شبيب يقول له : أن ابعث رجالاً من صلحاء أصحابك أدارسهم القرآن وأنظر ما تدعون إليه .

فأجابه شبيب بالموافقة على شرط أن يبعث إليه مطرف أولاً رجالاً من أصحابه يكونون رهينة لدى شبيب حتى يرجع اليه البعث (٣) .

فقال مطرف لرسول شبيب : قل له : كيف آمنك على أصحابي إذا بعثتهم الآن إليك وأنت لا تأمنني على أصحابك ؟ فرد شبيب بقوله : إنك قد علمت أننا لا نستحل الغدر في ديننا وأنتم تفعلونه .

ومن العجب أنه بعد هذه الإجابة يرسل إليه مطرف جماعة من خيرة رجاله !!

فلما وصلوا إلى شبيب أرسل إليه كبار قواده للمفاوضة (٤) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٦ ، ص١٠٧ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٠٧ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٠٨ وابن الأثير جـ٤ ص٥٦ وابن شاكر جـ٥ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٩ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٠٨ .

وبدأت المناظرة فسألهم مطرف عما يدعون إليه وعن سبب نقمتهم على قومهم فقالوا : إنا ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله وإن الذي نقمناه على قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية (١) .

فقال مطرف : ما دعوتم إلا إلى حق ولا نقمتم إلاجورا ظاهرًا وأنا لكم على هذا متابع فتابعوني إلى ما أدعوكم إليه يجتمع أمري وأمركم وتكون يدي وأيديكم واحدة ، فقالوا : هات ما تذكر فإن رأينا حقًا أجبناك . قال : فإني أدعوكم إلى قتال هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم وندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضونه لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعانوكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون (٢) .

فقالوا : هذا مالا نجيبك إليه .

وكان موقفهم هذا عاديًا إذ كان في ذلك ما يهدر زعامة شبيب وكانوا قد ارتضوه خليفة عليهم ودعوه بأمير المؤمنين وهو مثلهم الأعلى ، فقاموا من عنده ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بمقالة مطرف فردهم إليه ثانية يناظرونه (٣) بما عرف عنهم من لباقة وقوة حجة ومكثوا على ذلك أربعة أيام (٤) .

وفي اليوم الرابع قال لسويد بن سليم ، قد فهمت ما ذكرت ارجع يومك هذا حتى ننظر في أمرنا فرجع ودعا مطرف إلى اجتماع خاص من ثقاته ونصائحه وبسط لهم الموقف قائلاً :

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٠٨ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ وابن شاكر جـ٥ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص١٥٩ .

(٢) نفس المصادر .

(٣) راجع الطبري جـ٥ ص١٠٩ ، ١١٠ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٨٧ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ .

ياهؤلاء إنكم نصحائي وأهل مودتي ومن أثق بصلاحه وحسن رأيـه والله مـا زلت لأعمـال هؤلاء الظلمـة كارهًـا أنكرهـا بقلبي وأغيرهـا مـا استطعت بفعلي وأمري فلمـا عظمت خطيئتهم ومر بي هـؤلاء القـوم يجـاهـدونهم لم أر أنـه يسعني إلا منـاهضتهم وخلافهم إن وجـدت أعوانًـا عليهم وإني دعوت هـؤلاء فقلت لهم كيت وكيت وذكر مـا دارفي الحـديث وأنهم لـوتـابعـوه على رأيـه لخلـع عبـد الملـك والحجـاج ، واستشـارهم فيما يفعل : فأشاروا عليه بإخفاء هذا الكلام وعدم اطلاع أحد عليه ما عـدا يزيـد مولى المغيرة بن شعبة فإنه قـال : والله لا يخفى على الحجـاج مما كان بينـك وبينهم كلمـة واحدة وليزادنّ على كل كلمـة عشر أمثـالهـا ولو كنت في السحـاب هـاربًـا لالتمسـك الحجاج حتى يهلكك فالنجاء النجاء [١] من مكانـك هـذا فـإن أهل المـدائن من هـذا الجانب ومن ذاك الجانب وأهل عسكر شبيب يتحدثون بما كان ولا تمسي من يومـك هذا حتى يبلغ الخبر الحجاج فاطلب دارًا غير المدائن . فوافقه أصحابه على رأي يزيد فسار عن المدائن إلى الجبال [٢] .

والمستعرض لموقف مطرف لا يسعه إلا أن يتساءل : ما الذي دفع مطرفًـا إلى أن يساجل جماعة شبيب في مبادئهم الـدينيـة ؟ أكان جـاهلاً بمبـاديء الخوارج ؟؟ هـذا مـا لا نستطيع أن نسلم بـه . أم أنـه كان يريـد كسب الوقت ريثما يتم وصـول المـدد الذي ينتظره من الحجاج ؟؟ هذا ما لا نستبعده .

ثم رأينا مطرفًا بعد ذلك يقدح أمام رسل شبيب في سياسة الحجاج وعبـد الملـك فـإلى أي حـد كان في ذلـك جـادًا ؟ وهـل كان حقيقـةً من النـاقمين في نفســه على سيــاستهما وأنه « ما زال لأعمال هؤلاء الظلمة كارهًا ينكرها بقلبه ويغيرها مـا استطـاع بفعلـه وأمره » ؟؟

---

(١) الطبري جـ٥ ص١١٠ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١١٠ والجبال قسم عظيم من بلاد الفرس بين طبرستـان وأذربيجـان شمالاً وأرض الجزيرة والعراق غربًا وأوزستان وفارس جنوبًا وقهستـان شرقًـا وهو الآن العراق العجمي ـ أمين واصف ـ معجم الخريطة ص٣٠ .

فإذا كان كذلك فلم لم يفكر في الخروج قبل ذلك الوقت ؟ أم أن موقفه هذا كان من قبيل إطالة المساجلات بينه وبين جماعة شبيب ؟؟ وإذا كان كذلك فيجدر بنا أن نتساءل عن العلة في أنه خرج على الحجاج بعد ذلك .

أكبر ظننا أن مطرفًا لم يخرج على الحجاج إلا مضطرًا بعد أن وجد نفسه أمام الأمر الواقع عندما استشار أصحابه فقال له يزيد مولى أبيه : « إن الحجاج لا يخفى عليه مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة وليُزادنّ على كل كلمة عشر أمثالها وإنه ليلتمس أن يصل إليك ولو كنت في السحاب » .

عندئذ تحقق مطرف من سوء مصيره لو بقى في المدائن فخرج منها إلى الجبال التماسًا للنجاة .

وكان من الأمور المسلم بها أن لا يفهم جماعته بما عزم عليه حتى لا يتفرقوا عنه فأخبرهم أن هناك أمورًا وحوادث تستدعي خروجهم إلى الدسكرة في هذه الليلة ، ولما وصلها لم يجد بدًّا من إعلامهم بما يريد فجمعهم وخطبهم مذكرًا بالجهاد وفضله وحاثًا على التعاون والتقوى ومشهدًا الله على خلع عبد الملك والحجاج والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوه فبايعه البعض على ذلك ورجع عنه البعض الآخر (١) .

وكان ممن رجع عنه سبرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن كناز بمن معهما من الجند ـ بعد أن أظهرا له الرضى عن ذلك ـ وأتيا الحجاج فوجداه قد نازل شبيبًا فشهدا معه وقعة شبيب بقيادة سفيان بن الأبرد (٢) .

سار مطرف بمن بقي معه من الدسكرة متجهًا نحو حلوان وكان عاملها في ذلك الوقت سويد بن عبد الرحمن السعدي فأراد أن يسلم من قتاله وفي الوقت نفسه

---

(١) الطبري جـ٥ ص١١١ وابن الأثير جـ٤ ص٦٢ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ وابن شاكر جـ٥ ص٨٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١١١ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .

يعذر عند الحجاج فجمع له سويد أهل البلد والأكراد فوقف هو بأهل البلد بجانب البيوت وأوقف الأكراد على منعطفٍ مؤدٍ إلى البلد .

وأرسل إلى مطرف يقول له : إن كنتم تريدون بلادنا فسنمنعكم وإن كنتم لا تريدونها فاخرجوا عنها فإنا لا نجد بدًّا من أن يرى الناس ويُسْمَعَ بأنا قد خرجنا إليك .

فبعث مطرف إلى قائده الحجاج بن جارية الخثعمي بعدم القتال والحضور إليه فحضر ولزموا الطريق التي رسمها لهم سويد فساروا حتى وصلوا إلى المنعطف الذي قد رابط به الأكراد فمنعوهم من السير ودارت رحى معركة انهزم فيها الأكراد وقتل منهم عدد كبير[١] .

واستمر مطرف في طريقه حتى دنوا من همدان فتركها وأخذ طريقه إلى جهة اليسار ـ ماه دينار[٢] ـ حتى لا يتهم أخوه حمزة عند الحجاج وكتب إليه من ماه دينار يطلب منه أن يمده بالمال والسلاح فأمده بما طلب في السر .

ولكن ذلك كان لا يخفى على الحجاج[٣] .

وبعد أن قدم إليه حمزة المساعدة سار إلى قم وقاشان وأصبهان وبعث عمالاً له على تلك النواحي[٤] وكتب إلى صديقيه سويد بن سرحان الثقفي وإلى بكير بن هارون البجلي يدعوهما للانضمام إليه ومعاونته في حركته فأجاباه إلى ذلك[٥] .

هال تقدم مطرف البراء بن قبيصة ـ عامل الحجاج على أصبهان ـ فكتب إلى الحجاج يطلب منه إرسال جيش كثيف لاستئصال هذا الثائر لأن جمعه قد كثر ،

---

(١) الطبري جـ٥ ص١١١ ، ١١٢ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .
(٢) ماه دينار . هي مدينة نهاوند وقيل هي كورة الدينور .
(٣) راجع الطبري جـ٥ ص١١٣ ، ١١٤ .
(٤) الطبري جـ٥ ص١١٣ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .
(٥) ابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وراجع الطبري جـ٥ ص١١٣ ، ١١٤ .

فرد عليه الحجاج يطلب منه أن يعسكر بمن معه حتى يأتيه عدي بن زياد فيسمع له ويطيع وجعل الحجاج يسرح له الجند على البريد حسبما اتفق العدد فمرة عشرة وأخرى عشرين حتى سرح له نحو خمسمائة وكان البراء في ألفين (١) .

وبينما كان ذلك يجري بين البراء والحجاج أدرك الحجاج بثاقب نظره خطر بقاء حمزة بن المغيرة عاملاً على همدان بالقرب من الديار التي اعتصم فيها أخوه مطرف وخشي الحجاج أن يتابع حمزة إمداد أخيه بالمال والسلاح .

ومن يدري فقد يمده بالرجال بل قد يبالغ حمزة في تأثره لأخيه فيخرج في رجاله على الحجاج منضمًا إلى أخيه في ثورته فتتفاقم الثورة ويستعصي على الحجاج القضاء عليها .

إزاء كل هذه العوامل قرر الحجاج أن يكفي نفسه شر حمزة فعمل على عزله وحبسه .
وكان الحجاج لبقًا في تصرفه مع حمزة . ذلك أنه أظهر له قبول عذره حينما اعتذر إليه عما قام به من مساعدة أخيه في أول الأمر بالمال والسلاح وظل الحجاج يماكره ويكيد له حتى تمكن مما أراد (٢) .

وتفرغ للقضاء على مطرف فكتب إلى عدي بن زياد الإيادي وهو على الري يأمره بالمسير إلى مطرف ويأمره بالمرور على البراء بن قبيصة بجي ثم السير معًا حتى يلتقيا بمطرف وحين اللقاء فالأمير عدي حتى يقتل هذا الخارج ثم يرجع إلى عمله .
وبمجرد وصول الكتاب أخذ عدي في التجهز فضرب البعث على ثلاثة أرباع أهل الري حسب أمر الحجاج .

وما مضت جمعة حتى تكامل العدد وسار إلى جي حيث وافى بها البراء بن قبيصة في تسعمائة من أهل الشام فيهم عمر بن هبيرة (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١١٤ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون ج٣ ص١٦٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١١٤ ، ١١٥ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١١٥ وابن الأثير ص٦٣ . ويروي ابن شاكر جـ٥ ص٨٠ أن عمر بن هبيرة كان هو القائد .

وعسكر الجميع بجي يومين للاستراحة ثم نهضوا بمن معهم من الجيش البالغ عدده ستة آلاف [1] .

ولما بلغ مطرفًا مسيرهم إليه خندق على أصحابه خندقًا لم يزالوا به حتى قدموا عليه فلما دنوا خرج عدي فعبأ أصحابه وصفهم للقتال وكذلك فعل مطرف بأصحابه .

حاول مطرف أن يجتذب إليه هذا الجيش الذي سيره عليه الحجاج فإذا لم ينجح في ذلك فلا أقل من أن يضعف الروح المعنوية في ذلك الجيش .

ولجأ في ذلك إلى أسلوب غير غريب عليه ذلك أنه أخرج بكير بن هارون البجلي فقال لهم « خبروني عن عبد الملك بن مروان وعن الحجاج بن يوسف ألستم تعلمونها جبارين مستأثرين يتبعان الهوى فيأخذان على الظِنَّة ويقتلان على الغضب ؟؟» .

ولكن خاب ظنه إذ أجاب القوم (ياعدو الله كذبت ليسا كذلك) [2] .
ولما لم تفد تلك الوسيلة لم يكن بد من القتال فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نتيجته انهزام أصحاب مطرف وقتله هو وجماعة كثيرة من أصحابه . قتله عمر بن هبيرة الفزاري واحتز رأسه فأرسل بها عدي إلى الحجاج فتقدم بذلك عند الأمويين .

ثم انصرف عدي عائدًا إلى الري [3] .

وبذلك انتهت ثورة مطرف بن المغيرة التي قتل فيها نفسه إذ هم بأمر لم يكن له كفؤًا ، فقد سولت له نفسه الخروج على الخليفة الشرعي فكان في ذلك هلاكه في سنة (سبع وسبعين للهجرة ـ ٦٩٦م) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١١٦ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١١٧ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١١٨ وابن الأثير جـ٤ ص٦٣ وابن خلدون جـ٣ ص١٦٠ .

الفصل الخامس

اتساع نفوذ الحجاج وتاريخه بعد الانتهاء من حرب الخوارج إلى قيام ثورة ابن الأشعث

ولايته لخراسان وسجستان . توليته خراسان للمهلب ، وسجستان لابن أبي بكرة . الحرب بين ابن أبي بكرة والترك . هزيمة ابن أبي بكرة . الحجاج يخبر عبد الملك بالموقف . الخليفة يفوض إليه الأمر في إرسال جيش .

ما كاد الحجاج ينتهي من الانتصار على أعداء الدولة من الخوارج إلا وجاءه من عبد الملك تقليد ولايتي خراسان وسجستان فوق أعماله السابقة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين للهجرة بعد أن عزل الخليفة عنهما واليهما أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد [١] .

وفي رأينا أن عبد الملك أصاب هدفين بهذه التولية فهو قد كافأ الحجاج على حسن بلائه ضد الخوارج إذ مزقهم شر ممزق حتى أوشكوا على الفناء ، وتابع شبيبًا الذي دوخ جيوش الدولة حتى أهلكه ، وخافه العصاة .

فكان من حسن السياسة أن يوليه الخليفة إقليمين جديدين ليستتب للخلافة الأمر فيهما وهو في الوقت ذاته كان مرغمًا على تغيير والي خراسان نظرًا لفشله في سياستيه الداخلية والخارجية ، أما في سياسته الداخلية فقد ثار عليه بكير بن وساج فخضع له وصالحه على أنه يقضي عنه أربعمائة ألف درهم كان قد استدانها بكير وأن

(١) الطبري جـ٥ ص١٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص٧١ وابن خلدون جـ٣ ص٤٦ . ويروي صاحب أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٠ ، ٣١١ أن الحجاج بعث عبيد الله بن أبي بكرة ليطلبهما له ـ وكان عليهما أمية ابن عبد الله ـ فكلم ابن أبي بكرة عبد الملك بشأنها فأجابه بقوله : لست بنازع أمية عن الثغرين للحجاج ـ وكان له محبًا ـ ، ولكن إن شئت وليتك إياهما .
فقال ابن أبي بكرة : ما كنت لأخون الحجاج وقد أرسلني ووثق بي . ثم إن عبد الملك استقصر أمية وأمره واستبطأه في جباية الأموال وأتته جبايات الحجاج كثيرة موفرة ، فكتب إلى الحجاج بولاية الثغرين وبعث بعهده عليهما .
وهذه القصة لا تتفق ومنطق الحوادث .

يصل أصحابه ويوليه أي كور خراسان شاء ولا يسمع قول بحير بن ورقاء الصريمي ـ صاحب شرطة أمية ـ فيه .

فوفى له أمية بما شرط ثم رجع ثانية فسمع قول بحير فيه وقتله (١) .

والذي تولى قتله بحير ، وكاد يعظم الأمر بين بني تميم بسبب هذا لولا تدخل رجال من عقلاء القوم فحسموا الأمر (٢) .

وكان أمية مكروهًا لكبره وزهوه بنفسه وكان يقول : ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي (٣) .

وأما في سياسته الخارجية فقد عبر أمية نهر بلخ للغزوفحوصرحتى جهد هو وأصحابه ثم عادوا إلى ديارهم دون أن يغنموا بل كادوا يهلكون (٤) .

تكاثرت أخطاء أمية في نظر عبد الملك وأراد أن يستريح من هموم خراسان وسجستان فعزل أمية وضم عمله إلى الحجاج .

تقليد المهلب خراسان وابن أبي بكرة سجستان :

لما انتهى الحجاج من أمر شبيب ومطرف خرج من الكوفة إلى البصرة فقدم عليه المهلب وقد أباد الأزارقة فأجلسه ودعا أصحاب البلاء فصار المهلب لا يذكر له بلاء رجل إلا صدقه وأحسن عطاءه . ثم قال الحجاج : هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال وهؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء (٥) .

ولما كان الحجاج قد أضيفت إليه ولايتا خراسان وسجستان فقد رأى أن يكافيء المهلب على حسن بلائه في حرب الأزارقة بإسناد ولاية خراسان إليه . بينما أسند ولاية سجستان إلى عبيد الله بن أبي بكرة .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص١٢٨ ـ ١٣٣ وابن الأثير جـ٤ ص٧٠ ، ٧١ وابن خلدون جـ٣ ص٤٥ ، ٤٦ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص١٤٣ ـ ١٤٥ وابن الأثير جـ٤ ص٧٥ ، ٧٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٦ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٣٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧١ وابن خلدون جـ٣ ص٤٦ .

(٤) الطبري جـ٥ص١٣٣ وابن خلدون جـ٣ ص٤٦ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٣٤ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٠ .

وللطبري في هذا الشأن روايتان : تـذهب إحـداهمـا ـ وهي روايـة أبي مخنف ـ إلى أن الحجاج ولى المهلب سجستان مع خراسان فقال له المهلب ألا أدلك على رجل هو أعلم مني بسجستـان وقـد كان ولي كابل وزابـل وجبى خراجهم وقـاتلهم وصـالحهم ؟ قـال الحجـاج له بلى فمن هو ؟ قال عبيد الله بن أبي بكرة فأجابـه الحجـاج إلى مـا قـال وبعث إلى سجستان ابن أبي بكرة [١] .

وهذه الرواية ـ على قوة سنـدهـا ـ بعيـدة الاحتمال إذ لا يعقل أن يتخلى المهلب طواعية ـ لا ـ بل يرجو الحجاج أن يخليـه عن ولايـة كان يستطيع أن يـديرهـا مع الأخرى ولو أستعان في ذلك بأحد أولاده أو أخصائه إذا كانت إدارتها متعبـة لـه . على أننا نستبعد على الحجاج أن يسند إدارة هاتين الولايتين بـالـذات إلى عـامل واحد من عماله مهما امتازت خـدمـاتـه سيما وهو السيء الظن بعمالـه وقـد كان المهلب خارجًا من حروب الأزارقـة منتصرًا فلربمـا تحـدثـه نفسـه بـالخروج على الحجـاج إذا ما رأى نفسه يحكم هاتين الولايتين الكبيرتين فكـان الحجاج من خيرة النـاس الـذين يأخذون للأمر أهبته قبل وقوعه .

لكل ذلك نرجح الرواية الثانيـة للطبري التي تـذهب إلى أن الحجـاج ولى المهلب سجستـان وابن أبي بكرة خراسـان فكره المهلب سجستـان وأراد أن تكـون خراسـان فلقي رئيس شرطة الحجاج ـ عبـد الرحمن بن عبيـد ـ فشرح لـه الموقف وقـال « أنـا أعرف بخراسـان من ابن بكرة وابن أبي بكرة أقوى على سجستـان مني فكلم الأمير يحولني إلى خراسان ويحوله إلى سجستان وكلم رئيس الديوان يعينني » .

فدخلا على الحجاج ونالا منه ما أراد المهلب فكانت له خراسـان غير أن الحجـاج أخذه بمليون من الدراهم كانت متأخرة[٢] عليه من خراج الأهواز أيام أن كان عـاملاً عليهـا[٣] .

(١) الطبري ص١٣٥ وأنساب جـ١١ ص٣١٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٣٥ ويروي ابن كثير جـ٩ ص٣١ ، ٤٢ أن الحجـاج أغرمـه ذلـك لأنـه اعترض على التولية .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٣٥ وابن كثير جـ٩ ص٣١ ، ٣٢ .

فأرسل المهلب ابنه حبيبًا إلى خراسان قبله وقد أعطاه الحجاج عشرة آلاف درهم وبغلة خضراء قوية واستمر عشرة أشهر قبل أن يصل والده إليه ثم ذهب المهلب إلى ولايته في سنة تسع وسبعين للهجرة [١] .

وسار ابن أبي بكرة إلى ولايته بمجرد التولية إلا أنه لم يقم بشيء ضد زنبيل [٢] ملك الترك حتى انتهت تلك السنة وفي سنة تسع وسبعين قام بحرب ضد ملك الترك وكان سبب ذلك أن ملك الترك منعه الإتاوة التي كانت مقررة عليه بمقتضى معاهدات سابقة وكان زنبيل يدفعها أحيانًا ويمتنع عن دفعها أحيانًا فلما منعها من ابن أبي بكرة كتب بذلك إلى الحجاج فأجابه الحجاج بوجوب حربه واحتلال أرضه وهدم قلاعه وقتل مقاتلته [٣] .

فخرج ابن أبي بكرة بمن معه من أهل الكوفة والبصرة وكان قائد أهل الكوفة شريح بن هانىء الحارثي وكان هو على أهل البصرة والإمرة له فسار متوغلاً في بلاد زنبيل فأصاب من الغنائم الشيء الكثير .

وبينما هو في طريقه أشار عليه شريح بن هانىء بالرجوع والاكتفاء بما أصابوا وبما أصاب العدو من خوف وفزع فكان مما قاله له : « إن الله عز وجل قد غنمنا وسلمنا وأذل عدونا فارجع بنا من مكاننا ونحن وافرون معافون فإني أتخوف إن كابرت زنبيل وأهل بلده والتمست فتح مداينهم وقلاعهم في غزوة واحدة أن لا تطيق ذلك » .

فأجابه ابن أبي بكرة : اصبر أيها الرجل ودع هذا . فقال شريح : إنه لا يطاع

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٣٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧١ وابن حمدون جـ٣ ص٤٦ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٣٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ وهو زنبيل كما ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب جـ٢ ص٩٧ وكما حقق ذلك في مؤتمر المستشرقين العاشر بكنجهام ـ انكلترا ـ وهو اسم شخص ولقب للملك الذي كان من الأتراك هو وجنوده ، أما الشعب فكان من الفرس وليس اسمه رتبيل كما تذكر أغلب المصادر .

(٣) ابن جرير جـ٥ ص١٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣١١ والعيني جـ١١ ص٣١٢ .

لقصير أمر وإنك لتعمل في هلاك جندك ونفسك [١] .

وقد دعا شريح إلى إبداء هذه المشورة لقائده ما كان معروفًا من أمور زنبيل من أنه يترك الجيوش تتوغل في شعاب البلاد ثم يفاجئهم بعد أن يأخذ عليهم السبل جميعها .

تابع ابن أبي بكرة مسيره وهو لا يقاتله أحد ولا يعترضه في طريقه معترض حتى صار بينه وبين كابل ثمانية فرسخًا .

وعندئذ شعر ابن أبي بكرة ومن معه بحركة تطويق من الترك عليهم فسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا فأرسل ابن أبي بكرة إلى شريح : إني مصالح هؤلاء على مال ويخلوا بيني وبين الخروج ، فقال له شريح إنك لا تصالحهم على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم . فقال ابن أبي بكرة : لو منعنا العطاء ما حيينا كان أهون علينا من هلاكنا [٢] .

وأرسل إليهم فصالحهم على خمسمائة ألف درهم وقيل سبعمائة ألف وعدة من وجوه من معه وثلاثة من ولده يكونون عنده رهائن وألا يغزوهم ما كان واليًا [٣] .

فقال له شريح اتق الله عز وجل وقاتل هؤلاء القوم ولا تشتر الكفر بالإيمان وزيادة خمسمائة ألف أو سبعمائة ألف وتدفع قومًا من المسلمين لمشركين ثم تشترط عليهم أن لا تقاتلهم ولا تجبيهم خراجًا هربًا من الموت الذي أنت صائر إليه ؟ هذا ، وأنت لا تدري ما يكون من سخط الحجاج [٤] .

وبعد أن نصح شريح هذه النصيحة وطّن نفسه على الموت متعرضًا للشهادة التي

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ والبلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٢ والعيني جـ١١ ص٣١٢ وابن شاكر جـ٥ ص٩٥ ، ٩٦ .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٣ والبلاذري فتوح البلدان ص٤٠٦ ويروى الطبري جـ٥ ص١٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ رواية السبعمائة ألف فقط .

(٤) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٣ .

يطلبها من زمن بعيد[١] .

ولما رأى ابن أبي بكرة أن شريحًا سيقاتل ما من ذلك بد أرسل إلى زنبيل يقول له : إني على صلحك وما فارقتك عليه وهذا رجل من أصحابي قد عصاني ولست أنصره .

وخرج شريح بجماعة معه وصار يرتجز ويقول :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرا   قد عشت بين المشركين أعصر

ثمت أدركت النبي المنذرا   وبعده صدّيقه وعمرا

ويوم مهران ويوم تسترا   والجمع في صِفّينهم والنهرا

وياجيرات مع المشقرا   هيهات ما أطوله هذا عمرًا[٢]

وقاتل حتى قتل ومعه جماعة من أهل المصرين ومن أهل الشام جماعة[٣] .

وخرج ابن أبي بكرة من بلاد زنبيل سالكًا مفازة بست فهلك كثير من الناس جوعًا وعطشًا[٤] فلم يصلوا إلى بست إلا وقد وصل عددهم خمسة آلاف وكانوا يبلغون نحو العشرين ألفًا[٥] وكان الخمسة آلاف في حال سيئة من الجوع حتى إنه لما استقبلهم المسلمون بالطعام بعد خروجهم من أرض العدو صاروا يلتهمونه بشراهة فإذا ما انتهى أحدهم من الأكل مات .

ولما رأى المسلمون ذلك امتنعوا عن إطعامهم الطعام واكتفوا بإعطائهم قليلاً من السمن حتى لانت أمعاؤهم وقد مات ابن أبي بكرة كمدا وحسرة على ما أصاب المسلمين وقيل إنه اشتكى أذنه فمات[٦] وأستخلف على الناس ابنه أبا بردعة .

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٣ والطبري جـ٥ ص١٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ وفتوح البلدان ص٤٠٦ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٤ والطبري جـ٥ ص١٣٧ وابن الاثير جـ٤ ص٧٢ .

(٣) الطبري أنساب الأشراف ص٣١٣ .

(٤) فتوح البلدان ص٤٠٧ .

(٥) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٤ ، ٣١٥ وفتوح البلدان ص٤٠٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٢ والطبري جـ٥ ص١٣٧ ، ١٣٨ .

(٦) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٧ ،١٣٨

وبلغ الخبر الحجاج فهاله الأمر وكتب إلى المهلب يطلب منه أن يرسل إلى سجستان من قبله رجلاً فبعث وكيع بن بكر فقدم على أبي بردعة فأهدى له ثلثمائة ألف درهم وهدايا أخرى وأقام أبو بردعة بسجستان حتى قدم عبد الرحمن بن الأشعث فولاه كرمان [١] .

وفي الوقت نفسه كتب الحجاج إلى عبد الملك يقول له : أما بعد فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل وقد أجترأ العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم وغلبوا على حصونهم وقصورهم .

وقد أردت أن أوجه إليهم جيشًا كثيفًا من أهل المصرين فأحببت أن استطلع رأي أمير المؤمنين في ذلك فإن رأى لي بعثة ذلك الجند أمضيته وإن لم يرد ذلك فإن أمير المؤمنين أولى بجنده مع أني أتخوف إن لم يأت زنبيل ومن معه من المشركين جند كثيف يستولوا على ذلك الفرج كله [٢] .

فرد عليه الخليفة بالموافقة قائلاً : أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان وأولئك قوم كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله ثوابهم ؛ وأما ما أردت أن يأتيك رأيي فيه من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك الفرج الذي أصيب فيه المسلمون أو كفها فإن رأيي في ذلك أن تمضي رأيك راشدًا موفقًا [٣] .

فأخذ الحجاج في إعداد جيش لمحاربة زنبيل فأعد جيشًا عظيمًا بلغ عدده أربعين ألفًا [٤] عشرون من أهل الكوفة ومثلهم من أهل البصرة واختار أهل الغنى والشجاعة

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٧ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٨ والطبري جـ٥ ص١٣٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤٠ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٧١ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ وابن خلدون جـ٣ ص٤٦ والعيني جـ١١ ص٣١٣ وابن كثير جـ٩ ص٣٩ .

ويروى البلاذري جـ١١ ص٣١٩ أن عدد الجيش كان أربعًا وعشرين ألفًا ويروي اليعقوبي جـ٣ ص٢٢ أن عدده كان عشرة آلاف .

وأخذهم بالخيول الرائعة والسلاح الكامل وأنفق على هذا الجيش مليونين من الدراهم سوى أعطياتهم التي أخذوها كاملة [١] .

ولما تكامل الجيش ـ الذي سمي بجيش الطواويس لحسن هيئته ـ بعث الحجاج عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ثمانين للهجرة [٢] فسار إلى سجستان [٣] ووافاه بها أخواه القاسم بن محمد والصباح بن محمد بمن معهما من الجند وقد كانا بطبرستان فكتب الحجاج إليهما بوجوب الذهاب إلى سجستان وأمده الحجاج بجند ثالث عليه إسحاق بن محمد [٤] .

وعندما دخل ابن الأشعث سجستان قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد خياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة ، اخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس [٥] . فعسكر الناس كلهم في معسكرهم ووضعت الأسواق لهم فاشترى كلٌّ ما احتاج إليه .

بلغ ذلك زنبيل فكتب إلى ابن الأشعث يعتذر إليه من مصاب المسلمين ويخبره أنه كان لذلك كارهًا وأن المسلمين هم الذين ألجؤوه ، ويسأله الصلح ويعرض عليه أن

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٤٠ ، ١٤١ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ وابن خلدون جـ٣ ص٤٧ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٧٤ وابن خلدون جـ٣ ص٤٧ ويروي الطبري جـ٥ ص١٤١ أنه بعث أولاً على الجيش عطارد بن عمر التميمي ثم غيره بعبيد الله بن ذي الجوشن ثم لم يلبث أن غيره بابن الأشعث . أما صاحب أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٩ فيروى أنه استعمل على أهل الكوفة عطارد بن عمر ويقال بعض ولد ذي الجوشن واستعمل على أهل البصرة عطية بن عمر العنبري وكتب إلى ابن الأشعث بولاية سجستان وضم إليه ذلك الجيش .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤١ وابن خلدون جـ٣ ص٤٧ ويروى بعض الرواة أن عبد الرحمن كان بكرمان في ذلك الوقت حيث كان في محاربة بعض الخارجين فهزمه وأقام بموضعه فلما مات ابن أبي بكرة أرسل الحجاج إلى ابن الأشعث عهده على سجستان وجهز إليه الجيش .

(٤) البلاذري جـ١١ ص٣٢٤ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٤٢ والبلاذري جـ١١ ص٣٢١ .

يقبل منه الخراج [١] ؛ وأرسل إليه الرهائن التي كانت بيده فلم يقبل منه عبد الرحمن الصلح وأمر الجيش بأن يسير للقتال وجعل على مقدمته القاسم بن محمد الذي أمر بأن يغير على زنبيل في مكانه الذي هو به .

فلما علم بذلك زنبيل تحول من مكانه بناءً على إشارة عبيد بن أبي سبيع ـ الذي كان مقيمًا بسجستان ـ فقد قال لزنبيل : قد جاءك أغدر العرب وأشدهم أبهة وكبرا .

فلم يجد الجيش إلا عجائز وشيوخًا [٢] ؛ وصار زنبيل يدع الأرض لابن الأشعث رستاقًا رستاقًا وحصنًا حصنًا طمعًا في أن ينال من هذا الجيش ما نال من غيره ؛ ولكن ابن الأشعث كان حذرًا يقظًا فكان من حسن قيادته أنه كلما احتل بلدًا أقام عليه عاملاً ووضع معه حامية من الجند ووضع البُرُدَ فيما بين كل بلد وبلد حتى يضمن ارتباطاته واتصالاته ووضع الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف ؛ وما زال ابن الأشعث سائرًا على هذه الخطة حتى وجد أنه قد حاز أرضًا عظيمة من أرض زنبيل وغنم أموالاً جزيلة فحبس الناس عن التوغل حتى تتعود عساكره طبيعة تلك البلاد ويتقووا بما فيها من الحاصلات ؛ وفي الوقت نفسه يأخذ الجيش فترة راحة واستجمام ثم بعد ذلك يعود إلى الحرب في العام المقبل فينتقصون أرض الترك شيئًا فشيئًا ثم يستريحون وفي العام الذي بعده جزءًا وهكذا في كل عام فترة حرب وفترة راحة واستجمام حتى يستولوا عليها كلها .

وكان ذلك لاعتقاد عبد الرحمن أنه لا يمكن غزو تلك البلاد مرة واحدة [٣] .

وتنفيذًا لهذه السياسة رتب العمال في المقاطعات فأنزل أخاه القاسم الرخج ونزل هو بست [٤] وكتب إلى الحجاج يخبره بما فتح الله عليه من البلاد وبما صنع الله

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٤١ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ ويروي البلاذري جـ١١ ص٣٢٣ أن ذلك لم يكن مكاتبة وإنما قابل ابن الأشعث في أول قدومه ونزوله بست .

(٢) البلاذري جـ١١ ص٣٢٢ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤١ ، ١٤٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ والعيني جـ١١ ص٣١٤ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٣ .

(٤) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٣٢ .

للمسلمين وبهذا الرأي الذي رآه [١] .

وهنا نرى الحجاج يكتب إلى ابن الأشعث خطابًا ثم لايلبث أن يردفه بثانٍ ثم بثالث .

كتب له في الخطاب الأول يلزمه أن يعدل عما رآه من راحة الجند ويتهمه بأنه قد صانع عدوًا قليلاً ذليلاً وأنه لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين وأن رأيه الذي رآه رأي مكيدة لم يحمله عليه إلا ضعفه والتياث رأيه ويأمره بالوغول في أرض العدو متابعًا القتال إلى النهاية [٢] .

ثم يعود الحجاج فيعدل عن هذا الرأي في خطابه الثاني فيقول لعبد الرحمن مر من قبلك من المسلمين فيلحرثوا وليقيموا فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم [٣] .

ثم لا يلبث الحجاج أن يعود إلى قراره الأول بصورة أشد مما كان فيأمر ابن الأشعث بالسير للقتال ويهدده بالعزل وتولية إسحاق بن محمد قيادة الجيش إن لم يفعل [٤] .

وفي تقديرنا أن الحجاج عندما وصله كتاب ابن الأشعث أثاره أن يرى حملة مجهزة ذلك التجهيز مكونة من خيرة المجاهدين المسلمين ينتهي أمرها بأن لا تفتح من أرض العدو إلا قدرًا يسيرًا ثم يستحب قائدها الراحة والدعة فكتب لابن الأشعث ما كتب تحت تأثير هذه العاطفة ولم يلبث الحجاج أن رأى أنه يواجه رجلاً لا يستهان به وتحت إمرته جند لا يستهان بهم وهم بعيدون عن مقر الحجاج الذي

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٣ والطبري جـ٥ ص١٤٢ وابن الأثير جـ٤ ض٧٤ والعيني جـ١١ ص٣١٤ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٤ والطبري جـ٥ ص١٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٧ والعيني جـ١١ ص٣١٦ ، ٣١٧ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٧ والعيني جـ١١ ص٣١٦ ، ٣١٧ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٧ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٤ .

أصبح لا يدري مدى تأثير ابن الأشعث فيهم فرأى أن يقره على رأيه الذي رآه من إعطاء الجند فترة للراحة والاستجمام وبذلك كتب الخطاب الثاني .

ولم تمض فترة طويلة بعد ذلك حتى رأى الحجاج أنه قد تورط في كتابه الثاني وأنه قد يترتب عليه من النتائج ما لا يرضاه وأن نفس ابن الأشعث يعظم أمره ويزداد اعتداده بنفسه عندما يعلم أن الحجاج قد نزل عند رأيه فرأى أن يصر على خطة الكتاب الأول ثم بالغ في تهديد ابن الأشعث حتى لا يعطيه فرصة للتفكير فهدده بالعزل وتولية إسحاق قيادة الجيش إن لم يطع الأمر ويخرج لقتال زنبيل .

وتأييدًا لهذا التهديد بعث الحجاج إسحاق بن محمد بن الأشعث أخا عبد الرحمن في جند ثالث .

أغضب ذلك عبد الرحمن وقال يكتب إليّ ابن أبي رغال بمثل هذا يرميني بالجبن ؟ هو والله الجبان وأبوه من قبله (١) .

وعزم على خلع الحجاج فجمع الناس وخطبهم قائلاً : أيها الناس إني والله لكم ناصح ولصلاحكم محب وفيما يعمكم نفعه ناظر .

وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة للحرب منكم فرضوه لكم رأيًا ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحًا وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي الأرض التي هلك فيها إخوانكم بالأمس وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم (٢) . فثار إليه الناس وقالوا . بل نأبى على

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ والبلاذري جـ١١ ص٣٢٤ ، ٣٢٥ والعيني جـ١١ ص٣١٧ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٤ .

ويروي ابن كثير جـ٩ ص٣٥ أنه قال بعد قوله « والتي هلك فيها إخوانكم بالأمس . وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد فانظروا أمركم . أما أنا فلست بمطيعه ولا أنقض رأيًا رأيته بالأمس » .

عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع فإن ابن أبي رغال لا يريد بنا خيرًا [١] .

أثار عبد الرحمن شعور القوم بهذه الكلمات وفي الوقت نفسه ملك قيادهم فقد ضرب لهم على الوتر الحساس فصور لهم الحجاج بصورة من يريد هلاكهم وجعل نفسه تحت إرادتهم وأنه الحريص على أرواحهم ، ولقد قال عبد الرحمن ما قال وهو يعرف بغضهم لهذه الحرب الشاقة في البلاد البعيدة وكرههم للحجاج الذي كان دائمًا لا يكاد ينتهي من حرب حتى يبدأ حربًا جديدة والويل لمن يتخلف .

ولما رأى عبد الرحمن ذلك وظهرت نواياهم واضحة جلية أراد أن لا يخرج عن طاعته أحد وأن يفسدهم جميعًا على الحجاج فافتعل كتابًا على الحجاج في تولية قوم وعزل آخرين .

أما الألوية الجديدة فقد عقدها لمن وثق به وبذلك أصاب هدفين :

أحدهما : أنه شكك الناس في الحجاج ونفر أصحابه والمخلصين له منه وكان هؤلاء الذين عزلوا وجوهًا وأشرافًا [٢] .

وثانيهما : أنه اختار أصحابه للمناصب .

وبذلك أشعل ابن الأشعث نار الثورة وقام الخطباء يؤججون نارها فقام عامر ابن وائلة الكناني فقال : أما بعد : فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك ، إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم في بلاد كثيرة اللغوب واللصوب فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز الأموال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم ولا يبقى عليهم ، اخلعوا عدو الله

---

(١) البلاذري جـ١١ ص٣٢٥ .

(٢) البلاذري جـ١١ ص٣٢٥ والطبري جـ٥ ص١٤٧ والعيني جـ١١ ص٣١٦ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٣ وابن كثير جـ٩ ص٣٥ .

فإني أشهدكم أني أول خالع . فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله .

وقام بعده عبد المؤمن بن شبت بن ربعي التميمي - وكان على شرطة ابن الأشعث - فقال : عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود [1] ، فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث . ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم . بايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم (الحجاج) فانفوه عن بلادكم [2] .

فقام الناس إلى عبد الرحمن يبايعونه فيقول لهم تبايعون على خلع عدو الله الحجاج وعلى نصرتي وعلى جهاد عدو الله وعدوي معي حتى ينفيه الله عز وجل من أرض العراق . فبايعه الناس على ذلك ولم يذكروا خلع عبد الملك [3] .

وبذلك قامت هذه الثورة الخطيرة التي أفزعت عبد الملك بن مروان وجعلته ينزل عن سريره ويرسل إلى خالد بن يزيد ليستشيره في الأمر .

وقبل أن نتكلم عن الثورة والحروب التي نشبت بسببها يحسن بنا أن نقدم لهذا الثائر لنتعرف شخصيته والأسباب الحقيقية لثورته :

فهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي من سلالة ملوك كندة إحدى القبائل اليمينة الشهيرة التي حكمت اليمن وبعض بلاد الحجاز قبل الهجرة بنحو مائة وثلاث وسبعين سنة ؛ وجده الأشعث بن قيس أحد زعماء الردة بعد وفاة الرسول بحضرموت وقد سار إليه المهاجر بن أبي أمية وتمكن من إخماد حركته فعاد

---

(١) البلاذري جـ١١ ص٣٢٥ والطبري جـ٥ ص١٤٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٤٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ .

(٣) البلاذري جـ١١ ص٣٢٦ والطبري جـ٥ ص١٤٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٧ .

إلى حظيرة الإسلام (١) وأبلى بلاءً حسنًا في فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب (٢) وولاه عثمان أذربيجان فلما مات عثمان كتب إليه علي يعرفه بخروج طلحة والزبير عليه ويدعوه إلى طاعته ؛ فحاول أن يلحق بمعاوية لولا أن أصحابه أشاروا عليه أن لا يفعل ذلك فدخل في طاعة علي (٣) .

ولما دعا أهل الشام في معركة صفين إلى الاحتكام إلى كتاب الله كان الأشعث هو الرسول بين علي ومعاوية (٤) وأحد المشيرين على علي بقبول التحكيم وقد أخذ علي بقوله (٥) . وهو أحد الذين أبوا إلا أن يكون الحكم الذي من جهة علي هو أبو موسى الأشعري ، وأيضًا هو من الذين صوبوا وجهة نظر عمرو بن العاص في محو « أمير المؤمنين » من صحيفة التحكيم (٦) .

ووالده محمد بن الأشعث أحد الذين استحثوا مصعب بن الزبير على المسير لقتال المختار بن أبي عبيد الثقفي حينما تفاقم خطره وعظم أمره ، فأرسله مصعب إلى فارس ليأتيه بالمهلب لقتال العدو - وكان المهلب قد كره الخروج - فلما وصل إليه محمد بن الأشعث لم يجد بدًّا من الحضور إزاء وساطة محمد فحضر وقاتل المختار ومعه محمد . وقد قاتل محمد حتى قتل (٧) .

ولما قدم الحجاج العراق زوج ابنه محمدًا ميمونة بنت محمد بن الأشعث لشرفها بنسبها ولاستمالة قومها إليه .

وبدأت علاقة الحجاج بعبد الرحمن بن الأشعث طيبة فقد جعله من خواصه

---

(١) المعارف ص١٤٥ والطبري جـ٥ ص٢٧٥ (المطبعة الحسينية) .

(٢) الطبري جـ٤ ص١٣٠ .

(٣) الإمامةوالسياسة جـ١ ص٨١ ، ٨٢ .

(٤) الطبري جـ٦ ص٢٨ وابن الأثير جـ٣ ص١٦١ .

(٥) الطبري جـ٦ ص٢٨ والإمامة والسياسة جـ ص١٠٧ .

(٦) ابن الاثير جـ٣ ص١٦٢ والطبري جـ٦ ص٢٩ .

(٧) ابن الأثير جـ٣ من ص٣٨٢ - ٣٨٤ وأنساب الأشراف جـ٥ ص١٥٩ .

المقربين إليه وأجزل له العطاء فهل كان ذلك لصلة المصاهرة وحبًا لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله كما يقول صاحب الإمامة والسياسة [١] أم لأمر آخر . ؟؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف أخلاق عبد الرحمن بن الأشعث .

فعبد الرحمن كان معتدًا بنفسه شامخًا بأنفه متكبرًا غادرًا لا يرعى لأحد ذمامًا يرى أنه ليس لوال عليه سلطان فكان يبغض الحجاج وكان الحجاج يعرف فيه تلك الأخلاق ويقول : أما والله ياعبد الرحمن إنك لتقبل علي بوجه فاجر وتدبر عني بقفا غادر [٢] .

وقال الحجاج يومًا وعنده عامر الشعبي وقد أقبل عبد الرحمن : انظروا إلى مشية المقت !! والله لهممت أن أضرب عنقه [٣] ، أو « ما رأيته قط إلا أردت قتله » [٤] . فلما سلم عبد الرحمن عليه قال له الحجاج : إنك لمنظراني ؟؟ فقال عبد الرحمن : ومخبراني أصلح الله الأمير . ثم صار يقول : أنا منظراني . أنا منظراني [٥] ؟؟ .

وتبين لنا تلك العبارة ما في نفس كل من الرجلين من الكراهية للآخر ، وقد قال عبد الرحمن للشعبي حينما حدثه بحديث الحجاج والله لأحاولن إزالة سلطانه إن طال بي وبه بقاء [٦] .

وفي رأينا أن الحجاج حاول بإجزال العطاء له أن يستميله إليه ويستلّ ما في نفسه في بدء الأمر أن تصلح أخلاقه ، فلما لم تفد تلك الوسيلة رأى أن يحاول التخلص منه بتوجيهه في مختلف الحروب فإن هلك فقد كفاه الله شره وإن انتصر كانت ثمرة النصر للحجاج وهو في كلا الحالين رابح في صفقته .

---

(١) جـ٢ ص٢٩ .

(٢) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٩ .

(٣) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٩ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ .

(٥) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٩ .

(٦) الطبري جـ٥ ص١٤٠ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٩ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ .

فقد ولاه محاربة شبيب وأخرجه في جيش عتاب بن ورقاء وولاه محاربة هميان ابن عدي السدوسي حين عصى بكرمان وها هو ذا يوليه قيادة حملة كبيرة ضد الترك ..

وليس مسلك الحجاج في ذلك بمستغرب ، فهي طريقة العظماء للتخلص من منافسيهم .

ألم نر في العصر الحديث أن السلطان محمود الثاني عندما ضجر بمحمد علي وخشي ازدياد نفوذه أرسله في حمله إلى بلاد العرب كان يستطيع أن يوفد فيها أي قائد تركي سواه ؟ وما كانت فكرة السلطان في القرن التاسع عشر تختلف عن فكرة الحجاج الذي عاش قبله باثني عشر قرنًا فكلاهما كان يود الخلاص من منافسه .

إذن فلم يخطىء الحجاج في تولية ابن الأشعث قيادة تلك الحملة فإن سياسته كانت من النوع الذي لا يدركه من كانوا دونه في التفكير السياسي .

أما أسرة ابن الأشعث فقد فزعت من هذه التولية فأتوا إلى الحجاج فقالوا « أصلح الله الأمير إنا أعلم به منك فإنك غير عالم به ولقد أدبته بكل أدب فأبى أن ينتهي عجبه بنفسه ونحن نتخوف أن يفتق فتقًا أو يحدث حدثًا يصيبنا فيه منك ما يسوؤنا » فقال الحجاج « القول كما قلتم والرأي كالذي رأيتم ولقد وليته على بصيرة فإن يستقم فلنفسه نظر وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يهدى إن شاء الله [١] .

وقال عمه إسماعيل للحجاج : « لا تبعثه فإني أخاف خلافه والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانًا » ، فقال الحجاج : هو لي أهيب وفيما لديّ أرغب من أن يخالفني أو يخرج يدًا عن طاعتي [٢] .

فنرى أن الحجاج كان يعتقد أن عبد الرحمن لا يخرج عن الطاعة وأنه ضعيف

---

(١) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٠ وابن كثير جـ٩ ص٣٢ .

عن القيام بأية حركة معادية ولم يكن يخطر بباله أن ابن الأشعث ستحدثه نفسه بالخروج ولو كان يعتقد ذلك أو يظنه لما أخرجه .

ولكن ابن الأشعث كان مصرًا على خلع طاعة الحجاج كما تحدثنا بعض المصادر [١] وليس ما حدث من المكاتبات هو السبب الوحيد في غضب عبد الرحمن وثورته فإن كتب الحجاج إلى عبد الرحمن كانت كما قال ابن شاكر [٢] للحمل له على محاربة زنبيل والإيغال في بلاده .

ولكن ابن الأشعث اتخذها تكأة وسلمًا لإظهار الدفين في نفسه ، وقد تمكن من استمالة العراقيين إليه بما بثه من الدعايات وما افتعله من الكتب على الحجاج وبذلك نجح في أن يقيم تلك الثورة الخطيرة كما نجح في أخذ البيعة لنفسه .

وكان أشد الناس حماسة للثورة اليمنيون من أهل الكوفة فإنهم كانوا ينتظرون قحطانيًا يعيد الملك فيهم وقد عقدوا آمالهم على هذا القحطاني المنتظر [٣] .

فلما خرج عبد الرحمن بن الأشعث وخلع عبد الملك باصطخر - من بلاد فارس - وسمى ابن الأشعث نفسه بناصر المؤمنين تحمسوا له وانضووا تحت لوائه [٤] وأخبروه أنه القحطاني الذي تنتظره اليمنية وأنه يعيد الملك فيها .

ولما قيل له إن القحطاني على ثلاثة أحرف قال أنا اسمي (عبد) وأما الرحمن فليس من اسمي [٥] وقد أطلقت بنت سهم في إحدى قصائدها على ابن الأشعث هذا اسم المنصور عبد الرحمن [٦] .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٠ . (٢) عيون التواريخ جـ٥ ص١٢٤ .

(٣) المسعودي - التنبيه والإشراف ص٢١٧ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٣٥ .

وكانت فكرة قحطاني منتظر ومهدي منتظر قد راجت في ذلك الوقت وكما كان اليمنيون ينتظرون قحطانيًا كان السفيانيون ينتظرون سفيانيًا والكلبيون ينتظرون كلبيًا . وهكذا شاعت هذه الإسرائيليات .

(٤) المسعودي - التنبيه والإشراف ص٢٧١ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٣٥ .

(٥) المسعودي - التنبيه والإشراف ص٢٧١ .

(٦) البلاذري - أنساب الإشراف جـ١١ ص٣٢٤ .

الفصل السادس
الحرب بين الحجاج وابن الأشعث

ذكرنا فيما سبق أن الجند بايعوا ابن الأشعث على خلع الحجاج وحربه حتى يخرج من أرض العراق .

وبعد المبايعة والتوثق من أمر الجند عزم ابن الأشعث على المسير إلى العراق .

وقبل أن يسير إلى العراق قام بأعمال تدلنا على أن آمال عبد الرحمن وما وطّن نفسه عليه كانت أعظم من خلع الحجاج لكنه أضمر ذلك في نفسه وتركه للظروف . واستعدادًا للأمر عقد صلحًا مع زنبيل على أنه إن نجح في حركته هذه فلا خراج على زنبيل أبدًا وإن هزم لجأ هو ومن معه إليه فمنعهم[1] .

وكتب إلى المهلب يسأله خلع الحجاج فقال المهلب : ما كنت لأغدر بعد سبعين سنة : ثم قال : ما أعجب هذا يدعوني إلى الغدر من بعض ولدي أكبر منه !! . وقال لرسوله : قل له اتق الله في دماء المسلمين .

وبعث المهلب بكتابه إلى الحجاج[2] .

كما كتب الحجاج إليه يشير عليه بالطريقة التي يراها في مقابلة هذه الجموع الزاخرة فيقول له في كتابه : إن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره وإن لأهل العراق شره في أول مخرجهم وبهم صبابة إلى نسائهم وأبنائهم فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهلهم فلا تستقبلهم وخل لهم الطريق حتى يأتوا البصرة فيواقعوا نساءهم ويتنسموا أولادهم فترق قلوبهم ويخلدوا إلى المقام في منازلهم فيتفرقوا عن ابن الأشعث ثم واقع من حاربك منهم

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٧ ، والطبري جـ٥ ص١٤٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٣ والعيني جـ١١ ص٣١٦ وابن كثير جـ٩ ص٣٦ .

(٢) ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٩ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٢٥ .

فإن الله عز وجل ناصرك عليهم [١] .

ولما قرأ الحجاج كتابه لم يعمل بمقتضاه بل اعتقد أن المهلب غير ناصح له فقال ما لي نظر ولكن لابن عمه نصح [٢] .

وسنرى فيا يأتي أن نظرية المهلب كانت تجربة قائد عرف نفسية أهل العراق فكانت بذلك صادقة كما أنه كتب لابن الأشعث وهو لا يزال بسجستان : إنك ياابن محمد قد وضعت رجلك في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ فالله الله ياابن أخي انظر إلى نفسك فلا تهلكها واتق الله عز وجل في دماء المسلمين فلا تسفكها والبيعة فلا تنكثها والجماعة فلا تفارقها فإن قلت أخاف الناس فالله أحق أن تخافه والسلام [٣] .

وكان عبد الرحمن خلال مسيره نحو العراق ولى على الولايات عمالاً يثق بهم وبإخلاصهم فأمر على بست هميان بن عدي السدوسي وعلى زارنج عبد الله بن عامر التميمي [٤] وفي أثناء سيره عزل عن كرمان عامل الحجاج وولاها عمرو بن لقيط العنبري وولى فارس حريثة بن عمرو التميمي [٥] .

وبذلك العمل ضمن ابن الأشعث خط الرجعة إذا ما هزم كما اطمأن إلى مساعدة هؤلاء العمال بما لديهم من الجنود والأموال ثم سار وبين يديه الدعاة يدعون له والشعراء ينشدون القصائد منددين بالحجاج وأعماله ومشجعين الجيش . فمن هؤلاء

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٤٩ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ والعيني جـ١١ ص٣١٦ وابن كثير جـ٩ ص٣٦ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٦ والطبري جـ٥ ص١٤٩ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ وابن كثير جـ٩ ص٣٦ والعيني جـ١١ ص٣١٦ وابن نباتة ص١٢٥ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤٩ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٥ وابن كثير جـ٩ ص٣٦ .

ويروي صاحب أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٢ أنه كتب له يقول : تركت قتال المشركين وأقبلت لقتال المسلمين أما تذكر بلاء الحجاج عندك حين جمع لك الجندين جميعًا ؟؟

(٤) الطبري جـ٥ ص١٤٧ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٤٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ .

أعشى همدان الذي يقول :

شطت نوى من داره بالإيوان — إيوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان — أن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان — أمكن ربي من ثقيف همدان
يوما إلى الليل يسلي ما كان — إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى في الكفر بعد الإيمان — بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالزبى من قحطان — ومن معد قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الأركان — فقل للحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان — والحي من بكر وقيس عيلان
إنهم ساقوه كأس الذيفان — وملحقوه بقرى ابن مروان [١]

إلى غير ذلك من القصائد الحماسية التي تستفز الهمم وتثير النفوس [٢] .

ولما دخل الناس فارس تشاوروا في الأمر وأيقنوا أنه لا يمكن فصل قضية الحجاج من قضية عبد الملك فقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك وساروا إلى عبد الرحمن ليستشيروه في الأمر .

وكان من الطبيعي أن تصادف هذه الفكرة قبولاً حسنًا فإننا نعتقد أن ذلك هو الذي كان يريده ومن يدري فلعله أوعز بهذه الفكرة لأصدقائه وأخصائه ليبثوها في الناس فإذا ما صادفت قبولاً عرضوا الأمر عليه !!

وكان أول من خلع تيجان بن أبجر وقال : أيها الناس إني قد خلعت أباذبان كخلعي قميصي هذا .

فخلعه الناس إلا القليل منهم وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله

(١) الطبري جـ٥ ص١٤٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٢٨ ، ٣٢٩ وأبو الفدا جـ١ ص١٩٦ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص١٥٢ ، ١٩٠ وأنساب الاشراف جـ١١ ص٣٣٢ ، ٣١٩ .

وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين [١] .

كانت هذه الحركة قد وصل خبرها للحجاج عن طريق المخلصين له فقد حضر لديه أبي بن شقيق بن ثور وأخبره بما رأى من أمر ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقصة ابن الأشعث وأرسل بالكتاب هذا الرسول الذي شاهد الحوادث [٢] وبعث معه كتابًا كان قد ورد على الحجاج من عبد الرحمن الذي تمثل في آخره بهذه الأبيات :

سائل مجاور جرم هل جنيت لهم ... حرباً تُفَرِّق بين الجيرة الخُلُط [٣]

وهل سموت بجرّار له لجب ... جمّ الصواهل بين الجم والفرط [٤]

وهل تركت نساء الحي ضاحية ... يستوقدن لهيب النار بالغبط [٥]

وتحت هذه الأبيات بيت آخر على غير الروي وهو :

خلع الملوك وسار تحت لوائه : ... شجر القرى وَعَراعر الأقوام [٦]

فرد عبد الملك على الحجاج : أما بعد فإني أجبت عدو الرحمن بلا حول ولا قوة إلا بالله ولعمر الله لقد صدق وخلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين عريانًا وإني أرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يد أمير المؤمنين وما جوابه عندي في خلعه إلا قول القائل .

أناةً وحلمًا وانتظارًا بهم غدًا ... فما أنا بالواني ولا الفَزِع الغمر

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٤٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ .

(٢) البلاذري جـ١١ ص٣٣٣ .

(٣) جَرْم : بطنان . بطن في قضاعة والآخر في طيء ، والخلط جمع خليط وهو الشريك والقوم الذين أمرهم واحد .

(٤) لجب : صياح وضجيج . جم الصواهل : أي كثير الخيول الصواهل . والجم والفرط موضعان بفارس .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٤٨، م ١٤٩ والمبرد ص١٥٥ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٣ والأغاني جـ١٩ ص١٨ .

(٦) المبرد ص١٥٥ .

أظن صروف الـدهر بيني وبينكم ستحملكم مني على مركب وعر
ألم تعلمـوا أني تُخـاف عـزائمي وأن قناتي لا تلين على الكسر [١] ؟؟

فليت شعري أسما عدو الرحمن لدعائم الـدين يهدمها أم رام الخلافـة أن ينـالها وأوشك أن يوهنَ الله شوكته ؟

فاستعن بالله واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون [٢] .

وجعل في طي جواب الحجاج جواباً لابن الأشعث يقول له فيه .

فما بـال من أسعى لأجبر عظمـه حفاظًا ويأبى من سفـاهتـه كسرى
أظن صروف الـدهر بيني وبينهم ستحملهم مني على مركب وعر
وإني وإيـاهم كمن نبـه القطـا ولـو لم تنبـه بـاتت الطير لا تسرى
أنـاةً وحلمًـا وانتظـارًا بهم غـدًا فما أنـا بـالواني ولا الفزع الغمر [٣]

أفزع ذلـك الحـدث عبـد الملـك بن مروان مع ربـاطـة جـأشـه فنزل عن سريره واستدعى خالد بن يزيد وأقرأه كتاب الحجـاج فرآه فزعًـا فقـال يـاأمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من سجستان فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته [٤] .

ولعل سبب ذلك أن خراسان كانت بها عصبيـات كثيرة من العرب وبهـا الفرس الذين يحاولون إزالة سلطان الأمويين أو لعل خالد بن يزيد ـ وهو يقول مـا قـالـه لعبد الملك ـ كانت تطوف بذهنه تلك النبوءة التي كانت شائعة في ذلـك العصر وهي أن أعلاما سوداء ستخرج من خراسان تقضي على سلطان الأمويين [٥] .

---

(١) راجع المسعودي جـ٢ ص٩٧ والأغاني جـ١٩ ص١٤٠ .

(٢) الأغاني جـ١٩ ص١٤٠ والمسعودي جـ٢ ص٩٧ والمبرد ص١٥٥ .

(٣) المبرد ص١٥٥ والأغاني جـ١٩ ص١٨ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٤٩ وأنسـاب الأشراف جـ١١ ص٣٣٧ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ والعيني جـ١١ ص٣١٦ وابن كثير جـ٩ ص٣٦ .

(٥) المبرد ص٥٧٥ وابن كثير جـ١٠ ص٥١ وابن عبد ربه جـ٢ ص٢٦٤ .

ثم خرج عبد الملك إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن أهل العراق قد استطالوا عمري واستعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك [١] .

ونزل وصار يرسل الجنود تباعًا إلى الحجاج فكان يرسل في كل يوم المائة والخمسين والعشرة وهكذا

وأما الحجاج فإنه خرج إلى البصرة وعزم على لقاء ابن الأشعث ولم يأخذ برأي المهلب الذي سبق أن أشار عليه أن لا يقابله ، وأخذ برأي سفيان بن الأبرد الكلبي فجاوز الحجاج البصرة بأهل الشام حتى نزل تستر [٢] .

وكانت أخبار ابن الأشعث تأتي الحجاج كل يوم بنزوله ورحيله فكان الحجاج يكتب إلى عبد الملك بأخبار ابن الأشعث في أي كورة نزل ومن أي كورة ارتحل وأي الناس سارع بالدخول في طاعته [٣] فقد كان الناس ينضمون إليه في أثناء مسيره حتى قيل إن جيشه بلغ ثلاثًا وثلاثين ألفًا من الفرسان ومائة وعشرين ألفًا من الرجالة [٤] .

ولما نزل الحجاج تستر الأهواز قدم بين يديه مقدمة التقت بمقدمة عبد الرحمن ابن الأشعث فدارت بين الفريقين معركة انهزمت فيها مقدمة ابن الأشعث فطيرت أخبار ذلك إلى الحجاج منبئة بقتل أكثر مقدمة جيش ابن الأشعث [٥] .

ولما رأى ابن الأشعث ما حدث لمقدمة جيشه . جمع الناس وعبأهم ثم أمرهم

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٤٩ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٧ والمسعودي - مروج الذهب جـ٢ ص٩٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٤٩ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٧ ، وتستر . مدينة بخوزستان . أمين واصف - معجم الخريطة ص٣٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٤٩ .

(٤) العيني جـ١١ ص٣١٦ والذهبي - تاريخ الإسلام جـ٤ ص٦٢٣ والأتابكي جـ١ ص٢٠٤ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٥٠ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٨ ، ٣٣٩ .

بالعبور إلى جيش الحجاج فأقحم الناس خيولهم في دجيل حتى صاروا إلى مقدمة الحجاج فحمل عليهم أصحاب ابن الأشعث حملة شديدة بعددهم الكبير وأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم فهزموا هزيمة منكرة وقتل منهم عدد كبير وكان ذلك في يوم الجمعة عشرة من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين للهجرة .

وسميت تلك الموقعة بموقعة تستر [١] .

وقد قتل ابن الأشعث الأسرى وكان فيهم رجل من همدان فقال لابن الأشعث أنا خالك فقال ابدؤا بخالي فقدم وقتل [٢] .

وأتت الهزيمة الحجاج وهو يخطب الناس في هزيمة مقدمة ابن الأشعث ويقول : احمدوا الله عز وجل على هلاك عدوكم . فقال لهم عند ذلك : أيها الناس ارتحلوا إلى البصرة : إلى معسكر ومقاتل وطعام ومادة فإن هذا المكان الذي نحن به لا يحمل الجند ؛ فرحب الناس بذلك ، وقال : لله در المهلب أي صاحب حرب هو لقد أشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل [٣] !!

ثم انصرف راجعًا وجعل سفيان بن الأبرد في مؤخرة الجيش وكلفه بأن يهدم القناطر ويقطع الجسور تعطيلاً لجيش ابن الأشعث عن متابعته [٤] .

وتبعته خيول ابن الأشعث فكلما أدركوا منهم شاذًا قتلوه ومضى الحجاج حتى نزل الزاوية [٥] لسبع بقين من ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين .

ودخل ابن الأشعث وجنده البصرة [٦] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٠ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٥ .

(٢) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٠ والطبري جـ٥ ص١٥٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ .

(٣) العيني جـ١١ ص٣١٨ والطبري جـ٥ ص١٥٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ .

(٤) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٢ .

(٥) الزاوية . موضع قرب البصرة . ياقوت ـ معجم البلدان جـ٤ ص٣٧١ .

(٦) الطبري جـ٥ ص١٥٠ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٢ .

ولما دخل ابن الأشعث البصرة بايعه جميع أهلها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك [١] .

ولعل السبب في مسارعة أهل البصرة إلى متابعة ابن الأشعث على حرب الحجاج وخلع عبد الملك أن الحجاج كان قبيل ذلك أنفذ في البصرة أمرًا أهاج عليه الرأي العام . ذلك أن عماله كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا فلحقوا بالأمصار فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فيلخرج إليها ؛ فخرج هؤلاء فعسكروا لا يدرون أين يذهبون وصاروا ينادون قائلين يامحمداه ـ استغاثة مما لحقهم من الحجاج ـ وكان قراء البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما حل بهم فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك [٢] .

موقعة الزاوية :

كان الحجاج لما نزل الزاوية خندق على جيشه كما خندق ابن الأشعث على جنده وقامت الاستعدادات على قدم وساق من الطرفين فالحجاج كانت تأتيه الأمداد كل يوم من الشام وابن الأشعث ينضم إليه الناس ملبين دعوته .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥١ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ والعيني جـ١١ ص٣١٨ وأنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٢ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٣٧ والطبري جـ٥ ص١٨٢ في رواية أبي مخنف وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ .

ويروي لنا الطبري رواية أخرى جـ٥ ص١٥٠ ، ١٥١ ويتابعه في بعض أجزائها ابن الأثير جـ٤ ص٧٩ والبلاذري جـ١١ ص٣٤١ .

وتتلخص هذه الرواية في (١) أن الحجاج نزل راستقباذ وابن الأشعث هو الذي نزل تستر و (٢) أن المعركة دارت في يوم ٩ من ذي الحجة بدلاً من ١٠ في الرواية الأولى و (٣) أنه لما وصل إلى علم أهل البصرة أن الحجاج قد هزم أراد عبد الله بن عامر بن مسمع عامل الحجاج على شرطة البصرة أن يقطع الجسر دون الحجاج فرشاه الحكم بن أيوب عامل الحجاج على الصلاة والصدقة ـ بمائة ألف درهم فكف عن ذلك و (٤) أن الحجاج فرق في جيشه مائة وخمسين ألف ألف درهم مع ضمانهم إياها . ويروي العيني جـ١١ ص٣١٨ انه فرق خمسين ألف ألف فقط .

وذات يوم أشار أحد أصحاب عبد الرحمن عليه بوجوب معاجلة الحجاج قبل أن يكثر جمعه فوافق ابن الأشعث على ذلك وعبأ جيشه وخرج لقتال الحجاج . وكان الحجاج أيضًا قد رتب نفسه على مقابلة هؤلاء وحث أصحابه على الصبر وبين لهم أنهم على الحق وأن ابن الأشعث على باطل [١] .

وبدأ القتال في أول المحرم من سنة اثنتين وثمانين . ودارت رحى معركة من أشد المعارك وأعنفها وصار الشاميون يتلقون ضربات العراقيين حتى كلوا ونفد صبرهم . وتقهقروا إلى خنادقهم فقاتلوهم عليها ودخلوا عسكرهم وانهزمت عامة قريش على الرغم من أنها كانت تحارب دفاعًا عن عبد الملك كما انهزمت ثقيف على الرغم من أنها كانت تنصر الحجاج .

وفي هذا الموقف الحرج تظهر شجاعة الحجاج واضحة جلية ، فإنه لما رأى أن أهل الشام قد انهزموا وتقوضت صفوفهم وتقهقروا حتى دنوا منه جثا على ركبتيه وأنتضى نحو شبر من سيفه وقال : لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ، فأيقن أصحابه عند ذلك أنه لا يريد أن يفر فرجعوا إليه ونظموا صفوفهم ووقفوا بجانب أميرهم .

وحمل سفيان على ميمنة ابن الأشعث فهزمها وتبع ذلك انهزام جيش ابن الأشعث كله فقد اختل نظامه وقتل منه خلق كثير [٢] .

وسار ابن الأشعث بعد الهزيمة إلى الكوفة مستخلفًا عبد الرحمن بن العباس بن الحارث بن عبد المطلب قائلاً له : قاتل بالناس فإن عندهم قتالاً شديدًا ولهم نشاط فإني منصرف إلى الكوفة وممدك بالرجال [٣] .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٥ ، ٣٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨٠ والعيني جـ١١ ص٣٢٠ ، ٣٢١ والطبري جـ٥ ص١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٨ .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان ابن الأشعث صائب الرأي في ترك جيشه وزهرة رجاله منهزمين أمام الحجاج والسفر في قلة إلى الكوفة ؟؟

وهل كان هذا نتيجة لمشورة بين أصحابه عرض عليهم فيها وجهة نظره فأقروه عليها ؟؟

وهل كان بالكوفة وقتئذ من الأمور ما يستوجب من ابن الأشعث أن يترك الجيش في أزمة ويسارع بالذهاب إليها ؟؟

إن الذي لا شك فيه أن ابن الأشعث لم يكن صائب الرأي في ذلك ، فقائد الجيش المنهزم يجب عليه أن لا يهجر جيشه حتى ولو أسلم قياده لأخلص القواد ، فغياب القائد العام يحط من الروح المعنوية في الجيش ويخلق القيل والقال .

وكان من واجب ابن الأشعث أن يلزم مكانه إلى جانب الجند الذين كانوا يضحون بأرواحهم تحقيقًا للمبادىء التي بثها فيهم .

ويروي لنا الهيثم بن عدي أن عبد الرحمن ـ قبل أن يسير إلى الكوفة ـ دعا خاصته وأعلمهم أنه يريد الكوفة [1] (لأمور سنذكرها في مكانها) .

ومعنى ذلك أن ابن الأشعث لم يستشر أصحابه بل وضعهم أمام الأمر الواقع إذ أبلغهم فحسب أنه مسافر إلى الكوفة .

وفي هذا ما يؤخذ على عبد الرحمن إذ انفرد بالتفكير والتدبير في أمر كان من الواجب أن لا يحدث إلا برضى واضح من خاصته أولئك الذين سيتركهم من خلفه يسهرون على مصالحه ويحققون أغراضه .

أما حكمة ذهابه إلى الكوفة ـ على رأيه ـ فلا تخرج عن أمرين :

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٥ .

أولهما : أن مطر بن ناجية الرياحي وثب بالكوفة ، فـآلم ابن الأشعث أن يكون قـد فتح بـابًا دخل مطر منـه وأن يكون مطر قـد قـدر على الوثوب بـابن الأشعث فيكون له معه صوت فأراد أن يلحقه فيحول بينه وبين إرادته (١) .

وثـانيهما : أن ابن الأشعث كان يرجو أن يجنـد الكوفيين نصرة لرأيـه فيعود بهم إلى ميدان القتال علّه ينتصر على الحجاج .

أمـا في قصة مطر فكان الأجـدر بـابن الأشعث أن يهزم الحجـاج أولاً ثم يواجـه مطرًا بعد ذلك ولا يترك الميدان الأساس للمعركـة وينصرف بنفسـه إلى حل مشكلـة فرعية لا تقدم ولا تؤخر في مجريات الحرب مع الحجاج .

وأما تجنيده الجنـد فقصـة فيهـا نظر إذ إن زهرة الجيش الكوفي كانت تقـاتل في صفوفه منذ زمن بعيد .

ولـما قرب ابن الأشعث من الكـوفـة وأحس بخروج أهلهـا لاستقبـالـه أراد أن لا يسـوء تقـديرهم لـه ولحركتـه منـذ البدايـة فقـال لأبي الـزبير الهمـداني ـ وكان جريحًا ـ : إن رأيت أن تعـدل عن الطريق فلا يرى النـاس جراحتـك فـافعل فـإني لا أحب أن يستقبلهم الجرحى ؛ وكان أن عـدل أبو الزبير عن الطريق الـذي سلكـه ابن الأشعث إلى المدينة (٢) .

وعندما خرج الناس لاستقبـالـه صـار أصحـابـه يقولون : إن الله أخزى الحجـاج وفرق جمعه (٣) .

وكان لهذه المقـالـة أثر فعـال في نفوس أهل الكوفـة إذ مـال إليـه النـاس من كل

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٨ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٥ ، ٣٥٦ والطبري جـ٥ ص١٥٥ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٦ .

مكان وفي مقدمتهم همدان أخوال ابن الأشعث وتفرق الناس عن ابن ناجية [١] ثم أقبل حتى نزل عند دار فرات بن معاوية وقال : والله لا أبرح ولا أدخل منزلي حتى أستدرك مطرًا [٢] .

حركة مطر بن ناجية الرياحي :

والآن يحسن بنا أن نتكلم عن حركة ابن ناجية .

كان مطر عامل الحجاج على المدائن [٣] ولما بلغه أن ابن الأشعث قد هزم الحجاج بتستر أراد أن ينتهزها فرصة فأقبل إلى الكوفة ـ وكان الحجاج قد خلف عليها حين خرج لقتال ابن الأشعث عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي ـ وصعد منبرها وقال : إن ابن الأشعث قد هزم أهل الشام فهلموا نخرج مَنْ عندنا منهم .

فكثر أعوانه ومتابعوه وحاصروا القصر الذي فيه ابن الحضرمي فأطل أصحاب ابن الحضرمي من أعلى القصر على مطر وأصحابه وفاوضوهم في أن يتركوهم يخرجون من الكوفة فخرجوا .

وصار ابن ناجية سيد الكوفة وفرق في الناس الذين التفوا حوله أموالاً فأعطى كل واحد مائتي درهم لاستمالتهم إليه [٤] .

فلما هزم ابن الأشعث بالزاوية قام ابن ناجية خطيبًا فقال : إن محمدًا قد هزم وأنا لكم مكانه أقوم مقامه ، فبايعه نفر قليل من قومه .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٣٥٦ والطبري جـ٥ صـ١٥٥ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص٨٠ وابن خلدون جـ٣ ص٤٨ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٦ .

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٣ والطبري جـ٥ ص١٥٤ .

(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٣ والطبري جـ٥ ص١٥٤ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص٨٠ .

فلما رأى ذلك دخل القصر ثم خرج بالعشي فقال لهم : أيها الناس إن محمدًا لقي الحجاج بالزاوية إلى جانب البصرة فاقتتلوا قتالاً شديدًا ثم تحاجزوا ونظروا فإذا بابن الأشعث مفقود لا يدرى أفي الأحياء هو أم في الأموات ، فثارَ الناس عند ذلك إلى عبد الرحمن بن عباس فبايعوه وقد حصر الحجاج وظهر عليه فقوموا فبايعوا له فإنه رجل من قريش من بني هاشم من أهل بيت نبيكم ﷺ [1] .

فبايعه عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن المغيرة بن شعبة ثم دخل القصر بعد ذلك وأمر ابن أبي ليلى أن يأخذ البيعة من الناس فقال صدقة وتوبة ابنا عبيد الله ابن حر الجعفي : ما هذه البيعة ؟؟ نحن على بيعتنا الأولى التي بايعنا بها صاحبنا حتى ننظر ما صنع . وتبعهم في هذا الرأي الكثير من الناس .

ويروى أن صدقة وتوبة حصبا ابن أبي ليلى وقامت ضجة وطلب الناس منه النزول من على المنبر فنزل .

سمع بهذه الضجة ابن ناجية فسأل عنها فقيل له : لقد اختلف الناس . فأراد أن يهدىء ثائرهم فخرج إليهم وقال لهم : « إنما أنا رجل منكم فمن استقمتم له ورضيتم به وبايعتموه بايعته فهدأت العاصفة » [2] .

وبينما كان ذلك يجري بين ابن ناجية وأهل الكوفة كان ابن الأشعث في طريقه إليها فلما وصل إليها وعلم الناس أنه لم يفقد ـ كما كان يشيع ذلك عنه ابن ناجية وأعوانه ـ انضمت إليه أغلبية الناس ولم يبق مع ابن ناجية إلا طائفة محدودة من بني تميم لم تستطع الدفاع عنه .

وطلب عبد الرحمن من الناس الكف عن القتال وطلب منهم أن يأتوه به سليمًا فوضعت السلاليم على القصر وأتوه به فقال ابن ناجية له : استبقني فإني أفضل

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

فرسانك وأعظمهم غناءً عنك ، فأمر به فحبس ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه وأخذ البيعة منه .

وبذلك انتهت حركة ابن ناجية التي لم تستمر مدة طويلة وقد أخضعت بسهولة ودخل عبد الرحمن القصر وأتاه الناس من كل أوب [١] .

عبد الرحمن بن عباس والحجاج :

واصل ابن عباس قتال الحجاج ـ بعد مسير ابن الأشعث إلى الكوفة ـ ثلاثة أيام [٢] كما في بعض الروايات أو خمسة [٣] كما في البعض الآخر .

وفي آخر ليلة من هذه الليالي ـ التي سميت بليلة الهرير لشدة القتال فيها بين الفريقين إذ كان الحجاج يريد أن يفتح الطريق إلى البصرة ليدخلها وأهل البصرة يمنعونه ـ لجأ الحجاج إلى وسيلة فرق بها جمعهم وشتت شملهم فرفع راية الأمان وأمر مناديه أن ينادي أصحاب ابن الأشعث قائلاً : ثكلتكم أمهاتكم علام تقاتلون وقد ترك صاحبكم القتال ومضى .

فدخل عدد كبير في أمانه ولبى نداءه وأمر جيشه أن لا يتبع المنهزمين [٤] ، وبذلك هزم ابن عباس وسار هو ومن معه إلى الكوفة حيث لحقوا بابن الأشعث ودخل الحجاج البصرة [٥] .

وطلب الحجاج من جنده أن لا يدخلوا المدينة حتى لاتنتهك الحرمات ونزل هو دار المهلب بن أبي صفرة فرأى عندها جماعة من النسوة فقال : إن هؤلاء النسوة لجأن

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٦ ، ٣٥٧ والطبري جـ٥ ص١٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٨٠ .
(٢) الطبري جـ٥ ص١٥٥ .
(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٩ ، ٣٥٥ والعيني جـ١١ ص٣٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٠ .
(٤) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٩ .
(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٨ وابن الأثير جـ٤ ص٨٠ والعيني جـ١١ ص٣٢١ والطبري جـ٥ ص١٧٠ .

إلي وخشين أن يدخل عليهن فليرجعن فنحن أغير عليهن من أزواجهن [١] .

وقد خطب في جنده قائلاً : إن الله عز وجل لم ينصركم ياأهل الشام على عدوكم لأنكم أكثر عددًا وأظهر قوة لقد كانوا أثرى منكم وأقوى وهم في بلادهم ومادتهم تأتيهم من مصرهم وبيوتهم فهم يستندون إلى ذلك ويعتصمون به ولكنكم كنتم أهل الطاعة وكانوا أهل المعصية فنصركم الله عز وجل بغير حول منكم ولا قوة فاحمدوا الله عز وجل على نعمه فلا تبغوا ولا تظلموا وإياكم أن يبلغني عن رجل منكم دخل بيت امرأة فلا يكون له عقوبة عندي إلا السيف أنا الغيور ابن الغيور لا أداهن في الريبة ولا أصبر على الفاحشة [٢] .

وقد ذكر الطبري [٣] في رواية له عن ضمرة بن ربيعة عن الشيباني ، ونقل عنه ابن الأثير [٤] أن الحجاج قد أمر - يوم الزاوية - مناديًا فنادى أن لا أمان لفلان ولا لفلان وسمى رجالاً ، فاعتقد الناس أن الجميع آمن ما عدا من سماهم الحجاج فاجتمع لديه منهم أحد عشر ألفًا فقتلهم .

أما البلاذري [٥] فيروي لنا قصة إعلان الأمان ولا يقرر أن الحجاج خدع أحدًا بهذا الأمان .

وفي رأينا أن الحجاج لم يخدع يوم الزاوية أحدًا بأمان فإن جميع المصادر - من ذكرت قصة الأمان ومن لم تذكر - لم تسم لنا واحدًا قتل يوم الزاوية مخدوعًا بأمان وإن كان قد قتل أحدًا فقد قتل قومًا لا أهمية لهم ممن استلزمت ضرورة الموقف قتلهم .

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٢) البلاذري أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٠ .

(٣) جـ٥ ص١٨٢ .

(٤) جـ٤ ص٨٠ .

(٥) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٧ ، ٣٥٨ .

ومن غير المعقول أن يقتل هذا العدد الجم ولا تذكرلنا على الأقل عددًا من الزعماء والرؤوس مع أنه قد جرت عادتها أن تذكر أمثال هؤلاء .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج مازال في حرب مع ابن الأشعث ويريد أن يلتف الناس حوله ومثل هذا يفرقهم عنه ، وفوق كل ذلك أن الحجاج قد خطب خطبة أعلن فيها عفوه عنهم .

وهذا نص خطبته ـ على ما رواها البلاذري ـ يؤيد لنا أن الحجاج لم يخدع أحدًا بأمان : إنكم خالفتم وعصيتم وأخللتم بأنفسكم فعفوت عنكم وقد قدرت ، وأنا أقسم لكم بالله لئن عدتم لمثل فعلكم لأقتلن مقاتلتكم ولأضربنكم بأموالكم [١] .

وإن الباحث لا يسعه إلا الإعجاب بما أبداه الحجاج في خطبته لأهل الشام ، وبتلك الأخلاق النبيلة والنصائح الغالية التي هي جديرة بأن تكون نبراس كل فاتح فقد أمر جيشه أن لا يتبع المنهزمين لأن الاتباع من سوء الغلبة . ثم أمر جنوده أن لا يقتحموا بيوت أهل البصرة حتى تحفظ الأعراض وتصان الكرامات ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل توعد المخالف بالسيف .

ويجدر بنا أن نقارن بين موقف الحجاج هذا وموقف ابن الأشعث في حادث مشابه في أثناء حملته هذه لنتبين الفارق بين الرجلين .

ذلك أنه لما خرج ابن الأشعث كان معه أبو حزابة فمروا بدسبتي وبها مستراد الضياجة وكان لا يبيت عندها أحد إلا بمائة درهم فبات عندها أبو حزابة ورهن عندها سرج فرسه حتى يأتي بما وجب عليه . وفي الصباح وقف لعبد الرحمن وعرفه بقصته فأمر له بفك سرجه وأعطاه ألف درهم .

وقد بلغت تلك القصة الحجاج فاستغلها وقال : أيجهر في عسكره بالفجور

---

(١) أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٨ .

ظفرت به والله ؟؟ !! [١]

وبعد أن استقرت للحجاج الأمور بالبصرة وولى الحكم بن أيوب الثقفي عليها خرج قاصدًا الكوفة لإخراج ابن الأشعث منها فاعترضته جيوش ابن الأشعث تحت إمرة عبد الرحمن بن عباس تجاه القادسية وسايرته حتى نزل دير قرة ونزلت جيوش ابن الأشعث دير الجماجم [٢] .

موقعة دير الجماجم (حرب المائة يوم) :

اجتمع لعبد الرحمن بن الأشعث في هذا المكان مائة ألف ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم [٣] .

فلما رأي الحجاج كثرة جيش عبد الرحمن وازدياده يومًا بعد آخر بمن يأتي إليه من الثغور ومختلف الجهات كتب إلى عبد الملك يستغيث به فأجاب عبد الملك رغبته ملبيًا وأرسل له الإمدادت المتوالية [٤] .

وبعد أن تجمع لكل منهما جيش كبير وخندق كل منهما على عسكره نشبت معركة دير الجماجم في أول ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين للهجرة وصاروا يقتتلون كل يوم ، ودام القتال على هذ الحال مدة طويلة قتل فيها كثير من الناس [٥] .

---

(١) الأغاني جـ١٩ ص١٥٤ ويروي صاحب أنساب الأشراف جـ١١ ص٣٥٥ قصة مثل هذه لأبي حزابة نفسه بكرمان وعند امرأة يقال لها ماهبوش وكان قد رهن سرجه لديها على خمسين درهمًا .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٥٥ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .
ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف السالك إلى البصرة ودير قرة بإزاء دير الجماجم على طرف البر .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .

(٤) المسعودي جـ٢ ص٩٧ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٥٥ ، ١٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .

أثارت تلك الحروب الحالة في مركز الخلافة (دمشق) فأراد رؤوس قريش وأهل الشام أن يضعوا حدًّا لهذه الدماء فذهبوا إلى الخليفة وقالوا له : إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه عنهم فإن خلعه أيسر من حربهم ، وتحقن بذلك الدماء [١] .

فقبل عبد الملك رأيهم وأرسل إلى العراق رسولين من أقرب الناس إليه وهما ابنه عبد الله وأخوه محمد بن مروان ومعهما جند كثيف وقال لهما اعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وإجراء الأعطيات عليهم مثل أهل الشام ، ونزول عبد الرحمن أي بلد شاء فإذا نزله كان واليًا عليه ما دام حيًا وعبد الملك بن مروان خليفة .

فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلتما الحجاج وولي العراق محمد بن مروان وإن لم يجب أهل العراق ولم يسمعوا لهذا فالحجاج أمير الجماعة وأنتما تسمعان له وتطيعان [٢] .

كان من الطبيعي أن يشق هذا الأمر على الحجاج وأن يؤلمه لأنه يدل على فشله في السياسة ، وبالتالي على عدم الرضى من الخليفة الذي أخلص له الحجاج كل الإخلاص .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج كان يريد أن يؤدب أهل العراق الشاقين عصا **الطاعة الخارجين على الخلافة ، ويرى أنهم إذا أجيبوا إلى ذلك تطلعوا إلى ما** فوقه وهو خلع عبد الملك ، وتاريخ أهل العراق شاهد بذلك .

فكتب إليه يقول : والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون إلا قليلاً حتى

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ وابن كثير جـ٩ ص٤١ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٦ ، ١٢٧

يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليـك . ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص فلم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ إن الحديد بالحديد يفلح . خـار الله لـك فيما ارتأيت والسلام (١) .

فلمـا وصل الكتـاب عبـد الملـك لم يتراجع في تنفيـذ الخطـة التي وضعهـا وأرسل بوجوب تنفيذ رأيه .

فاجتمع عبد الله ومحمد والحجاج ونادى عبد الله : يـاأهل العراق أنـا عبـد الله بن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وهو يعرض عليكم كذا وكذا وذكر ما كتب له به أبوه وقال محمد وأنا رسول أمير المؤمنين إليكم بذلك (٢) .

كان هذا الأمر مدعاة للتفكير فأجابوا : ننظر في آمرنا ونرجع العشية .

وعقـد ابن الأشعث مؤتمرًا من جميع القوم وتكلم فحمـد الله وأثنى عليـه ثم قـال : أما بعد فقد أعطيتم أمرًا انتهازكم اليوم إيـاه فرصـة ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غدًا حسرة وأنتم اليوم على النصف فـإن كانوا اعتـدوا عليكم بـالزاويـة فـأنتم تعتـدُّون عليهم بيوم تستر فاقبلوا مـا عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقويـاء والقوم لكم هـائبون وأنتم لهم منتقصـون فـوالله لازلتم عليهم جرءاء ولازلتم عنـدهم أعـزاء أبـدًا مـا بقيتم إن أنتم قبلتم .

فأجابه الناس جميعًـا بـالإبـاء وقـالوا : إن الله قـد أهلكهم فـأصبحوا في الضنـك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمـادة القريبـة .لا ، والله لا نقبل وأعـادوا خلع عبـد الملـك ثـانيـة ، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٥٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ ، ٨٢ وابن كثير جـ٩ ص٤٢ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٥٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ ، ٨٢ وراجع ابن كثير جـ٩ ص٤٢ .

والناظر إلى موقف ابن الأشعث وإبداء رأيه بقبول ما عرضه عبد الملك يستغرب هذا السلوك منه ، فابن الأشعث منذ أن كان بفارس طامع في الخلافة وغير قانع بخلع الحجاج [١] ، يضاف إلى ذلك أنه يرى أنه أرفع نسبا من بني مروان وبالتالي أولى منهم بالخلافة [٢] . فكيف والحالة على ما نرى يقف ابن الأشعث فيدعو علنًا لقبول ما عرضه عبد الملك مع أن ذلك العرض فيه بقاء لعبد الملك في كرسي الخلافة ؟؟ وبالتالي فيه ضياع لآمال ابن الأشعث فيها ؟؟

أكان ابن الأشعث يعتقد أن أهل العراق سوف لا يرضون بما يعرضه عبد الملك فأراد أن يبعد عن نفسه شبهة الأنانية ؟؟ وأن لا يعرض نفسه لتبعة رفض ما عرضه عبد الملك فيما لو استمرت الحرب بينهما وهزم جيش العراق ؟ إذا صح أحد الأمرين أو كلاهما كان ابن الأشعث بعيد النظر يعرف كيف يستغل عواطف الجماهير في الوقت المناسب .

وهناك احتمال ثالث هو أن يكون ابن الأشعث قد قال ما قال عن نية صادقة .

وفي تقديرنا أنه عندئذ يكون قد قنع بما أصابه أهل العراق من هذه الحرب وهو رفع أعطياتهم إلى مستوى أعطيات أهل الشام ونزع ذلك الوالي القاسي ، فيكون له بذلك على أهل العراق يد وتكون له عند الخليفة منزلة ، ربما كانت أجدى في نظره من حرب لا تعرف عاقبتها .

بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمد بن مروان ما أجمع عليه أهل العراق فقالا للحجاج : شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنما أمرنا أن نسمع لك ونطيع فقال الحجاج لهما : قد قلت لكما إنه لا يراد بهذا الأمر غيركما (يقصد آل مروان)

---

(١) راجع الطبري جـ٥ ص١٥١ والعيني جـ١١ ص٣١٩ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٥ .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص١٥٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨٢ .

وإنما أنا أقاتل عن سلطانكما وإنما سلطاني سلطانكما [١] .

وخرج للقتال ودارت رحاه وصاروا يتقاتلون كل يوم وتدور المعارك إلا أنها لم تك معارك فاصلة فهذا يغلب مرة وهذا أخرى فيقرب خندقه [٢] ؛ والحجاج في هذه الأثناء يتمثل بهذه الأبيات .

كيف يرجون سقاطي بعدما ... جلل الرأس مشيب وصلع
رب من أنضجتُ غيظًا قلبه ... قد تمنى لي موتًا لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه ... عسرًا مخرجه ما يُنتزع
مزبد يهدر سا لم يرني ... فإذا أسمعته صوتي انقمع [٣]

ويبرىء نفسه من التبعة ومن هذه الدماء وأنه مظلوم وليس بظالم فيقول :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم ؟!
متى تجمع القلب الذكي وصارمًا ... وأنفًا حميًا تجتنبك المظالم [٤]

استمر الحال على ذلك مدة طويلة وطال الأمر حتى قيل إنه وقعت بضع وثمانون وقعة والحجاج صابر لا يتزحزح عن مكانه على الرغم من كثرة العدو ووفرة موارده .

فإن موارد العراقيين كانت تأتيهم من الكوفة وسوادها بكثرة . بينما كان جيش الحجاج في ضيق من العيش لقلة موارده ونظرًا لبعدهم عن مراكز تموينهم ارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعًا فاحشًا وفقدوا بعض الأصناف مثل اللحم فلم توجد بالكلية [٥] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ .
(٢) الطبري جـ٥ ص١٥٨ وابن الأثير جـ٤ ص٨١ وابن كثير جـ٩ ص٤٢ والعيني جـ١١ ص٣٢٣ .
(٣) ابن عساكر جـ٤ ص٧٠ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٧ .
(٤) ابن عساكر جـ٤ ص٧٠ .
(٥) الطبري جـ٥ ص١٥٨ وابن الأثير جـ٤ ص٨٢ وابن كثير جـ٩ ص٤٢ والعيني جـ١١ ص٣٢٣ .

طال القتال ورأى الحجاج أن حالة التموين تسير من سيء إلى أسوأ ، ففكر في حيلة بها يتمكن من إنهاء هذه الحروب فهداه تفكيره إلى أن يحمل على كتيبة القراء من جيش ابن الأشعث حملة قوية فيهزمها ؛ وذلك لأن الناس كانوا يتبعونهم وهم الذين كانوا يحرضونهم على القتال وهم فوق ذلك مثل الجبال الراسية فكل الكتائب تتراجع إلى الوراء ما عدا كتيبتهم مهما اشتدت الحملة عليها بينما هم إذا حملوا تكون حملتهم بجد واجتهاد فتهزم ما أمامها (١) .

فعبأ لها ثلاث كتائب وأعدها إعدادًا تامًا تحت قيادة الجراح بن عبد الله الحكمي ، فتقدمت هذه الكتائب إلى كتيبة القراء وحملت كل كتيبة من هذه الكتائب الثلاث مرة فلم يبرح القراء مكانهم وصبروا ثم قال زعيم القراء : احملوا حملة صادقة ولا تردوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم . فصدق القراء الحملة وأزالوا الكتائب الثلاث عن محلها وفرقوها فرقًا ، ولكن فرقة من هذه الفرق قامت بحركة التفاف حول كتيبة القراء تمكنت بها من قتل قائدهم جبلة بن زحر وقطع رأسه والإتيان بها إلى الحجاج (٢) .

فسر الحجاج وأصحابه بذلك وبشرهم بالنصر فقال لهم : ياأهل الشام أبشروا هذا أول الفتح لا والله ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن وهذا من عظمائهم (٣) .

وهي عبارة تدل على دهاء الحجاج ، فهرج أهل الشام وصاروا ينادون (ياأعداء الله قد هلكتم وقد قتل طاغوتكم) .

وبينما أهل الشام في فرح لمقتل جبلة كان أهل العراق في حزن كأن الواحد منهم

---

(١) راجع الطبرى جـ٥ صـ١٦٤ وابن الأثير جـ٤ صـ٨٢ وابن كثير جـ٩ ص٤٢ .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص١٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص٨٥ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ ؛ ويروي ابن كثير جـ٩ ص٤٠ أن جبلة بن زحر قائد قتيبة القراء كان قتله يوم الزاوية .

(٣) راجع الطبري جـ٥ ص١٥٨ ، ص١٦٣ ، ١٦٥ وابن الأثير جـ٤ ص٨٢ ، ص٨٤ ، ٨٥ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ .

قد فقد أباه أو أخاه بل كان قتله أشد عليهم في ذلك الموطن ، وظهرت الكآبة في وجوه القراء ودب فيهم الفشل فلا يقدر الواحد منهم على الكلام .

رأى أبو البختري الطائي - أحد القراء - ذلك فأراد أن يجدد فيهم الروح المعنوية وأن يثبتهم فبين لهم أن جبلة كأي شخص منهم قد أتاه أجله وكل واحد منهم معرض لذلك [١] ، ولكن مقالته لم تؤثر فيهم .

ثم قدم عليهم بسطام بن مصقلة ابن هبيرة الشيباني من الري يحارب في صفوفهم فتشجعوا وقالوا : إنه يقوم مقام جبلة .

فساء ذلك أبو البختري وقال : قُبّحتم : إن قتل رجل واحد منكم ظننتم أن قد أحيط بكم ؟! فإن قتل الآن ابن مصقلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة وقلتم لم يبق أحد يقاتل معه ؟ ما أخلقكم أن يخلف رجاؤنا فيكم [٢] .

استمر القتال بين الفريقين بعد ذلك أيامًا - بالمبارزة - حتى كان يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة لسنة ثلاث وثمانين للهجرة [٣] ؛ وقد مل الناس المبارزة فنشبت معركة قاتل فيها أهل العراق قتالاً شديدًا حتى أمنوا الهزيمة ، وبينما هم في أمنهم إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي - صاحب مينة الحجاج - إلى الأبرد بن قرة - صاحب ميسرة ابن الأشعث - وقاتله قتالاً يسيرًا انهزم بعده ابن قرة وولى الدبر فظن الناس أنه قد صولح فتقوضت الصفوف وتفرق الناس .

رأى ابن الأشعث ذلك فصار ينادي إليّ عباد الله أنا ابن محمد ، فأتاه نفر يسير فحمل عليهم أهل الشام حملة المنتصر فدخلوا معسكرهم وكبروا فيه ؛ وفي الوقت ذاته نصح له بعض أخصائه بأن ينصرف حتى لا يؤسر فانصرف هو ومن معه .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص٨٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٦٤ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وشذرات الذهب جـ١ ص٩٣ .
ويروي الذهبي جـ٤ ص٦٣٠ أنها كانت سنة ٨٢ .

وبذلك انتهت معركة دير الجماجم التي استمرت مائة يوم فقد بدأت في أول ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين وانتهت يوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة نفسها .

وقد ترك الحجاج جند ابن الأشعث يتفرق وأمر جنده أن يتركوهم وبعث مناديًا ينادي (من رجع فهو آمن ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن) (١) .

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل كما رجع عبد الله بن عبد الملك إلى الشام وتركا العراق للحجاج يتصرف فيها كما يرى بعد أن هزم ابن الأشعث ، ورجع الحجاج بجنده إلى الكوفة (٢) .

وهنا تروى لنا بعض المصادر(٣) . أن الحجاج عزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة ، بينما يروي البعض الآخر(٤) أنه أنزل أهل الشام في بيوت أهل الكوفة ؛ ويعدون ذلك من المساويء التي لا تغتفر ويشنع بذلك ابن الأثير بقوله : وهو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم وهو إلى الآن لا سيا في بلاد العجم ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة (٥) .

وفي رأينا أن رواية الطبري هي التي تتفق مع ما عليه الحجاج من الصفات . ودليلنا على ذلك ما أورده البلاذري بمناسبة دخول الحجاج البصرة بعد هزيمة أهل العراق في الزاوية من نهي الجند عن نزولهم على أهل البصرة (٦) .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص١٦٥ ـ ١٦٩ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٦٩ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٧٠ .

(٤) ابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ .

(٥) ابن الأثير جـ٤ ص٨٦ .

(٦) تقدم في ص٢٦٦ .

ولما رجع الحجاج إلى الكوفة بعد دير الجماجم خطب في أهل الكوفة خطبة بين لهم فيها سوء مذهبهم وعدم استقرارهم على حال وأثنى على أهل الشام لطاعتهم فقال : ياأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ ، ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرّخ فحشاكم نفاقًا وشقاقًا وأشعركم خلافًا أخذتموه دليلاً تتبعونه وقائدًا تطيعونه ومأمرًا تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم واقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان ؟؟

ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوذا وتنهزمون سراعًا . ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها . لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حين عضكم السلاح وقصعتكم الرماح . ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم .

بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

ياأهل العراق الكفرات بعد الفجرات والغدرة بعد الخترات والنزوة بعد النزوات . إن بعثتم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاوٍ أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحبتموه ؟؟

ياأهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا كنتم أنصاره وأتباعه ؟؟

ياأهل العراق . ألم تنهكم المواعظ ؟؟ ألم تزجركم الوقائع ؟؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال ياأهل الشام : إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر

ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب .

ياأهل الشام أنتم الجنة والرداء والعدة والحذاء (١) وما أنتم وأهل العراق إلا كما قال نابغة بني جعدة .

وإن تـداعيكم حظّهم : ولم ترزقـوه ولم نكـذب
كقـول اليهـود قتلنـا المسيـح ولم يقتلـوه ولم يُصْلَبِ (٢)

ثم بدأ بأخذ البيعة منهم للخليفة عبد الملك بعد أن نكثوها بخروجهم مع ابن الأشعث وفي أخذه للبيعة أجلس بجانبه أحد خواصه وهو مصقلة بن كرب العبدي وكان خطيبًا فضلاً عن أنه كان أول من ناصر الحجاج في ثورة ابن الجارود وقال له : اشتم كل امريء بما فيه ممن كنا أحسنا إليه ، فاشتمه بقلة شكره ولؤم عهده ومن علمت فيه عيبًا فعبه بما فيه وصغر إليه نفسه (٣) . وكان لا يبايع أحدًا إلا إذا قال له أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال نعم بايعه وإلا قتله (٤) .

ويذهب صاحب الإمامة والسياسة إلى أن الحجاج عندما رأى كثرة الأسرى أراد أن يعرف الخوارج ـ الفرقة الخاصة ـ من غيرهم لأن الخارجي لا يشهد على نفسه بالكفر ، وكانت بقيتهم لا تزال باقية فلجأ إلى طريقة الإشهاد على النفس بالكفر فمن شهد لم يكن خارجيًا ومن لم يشهد فهو خارجي يستحق القتل من الناحيتين الدينية والسياسية .

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٢ من ص١١٧ ـ ١١٩ وراجع المسعودي جـ٢ ص٩٧ ، ٩٨ وابن عساكر جـ٤ ص٥٥ ، ٥٦ وابن عبد ربه جـ٢ ص١٣٠ والنويري ـ نهاية الأرب جـ٧ ص٢٤٥ .

(٢) المسعودي جـ٢ ص٩٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٦٩ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٦٩ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ والذهبي جـ٤ ص٦٢٧ .

ويروي ابن عبد ربه – العقد الفريد جـ٣ ص ١٨ – أن الخليفة عبد الملك هو الذي كتب إلى الحجاج في أسرى دير الجماجم أن يعرضهم على السيف فمن أقر منهم بالكفر بخروجه يترك سبيله ومن زعم أنه مؤمن يضرب عنقه .

أما من الناحية الدينية فإن من القواعد المقررة والأصول المسلم بها أن الخروج على الخليفة الشرعي لا يصح إلا إذا كفر (١) .

ومن خرج بغير كفر يكون باغيًا يجب قتله ، وإذا رجع إلى حظيرة الجماعة والإمام الذي خرج عليه تجب استتابته .

ولم يكن الحجاج بجاهل لتلك القواعد ففي مناظرته لسعيد بن جبير التي رواها لنا صاحب الإمامة والسياسة (٢) . يقول : أنا أقتل من شق عصا الطاعة وفارق الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها : ويقول في مقام آخر : إنهم ظالمون حين خرجوا من جمهور المسلمين (٣) .

وقد ظهر ذلك على لسان أحد شعراء ابن الأشعث فوصف الحجاج وأصحابه بأنهم أهل الحق ورمى خصومهم بالفسق وقرر أن قتلاهم قتلى ضلال وفتنة وأنهم قد خرجوا عن الدين (٤) .

وأما من الناحية السياسية فإنا نرى الحجاج وقد ظفر بخصومه الذين أثاروا عليه ثورة كادت لا تودي بولايته على العراق فحسب بل بكيان الدولة الأموية بأجمعها ، **كان واجبًا عليه أن يقسو كل القسوة على من ظفر بهم وخاصة أنهم من أهل** العراق الذين أثاروا عليه وعلى الدولة الحروب والفتن طوال عهده .

يزيد في جرم هؤلاء أن خاصتهم خرجوا من الكوفة والبصرة تثبيتًا لولايته وتوطيدًا لنفوذ الإسلام فإذا بهم ينقلبون عليه دعاة ثورة جامحة .

ولو فعل الحجاج كل ذلك من تلقاء نفسه لما صح أن يكون موضع لوم فما بالنا

---

(١) راجع شرح عبد السلام على الجوهرة ص١٥٤ .

(٢) جـ٢ ص٤٣ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٤ .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٧٨ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وابن شاكر جـ٥ ص١٥٦ م ١٥٧ والعيني جـ١١ ص٣٣٠ .

به وهو يعمل بتعاليم الخليفة الواضحة حيث كتب إليه في حادث سعيد بن جبير : إني لم أبعثك مشفعًا وإنما بعثتك منفذًا ومناجزًا لأهل المعصية والخلاف (١) .

ولا نستطيع أن نوجه اللوم للحجاج على قتل كثير ممن قتلهم عقب موقعة دير الجماجم فقد كان هؤلاء ممن نم تاريخهم على عداء للدولة الأموية فمنهم كميل بن زياد الذي كان من خواص علي بن أبي طالب وله موقف مشهور من الخليفة عثمان بن عفان وظل على سياسته هذه يناوىء الحجاج ويغلظ إليه حتى يوم قتله (٢) .

ومنهم عمران بن عصام الضبعي كان الحجاج قد أكرمه وقربه لأمير المؤمنين ولم يدخر وسعًا في مرضاته فكافأه عمران بالخروج والتمادي في العصيان إلى حد أن الحجاج طلب منه أن يتوب فلم يقبل (٣) .

بينما يقوم الحجاج بهذا العمل في الكوفة كانت فلول ابن الأشعث قد انقسمت على نفسها فمنهم من دخل في طاعة الحجاج ومنهم من استمر على متابعة ابن الأشعث . وقد تفرق هؤلاء ، فسار محمد بن سعد بن أبي وقاص بطائفة كبيرة إلى المدائن وسار عبد الرحمن بن أبي سمرة إلى البصرة وأخذها من نائب الحجاج فيها وهو الحكم بن أيوب بن أبي عقيل ثم لحق به ابن الأشعث إليها فقال له : إني لم أر فراقك وإنما أخذتها لك .

كان من الطبيعي بعد أن يوطد الحجاج الأمن في الكوفة أن يسير إلى فلول ابن الأشعث ليضرب الضربة الأخيرة فبدأ بالمدائن لقربها من الكوفة . ولأنها مفتاح الكوفة فلا ينبغي أن يخرج إلى البصرة مخلفًا وراءه من يستطيع التغلب على الكوفة في غيبته بل كانت الحكمة الحربية أن يبدأ بالمدائن ، فخرج إليها وأعد المعابر لعبور الناس إلى ابن أبي وقاص .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٦٩ ، ١٧٠ وابن كثير جـ٩ ص٤٦ ، ٤٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ وراجع التنبيه والإشراف ص٢٧٥ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٨ وراجع ابن كثير جـ٩ ص٥٢ والأغاني جـ١٦ ص٥٩ .

وبينما كان الحجاج في طريقه إليها خرج من المدائن ولحق بزعيمه ابن الأشعث بالبصرة فحول الحجاج نظره إليها .

موقعة مسكن :

فخرج ابن الأشعث إلى مسكن على دجيل وأتاه أنصاره وأعوانه الذين كانوا متفرقين حينما علموا أنه مستعد لمواقعة الحجاج فاجتمعوا وعنف الناس بعضهم بعضًا على الفرار ووطد الكثير منهم العزم على الموت فخندقوا على أنفسهم وأحاطوا أنفسهم بالمياه ورتبوا أن يكون القتال من جهة واحدة . وأتاهم الحجاج ونشبت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين للهجرة .

واستمرت خمس عشرة ليلة قتل في نهايتها زياد بن غنيم القيني - وكان على مسالح الحجاج - فأضعف قتله أصحاب الحجاج وفترت همتهم ، ولكن الحجاج بما جبل عليه من فطنة ولباقة لم ينم تلك الليلة فبات طول ليله يسير فيهم مشجعًا ومبينًا أن النصر قريب منهم وأنهم أهل الطاعة وابن الأشعث وأصحابه أهل المعصية وإن عادة الله فيهم حسنة ما صدقوه في موطن قط إلا أعطاهم الله النصر .

وعبأ جيشه ورتبه وقت السحر ، وفي الصباح الباكر نشب القتال وحمى وطيسه وقدم على الحجاج في ذلك الوقت عبد الملك بن المهلب وبه تغير الموقف وأصبحت كفة الحجاج هي الراجحة ولم تلبث أن تغلبت وفازت وهزم ابن الأشعث وقتل من جيشه زعيمان هما أبو البختري الطائي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

وثبت في الموقف بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف وطنوا أنفسهم على الموت وقال لهم بسطام : لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجونا منه فررنا ولكننا قد علمنا أنه نازل بنا فأين المحيد عنه ؟؟ ياقوم إنكم محقون فقاتلوا على الحق والله لو لم تكونوا على حق لكان موت في عز خيرًا من حياة في ذل .

فقاتلوا قتالاً شديدًا كشفوا فيه جيش الحجاج مرارًا حتى قال الحجاج : علي بالرماة لا يقاتلهم غيرهم ، فحضر الرماة وأحاط بهم الحجاج من كل جانب فقتلوا ولم ينج من الأربعة آلاف إلا القليل .

وبذلك انتهت معركة مسكن في شعبان من سنة ثلاث وثمانين (١) .

مصير ابن الأشعث :

وبعد انتهاء الموقعة وطد ابن الأشعث العزم على أن يذهب لصديقه زنبيل ـ ملك الترك ـ ويترك القتال بعد ما رأى من قوة الحجاج ومضاء عزيمته فسار إلى سجستان ، وما كان الحجاج ليتركه فقد أرسل في أثره ابنه محمدًا وعمارة بن تميم اللخمي بجيش ـ على أن تكون القيادة لعمارة ـ فأدرك عمارة مؤخرة ابن الأشعث عدة مرات قاتله فيها (٢) .

وما زالت المطاردة متواصلة حتى وصل ابن الأشعث إلى كرمان وكان عليها عامل من قبله فأكرمه .

ولكن شيخًا من عبد القيس يدعى معقلاً أنَّبه على جبنه وخوره وضعف

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٠ ، ١٧١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٦ ، ٨٧ وابن خلدون جـ٣ ص٤٩ ، ٥٠ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٨ .

ويروي الطبري جـ٥ ص١٨٣ وابن الأثير جـ٤ ص٨٧ رواية أخرى في سبب هزيمة مسكن تخالفها في أن السر في هزيمة ابن الأشعث لم يكن بسبب قوة الحجاج وإنما بسبب أن شيخًا دلَّهم على طريق من وراء الكرخ في أجمة وضحضاح من الماء نظير أربعة آلاف درهم يأخذها فبيتهم الحجاج وأرسل إليهم سرية تبلغ أربعة آلاف أعملت فيهم السيف في منتصف الليل . ولم يتمكن أصحاب ابن الأشعث من القتال لأنهم كانوا قد هزموا الحجاج في اليوم السابق لهذه الليلة ، فباتوا آمنين وألقوا السلاح . فمن غرق منهم أكثر ممن قتل ـ لأن دجيلاً عن يسار الجيش ودجلة أمامه ـ ونجا ابن الأشعث في عدد قليل وأن معركة مسكن استمرت شهرًا أو دونه .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٧١ ، ١٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٨٧ وابن كثير جـ٩ ص٤٧ .

عزيمته [١] . فسار منها مفوزًا في صحرائها حتى وصل مدينة زارنج فأغلق عاملها الأبواب في وجهه ووقف عليها ابن الأشعث مدة رجاء افتتاحها فلم يتمكن فواصل سيره إلى بست فاستقبله عاملها وأنزله عنده . ثم أراد أن يأمن عند الحجاج ويتقرب إليه فانتهز فرصة تفرق أصحاب ابن الأشعث عنه وقبض عليه وأوثقه [٢] . فعلم بذلك زنبيل فبعث إلى العامل يهدده ويتوعده فجبن العامل وطلب الأمان من زنبيل فآمنه ودفع عبد الرحمن إلى زنبيل فأخذه وأكرمه ووفى له بما عاهده عليه فبقي عنده حتى استدعاه جماعته لمواصلة القتال عند زارنج كما سيأتي [٣] .

هذا ما كان من أمر ابن الأشعث . وأما جيشه فتختلف الروايات في سيره ، فيروي أبو مخنف أنه سار مع ابن الأشعث إلى سجستان جماعة قليلة . وبقي معظم الفل المنهزم من الجنود والرؤوس والقادة الذين ناصبوا الحجاج العداء في المواطن كلها ولم يقبلوا أمانه .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ ص١٧٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٨٨ وابن كثير جـ٩ ص٤٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٧٣ وابن الأثير جـ٤ ص٨٨ وابن كثير جـ٩ ص٤٨ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٨ ، ١٢٩ وينفرد صاحب الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٧ ، ٣٨ برواية بعيدة عن التصديق . تتلخص في أن ابن الأشعث بعد انهزامه أتى الحجاج من أخبره أن ابن الأشعث قد اتخذ طريقه إلى خراسان فدعا الحجاج ابن عم له كان يعرفه بالإخلاص فقطع معه ليلاً وأرسله في طلب ابن الأشعث وطلب منه أنه إذا أدركه هو أو من معه لا يتركه على قيد الحياة أو يأتي به أسيرًا :

وسار ابن الأشعث حتى لحق بخراسان راجيًا النجاة من الحجاج . ولم يشعر ابن الأشعث إلا وقد لحقه خيل ابن عم الحجاج فاستغاث بقصر فدخله فحصره ابن عم الحجاج فيه وأحاط به من كل جانب حتى ضيق عليه ودعا بالنار ليحرقه عليه .

فلما رأى ابن الأشعث أن لا محيص له ولا ملجأ وخاف النار رمى بنفسه من فوق القصر وطمع في أن يسلم ولا يشعر به أحد فيدخل في غمار الناس فيخفى أمره ولكنه سقط فانكسرت ساقه وانخذل ظهره ووقع مغشيًا عليه . فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه وقد أفاق بعض الإفاقة ولا يقدر على النهوض . فأتوا به ابن عم الحجاج ولما رآه بتلك الحال أيقن أنه لا يبلغ الحجاج حتى يموت فأمر بضرب عنقه وأخذ رأسه إلى الحجاج ـ وتلك كانت نهاية ابن الأشعث .

بقي هؤلاء جميعًا تحت قيادة عبد الرحمن بن عباس وساروا في أثر ابن الأشعث حتى وصلوا إلى سجستان وانضم إليهم من أهل سجستان كثيرون فبلغ عدد الجيش نحو الستين ألفًا فحصروا عامل مدينة زارنج الذي امتنع على ابن الأشعث ـ وكتبوا إلى ابن الأشعث يخبرونه بعددهم ويطلبون منه الحضور للسير إلى خراسان فإن بها عشائرهم فحضر إليهم وهم على حصار ـ عبد الله بن عامر ـ عامل زارنج ، وما زالوا يشددون الحصار عليه حتى استنزلوه فأمر عبد الرحمن به فضرب وحبس [1] .

وصل إليهم في ذلك الوقت الجيش الشامي بقيادة عمارة اللخمي فرأوا أن يتركوا له سجستان ويتوجهوا إلى خراسان وعرضوا هذا الرأي على ابن الأشعث فلم يرق في نظره وقال لهم : إن بها يزيد بن المهلب وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعًا ، ولن يدع أهل الشام اتباعكم فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام وأخاف أن لا تنالوا ما تطلبون .

فأبوا عليه وقالوا إن خراسان بلاد واسعة نأخذ أي جهة شئنا ومن يتبعنا منهم أكثر ممن يقاتلنا فنمكث بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك أو نرى رأيًا .

فوافق على رأيهم وساروا إلى خراسان وفي طريقهم إليها ـ في هرات ـ خرج عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة في ألفين وأخذ طريقًا غير طريق ابن الأشعث فانتهز ابن الأشعث ذلك فرصة ليحل نفسه من تبعاتهم وتورطه معهم في الموقف فأبان لهم أنه لا يستطيع أن يسير معهم لأنهم لم يصدقوا معه في موطن قط وقد عرضوه للهلاك مرارًا حتى إذا صار في مأمن لدى صاحبه زنبيل أتوه بجموعهم وأغروه باجتماع كلمتهم فقبل العودة .

وها هي ذي بوادر تفرقهم بدأت تظهر . ولذلك سينصرف إلى زنبيل فمن أحب

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٣ ، ١٧٤ وابن الأثير جـ٤ ص٨٨ والعيني جـ١١ ص٣٢٨ وابن كثير جـ٩ ص٤٨ .

أن يتبعه فليتبعه ومن أراد الذهاب إلى خراسان فليذهب متمنيًا للجميع الخير والتوفيق [١] .

فسارت معه طائفة وتفرقت أخرى وبقي معظم الجيش مع عبد الرحمن بن عباس وأصبح هو الزعيم بعد ابن الأشعث فبايعوه واستمروا في طريقهم إلى خراسان ووجدوا في طريقهم الرقاد الأزدي ـ عامل ليزيد بن المهلب ـ فقتلوه فسار إليهم يزيد بن المهلب [٢] .

ويروي المدائني رواية تخالف رواية أبي مخنف في :

١ ـ أن ابن سمرة لم يذهب مع ابن عباس إلى سجستان بل سار بعد هزيمة مسكن مباشرة إلى هرات وذم ابن الأشعث وعابه بفراره .

٢ ـ أن ابن عباس سار إلى خراسان في عشرين ألفًا .

٣ ـ وأن ابن المهلب أرسل إلى ابن عباس يقول له : قد كان لك في غير هذه البلاد متسع عند من هو أقل مني شوكة فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان فإني أكره قتالك وإن أردت مالاً أرسلت إليك . فأعاد ابن عباس الجواب بقوله : إنا ما نزلنا لمحاربة أحد ولكنا نريد أن نريح ثم نرحل عنك .

ثم أقبل على جباية الأموال وبلغ ذلك يزيد فقال : من أراد أن يريح ثم يسير لم يجب الخراج ، وأرسل أمامه المفضل في جيش وسار في أثره وكرر عليه الطلب في أن يخرج وقال له : إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وإن أردت زيادة زدناك فاخرج عني فإني لا أريد قتالك : فأبى ابن عباس إلا القتال وأرسل إلى جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه فأخبر بعضهم يزيد بذلك فقال

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٤ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ والعيني جـ١١ ص٣٢٨ وابن كثير جـ٩ ص٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٧٤ وابن الأثير جـ٤ ص٨٨ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ .

يزيد : جل الأمر عن العتاب أتغدى بهذا قبل أن يتعشى بي [١] .

وفي رأينا أن رواية أبي مخنف هي الراجحة لأنه لا يتصور أن ابن عباس يقتل رجلاً من الأزد ـ هو ما اتفق عليه المصدران ـ ثم يصبر يزيد على ذلك ـ على رواية المدائني ـ وتصور لنا بقية الرواية جبن يزيد وأنه أجبر على القتال .

وفوق ذلك لم يذكر لنا شيئًا عن ابن الأشعث هل خرج من سجستان حينما ذهبت إليه فلول جيشه أم لم يخرج ؟؟ .

حدث بين يزيد بن المهلب وعبد الرحمن بن عباس قتال يسير انهزم بعده أصحاب ابن عباس وصبرت معه طائفة مدة ثم انهزموا جميعًا ولحق ابن عباس بالسند وأمر يزيد أصحابه بالكف عن اتباعهم ودخل يزيد معسكرهم فأخذ ما كان فيه وأسر أسرى كثيرين أرسلهم إلى الحجاج [٢] .

ولما أراد يزيد بن المهلب إرسال الأسرى إلى الحجاج قال له أخوه حبيب بأي وجه تنظر إلى اليمنية وقد أرسلت موسى بن طلحة ؟ فقال له يزيد : إنه الحجاج ولا يتعرض له : فقال حبيب : وطن نفسك على العزل ولا ترسله فإن له عندنا يدًا . فقال يزيد وما هي ؟؟ قال ألزم المهلب في مسجد الجماعة بمائة ألف [٣] فأداها طلحة عنه .

فأطاعه ولم يرسل عبد الله بن فضالة لأنه من الأزد وأرسل بقية الأسرى [٤] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٤ ، ١٧٥ وابن الأثير جـ٤ ص٨٨ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ والعيني جـ١١ ص٣٢٩ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٧٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ والعيني جـ١١ ص٣٢٩ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٨٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥١ .
ويروي الطبري جـ٥ ص١٨٠ مائتي ألف .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٧٦ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥١ .

وقع في يد الحجاج بعد موقعة مسكن كثير من الأسرى أرسلهم إليه يزيد بن المهلب كما ذكرنا ، وجابه الحجاج الموقف مرة جديدة فها هو ذا قد نكل بكثير من خصومه بعد موقعة دير الجماجم فإذا بسرب جديد يأتيه بعد مسكن فماذا هو صانع به ؟؟!

لا تزال الأسباب التي ذكرنا بعد موقعة دير الجماجم قائمة وهاهم خصومه والمتآمرون عليه وعلى الخلافة قد جيء بهم أسرى . فهل كان للحجاج أن يعفو وأن يصفح ؟؟

لم يكن منطق الحوادث ولا حالة الحجاج النفسية تسمح بمثل هذا لذلك عمد الحجاج إلى **اجتثاث** الفتنة من جذورها فقتل زعماء الفتنة والمساعدين عليها وأصحاب الرأي فيها .

وفي تقديرنا أنه لم يَعْد هؤلاء إلى غيرهم فلقد أجمعت المراجع على أسماء بذاتها وروت لكل واحد من هؤلاء قصة بذاتها مع الحجاج ناقشه فيها وعيره بموقفه في صف ابن الأشعث وذكره بماضيه الذي لا يتناسب مع هذا الخروج [١] .

ولو كان الحجاج قد قتل أكثر من هؤلاء لما ترددت المصادر في ذكر أسمائهم جريًا على عادتها من محاولة النيل من الحجاج لكل صغيرة تحدث منه . بل إننا لنعجب لهذه المصادر التي تذكر أنه قتل صبرا ـ بعد فتنة ابن الأشعث ـ الآلاف بل مئات الآلاف دون أن تستطيع هذه المصادر بذاتها أن تعين لنا إلا نفرًا محدودًا لا يتجاوز عدده البضعة عشر .

على أن اضطراب المصادر في تحديد عدد من قتلهم الحجاج صبرًا وتأرجحهم بين ثلاثة آلاف على قول صاحب البدء والتاريخ [٢] أو مائة وثلاثين ألفًا على ما رواه

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص١٧٨ ـ ١٨٢ وابن الأثير من ص٨٩ ، ٩١ والكامل ص٦٥٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥١ .

(٢) جـ٦ ص٣٥ .

ابن كثير والعيني [١] أو مائة وعشرين أو مائة وثلاثين على الترديد في رواية رواها الطبري [٢] يفصح لنا عن رغبة الرواة في التشنيع على الحجاج . ومن يدري فلربما أدخلوا في حسابهم هذا جميع من قتلوا مع الحجاج في حرب ابن الأشعث ، وهل يستبعد أن يكون هذا العدد شاملاً لكل من فني في العراق بسبب الحجاج وحروبه ؟ وإذا صح في الأذهان أن مثل هذا العدد قد فني على أي وجه من الوجوه الثلاثة فهل كان من المعقول أن يسكت عنه مؤرخان عظيمان كابن خلدون وابن الأثير ؟؟؟

وهل كان أبو مخنف يغيب عنه هذا فلا يذكره فيروي الطبري عن غيره رواية تحمل على الشك ؟؟

على أن المؤرخين الذين بالغوا في عدد من قتلهم الحجاج رأوا أن يتابعوا الحملة عليه بأن نسبوا إلى عبد الملك كتابًا يأخذ فيه على الحجاج إسرافه في الدماء والأموال [٣] .

ولعلهم فعلوا ذلك تأييدًا للحملة التي شنوها عليه وقد تكلمنا على هذا الكتاب في موضعه من هذه الرسالة .

وسنذكر من قتلهم الحجاج من الأسرى الذين أرسلهم إليه يزيد بن المهلب ، مما يتبين معه أن الحجاج لم يقتل إلا زعماء الفتنة الذين لم يؤمل فيهم إلا كل شر وعفا عن الزعماء الذين رجى فيهم الخير وأمل فيهم الطاعة وعدم مفارقة الجماعة .

فقتل عمرو بن موسى بن عبيد الله بن معمر وهو صاحب شرطة ابن الأشعث وقد قال للحجاج إنها كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها وقد أمكنك الله

---

(١) ابن كثير جـ٩ ص٥١ والعيني جـ١١ ص٣٣٠ .

(٢) جـ٥ ص١٨٣ .

(٣) المسعودي جـ٢ ص٩٥ وابن عساكر جـ٤ ص٦٧ ، ٦٨ والأبشيهي جـ١ ص٥٢.

منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين ، فقال الحجاج : أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفي منها الأبرار .

وأما اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك ثم نحي ولكنه قتل بعد ذلك .

والهلقام بن نعيم وقد سأله الحجاج عن سبب خروجه فلم يتردد في أن يقول : إنه كان يرجو أن يقضي على الحجاج فيصبح هو واليًا على العراق لابن الأشعث .

وعمرو بن قرة الكندي وقد عيره الحجاج بأنه كان يفضي إليه بأنه يرغب عن ابن الأشعث وعن الأشعث قبله فإذا به يخرج مع عبد الرحمن (١) .

ومحمد بن سعد بن أبي وقاص (٢) ، وقد بين الحجاج سبب قتله إذ قال له قبيل قتله : ياظل الشيطان وأعظم الناس تيهًا وكبرًا تأبى بيعة يزيد وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم صرت مؤذنًا لابن كناز عبد بني نصر - يقصد عمر بن أبي الصلت ؟ (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٧ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٨٩ والطبري جـ٥ ص١٨١ في غير رواية أبي مخنف وابن كثير جـ٩ ص٤٩ في إحدى روايتيه وفي رواية أبي مخنف جـ٥ ص١٧٦ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ في الرواية الأخرى أنه لم يرسل مع الأسرى .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٨١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ ، ويروي صاحب الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٩ أنه قال له : ياظل الشيطان . ألست صاحب كل موطن ؟؟ أنت صاحب الحرة ويوم الزاوية ويوم دير الجماجم .

وأما قصة أذانه لابن كناز : فهي أن الحجاج لما هزم العراقيين في دير الجماجم فر كثير منهم إلى عمر بن أبي الصلت بالري ، وكان قد تغلب عليها أثناء الفتنة - فأرادوا أن يدبروا مكيدة يحظون بها عند الحجاج ويمحون عن أنفسهم عثرة الجماجم فألحوا على عمر بخلع الحجاج وقتيبة بن مسلم وساعدهم في ذلك والده - ولما علم بذلك قتيبة سار إليه فتركه هؤلاء الذين طلبوا منه هذا العمل وخرج عمر وأبوه من الري وتوجها إلى طبرستان ودخل قتيبة الري وكتب إلى الحجاج أن ابن أبي الصلت قد ذهب إلى طبرستان : فكتب الحجاج إلى الإصبهبذ يطلب منه إن يرسلها له على قيد الحياة إن تمكن من ذلك فإن لم يتمكن بعث برؤوسها بعد قتلها . فصنع الإصبهبذ طعامًا فقتل عمر وبعث أباه على قيد الحياة وقيل قتلها وبعث برؤوسها - الطبري جـ٥ ص١٨٠ وابن الأثير جـ٤ ص٩٢ .

وعبد الله بن عامر ، وقد قال للحجاج : لا رأت عيناك الجنة إن أفلت ابن المهلب بما صنع : فقال له الحجاج : وما صنع فقال :

لأنه كاس في إطلاق أسرته وقاد نحوك في أغلالها مضرا
وقى بقومك وِرْدَ الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا

فأطرق الحجاج مليا ووقرت تلك الكلمة في نفسه ، ولكنه قال له ما أنت وذاك ؟؟[١] .

وكان ذلك من الأسباب التي دعت الحجاج إلى عزل آل المهلب وحبسهم فيما بعد .

وفيروز حصين ويروى أن الحجاج قال لحاجبه : إذا دعوتك بسيدهم فأتني بفيروز حصين : ثم قال لحاجبه : جئني بسيدهم فأتاه بفيروز فقال له الحجاج أبا عثمان فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم . قال فتنة عمت الناس فكنا فيها [٢] قال اكتب لي أموالك قال ثم ماذا ؟؟ قال اكتبها أولاً قال : وأنا آمنٌ على دمي ؟ قال اكتبها ثم انظر . قال اكتب يا فلان ألف ألف ألفي ألف وذكر مالاً كثيرا فقال الحجاج له فأين هذه الأموال ؟ فقال عندي . قال فأدها قال وأنا آمنٌ على دمي ؟ قال والله لتؤدينها ثم لأقتلنك قال فيروز والله لا تجمع بين مالي ودمي ثم أمر به فنحي [٣] .

ثم أتى به فقال له أنت الجاعل على رأس الحجاج مائة ألف درهم قال قد فعلت فقال الحجاج لأمْهَدَنّك ثم لأحملنك [٤] وأمر به فعذب فكان مما عذب به أن كان يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يمر على جسده حتى يخرق ثم ينضح عليه الخل

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٨٢ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ ، ٩٠ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٨١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٩ .

(٤) المبرد ص٦٥٥ والمعارف ص١٤٧ وكان سبب ذلك أن الحجاج لما واقف ابن الأشعث برستقباذ أمر مناديه

والملح ، ولما أحس فيروز بالموت قال للموكل بعذابه : إن الناس لا يشكون أني قد قتلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبدا فأظهروني للناس ليعلموا أني حي فيؤدوا المال .

فأعلم الحجاج بما قاله فأمر بإخراجه إلى باب المدينة فصاح في الناس : من عرفني فقد عرفني ومن أنكرني فأنا فيروز حصين : إن لي عند أقوام مالاً فمن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل فلا يؤدين أحد منه درهمًا ، ليبلغ الشاهد الغائب ، فأمر الحجاج بقتله فقتل [١] .

وأعشى همدان وهو الذي كان من جيش ابن الأشعث بمثابة الداعية ، والعامل على رفع الروح المعنوية فيه فقد سار أمام الجيش ينشد أشعارًا ملهبة للحماس كلها تقدير لحركة ابن الأشعث وذم للحجاج وعبد الملك [٢] فقال له الحجاج ألست القائل لابن الأشعث :

أنت الرئيس ابن الرئيس ... وأنت أعلى الناس كعبا

نبئت أن بَنَيَّ يو ... سف خر من زَلِقٍ فتبا

ثم قال : كلا يا عدو الله ، عبد الرحمن هو الذي خر من دلو فتب وخار فانكب ، ورفع الحجاج بها صوته واهتز منكباه وتغير لونه [٣] قال له الأعشى : أيها الأمير أنا القائل :

= أن ينادي فيقول من أتاني برأس فيروز فله عشرة آلاف ففصل فيروز من الصف وقال : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين وقد عرفتم مالي ووفائي من أتى برأس الحجاج فله مائة ألف — المبرد ص٦٥٥ .

(١) الطبري جـ٥ ص١٨٢ وابن الأثير جـ٤ ص٩٠ وابن خلدون جـ٣ ص٥٠ ويذكر المبرد ص٦٥٥ أنه لم يشد في القصب الفارسي إلا بعد أن أحل الناس من أمواله وودائعه .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص١٤٧ ، ١٤٨ وابن الأثير جـ٤ ص٧٨ والأغاني جـ٥ ص١٤٥ .

(٣) ابن شاكر جـ٥ ص١٥٥ والأغاني جـ٥ ص١٥١ .

أبى الله إلا أن يتم نـــــــوره ... ويطفيء نـار الفـاسقين فتخمـدا
ويظهر أهل الحق في كل مـوطن ... ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلاً بـــالعراق وأهلـــه ... كما نقضوا العهد الوثيق المؤكـدا
ومـا نكثـوا من بيعـة بعـد بيعـة ... إذا ضمنوهـا اليوم خـاسـوا بهـا غـدا

إلى أن يقول :

فقتــلاهم قتلى ضـلال وفتنـــة ... وجيشهم أمسى ذليـــــلاً مطرَّدا
ومـا زاحف الحجـاج إلا رأيتـه ... مُعـــانًــا وملقى للفتــوح معـوَّدا

وإلى أن يقول :

ليهنـــأ أمير المـؤمنين ظهـوره ... على أمـــة كانــوا بغـــاة وحُسَّــدا
نزوا يشتكـون البغي من أمرائهم ... وكانـوا هُـمُ أبغى البغـاة وأعنــدا
وجــدنـــا بني مروان خير أئمــة ... وأفضل هـذا النـاس حلمًـا وسـؤددا
وخير قريش في قريش أرومـــة ... وأكرمهم إلا النبي محمـــــــــدًا

ثم يعود إلى ذكر أهل العراق .

كـذاك يضـل الله من كان قلبـه ... مريضًـا ومن والى النفـاق وألحـدا
وقد تركوا الأهلين والمـال خلفهم ... وبيضًـــا عليهن الجـلابيب خُرَّدا
ينـاديـهم مستعـبرات إليــهم ... ويـذرين دمعًـا في الخدود وإثمـدا
أنكثـا وعصيـانًـا وغـدرًا وذلـة ... أهــان الإلــه من أهـــان وأبعـــدا

ثم يذكر شؤم ابن الأشعث وشؤم جده من قبل فيقول :

لقــد شـأم المصرين فرخ محمــد ... بحـق ومـا لاقى من الطير أسعـدا
كما شـــأم الله النجير[1] وأهلـــه ... بجـدٍ لـه قـد كان أشقى وأنجـدا

---

(١) النجير : حصن بـالين قرب حضرموت منيع لجأ إليـه أهل الردة مع الأشعث بن قيس - يـاقوت معجم البلدان جـ٨ ص٢٦٨ وشؤم الأشعث عليهم أنه غدر بقومه وسلم الحصن ومن فيه واستثنى أفرادًا وقـد نسي =

ولما فرغ من إنشاده قال بعض الحاضرين قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله فقال الحجاج أتظنون أنه أراد المدح لا والله ولكن قال هذا تأسفًا لغلبتكم إياهم وأراد أن يحصن أصحابه . ثم قال . أتظن ياعدو الله أنك تخدعني بهذا الشعر [١] ؟؟ ليس عن هذا سألناك أنشدنا قولك بين الأشج وبين قيس باذخ : فأنشده . فلما قال بخ بخ لوالده وللمولود . قال الحجاج : والله لا تبخبخ بعدها لأحد أبدًا وأمر بضرب عنقه [٢] .

وكما أن الحجاج قتل هذه الرؤوس فقد عفا عن الذين أمن شرهم وغائلتهم والذين صدقوه القول فقد عفا عن الشعبي ـ فقيه أهل العراق ـ وكان من الخارجين مع ابن الأشعث .

وقلنا إن الحجاج بعد انتهاء دير الجماجم أمر مناديه أن يقول : من لحق بقتيبة ابن مسلم بالري فهو آمن ، فكان الشعبي من الذين توجهوا إلى الري فذكره الحجاج يومًا وسأل عنه فعلم بلحوقه بالري فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبي إليه فأُرسل إليه فلما قدم على الحجاج لقيه يزيد بن أبي مسلم ـ حاجب الحجاج ـ وكان صديقًا للشعبي ـ فقال الشعبي : أشر علي . فقال يزيد : لهفي ياشعبي على العلم الذي بين دفتيك وليس هذا بيوم شفاعة بُؤْ للأمير بالشرك والنفاق [٣] واعتذر ما استطعت [٤] .

= نفسه فوكل الأمر فيه إلى الخليفة فحقن دمه .

(١) الطبري جـ٥ من ص١٧٨ ، ١٧٩ وابن الأثير جـ٤ ص٩٠ ، ٩١ والعيني جـ١١ ص٣٢٩ وابن شاكر جـ٥ ص١٥٧ ـ ١٥٩ والأغاني جـ٥ ص١٥١ ، ١٥٢ ابن الأثير جـ٢ صـ٢٥ ص٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٠ وابن الأثير جـ٤ ص٩١ .

ويروى أن الحجاج قال له ألست القائل : وإذا سألت المجد أين محله : فالمجد بين محمد وسعيد : بين الأشج وبين قيس باذخ : بَخ بَخ لوالده وللمولود ابن شاكر جـ٥ ص١٥٩ والمسعودي جـ٢ ص١٠٨ والأغاني جـ٥ ص١٥٢ .

(٣) المسعودي جـ٢ ص١٠٣ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٨ .

(٤) المسعودي جـ٢ ص١٠٣والإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٨ والطبري جـ٥ ص١٧٧ وابن الأثير جـ٤ ص٩٢ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥١ .

ونترك الشعبي يتحدث عن تلك المقابلة قال : وأشار علي بمثل ذلك نصحائي وإخواني فلما دخلت على الحجاج رأيت غير ما ذكروا لي . فسلمت عليه بالإمرة وقلت أيها الأمير قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقًا قد والله تمردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا : فقال الحجاج : والله لأنت أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، وقد أمنت (١) .

ياشعبي : كيف وجدت الناس بعدنا : قال : أصلح الله الأمير قداكتحلت بعدك السهر واستوعرت الخباب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفًا . قال الحجاج عندئذ : انصرف ياشعبي . فانصرفت (٢) .

فنرى أن الشعبي يصف الحجاج بأنه ليس ذلك الوحش القاسي الذي صوره الناس له قبل دخوله ، وعفا عنه لصدقه .

ولم يقتصر العفو على الشعبي لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم فيروى أنه أتى بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما إن لي عندك يدًا ، قال : ما هي قال : ذكر ابن الأشعث يومًا أمك بسوء فنهيته فقال الحجاج ومن يعلم ذلك ؟ قال : هذا الأسير الآخر فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج : لمَ لم تفعل كما فعل ؟ قال : ينفعني الصدق عندك ؟ قال : نعم ، قال : منعني البغض لك ولقومك . فقال الحجاج : خلوا عن هذا لفعله وعن هذا لصدقه (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٧٧ وابن الأثير جـ٤ ص٩٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٣٠ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥١ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٩ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٧٨ وابن الأثير جـ٤ ص٩٢ والمسعودي جـ٢ ص١٠٣ وابن كثير جـ٩ ص٤٩ ، ٥٠ وعيون الأخبار جـ١ ص١٠٤ والإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٩ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٩٢ وابن عساكر جـ٤ ص٦٢ وعيون الأخبار جـ١ ص٩٨ .

مقتل سعيد بن جبير :

ومن ذيول ثورة ابن الأشعث قتل سعيد بن جبير في شعبان من سنة أربع وتسعين (١) .

وقد أثار قتله ثائرة الناس واستفظعوا قتله وعَدُّوه من المساويء التي لا تغتفر للحجاج وما زال هذا اعتقاد العالم الإسلامي إلى اليوم ، وأطنب المؤرخون في ذكر قتله ووضعوا حول قتله قصصًا كثيرًا (٢) .

فمن هو سعيد بن جبير ؟؟؟

هو أبو عبد الله وقيل أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء المكي الكوفي . كان من أكابر أصحاب ابن عباس ومن أئمة العلماء في التفسير والفقه وأنواع العلوم في الطبقة الثانية من التابعين ، ويروى أنه كان يقرأ القرآن في الصلاة ما بين المغرب والعشاء بل ربما قرأ القرآن كله في ركعة واحدة وأنه مات وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه (٣) .

كان في مكة وقت أن قدمها الحجاج وبعد قتله لابن الزبير أخذ منه البيعة لعبد الملك بن مروان ثم لما قدم الحجاج العراق أخذ منه البيعة ثانية وولاه إمامة الصلاة ثم ولاه القضاء ولكن أهل الكوفة ضجوا وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضى

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٠ والعيني جـ١١ ص٣٣٥ وابن شاكر جـ٥ ص٢٤٧ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ وأبو الفدا جـ١ ص١٩٨ والمسعودي جـ٢ ص١١١ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ .

وتروي بعض المصادر أن قتله كان في شعبان من سنة خمس وتسعين ـ العيون والحدائق جـ٣ ص١٣ ودول الإسلام للذهبي جـ١ ص٤٧ .

(٢) منها أن الحجاج حينما قتله اختلط عقله ـ ابن كثير جـ٩ ص٩٧ والطبري جـ٥ ص٢٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ وابن شاكر جـ٥ ص٢٥٣ .

وأن الحجاج رآه بعض الناس في المنام بعد موته فقال قتلني الله بكل قتيل قتلةً وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة ـ الذهبي جـ٤ ص٨٤٧ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٨ .

(٣) ابن كثير جـ٩ ص٩٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٤٧ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٨ .

الحجاج أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمره أن لا يبرم أمرًا إلا برأي سعيد بن جبير ثم أعطاه مائة ألف درهم فرقها في ذوي الحاجات ، **وجعله** في سماره - وكلهم من رؤوس العرب .

وما زال الحجاج يعرف لسعيد فضله ومكانته العلمية على الرغم أنه من الموالي . ولما خرج ابن الأشعث بالحملة الموجهة إلى زنبيل ملك الترك جعله الحجاج على نفقات الجند [١] .

فلما خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج كان سعيد من الذين خرجوا معه وخلع طاعة الحجاج [٢] وفي إحدى المواقع أسر سعيد بن جبير فلما أتي به للحجاج قال له الحجاج : **ويحك يا سعيد أما تستحي مني ألا استحييت من المراقب لي ولك والحافظ علي وعليك ؟! فقال سعيد أصلح** الله الأمير وأمتع به هي بليّة وقعت وعذاب نزل والقول كما قال الأمير وكما نسبه إليه وأضافه إليه إلا أني أتيت رجلاً قد أزهى وطغى ولبسته الفتنة وركب الشيطان كتفيه فإن تعاقب فبذنب وإن تعف **فسجية منك** . فقال له الحجاج فإنا قد عفونا عنك وسنردك إليه مرة أخرى ثم كتب كتابًا وأرسل به سعيدًا فلما كان سعيد بالطريق حرق الكتاب وقدم على عبد الرحمن فأخبره الخبر [٣] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٠ وابن كثير جـ٩ ص٩٨ والعيني جـ١١ ص٣٣٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ .
ويروي صاحب الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٠ ، ٣٢ أن الحجاج أرسله لابن الأشعث بكتاب ردًا على خطاب من ابن الأشعث إلى الحجاج يوبخه ويبين له مساوئه - راجع الكتاب في الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٢ - فلما وصل سعيد لابن الأشعث جزع وخاف منه لأنه فقيه أهل العراق فلم يظهر سعيدًا للناس وأخفى أمر الكتاب وصار يختلي به ويعمل على أن يخلع سعيد طاعة الحجاج ليقوي عضده ، وكان سعيد لا يرى الخروج على الحجاج ولكن ابن الأشعث ألح عليه وذكر له مساويء نسبها للحجاج حتى دخل معه على كره منه ويروي صاحب الإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٦ ، ٢٧ أن سعيد أخرج مع ابن الأشعث وهو جد كاره .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٦٠ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٣٣ ، ٣٤ .

وبقي معه وما زال مع ابن الأشعث حتى حدثت موقعة دير الجماجم وهزم فيها عبد الرحمن وقتل فيها من قتل وهرب من هرب فكان سعيد من الذين أفلتوا وتوجهوا إلى أصبهان فكتب الحجاج إلى عاملها بالقبض عليه فلم يرق ذلك في نظر العامل وأرسل إلى سعيد يعرفه ويطلب منه أن يخرج من البلاد في السر فخرج وسار إلى أذربيجان وطال عليه القيام بها فاغتمّ فخرج إلى مكة مستخفيًا وأقام بها .

فلما ولي خالد القسري مكة (١) أشار بعض الناس على سعيد بالهرب فقال : قد استحييت ولا مفر من قدر الله : وكان قد ولي المدينة عثمان بن حيان المري ـ بدل عمر بن عبد العزيز ـ فصار يرسل أهل العراق إلى الحجاج ، وسار على هذه الطريقة خالد القسري (٢) فأرسل عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وعمرو بن دينار وطلق ابن حبيب ومجاهد فعفا الحجاج عن عطاء وعمرو لأنهما مكيان ومات طلق في الطريق وحبس مجاهد حتى مات الحجاج (٣) .

وأما سعيد فقتل كما سيأتي ويروى أن الحجاج كتب إلى الوليد يخبره أن أهل العراق أهل الشقاق والنفاق قد لجؤوا إلى مكة فكتب الوليد إلى خالد القسري بالقبض عليهم وإرسالهم إلى الحجاج فقبض عليهم وأرسلهم إلى الحجاج (٤) كما يروى أن خالدًا هدد من وجد سعيد في داره بهدمها وهدم دار من جاوره وضرب لذلك أجلاً مدته ثلاثة أيام (٥) .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان الحجاج جادًا في طلب سعيد بن جبير

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٠ ، ٢٦١ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ والعيني جـ١١ ص٣٣٤ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٦ .

(٢) العيني جـ١١ ص٣٣٤ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ في إحدى روايتيهما .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٦١ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ والعيني جـ١١ ص٣٣٤ .

(٤) العيني جـ١١ ص٣٣٤ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ في روايتيهما الأخرى والطبري جـ٥ ص٢٦١ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ والأتابكي جـ١ ص٢٢٨ .

(٥) الإمامةوالسياسة جـ٢ ص٤١ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص١٢٩ .

قاصدًا قتله لخروجه مع ابن الأشعث أم أن ظروف الحوادث قد جاءته به وتطور الحديث بينهما إلى ما استلزم من الحجاج أن يقتله ؟؟؟ وفي رأينا أن الحجاج لم يجد في طلب ابن جبير للأسباب الآتية .

أولاً : أن الثورة انتهت في سنة ثلاث وثمانين للهجرة والقبض عليه كان في سنة أربع وتسعين وفي هذه المدة كان سعيد يختلف إلى مكة في العام مرتين للاعتمار مرة وللحج مرة أخرى ، وإلى الكوفة للتحديث فيها [١] فلو كان الحجاج يريد قتله لكان من السهل عليه ذلك .

ثانيًا : أن الحجاج لما وصل إليه سعيد قال : لعن الله ابن النصرانية - يعني خالد القسري - أما كنت أعرف مكانه ؟! بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة [٢] .

ثالثًا : ما سبق لنا من أن الحجاج كتب إلى عبد الملك من أن سعيد أنكر الخروج .

رابعًا : أما قصة أن الحجاج كتب إلى الوليد : أن أهل العراق قد لجؤوا إلى مكة ويطلب إرسالهم فإنها لا تستلزم أن يكون ابن جبير هو المطلوب بالذات ولا تعدو أن تكون مقابلة بالمثل فإن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يشكو إليه ظلم الحجاج وعسفه وطغيانه فأراد الحجاج أن يقابل ذلك بالمثل ويبرهن للوليد أن سياسة عمر بن عبد العزيز سياسة فاشلة وأن هذه السياسة اللينة سببت الهجرة من العراق هربًا من الانخراط في سلك الجيوش الفاتحة [٣] .

ولما أرسل سعيد بن جبير إلى الحجاج تألم من ذلك ثم قال له : ياسعيد ألم أقدم

---

(١) ابن كثير جـ٩ ص٩٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ وابن كثير جـ٩ ص٩٧ والعيني جـ١١ ص٣٣٥ والعيون والحدائق جـ٣ ص١٣ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص١٢٩ والطبري جـ٥ ص٢٥٦ وابن كثير جـ٩ ص٨٨ .

مكة فأخذت منك البيعة ؟ قال بلى . قال : أما قدمت الكوفة فأخذت منك البيعة ووليتك إمامة الصلاة ؟ قال بلى .

ألم أولك القضاء فضج الناس وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمرًا دونك ؟؟ قال بلى .

أما جعلتك من سماري وكلهم من رؤوس العرب ؟ قال بلى . أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها ؟ قال بلى ؟ (١) .

وهكذا صار يعاتبه كما يعاتب الرجل ولده كما يقول الذهبي في تاريخه (٢) فقال سعيد إني امرؤ من المسلمين يصيب مرة ويخطيء أخرى ، فطابت نفس الحجاج واطمأنت ورجا أن يتخلص من أمره (٣) .

ثم عاوده مرة أخرى فقال له : فما الذي أخرجك علي ؟ قال سعيد كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث لأنه عزم علي . فغضب الحجاج وقال هيه رأيت لعزمة عدو الرحمن عليك حقًا ولم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي عليك حقًا ؟! (٤) تنكث بيعتين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك (٥) اضربا عنقه فإياه عنى جرير بقوله .

يارب ناكث بيعتين تركته ... وخضاب لحيته دم الأوداج (٦)

---

(١) العيني جـ١١ ص٣٣٤ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٣٩ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٧ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٦٢ والمبرد ص٢٨٥ والذهبي جـ٤ ص٨٤٥ وراجع الطبري جـ٥ ص٢٦١ ، ٢٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ .

(٢) تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨٤٧ .

(٣) العيني جـ١١ ص٣٣٥ وابن شاكر جـ٥ ص٢٥٢ والطبري جـ٥ ص٢٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ وابن كثير جـ٩ ص٩٧ والعيون والحدائق جـ٣ ص١٣ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٢٦٢ خلاصة الذهب المسبوك صـ٨ .

(٥) الطبري جـ٥ ص٢٦٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٠ والعيني جـ١١ ص٣٣٥ وابن كثير جـ٩ ص٩٦ والعيون والحدائق جـ٣ ص١٣ .

(٦) الطبري جـ٥ ص٢٦٢ وابن شاكر جـ٥ ص٢٥٣ .

وتروي روايات كثيرة في كيفية قتله . فمن ذلك أنه قال له ياسعيد اختر أي قتلة . قال القصاص أمامك فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة . قال فتريد أن أعفو عنك ، قال : إن كان العفو من الله فنعم أما أنت فلا براءة لك ولا عذر ، قال : اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج سعيد من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فقال : ردوه وسأله عن سبب ضحكه ، فقال : عجبت من جرأتك وحلم الله عليك[١] فقال الحجاج إنما أقتل من شق عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها اضربوا عنقه ، فقال سعيد حتى أصلي ركعتين فاستقبل القبلة وهو يقول (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين) فقال الحجاج اصرفوه إلى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغيًا بينهم فإنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة فقال سعيد (فأينما تولوا فثم وجه الله) المكافيء بالسرائر فقال الحجاج : لم نوكل بالسرائر وإنما وكلنا بالظواهر فدعا سعيد الله بأن يجعله آخر قتيل يقتله الحجاج[٢] .

وإلى جانب هاتين الروايتين توجد روايات أخرى كثيرة تنزل إلى مرتبة الخرافة[٣] .

= ويروى أنه ناظره وسأله عن أشياء كثيرة تتعلق بالرسول والخلفاء الأربعة وعبد الملك بن مروان وعن سبب عدم ضحكه كما أن الحجاج دعا بالناي والعود ونفخ في الناي فبكى سعيد فسأله الحجاج عن سبب بكائه وجمع الحجاج الذهب والفضة والحرير ووضعها أمام سعيد وسأله عنها إلى غير ذلك مما ضربنا صفحًا عن ذكره لاعتقادنا عدم صحته ـ راجع الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٢ ، ٤٣ وابن شاكر جـ٥ ص٢٤٩ ، ٢٥٠ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٧ .

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٢٥٠ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٧ .

(٢) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٣ وراجع ابن سعد الطبقات جـ٦ ص١٨٤ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٣٩ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٧ ويروي ابن كثير جـ٩ ص٩٨ أن صرفه عن القبلة كان حديثًا دار حول قتله لا حول صلاته .

(٣) راجع ابن عساكر جـ٤ ص٧٩ وابن كثير في رواية أخرى له جـ٩ ص٩٧ وخلاصة الذهب المسبوك ص٨ .

وفي رأينا أن الرواية الأولى هي الصحيحة إذ إنها تتفق مع منطق الحوادث فضلاً عن إجماع جمهرة المؤرخين عليها .

على أن ابن كثير[1] لما رأى كثرة الروايات وما قيل حول مقتله قال : ورويت آثار غريبة حول مقتله أكثرها لا يصح .

من ذلك يتبين لنا أن الحجاج لم يتجن على سعيد بن جبير ولم يقتله إلا عندما اشتط سعيد وقال إنه كانت في عنقي بيعة لابن الأشعث ، فكأنه أحق بالخلافة من عبد الملك بن مروان القرشي[2] وذلك أمر لا يرضاه الحجاج ولا يقره ورأى الحجاج أنه قد نكث بيعتين .

ويتبين لنا أن الحجاج كان لا يريد أن يقتله من لعنه لخالد ولسكوته عليه تلك المدة الطويلة ومن كتابه إلى عبد الملك بن مروان عقب موقعة دير الجماجم بأن سعيدًا أنكر الخروج .

نهاية ابن الأشعث :

ذكرنا الحوادث التي أعقبت ذهاب ابن الأشعث إلى زنبيل بطائفة من أصحابه ورأينا الحجاج في العراق يقتل بعض الخارجين ويعفو عن البعض الآخر وبيَّنا رأينا بإسهاب في موقفه ثم تكلمنا عن سعيد بن جبير وأن قتله لم يكن إلا في أواخر حياة الحجاج .

ولابد لنا من العود لنعرف نهاية « ناصر المؤمنين » كما أسمى نفسه و« القحطاني المنتظر » كما كان يسميه اليمنيون .

---

(١) البداية والنهاية جـ٩ ص٩٩ .

(٢) وقد علق ابن كثير جـ٩ ص٥٤ على مبايعة سعيد وأمثاله من الفقهاء لابن الأشعث وهو كندي وخلع عبد الملك وهو من صلبية قريش بقوله : كيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي على بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد ؟؟ ولهذا كانت زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير .

ذلك الذي أشعل ثورة كادت تودي بالدولة الأموية لولا حزم الحجاج وصموده وضعف عبد الرحمن وفراره.

فبعد هزيمته في مسكن اتجه نحو الشرق فأشار عليه علقمة بن عمرو الأودي بعدم الذهاب إلى ملك الترك فإن الحجاج لا بد أن يتتبعهم مرغبًا زنبيل تارة ومهددًا له أخرى حتى يسلمهم، ورأى أن يدخل هو ومن معه مدينة فيتحصنون بها ويمتنعون فيها ومن أتاهم قاتلوه فإذا ماتوا كانوا كرامًا.

فأبى ابن الأشعث عليه ذلك وقال له: لو دخلت معي إلى زنبيل لأكرمتك وآسيتك: فأبى ذلك عليه علقمة وفارقه في خمسمائة كانوا معه تعاهدوا على الامتناع على الحجاج وجعلوا عليهم مودودًا البصري وأقاموا حتى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخمي - وكان الحجاج قد أرسله في أثر عبد الرحمن كما عرفنا ذلك فيما سبق - فقاتلوه وامتنعوا عليه حتى أمنهم فخرجوا إليه فوفى لهم بالأمان [١].

أما عبد الرحمن فقد سار إلى ملك الترك وطبعي أن الحجاج لم يكن ليتركه فقد كتب الكتب الكثيرة بشأنه إلى زنبيل يطلب منه عبد الرحمن ويحلف له بالله الذي لا إله إلا هو إن لم يرسله ليبعثنّ إليه مليونًا من الرجال المقاتلة وأنه قد أرسل عمارة ابن تميم اللخمي في ثلاثين ألفًا من فرسان أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا إمام ضلالة يحبون الحرب للحرب [٢].

وكان بجانب زنبيل في ذلك الوقت رجل من بني تميم هو عبيد بن أبي سبيع وكان زنبيل يحبه ويسمع لمشورته فصار يخوف زنبيل من الحجاج وقال له: أنا آخذ

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص٩٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٢.

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص٩٥ والعيني جـ١١ ص٣٤٣ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٤ واليعقوبي جـ٣ ص٢٤.

ويروي صاحب الأخبار الطوال ص٣٠٩ أن عبد الملك - لا الحجاج - هو الذي كتب إلى ملك الترك يخبره بشقاق عبد الرحمن وخلعه للطاعة ويسأله أن يرده عليه فقال ملك الترك لطراخنته (الطراخنة: الأمراء والقواد) إن ابن الأشعث هذا رجل مخالفه للملوك فلا ينبغي أن أؤويه.

لك عهدًا من الحجاج ليكفن الخراج عنك سبع سنين على أن تدفع له عبد الرحمن [١] فقال له زنبيل إن فعلت ذلك فإن لك عندي ما سألت .

فكتب عبيد إلى الحجاج أن زنبيل لا يعصيه أبدًا وإنه لن يدع زنبيل حتى يبعث إليه بابن الأشعث وخرج ابن أبي سبيع إلى عمارة مختفيًا حتى لا يسمع بخروجه ابن الأشعث فيوجس خيفة فيهرب وتفاوض معه في شأن ابن الأشعث وأسفرت المفاوضة عن جُعْلٍ يأخذه ابن أبي سبيع لنفسه قدره مليونًا من الدراهم والكف عن زنبيل [٢] .

وكتب عمارة بذلك إلى الحجاج فرد الحجاج قائلاً : أعط عبيدًا وزنبيل ما سألاك : فاشترط زنبيل أن لا تغزى بلاده لمدة عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين [٣] تسعمائة ألف درهم في كل عام [٤] .

فأحضره زنبيل ومعه ثلاثين من أهل بيته [٥] وقد أعد لهم الجوامع والقيود فوضع في عنق عبد الرحمن جامعة وفي عنق القاسم بن الأشعث جامعة وقيد الباقين .

وقال لأصحاب ابن الأشعث تفرقوا حيث شئتم ، وأرسل ابن الأشعث ومن معه إلى عمارة . ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقى نفسه من فوق قصر بالرخج فمات [٦]

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٨٨ وابن الأثير جـ٤ ص٩٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٨٩ والعيني جـ١١ ص٣٤٤ ويروي البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٠٧ أن المدة تسع سنين أو سبع سنين .

(٤) الطبري جـ٥ ص١٨٩ والبلاذري فتوح البلدان ص٤٠٧ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٨٩ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٤ والعيني جـ١١ ص٣٤٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٥ وقيل إنهم كانوا ثمانية عشر . الطبري في رواية أخرى ص١٨٩ وقيل إنهم كانوا أربعين أبو الفدا ـ المختصر في أخبار البشر جـ١ ص١٩٦ .

(٦) الطبري جـ٥ ص١٨٩ والعيني جـ١١ ص٣٤٤ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٤ وراجع ابن الأثير جـ٤ ص٩٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٢ .

قائلاً : لا أترك الحجاج يلعب بي لعب الهرة بالفأر [١] فاحتزت رأسه وأتي بها إلى عمارة مع الأسرى الذين ضرب أعناقهم وأرسل برؤوسهم إلى الحجاج وهكذا أرسل رأس ابن الأشعث إلى عبد الملك وقد أرسلها عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بمصر .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

هيهات موضع جثة من رأسها ... رأس بمصر وجثة بالرخج

وكان موت ابن الأشعث على الراجح في سنة خمس وثمانين من الهجرة [٢] .

وبمقتل ابن الأشعث رأس الثورة هدأ خاطر رجل العراق الحديدي الإرادة الذي كان لا يمل فإنه لم يكد يستريح من الخوارج وحروبهم المستمرة حتى قامت ثورة ابن الأشعث التي هزت الخليفة عبد الملك ، فقد خرج فيها أهل العراق كما رأينا مجمعين رأيهم على خلع الخليفة وحاربوا عامله الحجاج مدة ثلاث سنين تقريبًا تعرض فيها للخلع مرة وللهلاك مرات .

وبعد أن قضى عليها عمل كما يعمل كل قائد محنك على الترويح عن نفوس الناس بالتوسعة في النفقة عليهم بعد أن أحرزوا النصر في ميادين القتال حتى يشعر الناس ببرد الراحة والاطمئنان ، فسعى به بعض الناس عند الخليفة بأنه يبذر في الأموال فكتب إليه الخليفة يلومه على ذلك ويقول : أما بعد فقد بلغني أنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في جمعة وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر فعليك بتقوى الله في الأمر كله .

---

(١) البدء والتاريخ جـ٦ ص٣٥ وقيل إنه كان مريضًا ومات فاحتزّ زنبيل رأسه وأرسل بها إلى عمارة . المصادر السابقة . ولكن الذهبي يقول إن أبا مخنف كذاب في أنه سمع من مليكة بنت يزيد أنه مات في حجرها جـ٤ ص٦٣٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٩ ، ١٩٠ وابن الأثير جـ٤ ص٩٥ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٤ والذهبي جـ٤ ص٦٣٤ وابن خلدون جـ٣ ص٥٢ ويروى أن موته كان في سنة أربع وثمانين ـ التنبيه والإشراف ص٢٧٣ والأتابكي جـ١ ص٢١٨ والطبري في رواية له ضعيفة جـ٥ ص١٩١ وابن خلدون في رواية أخرى له جـ٣ ص٥٢ ويروي اليعقوبي جـ٣ ص٢٤ أن موته كان في سنة ثلاث وثمانين .

وَوَفّرْ خراج المسلمين وفيئهم ... وكن لهم حصنًا يجير ويمنع

فرد عليه الحجاج قائلاً :

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم ... قراطيس تملى ثم تطوى فتطبع
كتابٌ أتاني فيه لين وغلظة ... وذكرت والذكرى لذي اللب تنفع
وكانت أمور تعتريني كثيرة ... فأرضخ أو أعتل حينًا فأمنع
إذًا كنت سوطًا من عذاب عليهم ... ولم يك عندي بالمنافع مطمع
وكانت بلاد جئتها حين جئتها ... بها كل نيران العداوة تلمع
فقاسيت منها ما علمت ولم أزل ... أصارع حتى كدت بالموت أصرع
وكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ... ولو كان غيري طار مما يروع
وكنت إذا هموا بإحدى هناتهم ... حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
فلو لم يذد عني صناديد منهم ... تقسم أعضائي ذئاب وأضبع

فلم يسع الخليفة إزاء هذا الرد المقنع إلا أن يسلم بصحة نظريته ويقول له اعمل برأيك [1] .

وفادة الحجاج على عبد الملك :

ووفد الحجاج بعد نهاية هذه الحروب على الخليفة بدمشق وكانت هذه الوفادة طبيعية بعد هذه الحرب الطويلة وليجدد ولاءه وإخلاصه لإمام المسلمين حتى تستمر الثقة بينهما متبادلة.

وقد اصطحب الحجاج معه في هذه الوفادة أشراف المصرين فكانت مظاهرة قصد بها الحجاج إصابة هدفين : أما الأول : أراد أن يفد عظماء العراق ـ ومنهم من ساهم في ثورة ابن الأشعث ـ على أمير المؤمنين يقدمون له الطاعة ويجددون له البيعة .

---

(١) ابن عساكر جـ٤ ص٦٦ وابن كثير جـ٩ ص١٢٦ ، ١٢٧ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢١٧ ، ٢١٨ .

وأما الثاني : فهو أن الحجاج أراد أن يظهر أمام أمير المؤمنين بمظهر الرجل الذي يملك ناصية الحالة في العراق على رضى من أهله [١] .

وقد كان له ما أراد إذ إن زياد بن عمرو العتكي كان من خطباء الوفد فقام في حضرة الخليفة وقال ياأمير المومنين : إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم [٢] .

ويروى أن الحجاج قدم العراق وليس على قلبه أثقل من زياد بن عمرو العتكي فلما قال هذه المقالة لم يكن على قلبه أخف منه .

وقد تبسط الخليفة مع وفد العراق فجعل يسألهم عن حال البصرة والكوفة فقال محمد بن عمير إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وسفلت عن الشام ووبائها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها .

وقال خالد بن صفوان الأهتمي : نحن أوسع منهم برية وأسرع منهم في السرية وأكثر منهم قندًا وعاجًا وساجًا ، ماؤنا صفو وخيرنا عفو لا يخرج من عندنا إلا سائق وقائد وناعق .

وقد أدلى الحجاج برأيه في هذا الموضوع فقال : أصلح الله أمير المؤمنين . إني بالبلدين خبير وقد وطئتهما جميعًا فقال له : قل فأنت عندنا مصدق : قال : أما البصرة فعجوز شمطاء زفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة ، وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة .

فقال عبد الملك فضلت الكوفة على البصرة [٣] .

---

(١) راجع الأغاني جـ١٦ ص١٥٦ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٢ ص٦٦ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٠٠ والأبشيهي جـ١ ص٢٣١ وابن عبد ربه جـ١ ص١٧٠ .

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٦ والهمداني البلدان ص١١٣ ـ ١١٤ .

ثورة ابن الأشعث والموالي :

أجمعت المصادر على اشتراك الموالي في ثورة ابن الأشعث وأنهم حاربوا في صفوفه بأعدادهم الكثيرة حتى لقد قيل إنه في دير الجماجم كان عددهم نحو المائة ألف [1] ؛ ولم يختلف المؤرخون إلا في تحديد النصيب الذي ساهم به الموالي في هذه الثورة ؛ فذهب المؤرخون المسلمون إلى القول بأنهم ناصروا ابن الأشعث ـ أي أنهم لم يكونوا من العوامل التي بعثت الثورة ـ بينما نرى أن فون كريمر [2] وفان فلوتن [3] قد ربطا الثورة بمحاولات الموالي الخروج على الحجاج الذي فرض عليهم من الالتزامات المالية والقيود الاجتماعية ما جعلهم أحط من العرب وكأنهم لم يعتنقوا الإسلام من ناحية أخرى .

وقد تصدى فلهوزن [4] للرد على فون كريمر حيث قال : حقيقة كانت لهم مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام ؛ ولكنهم كانوا في الدرجة الثانية فقط فالحركة لم ترتفع منهم بل من الجيش العراقي في سجستان الذي ضم إليه الجيوش الأخرى من الأقاليم الأخرى .

وخلاصة القول . إن من الثابت تاريخيًا أن الموالي اشتركوا في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية وفي رأينا أن الموالي ـ بالظروف التي أحاطت بهم ـ كان **يتحتم عليهم أن يشتركوا – لا في ثورة ابن الأشعث فقط – بل في كل ثورة يمكن أن تقوم** ضد الحكومة المركزية . ذلك أن منطقهم ومنطق الحوادث التي أحاطت بهم كان يحكم عليهم أن يسلكوا هذا السبيل .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٥ وابن الأثير جـ٤ص٨١ والعيني جـ١١ ص٣٢٢ وابن شاكر جـ٥ ص١٢٧ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .

(٢) تاريخ الثقافة ص٢٤ وحضارة الشرق جـ١ ص١٧٢ (عن فلهوزن) .

(٣) السيادة العربية ص٤١ ، ٤٢ .

(٤) الدولة العربية وسقوطها ص١٥٢ ، ١٥٣ .

كان الموالي قبل الدولة الأموية يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم ويتعصب كل منهم للقبيلة التي ينتمي إليها [١] .

وكانت القبيلة تعد المولى واحدًا من أفرادها لقوله عليه الصلاة والسلام (مولي القوم منهم) [٢] .

وكان الخلفاء والأمراء يثقون بهم ثقة كبيرة فيعهدون إليهم بأمورهم وشؤونهم ؛ وكانوا يتولون كثيرًا من مناصب الدولة [٣] .

فلما جاءت الدولة الأموية وشغلت بالفتن الداخلية قلت الفتوحات الخارجية وقلت معها الغنائم فاتجه المسلمون العرب إلى تملك الأرض بطريق الشراء أو الهبة وبذلك أصبحت هذه الأرض عشرية لا خراجية ـ والزكاة أقل من الخراج .
يضاف إلى ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد الأصليين في الإسلام بسبب زيادة الخراج أو الشدة في جبايته وما تلا ذلك من أن أرضهم أصبحت في نظرهم عشرية لا خراجية .

ويبدو لنا أن الجباة ساروا في الجباية وقتئذ وفق هذا المنطق فقل إيراد الدولة من هذا المصدر . وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء قد ارتفعت عنهم الجزية نتيجة لإسلامهم .

بهذه العوامل الثلاث تأثر بيت المال وقل إيراده قلة واضحة وليت الأمر اقتصر على ذلك بل مما زاد المشكلة تعقدا أن الدولة الإسلامية كانت تواجه من الالتزامات ـ في قمع الفتن الداخلية وجمع الأنصار وتنظيم الإدارة ـ ما أرهق ميزانيتها وسار بالحالة كل يوم من سيء إلى أسوأ حتى جاء الحجاج بن يوسف فعالج الأمر بحزمه ، ففرض

---

(١) فجر الإسلام ص٢٢٢ ، ٢٢٣ والتمدن الإسلامي جـ٤ ص٤٩ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٢ ص١١١ .

(٣) الأغاني جـ١٠ ص١٦٣ .

الخراج على تلك الأرض التي ملكت بطريق الشراء أو الهبة .

وأعاد نظام الخراج إلى الأرض التي أسلم أصحابها [١] وفرض الجزية على المسلمين الجدد [٢] وألزمهم بالعودة إلى قراهم [٣]

بدا كل ذلك في نظر الموالي عصفًا بحقوقهم فأدى بهم إلى الحفيظة على الدولة الأموية وهو هو بعينه الذي جعلهم يتطلعون إلى نشوب أية ثورة على الحكومة عسى أن يكون في هذه الثورة أو تلك مخرجٌ لهم مما يعانون ، وهذا هو أيضًا ما دفعهم إلى الاشتراك في ثورة ابن الأشعث عسى أن ترجح بهم كفة الثائر فيكون لهم عليه يد .

أما منطق الدولة الأموية عامة ومنطق الحجاج خاصة فيتلخص فيما يلي .

أولاً : اتسعت رقعة الملك الإسلامي فاتسعت بذلك ميزانية المصروفات بينما كان إعفاء الموالي من الجزية والخراج يحد من أبواب الإيراد فواجهت الدولة مشكلة كبرى إزاء هذه الطبقة من الشعب لا يقابلها شيء من الضرائب على هؤلاء وخاصة بعد أن انتقلوا من الأرض التي كانوا يزرعونها ويدفعون عنها الخراج إلى الإقامة في المدن .

ثانيًا : بإقامة هؤلاء في المدن لم يكن لهم من مرتزق إلا أن يحاولوا كتابة أنفسهم في ديوان العطاء واضعين أنفسهم تحت إمرة الدولة ؛ ولكن الدولة لم تكن بحاجة إليهم لوفرة ما لديها من أصحاب العطاء من العرب فكأنهم بذلك قد عملوا على إرهاق ميزانية المصروفات في وقت تضاءلت فيه ميزاينة الدولة بتركهم الأرض .

ثالثًا : لوحظ تهافت الفرس على الدخول في الإسلام مما شك معه أن تكون هذه الجموع الغفيرة قد أسلمت عن إخلاص للعقيدة الدينية واشتبه في أنهم إنما فعلوا ذلك تخلصًا من الجزية .

---

(١) فان برشم ـ الملكية العقارية ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٣٥٩ وابن الأثير جـ٤ ص١٨٢ وابن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ص١٥٦ .

(٣) راجع ابن عبد ربه جـ٢ ص٧٧ والطبري جـ٥ ص١٨٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧٩ والمبرد ص٢٨٥ .

إزاء هـذه العوامل مجتمعـة لم يكن بـد من أن يلجـأ الحجـاج إلى محـاولـة زيـادة الإيراد بـأن يرجـع هـؤلاء إلى قراهم حتى لا تـزدحم بهم المـدن ويختـل الأمن لكثرة العاطلين وحتى لا يتأثر ديوان العطاء بما يفرض لأشخاص لا حاجة للجيش بهم .

أما عودتهم إلى قراهم ففيها مصلحة مزدوجة . فيها إيراد للدولة بما يـدفع لهـا من خراج الأرض وفيها منفعة للموالي أنفسهم إذ تعود عليهم الزراعة بـالربح الوفير بـدلاً من التسكع في المدن .

وفضلاً عن كل ذلك فـإن من مصلحـة الـدولـة أن لا تبور الأرض ، إذ الزراعـة عصب من أعصاب الحياة فضلاً عن أن أربـاحهـا تسمح لصـاحب الأرض بـأن يـدفع الضرائب في يسر إذا ما أحسن القيام عليها .

وأما لجوء الحجاج إلى فرض الجزية على الموالي فـأكبر ظننـا أنـه جعلهـا اختبـارًا لصحة إسلام من أسلم فمن دفع الجزية وبقى على إسلامـه كان مسلمًـا حقًـا ومن ارتـد كان إسلامه تخلصًـا من الجزيـة .

على أن الوقت لم يتسع للحجاج لإجراء التجربة إلى نهايتها .

وفي تقديرنـا أن ثورة ابن الأشعث لو لم تقم وأن الموالي لو لم يشتركوا فيهـا لكان للحجاج رأي آخر في فرض الجزية على من أسلم .

وأما جعله الخراج على الأرض التي كانت بيد العرب المسلمين أو من أسلم حـديثًـا فأكبر ظننـا أيضًـا أن الحجـاج نظر إلى أن هـذه الأرض فتحت عنوة وقهرًا فبعضهـا جلا عنه أهله حتى خلصت للمسلمين فصارت وقفًـا يوضع عليهـا الخـراج ولا يسقـط بـإسلام أصحـابهـا ، وبعضهـا الآخر أقـام عليهـا أهلهـا ونزلوا عنهـا للمسلمين في شرط الصلح فهذه كذلك يوضع عليها الخراج ولا يسقط بالإسلام ولا يجوز بيعهـا في كلتـا الحالتين [١] .

---

(١) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص١٤٠ ، ٢٤١ .

ولعل الحجاج قد أخذ في ذلك بنظرية أن السواد وقف على كافة المسلمين وقفه عمر بن الخطاب وأقره في أيدي أربابه بخراج يؤدونه فلا يجوز بيعه ولا يسقط عنه الخراج إذا أسلم أصحابه [١] .

ثورة ابن الأشعث ومسيحيو ، ويهود النجرانية :

كان الحجاج قد اتهم المسيحيين واليهود المقيمين بالنجرانية بمالأة ابن الأشعث ومساعدته فأرجع حالتهم من حيث الجزية إلى ما كانت عليه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وتتلخص قصة هؤلاء في أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد وفد عليه العاقب والسيد ـ سيدا أهل نجران ـ وسألاه الصلح عن أهل نجران فصالحهما على ألف حُلّة في صفر وألف حُلّة في رجب .

واشترط شروطًا أخرى منها ألا يأكلون الربا ولا يتعاملوا به [٢] واستمر ذلك مدة حياة الرسول ولما استخلف أبو بكر كتب لهم عهدًا مثل عهد الرسول ؛ وفي عهد عمر نقضوا شرط عدم التعامل بالربا وفي الوقت نفسه كثروا فخافهم على الإسلام فأجلاهم عن أرضهم واشترى منهم عقاراتهم وكتب كتابًا إلى أهل الشام والعراق أن يوسعوهم وإذا اعتملوا أرضًا فهي لهم مكان أرضهم باليمن فصاروا إلى الكوفة ونزلوا في مكان سمي بالنجرانية ودخل معهم اليهود الذين كانوا يقيمون في نجران في الصلح وكانوا كالأتباع لهم [٣] .

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان شكوا إليه كثرة ما يدفعونه فأنقصهم مائتي حلة .

---

(١) نفس المصدر ص١٦٦ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٧٠ ، ٧١ وثمن كل حلة أوقية والأوقية وزن أربعين درهمًا . نفس المصدر ص٧٠ .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٧٢ ، ٧٣ ويروي أنهم كانوا قد بلغوا أربعين ألفًا فتحاسدوا وتباغضوا فأتوا =

ولكن علي بن أبي طالب أرجعهم إلى عهد عمر ؛ وكان صاحب النجرانية بالكوفة يرسل رسله إلى يهود نجران المقيمين بالشام فيجبون منهم مالاً لتسديد المطلوب منهم ومساهمة منهم في الضريبة المفروضة على الجميع .

وقد انتهزوا فرصة قيام معاوية بن أبي سفيان أو يزيد ابنه فشكوا إليه ضعفهم وتفرقهم وأن منهم من مات ومنهم من أسلم وأظهروا له عهد عثمان فرفع عنهم مائتي حلة ؛ وبذلك صاروا يدفعون ألفًا وستمائة حلة .

وبقي الحال كذلك إلى ثورة ابن الأشعث فاتهمهم الحجاج بمالأة ابن الأشعث ومساعدته فأرجع جزيتهم إلى ما كانت عليه في عهد عثمان بن عفان (ألف وثمانمائة حلة) واستمروا يدفعونها إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فشكوا إليه نقصانهم وفناءهم وإلحاح الأعراب بالإغارة عليه وتحميلهم إياهم المؤمن المجحفة بهم وظلم الحجاج لهم فأمر بإحصائهم فوجد أنهم قد صاروا إلى العشر من عدتهم الأولى فقال : إن هذه جزية على الرؤوس وليست على الأرض وجزية الميت والمسلم ساقطة عنهم . فجعل جزيتهم مائتي حلة فقط [١] .

حرب الحجاج مع الكرد والديالمة :

كانت ثورة ابن الأشعث تصحبها ثورتان : الأكراد في الشرق والديالمة في الشمال فقد انتهز الأكراد فرصة انشغال الحجاج بقمع ثورة ابن الأشعث وعاثوا في البلاد فسادًا فبعث الحجاج إليهم عمرو بن هانىء العبسي في جيش من أهل دمشق فقتل عددًا كبيرًا منهم [٢] .

ولم تحدد لنا المراجع تاريخ هذه الثورة أكثر من أنها كانت في أيام خروج ابن الأشعث .

= عمر فقالوا أجلنا وكان عمر قد خافهم على الإسلام فأجلاهم فرجعوا عن قولهم وطلبوا البقاء فأبى ـ نفس المصدر ص٧٣ .

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٧٣ ، ٧٤ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٣٢ .

وقد خرجوا ثانية في سنة تسعين وغلبوا على أرض فارس [١] فألزمهم الحجاج الطاعة بأن جند كل محتلم من الشبان وسمي هذا الجيش بأبى بيب لأن أهاليهم وأمهاتهم كانوا يأتونهم وقد جرد الشخص منهم من ملابسه فيضمونه ويقولون له بأبي ـ وولى قيادة هذا الجيش بلالاً الضبي [٢] وقد أشرف الحجاج على هذا البعث فخرج إلى رستقباذ [٣] .

وأما الديالمة . فقد كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية الديلم وكان المسلمون يرابطون بها بصفة دائمة وبشكل دوريات ينام البعض بينما يحرسه البعض الآخر وقد كان هؤلاء المرابطون من أشد الناس استبسالاً وأكثرهم استعدادًا للموت لما كانوا يعرفونه من الأحاديث المروية بشأن الرباط في هذا الثغر من أن ثوابهم يعدل ثواب شهداء بدر [٤] .

واستمر الأمر كذلك إلى سنة إحدى وثمانين للهجرة حيث رابط في ذلك الثغر محمد ابن أبي سبرة الجعفي ورأى ذلك فسأل عن سببه فأخبروه بخوفهم من دخول العدو المدينة فقال : قد أنصفوكم افتحوا لهم الأبواب ولا تخافوا ، ففتحوها . وبلغ ذلك مسامع الديلم فساروا إليهم وبيتوهم فهاج الناس وعند ذلك أمر ابن أبي سبرة بغلق الأبواب عليهم وعلى عدوهم فأغلقت ودارت رحى القتال فلم يفلت من الديلم أحد وأبلى ابن أبي سبرة في تلك الليلة بلاءً عظيمًا واشتهر اسمه وعرفت مكانته .

ولم يحاول الديلم مفارقة أرضهم طالما كان ابن أبي سبرة بالثغر فقد أصبح فارسه المطاع [٥] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٣٠ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ .
(٢) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ١ ص٢٧٤ والأصفهاني ـ الأغاني جـ٤ ص١٥٥ .
(٣) الطبري جـ٥ ص٢٣٠ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ .
(٤) الهمداني ـ البلدان ص٢٨٣ .
(٥) ابن الأثير جـ٤ ص٧٧ والأتابكي ـ النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٠٣ .

إلى أن قامت ثورة ابن الأشعث فخرجوا فأرسل إليهم الحجاج عمرو بن هانىء العبسي ـ بعد إخضاعه ثورة الأكراد ـ في اثني عشر ألفًا فانتصر عليهم وأعاد الأمن إلى نصابه [١] .

ووفد على الحجاج جماعة منهم فخيرهم بين الإسلام أو الجزية فأبوا فأمر الحجاج أن تصور له الديلم سهولها وجبالها وعقابها وشعابها ، فصورت له فدعا من قبله من الديالمة فقال لهم : إن بلادكم قد صورت لي فرأيت سهولة غزوها فأجيبوا إلى ما دعوتكم إليه قبل أن أسير الجنود فأقتل المقاتلة وأسبي الذرية : فطلبوا منه المصور الذي فيه رسم بلادهم .

وعند رؤيته قالوا : إن الصورة صحيحة ولكن لم يصوروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والشعاب وستعلم ذلك لو تكلفته [٢] فلم يبال الحجاج بتخويفهم وأرسل إليهم ابنه محمدًا على رأس جيش ولكنه لم ينتصر عليهم انتصارًا حاسمًا . ثم ابتنى محمد مسجدًا لأهل قزوين كتب عليه اسمه [٣] ولما بنى الحجاج واسطًا اتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين إيذانًا بأن بلادهم في خطر ـ دخنت المناظر كلها إن كان نهارًا وأشعلت النيران إن كان ليلاً فتجرد الخيل إليهم [٤] .

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٣٣٢ .

(٢) الهمداني ـ البلدان ص٢٨٣ .

(٣) الهمداني ـ البلدان ص٢٨٣ وياقوت معجم البلدان جـ٧ ص٨١ وراجع الأغاني جـ٥ ص١٣٩ ، جـ١٤ ص٤١ .

(٤) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٢ .

الباب الرابع

الفتوحات في عهد الحجاج

الفصل الأول

آل المهلب في خراسان وفتوحاتهم

المهلب والي خراسان . فتوحاته . وفاته . تولية يزيد ابنه . عزله . تولية المفضل . حربه مع موسى بن خازم . قتل ابن خازم . عزل المفضل . حبس الحجاج لآل المهلب .

سبق أن ذكرنا أن المهلب بعد أن فرغ من أمر الأزارقة ولاه الحجاج خراسان في سنة ثمان وسبعين للهجرة وأنه قد سار إليها في سنة تسع وسبعين [١] .

وما كان ذلك الرجل الحربي ليقنع بأن يكون واليًا ويستكين ، فنراه في سنة ثمانين يقطع نهر بلخ (جيحون) وينزل « كش » فيجعلها مقرًا له يوجه منها الجيوش للفتح ؛ فخرج منها جيشان أحدهما تحت إمرة ولده حبيب والآخر تحت إمرة ولده يزيد .

أما جيش يزيد فسبب خروجه أن المهلب بينما هو مقيم بكش إذ أتاه ابن عم ملك الختل ودعاه إلى غزو الختل فأرسل المهلب معه ابنه يزيد فنزل بعسكره في ناحية ونزل ابن عم ملك الختل في ناحية ولما رأى السبل (ملك الختل) ذلك أراد أن يكيد مكيدة يدس بها بين الجيشين المتحالفين عسى أن يتمكن من القبض على ابن عمه فبيت ابن عمه وكبر في عسكره فظن هذا أن العرب قد غدروا به وأنهم خافوا من غدره حين اعتزل عسكرهم فاختل النظام في معسكره ؛ وبذلك أسر السبل ابن عمه وقتله في قلعته .

---

(١) تقدم ص١٩٢ .

فلما علم بذلك يزيد بن المهلب أتى القلعة وحاصرها من كل ناحية فصالحه الملك على فدية يؤديها إليه على أن يرجع عنهم فقبل ذلك يزيد وتركهم راجعًا إلى أبيه .

وأما حبيب فقد أرسله المهلب إلى ربنجن فوافى صاحب بخاري في أربعين ألفًا وبدأ القتال بينهم على شكل مبارزة تبين فيها تغلب العرب فرجع الأعداء إلى بلادهم ونزل جماعة منهم في قرية للتحصن بها فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف وقاتلهم فظفر بهم (١) .

وأما المهلب نفسه فقد فتح خجندة فأدت إليه الفدية (٢) ؛ وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السند وما وراء ذلك قال : ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين (٣) .

ثم صالح أهل كش ونسف على فدية يؤدونها إليه (٤) . وتسلم المهلب وهو بكش كتاب ابن الأشعث السابق الذي يخبره بخلع الحجاج والدعوة إلى مساعدته (٥) . كما أتاه خبر وفاة ابنه المغيرة في رجب من سنة اثنتين وثمانين وكان قد استخلفه على مرو فأرسل يزيد بدله على مرو وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه في المغيرة (٦) .

وحدث للمهلب وهو بكش أن اتهم قومًا من مضر فحبسهم فلما صالح أهل كش على الفدية خلى سبيلهم فكتب إليه الحجاج (إن كنت قد أصبت بحبسهم فقد أخطأت في تخليتهم وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم) فقال المهلب : خفتهم فحبستهم فلما أمنت تركتهم (٧) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٣٩ ودحلان الفتوحات الإسلامية جـ١ ص١٧٢ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٣ .

(٣) دحلان جـ١ ص١٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ والطبري جـ٥ ص١٣٩ .

(٤) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٣ دحلان جـ١ ص١٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ والطبري جـ٥ ص١٣٩ .

(٥) دحلان ـ الفتوحات الإسلامية جـ١ ص١٧٢ والطبري جـ٥ ص١٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ .

(٦) الطبري جـ٥ ص١٥٨ ، ١٥٩ .

(٧) الطبري جـ٥ ص١٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص٧٤ .

وفاة المهلب :

ولم يلبث المهلب بعد وفاة المغيرة كثيرًا حتى مات فقد مرض في طريقه من كش إلى مرو بزاغول من مروالروذ ومات بها في ذي الحجة من سنة اثنتين وثمانين [١] فصلى عليه حبيب وكتب يزيد إلى الحجاج بوفاة أبيه واستخلافه إياه فأقره الحجاج [٢] .

ورأينا في ثورة ابن الأشعث أنه حارب عبد الرحمن بن عباس حينما حاول أن يستولي على خراسان وهزمه وأرسل بالأسرى إلى الحجاج .

وفي سنة أربع وثمانين فتح قلعة ينزك ببادغيس وأخذ ما فيها من الأموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيمًا وإجلالاً ولما فتحها كتب إلى الحجاج بالفتح [٣] .

ولم يزل يزيد عاملاً على خراسان من قبل الحجاج حتى عزله في سنة خمس وثمانين .

ويختلف الرواة في سبب عزله فيروي علي بن محمد عن المفضل بن محمد : أن الحجاج في وفادته على عبد الملك عقب انتهاء ثورة ابن الأشعث مر في رجوعه بدير فنزله فأخبر أن في هذا الدير شيخًا من أهل الكتاب عالمًا ، فدعاه الحجاج وسأله قائلاً : هل تجدون في كبتكم ما نحن فيه وأنتم ؟؟ قال نعم نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن قال أفسمى أم موصوفًا ؟؟ قال : كل ذلك موصوفٌ بغير اسم واسم بغير صفة قال فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟؟ قال : في زماننا ملك أقرع من يقم لسبيله يصرع . قال ثم من ؟ قال اسم رجل يقال له الوليد قال ثم من ؟

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٦١ وابن الأثير جـ٤ ص٨٣ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٤ وابن خلدون جـ٣ ص٥٣ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص٨٤ ويروي الطبري جـ٥ ص١٦٢ أنه كتب إلى عبد الملك بوفاة أبيه واستخلافه إياه وذلك مستبعد لأن الوالي المباشر هو الحجاج .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٨٦ وابن الأثير جـ٤ ص٩٤ ودحلان جـ١ ص١٨٠ وابن خلدون جـ٣ ص٥٣ .

قال اسم نبي يفتح به على الناس : قال أتعرفني ؟؟ قال قد أخبرت بك ثم سأله عمن يليه بعده قال رجل يقال له يزيد قال في حياتي أم بعد مماتي ؟؟ قال لا أعرف فسأله عن صفته قال يغدر غدرة لا أعرف غير هذا .

ويحدثنا الراوي أن الحجاج وقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب وسار وهو خائف من قول الشيخ فلما وصل إلى العراق كتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق فكتب إليه عبد الملك يفهمه أنه قد عرف مراده إذ إنه ما استعفى إلا ليعرف رأي أمير المؤمنين فيه [١] .

وبينما الحجاج في يوم خال إذ دعا عبيد بن موهب فذكر له قصة الراهب وأنه فكر في يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن نمير ويزيد بن دينار فرأى أن مكانتهم لا تؤهلهم لذلك وأنه ليس إلا يزيد بن المهلب فأجمع رأيه على عزله ولكنه تريث حتى قدم عليه الخيار بن سبرة من فرسان المهلب فسأله عن يزيد فأخبره بحسن طاعته وسيرته فقال له كذبت اصدقني عنه فقال الله أجل وأعظم قد أسرج ولم يلجم ، وحينئذ كتب الحجاج إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب بأنهم من شيعة ابن الزبير فرد عليه عبد الملك بأن ذلك ليس نقصًا فيهم وأن وفاءهم لآل الزبير يدعوهم إلى الوفاء لي فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم [٢] .

فكتب إليه عبد الملك قد أكثرت لي في آل المهلب فسم لي رجلاً يصلح لخراسان فسمى له مُجاعة بن سعر السعدي فلم يوافق عبد الملك فعرض عليه قتيبة بن مسلم فوافق عليه [٣] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٩١ ، ١٩٢ وابن الأثير جـ٤ ص٩٤ وابن شاكر جـ٥ ص١٦٠ ، ١٦١ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ وابن كثير جـ٩ ص٥٥ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٩٢ وابن الأثير جـ٤ ص٩٦ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ وابن شاكر جـ٥ ص١٦١ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٩٢ وابن الأثير جـ٤ ص٩٦ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ . ويروي ابن كثير جـ٩ ص٥٦ وابن شاكر جـ٥ ص١٦١ أن الحجاج وقع اختياره على المفضل فوافق عبد الملك عليه .

وقيل إن الحجاج كتب إلى يزيد يأمره بغزو خوارزم فلم يلب الطلب محتجًا بأنها قليلة السلب شديدة الطلب فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه والاستخلاف على خراسان فكتب إليه بأنه يريد أن يغزو خراسان فأمره الحجاج بعدم غزوها لأنها كما وصف فلم يطعه وغزاها فصالح أهلها وأتى منها بأسرى وكرَّ راجعًا إلى مرو فأصاب الناس برد شديد لأن الزمن كان زمن شتاء فأخذ الناس ثياب الأسرى فلبسوها وتركوهم بلا ثياب مما كان سببًا في موتهم [١] .

فكتب إليه الحجاج بالقدوم عليه فلم يمر ببلد إلا فرشوا له الرياحين [٢] فنقم الحجاج عليه ذلك فكان ما بين الحجاج وأمير المؤمنين من المكاتبة بشأنه .

ويروي أبو مخنف أن الحجاج بعد أن فرغ من ابن الأشعث وخضع العراق والمشرق كله له لم يبق له هم إلا يزيد بن المهلب ولم يكن يتخوف أحد بعد ابن الأشعث سوى يزيد هذا فأخذ في مواربته ليخرجه من خراسان بسهولة حتى لا يمثل رواية ابن الأشعث من جديد فكان يبعث إليه ليأتيه فيعتل عليه بالعدو وحرب خراسان . ثم يذكر كتابه إلى عبد الملك بذم آل المهلب إلى آخر رواية علي ابن محمد [٣] .

وفي رأينا أن رواية الراهب موضوعة فإننا نعتقد أن الحجاج ما كان يتأثر بتلك الخرافات وقد رأينا موقفه حينما نزلت الصواعق في حصار ابن الزبير بمكة [٤] .

وقد حارب ابن الأشعث في يوم الأربعاء وهو يوم يتطير الناس منه [٥] وقد

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٩٣ وابن الأثير جـ٤ ص٩٧ والبلاذري - فتوح البلدان ص٤٢٤ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٩٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٧ وابن كثير جـ٩ ص١٣١ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٩٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٦ .

(٤) تقدم ص ٥٤ .

(٥) الطبري جـ٥ ص١٦٨ وابن كثير جـ٩ ص١٣١ .

ركب نعلاً محجلاً ولم يبال بقول أصحابه لـه : أن الأعـاجم تتطير أن تركب في مثل هذا اليوم مثل هذا [١] إلى غير ذلـك من أفعـالـه التي يستنتج منهـا أن الحجـاج كان رجلا قوي العقيدة لا يتأثر بالأساطير .

لذلك نستبعد أن يكون قد جرى بينه وبين الراهب ما ذهبت إليه الرواية .

وقد جرت عادة الكتاب أن يصوغوا مثل هذه القصص إذا تحـدثوا عن كبريـات الحوادث أو عظماء الرجال . على أن القصـة قـد وضعت بـإتقـان على نمـط مـا يقـولـه الكهان من التعمية في الألفاظ والدلالات والإبهام وحيكت حياكة يصدق من سمعها أنها من قول راهب .

وسواء أصحت زيـارة الحجـاج للراهب أم لم تصـح فـإن عـزل يـزيـد بن المهلب راجح إلى عدة أسباب اجتمعت لـدى الحجـاج خوفتـه من يزيـد وغـدره فعزلـه حتى لا يعيد ثورة كثورة ابن الأشعث التي كد فيهـا الحجـاج وتعب وهو اليوم يريـد أن يتفرغ للغزو الخارجي حتى تستفيد الدولة ويستفيد الإسلام فائدة جديدة .

وتتلخص هذه الأسباب فيما يلي :

أولاً : ما حدث بين الحجاج ويزيد بصدد غزو خوارزم فـإنـه خـالفـه بـالخروج إليها ثم لم يتخذ لجيشه مـا يقيـه من زمهرير الشتـاء وكـذلـك موقفـه من كتـابـاتـه المتكررة إليه .

ثـانيًـا : أن يـزيـد تصرف في الأسرى الـذين أسرهم من جيش عبـد الرحمن بن عبـاس فـأطلق سراح بعضهم وقـد رأينـا فيما سبـق أن الحجـاج حينمـا قـال لـه أحـد الأسرى :

وفى بقـومـك ورد المـوت أسرتـه   وقـــاد نحـوك في أغـلالهـــا مضرا

تأثر ووقرت تلك الكلمة في قلبه .

---

(١) ابن أبي الحديد م١ ص٤٢١ وراجع الطبري جـ٥ ص٩٩ وابن كثير جـ٩ ص١٣١ .

ثالثًا : أن الحجاج كتب إلى يزيد يأمره بقتل بعض المشاغبين من بني الأهتم فكتب إليه يزيد : إن بني الأهتم أصحاب مقال وليسوا بأصحاب فعال : ولم يفعل بصددهم شيئًا فآلم الحجاج منه ذلك الموقف [١] .

رابعًا : أن العديل بن الفرخ العجلي ذهب إلى يزيد بن المهلب بخراسان فمدح ابن المهلب وذم الحجاج بحضرته فسره ذلك المدح وأجازه [٢] .

هذه الأمور أغضبت الحجاج وجعلته يعتقد أن ابن المهلب غير مأمون في ولايته وجعلته لا يبقى على آل المهلب فيولى المفضل خراسان مدة قصيرة ثم يعزله .

ولما وافق عبد الملك على عزل يزيد كره الحجاج أن يكتب إليه بعزله فكتب إليه يأمره باستخلاف المفضل وقدومه فاستشار يزيد حصين بن المنذر فأشار عليه بعدم الذهاب والكتابة إلى عبد الملك لأنه حسن الرأي فيه فلم يقبل يزيد منه ذلك الرأي ولكنه تباطأ في التجهيز والخروج .

آلم هذا الموقف الحجاج فأرسل إلى المفضل يخبره بأنه قد ولاه خراسان فاستحث المفضل أخاه على الخروج بسرعة وبذلك تمكن الحجاج من إخراج يزيد من خراسان فخرج يزيد في ربيع الآخر من سنة خمس وثمانين [٣] .

ولما ولي المفضل أمر خراسان غزا باذغيس ففتحها وأصاب منها مغنمًا عظيمًا قسمه بين الناس فكان نصيب الواحد ثمانمائة درهم ثم غزا آجرون وشومان فغنم وظفر

---

(١) الأغاني جـ١٣ ص٥٨ .

(٢) الأغاني ص٢٠ جـ١٣ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٩٢ ، ١٩٣ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ والعيني جـ١١ ص٢٧٧ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٤٣٧ ويروي ابن شاكر جـ٥ ص١٦٠ أن عزل يزيد كان في سنة أربع وثمانين .

وقسم الغنائم بين المسلمين ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان كلما جاءه شيء أو أصاب مغنمًا قسمه [١] .

مقتل موسى بن عبد الله بن خازم :

قبل أن نتكلم عن قتل المفضل لموسى بن عبد الله بن خازم يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء لنعرف موسى بن عبد الله بن خازم .

كان عبد الله بن خازم واليًا على خراسان لعبد الله بن الزبير منذ سنة خمس وستين للهجرة فلما قتل مصعب بن الزبير استقل عبد الله بن خازم بولايته وقد خرج عليه بحير بن ورقاء التميمي فكانت بينهما حروب محلية .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى عبد الله بن خازم يقطعه البلاد سبع سنين مقابل البيعة [٢] له فكتب إليه : ما كنت لأنكث بيعة ابن حواري رسول الله ﷺ وأبايع ابن طريده : فكتب عبد الملك بالولاية إلى بكير بن وشاح - خليفة ابن خازم على مرو - فخلع بكير ابن خازم وأخذ السلاح وبيت المال ودعا أهل مرو إلى بيعة عبد الملك فبايعوه وبلغ ابن خازم ذلك فخاف أن يأتيه بكير فيجمع عليه أهل مرو وأهل نيسابور فخرج إلى ابنه موسى بالترمذ فأتبعه بحير فقتله بقرية على ثمانية فراسخ من مرو [٣] .

وبذا أصبح بالولاية رجلان بحير يطلبها لنفسه ثمرة الانتصار على ابن خازم وبكير يطلبها لنفسه كعهد الخليفة وظهرت المنافسة بينهما فكتب أهل خراسان إلى عبد الملك بن مروان بأنها لا تصلح إلا برجل من قريش فولى عبد الملك عليها أمية

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٩٤ وابن الأثير جـ٤ ص٩٧ ودحلان جـ١ ص١٨٠ والبلاذري - فتوح البلدان ص٤٢٤ وابن خلدون جـ٣ ص٥٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢١ وابن الأثير جـ٤ ص٢٠ ، ٢١ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٢ وابن الأثير جـ٤ ص٢١ والبلاذري - فتوح البلدان ص٤٢٢ .

ابن عبد اللّه بن خالد [١] **وبينما كان ذلك يجري إذ استمر موسى بن عبد اللّه بن** خازم على خروجه فحاربه أمية وانضم إليه الترك ـ ليعينوا أهل ترمذ على أخذ بلدهم لأن موسى كان قد طردهم منها ـ ولكن موسى تمكن من الانتصار على الحلفاء [٢] .

عزل أمية عن خراسان ووليها الحجاج فولاها للمهلب بن أبي صفرة ولكنه لم يتعرض لموسى لإنه كان يعتقد أن في قتله **قضاءً** على آل المهلب في خراسان .

فالحجاج لم يول المهلب إلا لحنكته الحربية فإذا ما استتبت الأمور فقد أصبح ولا حاجة له في آل المهلب وإذا ما انتهى من مشكلة ابن خازم فهو لا بد من مقيل بني المهلب ومعين مكانهم رجلاً من قيس .

توفي المهلب وولي أمر خراسان من بعده ابنه يزيد . **وفي أيامه أزدادت** مكانة موسى في بلاد ما وراء النهر وقد انضم إليه الأتراك وكثير من العرب تحت إمرة حريث وثابت ابني قطبة الخزاعي لما كان بينهما وبين آل المهلب من عداء [٣] .

ولكن هذا الحلف لم يلبث أن تفكك وحارب الحلفاء بعضهم بعضًا كما فعلت المؤامرات فعلها فقتل حريث في الحرب وقتل ثابت غيلة ، وعاد طرخون ملك الترك إلى بلاده [٤] .

ثم عزل الحجاج يزيد وولى مكانه أخاه المفضل فرآها فرصة سانحة لمهاجمة ابن خازم وقد **انفض** من حوله الناس واعتصم فيما وراء النهر **ويحظى** بذلك عند الحجاج فسير إليه عثمان بن مسعود وأيده بأخيه المدرك بن المهلب استقدمه من بلخ

---

(١) الطبري جـ٥ ص٣٨ ، ٣٩ وفتوح البلدان ص٤٢٣ وابن الأثير جـ٤ ص٣٠ ، ٣١ .

(٢) راجع الطبري جـ٥ ص١٩٨ وابن الأثير جـ٤ ص٩٨ ، ٩٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥٥ وابن كثير جـ٩ ص٥٦ .

(٣) الطبري جـ٥ ص١٩٩ وابن الأثير جـ٤ ص٩٩ وابن خلدون جـ٣ ص٥٥ .

(٤) راجع ابن الأثير جـ٤ ص١٩٩ ، ١٠٠ وابن خلدون جـ٣ ص٣٦ والطبري جـ٥ من ص١٩٨ ـ ٢٠٤ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

حيث كان واليًا . فعبروا إليه النهر في خمسة عشر ألفًا فضيقوا عليه المسالك ومكث مدة يعاني آلام الحصار .

ولما رأى موسى ذلك قال لأصحابه اخرجوا بنا مستميتين واقصدوا الترك ـ حلفاء ابن المهلب ـ وخلف النضر بن أخيه سليمان على المدينة وأمره أنه إذا قتل لا يسلم المدينة إلا لمدرك بن المهلب .

فخرجوا لقتال الترك ودارت رحى معركة تغلب فيها الحلفاء وقتل موسى بن عبد الله بن خازم وكتب المفضل إلى الحجاج بالفتح [١] . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وهو يستعد لغزو جديد [٢] وولى بدلاً منه قتيبة بن مسلم فقبض قتيبة بن مسلم على المفضل وأخويه مدرك وعبد الملك وأرسلهم إلى الحجاج فطالبهم بستة ملايين من الدراهم [٣] واستمروا في حبسه إلى سنة تسعين . وفي هذه السنة خرج الحجاج إلى رستقباذ لتجهيز حملة الأكراد التي أسلفنا ذكرها وأخذ معه أولاد المهلب وجعلهم في فسطاط قريبًا منه وجعل عليهم حرسًا من أهل الشام ووكله بتعذيبهم حتى يؤدوا ما عليهم من المال فأدوا ثلاثة ملايين وأخذوا يدبرون طريقًا للخلاص من السجن فدبروا حيلة تمكنوا بها من الفرار والسير إلى الشام .

ولما وصلوا إلى الشام استجاروا بسليمان بن عبد الملك فأجارهم وبذل مجهودًا عظيمًا في الشفاعة لهم لدى الخليفة الوليد حتى أمنهم فكتب الحجاج إلى الوليد يطلبهم منه فأجابه الوليد : إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفف عنهم ومن ذلك الوقت بقي يزيد مقربًا من سليمان حتى ولاه العراق في خلافته [٤] .

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٢٠٠ ـ ٢٠٥ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٠ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص٢١٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٥ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ ص٣٠ والطبري جـ٥ ص٢٣٠ وابن خاكان جـ٢ ص٣٥٦ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ .

(٤) راجع الطبرى جـ٥ ص٢٣٠ ـ ٢٣٥ وابن الأثير جـ٤ من ص١١٤ ـ ١١٦ وابن خلكان جـ٢ من ص٣٥٦ ـ ٣٥٨ .

مرض عبد الملك بن مروان ووفاته :

في هذا الوقت مرض عبد الملك بن مروان وفي أثناء مرضه جمع بنيه وأوصاهم وصية قال فيها عن الحجاج : وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ البلاد وذلل الأعداء [١] .

ثم توفي في منتصف شوال من سنة ست وثمانين للهجرة .

وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد فكتب ببيعته إلى الآفاق والأمصار وإلى الحجاج بالعراق فبايعه الناس ولم يختلف عليه أحد ، وكتب الحجاج إلى الوليد :

أما بعد فإن الله استقبلك يأمير المؤمنين في حداثة سنك بما لا أعلم أنه استقبل به خليفة قبلك من التمكين في البلاد والملك للعباد والنصر على الأعداء فعليك بالإسلام فقوم أوده وشرائعه وحدوده ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم فإنهم قلما يؤتى الناس من خير وشر إلا أفشوه ثلاثة أيام والسلام [٢] .

وبقى الحجاج واليًا على ما كان ولاه عليه عبد الملك فلم تغير وفاة عبد الملك شيئًا من سياسته والخطة التي رسمها لنفسه . وكذلك لم يحد الوليد عن وصية أبيه له بشأنه على الرغم من إلحاح أخيه سليمان عليه ورغبته في عزله [٣] .

ولم تكن وصية عبد الملك هي الدافع الوحيد للوليد على عدم سماع قول سليمان فيه بل إن الوليد كان لا يجهل مكانة الحجاج ومنزلته وماله من الأيادي البيضاء على الدولة . فكان يقول إن عبد الملك قال : إن الحجاج جلدة ما بين عيني وأنا أقول : إنه جلدة وجهي كله [٤] .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٦٢ والمسعودي جـ٢ ص١١٠ والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص١٤٧ وابن شاكر جـ٥ ص١٧٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٣ .

(٢) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٧ ، ٤٨ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٧ .

(٤) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٤٩ والجاحظ جـ١ ص٢٣٧ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٨ .

يضاف إلى ذلك أن الحجاج من الذين رغبوا في أن يكون الخليفة بعد عبد الملك هـو الـوليـد فقـد روي أن الحجـاج كتب إلى عبـد الملـك في ذلـك قبـل خـلاف ابن الأشعث وأرسل إليه وفدًا على رأسه عمران بن عصـام الغزي وقـد قـال عمران قصيـدة يعبر فيها عن رغبة الحجاج فيحث على البيعة للوليد ويبين له محاسنه[1] .

لكل ذلك أقر الوليد الحجاج على خطته التي رسمها لنفسه ولم يتعرض له .

---

(١) راجـع الطبري جـ٥ ص٢٠٧ ، ٢٠٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٠١ وابن كثير جـ٩ ص٥٩ وابن شـاكر جـ٥ ص٢٠٣ والبلاذري ـ أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٤١ .

الفصل الثاني
قتيبة بن مسلم في خراسان وفتوحاته ونهاية حياته

لم يكد قتيبة ينزل بخراسان حتى وضع نصب عينيه أن يفتح بلاد ما وراء النهر فخطب الناس وحثهم على الجهاد لإعزاز دين الله والذب عن الحرمات وخذل العدو وبين لهم ذلك مستشهدًا بالقرآن الكريم [١] .

ثم عرض الجند وخرج من مرو وسار حتى وصل الطالقان فتلقاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر [٢] .

وتلقاه بيش ملك الصغانيان وقابله مقابلة حسنة وقدم إليه هدايا ثمينة منها مفاتيح من ذهب وسلم إليه زمام بلاده .

والذي دعاه إلى ذلك أنه كان يخشى سطوة جاره ملك شومان وآخرون

وكان ملك شومان ـ وآخرون ـ قد غزاه وضيق عليه ، فأراد أن يحتفظ بعرشه ويتخلص من العدو الذي يشن عليه الغارة بين آن وآخر فانتهز فرصة قدوم قتيبة وقابله تلك المقابلة وقدم إليه بلاده وشجعه على غزو آخرون وشومان وقد تحقق ما أراد ، فقد ولى قتيبة وجهه شطرهما فلم يقاوما وصالحه ملكهما غيشتان على فدية ورضي المسلمون بذلك ، ورجع قتيبة إلى مرو ، بعد أن استخلف على الجند أخاه صالح بن عبد الرحمن .

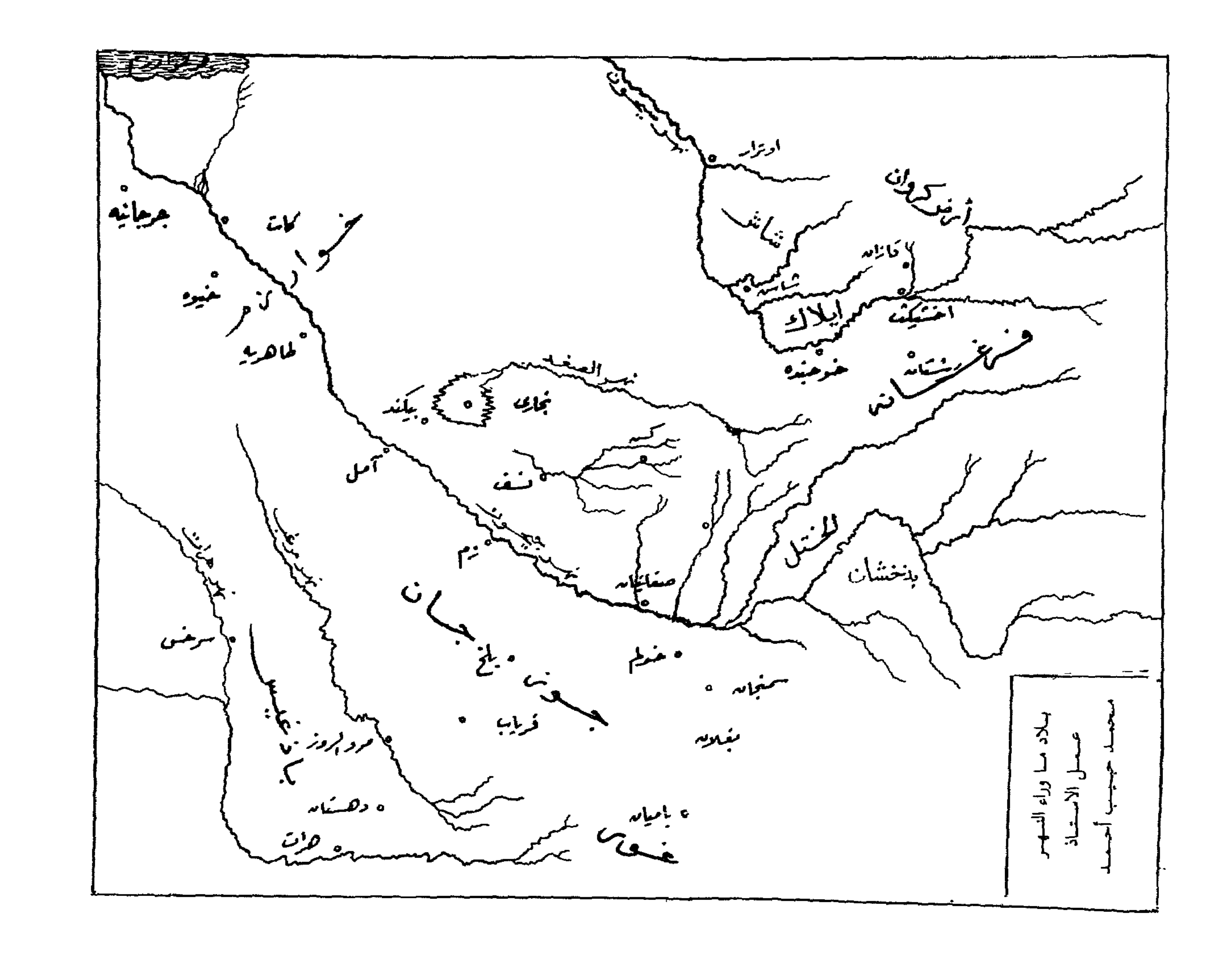
وبعد أن تولى صالح على الجند تطلعت نفسه إلى الجهاد فجد في فتح كاشان وأورشت وأخشيكت ـ من أعمال فرغانة ـ وانتهى ذلك الفتح بالنصر المبين [٣] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٣١٤ ، ٢١٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢١٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٥ : ويروى أن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر بقية عام ستة وثمانين على بلخ لأن بعضها كان منتقضًا عليه وقد ناصب المسلمين العداء فحاربهم . نفس المصادر .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢١٥ وفتوح البلدان ص٤٢٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٥ وابن خلدون جـ٣ ص٥٩ ودحلان جـ١ ص١٨١ .


جرجانية
كاث
خوارزم
خيوة
طاهرية
بيكند
بخارا
نهر الصغد
نسف
آمل
صغانيان
الختل
بذخشان
فرغانة
أخسيكث
خوجندة
إيلاق
شاش
اترار
سرخس
مرو الروذ
دهستان
هراة
باميان
غور
جوزجان
بلخ
فارياب
خلم
سمنجان
بغلان
بلاد ما وراء النهر
عمل الأستاذ
محمد حبيب أحمد

ومن مرو كتب قتيبة إلى نيزك طرخان ـ صاحب باذغيس ـ في إطلاق ما عنده من أسرى المسلمين وقد هدده وتوعده فخاف نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه .

ثم كتب إليه يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ويحلف له لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت .

فلما قدم الرسول بالكتاب قال له نيزك وكان يطلب منه النصح ما أظن عند صاحبك خيرًا : كتب إلي كتابًا لا يُكتب إلى مثلي . فقال له سليم الناصح : إنه رجل شديد في سلطانه سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك فأحسن حالك عنده .

فقدم نيزك مع الرسول على قتيبة فصالحه في سنة سبع وثمانين على أن لا يدخل قتيبة البلاد [١] .

ثم خرج قتيبة بعد ذلك لغزو بيكند فسار من مرو إلى مرو الروذ ثم أتى آمل ثم مضى إلى زم فقطع النهر فسار الى بيكند ـ وهي أدنى مدائن بخاري ـ فلما دنا منها استصرخ أهلها بالصغد واستمدوا المعونة ممن جاوروهم فأتوهم في حشد عظيم وأخذوا الطريق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول مدة شهرين فأشفق الحجاج على قتيبة وعلى الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، مما يدلنا على أن الموقف قد تحرج وازداد خطرًا .

بيد أن حزم قتيبة وموقفه في تشجيع الجند وبث روح الحماسة فيهم جعل جيوش المسلمين لا يكترثون بالأعداء وكثرتهم ولا يهابون الموت فاستماتوا في الحرب والقتال وانهزم أهل بيكند وحلفاؤهم شر هزيمة واقتصت جنود المسلمين أثرهم وأوسعوهم قتلاً وأسرًا ولم ينج منهم إلا من تحصن بالمدينة ولكن قتيبة حاول هدم حصونها فصالحوه بعد إلحاح منهم وإباء منه .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢١٧ ، ٢١٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٧ وابن خلدون جـ٣ ص٥٩ ودحلان جـ١ ص١٨١ .

ولما تم الصلح ولى عليهم وقفل عائدًا إلى مرو ولكنـه لم يكـد يسير خمسة فراسخ عن بلدهم حتى نقضوا الصلح وقتلوا العامل وأصحابه ومثلوا بهم بجدع أنوفهم وآذانهم فكرّ راجعًا وأستأنف الحرب واستولى على تلك البلاد ورفض الصلح بعد أن نقضوه وفتكوا بأصحابه ولم يرجع إلى مرو حتى طهر البلاد من الثائرين والمتمردين .

وبعد أن ترك فيها حامية عاد إلى مرو آمنا مطمئنًا عليها .

وأصاب المسلمون من بيكند غنائم من السلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى ولا أصابوا بخراسان مثله [١] .

فقوى المسلمون واشتروا السلاح والخيل وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة .

قال الكميت :

ويوم بيكند لا تحصى عجائبه وما بخاراء مما أخطأ العدد

واستأذن قتيبة الحجاج في دفع السلاح إلى الجند فأذن له فأخرجه من الخزائن ودفعه إلى الجند [٢] .

التحالف الأول ضد قتيبة :

كان من أثر انتصارات قتيبة المتتالية في فتوحاته المتسلسلة أن تألب الترك في مائتي ألف بقيادة ملكهم ـ كور بغانون ـ ومعهم الصغد وفرغانة وتقدموا لمقاومة جيش عبد الرحمن بن مسلم .

ودارت المعركة وكادوا ينتصرون عليه ولكنه استنجد بأخيه قتيبة فلبى النداء مسرعًا ـ إذ لم يكن بينهما إلا ميل واحد ـ ولما أدركه بث الشجاعة في قلوب المحاربين .

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٢١٨ ـ ٢٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٧ وابن خلدون جـ٣ ص٥٩ وابن نباتة ص١١٤ ودحلان جـ١ ص١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٢٠ .

وبشجاعة قتيبة وسياسته الحربية الباهرة انتصر المسلمون وانهزم الأعداء وتشتت جمعهم وتمزق شملهم وأبلى في هذا اليوم **نيزك** ـ وكان في جيش قتيبة ـ بلاء حسنًا ورجع قتيبة إلى مرو [١] .

وفي هذا الوقت كتب الحجاج إلى قتيبة بوجوب فتح بخارى فسار بجيشه حتى نزل مدينة زم ومنها عبر النهر وعند ذلك اصطدم بجموع الصغد وكش ونسف غير أنه تغلب عليهم ثم وصل إلى بخارى وأخذ يحاول فتحها . إلا أنه لم يأتها من المواطن التي تساعده على فتحها فيئس ورجع إلى مرو وأبلغ الحجاج ذلك فطلب منه الحجاج أن يصور له المدينة وموقعها الجغرافي فأرسل إليه بما طلب فلما اطلع الحجاج على المصور أشار عليه بفتحها ودله على المواطن التي تمكنه من الاستيلاء عليها فقد كتب **إليه يقول** : أن ارجع إلى مراغتك وتب إلى الله مما كان منك وإنها من مكان كذا وكذا [٢] .

وإن الباحث لا يسعه إلا الإعجاب بمهارة الحجاج الحربية ومواهبه التي لم تكن قاصرة على ميدان السياسة بل شملت ميدان الحرب وهو بعيد عنه ، وكأننا به وقد جلس إلى مكتبه لينظر في خريطة تلك البلاد التي لم يرها وبعبقرية يرسم الخطة لقائده ويأمره بتنفيذها متحملاً تبعة ذلك إن كان ثمة تبعة .

فلم يسع قتيبة إلا الخروج في سنة تسعين إلى بخارى ثانية واضعًا نصب عينيه تنفيذ الخطة التي رسمها له القائد الأعلى وقد تمكن بها من الزحف على المدينة ومحاصرتها فاستصرخ ملك بخارى ـ وران خداه ـ بالترك والصغد فجاءته أمداد كثيرة وبدأت المعركة واشتدت وغامر الأزد في هجومهم على الترك ولكنهم هزموا وخسروا خسارة كبرى . ولكن قتيبة خف ببقية الجيش الإسلامي لنجدتهم ونادى في جيشه

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٢١٨ ـ ٢٢٠ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٧ وابن خلدون جـ٣ ص٥٩ ودحلان جـ١ ص١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) الطبري جـ٥ من ص٢٢٥ وابن الأثير جـ٤ ص١١٠ .

بأن من أتـاه برأس تركي فلـه مـائـة درهم .

وووقف الترك على مرتفع من الأرض فـأراد قتيبـة أن يـزيلهم عن هـذا الموضع فطلب من يزيلهم فلم يجبه أحد من القبائل فقصـد بني تميم وطلب إليهم ذلـك وأثنى عليهم فتقدم بنو تميم ولم يـدخروا وسعًـا في القتـال حتى تمكنوا من هزيمـة العـدو وتم النصر للمسلمين وجرح خاقـان ملـك الترك وابنـه [1] وكتب قتيبـة إلى الحجـاج بـأن بخارى فتحت على يد عبد الرحمن بن مسلم ولعله أراد أن يكون لأخيـه حظوة لـدى الحجاج .

إلا أن مـولى للحجـاج كان قـد شهـد تلـك الحرب فـأخبره بحقيقـة الأمر فغضب الحجاج وبلغ ذلك قتيبة فأهمه الأمر فـأشـار عليـه النـاس بـإرسـال وفـد من بني تميم يخبرونه أن ما في الكتاب هو الحق .

فلمـا قـدمـوا الحجـاج صـاح بهم وعـابهم . ودعـا بـالحجـام وبيـده مقراض وقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتصدقنني ، فقالوا الأمير قتيبة بعث عليهم عبد الرحمن ، فالفتح للأمير والرأس الذي يكون على الناس .

وبهذا اللف والدوران هدأ الحجاج وسكن [2] .

وعقب هذه الموقعة حضر طرخون ملك الصغد ومعه فارسان حتى دنـا من عسكر قتيبـة ورغب في أن يخرج إليـه رجل من المسلمين ليتفـاهم معـه فـأخرج إليـه رجلاً تفاوض معه على فدية يؤديها للمسلمين فقبل منه ذلك .

وبـدهي أن الـذي دفع طرخون إلى ذلك ـ وهو الذي قـاوم المسلمين وتحـالف مع الترك ـ أنـه توقع الغزو لبلاده ولا طـاقـة لـه بـدفـع تلـك الجيـوش ولا القـدرة على مقاومتها [3] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٢٧ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ وابن خلدون جـ٣ ص٦١ ودحلان جـ١ ص١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٢٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٢٨ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ ودحلان جـ١ ص١٨٥ .

هال نيزك وأفزعه ما رأى من الفتوح العربية فأبان لأصحابه عن رغبته في الرجوع إلى بلاده وتدبير خطة للوقوف في وجه الفتوح الإسلامية التي كادت أن تأتي على البلاد فاستأذن نيزك قتيبة في الذهاب إلى طخارستان فأذن له فأسرع نيزك ومن معه بالعودة ، لأن نيزك قد توقع أن قتيبة سيندم على الإذن له في الرجوع إلى بلاده فيرسل إلى واليه يأمره بالقبض عليه وقد تحقق ما كان فقد أتى الرسول إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بالقبض عليه وحبسه ولكن المغيرة لم يدركه حتى كان قد دخل شعب خلم فلم يتمكن منه ورجع عنه .

التحالف الثاني ضد قتيبة :

خلع نيزك الطاعة وعمل على تأليف حلف كبير لمقاومة الفتح العربي وقد لقيت هذه الفكرة قبولاً حسنًا في نفوس الترك فألب أصهبذ بلخ وباذام ملك الروم وسهرك ملك الطالقان وتُرسل ملك الفارياب والجوزجاني ملك جوزجان وكتب إلى كابل شاه يستظهر به وبعث إليه بثقله وماله وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه فأجابه إلى ذلك .

خلع الحلفاء قتيبة وتواعدوا الربيع وخاف نيزك من ملكه جيغويه (الشذ) أن يفسد عليه تدبيره احتفاظًا بعرشه فأخذه وحبسه وقيده بقيود من ذهب ووضع عليه الرقباء .

وبدأ العداء بإخراج سليم الناصح ـ عامل قتيبة بتلك البلاد ـ وبلغ قتيبة ما فعله نيزك وهو بمرو وقد تفرق الجند وليس معه إلا أهل مرو فأخرج عبد الرحمن أخاه في اثني عشر ألفًا وأمره بعدم عمل شيء حتى ينقضي فصل الشتاء وعند انقضائه يسير نحو طخارستان وهو آمن فإنه سيكون قريبًا منه . فنفذ عبد الرحمن ما أمره به قتيبة فقد ذهب واستكشف الحالة ووافى قتيبة عندما انقضى فصل الشتاء .

وأما قتيبة فإنه لما انقضى فصل الشتاء كتب إلى أبيوردو سرخس وأهل هراة

ليقدموا عليه بالجنود فلبوا الدعوة مسرعين فسار بهم قتيبة نحو الطالقان - إحدى شعب الحلف - فنكل بأهلها وقتل منهم مقتلة عظيمة [١] واستعمل على الطالقان أخاه عمرو بن مسلم وكان اسمه قد سبق إلى بقية أعضاء الحلف فخارت قواهم ، فقد سار إلى الفارياب فخرج إليه ملكها مقرًا بالولاء والخضوع فلم يحاربه وعلم ملك الجوزجان بسيرهم نحوه فهرب نحو الجبال وخرج أهلها معترفين بالولاء والطاعة ثم أتى بلخ فلم يقم بها إلا يومًا واحدًا فقد قدم أهلها له فروض الطاعة .

ثم سار بعد ذلك إلى شِعْب خلم لمساعدة أخيه في حرب رأس الحلف ولكن الثائر سار إلى بغلان وترك حامية على فم الشعب ومضايقه ليمنعوه من دخوله ووضع مقاتلة في قلعة حصينة من وراء الشعب فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم على مضيق الشعب إرادة دخوله فلم يتمكن ، ولا يعرف طريقًا يسلكه إلى نيزك إلا الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر لوعورتها وصعوبة مسالكها فتحير في الأمر .

وبينا هو في حيرته إذا أتاه الرؤوب خان - ملك الرؤوب وسمنجان - وطلب الأمان منه على أن يدله على مدخل القلعة التي من وراء الشِعْب فأمنه قتيبة وبعث معه رجالاً فساروا بالليل وبيتوا أهل القلعة فقتلوا البعض وهرب البعض الآخر فدخل قتيبة الشعب وأتى القلعة ومضى إلى سمنجان فأقام بها أيامًا استراح فيها هو وجنده . ثم سار إلى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن .

بلغ ذلك نيزك فارتحل من مكانه وقطع وادي فرغانة [٢] ووجه ثقله وأمواله إلى كابل شاة [٣] - حسب الاتفاق المبرم بينهما - ومضى وعبد الرحمن يسير في أثره فنزل

---

(١) الطبري جـ٥ من ص٢٢٨ - ٢٣٠ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ ودحلان جـ١ ص١٨٥ ، ١٨٦ وابن خلدون جـ٣ ص٦١ ويروى أن ملك الطالقان لم يحارب قتيبة فكف قتيبة عنه وكان بها لصوص ومفسدون قتلهم قتيبة وصلبهم لتطهير البلاد منهم .

ولكن عودنا الرواة العرب على التكثير في مثل هذا المقام . الطبري جـ٥ ص٢٣٥ وابن الأثير جـ٤ ص١١٦ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٢٥ ، ٢٣٦ وابن الأثير جـ٤ ص١١٦ ودحلان جـ١ ص١١٦ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٢٩ وابن الأثير جـ٤ ص١١٤ ودحلان جـ١ ص١٨٥ .

عبد الرحمن حذاءه ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان وتحصن نيزك وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب ؛ فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما في يد نيزك من الطعام وأصاب أصحابه الجدري وجدر الشذ ملكهم .

وفي هذا الوقت كان الشتاء قد أقبل فخاف قتيبة البرد على جنوده فدعا سليمًا وطلب منه أن يحتال لنيزك حتى يأتيه به وشدد في وجوب العمل وعدم التباطؤ ، فطلب سليم من قتيبة أن يكتب إلى عبد الرحمن بوجوب الطاعة حتى يتمكن من أداء مهمته فأجابه إلى ما طلب ، وسار سليم الناصح حتى قدم على عبد الرحمن فطلب منه أن يجعل رجالاً على مدخل الشعب ينتظرونه حتى إذا ما أقبل هو ونيزك أخذوا بأفواه الشعب وحالوا بين نيزك والرجوع فيما لو حاول ذلك ، فقام عبد الرحمن بما طلب منه .

وكان سليم حمل معه الكثير من الأطعمة حينما سار إلى نيزك فلما وصل إليه قال له نيزك خذلتني ياسليم . فقال سليم : ما خذلتك ولكنك عصيتني وأسأت لنفسك خلعت وغدرت ، فأراد نيزك أن يعرف مخلصًا من هذه الورطة فبين له سليم أن قتيبة سيمضي فصل الشتاء في مكانه وأن الواجب أن يقدم عليه بدون علم فعند ذلك يأخذ قتيبة الحياء فيقبل منك اعتذارك وتوبتك فلم يؤمن نيزك بهذا الكلام من جهة وأبت عليه نفسه من جهة أخرى ، وعندئذ أراد سليم الانصراف فقال نيزك فنغديك إذًا فأبان سليم أنهم في شغل عن تهيئة الطعام وأن لديه الكثير منه وأخرج ما معه لنيزك وأصحابه فانتهبوه لشدة جوعهم فساء ذلك نيزك وانتهز سليم ذلك فرصة فبين لصاحبه شدة حال جيشه وأشار عليه بوجوب الخروج إلى قتيبة فطلب أمانًا فأمنه سليم وقال له إن قتيبة قد أمنك فألح عليه أصحابه حينئذ بالخروج فخرج نيزك في جماعة من أعيان قومه ومعهم قوة من الجند .

ولما خرجوا من الشعب نفذ جنود عبد الرحمن التعليمات بأن حصروا الشعب فأوجس نيزك خيفة وحاول أن يفر فأشار عليه سليم بعدم فعل ذلك وأن مصلحته أن يصل إلى قتيبة في غير هذه الضجة العسكرية عسى أن يوفق إلى صلح شريف معه فآمن نيزك بما أوحى إليه صاحبه وترك عسكره وقدم بأعيان قومه فقط وسارا حتى وصلا إلى عبد الرحمن فأرسل عبد الرحمن إلى قتيبة رسولاً يعلمه بذلك فطلب قتيبة من عبد الرحمن أن يحضر بهم ففعل .

ولما وصل نيزك ومن معه إلى قتيبة حبسهم وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك فأصدر الحجاج أمره بقتل هذا الغادر الذي نقض العهد وأخاف المسلمين وجمع الجموع لمقاومة الفتوح الإسلامية .

فدعا قتيبة به وسأله : هل له عند قتيبة أو عبد الرحمن أو سليم عهد ؟؟ فقال لي عند سليم فكذبه قتيبة ورده إلى السجن ومكث قتيبة ثلاثة أيام يستشير واختلفت وجهات النظر فمن قائل أمنته ومن قائل اقتله وقال فريق ثالث بوجوب قتله لعدم أمنه على المسلمين سواء أكان له عهد أم لا .

وظل قتيبة مترددًا حتى دخل ضرار بن حصين الضبي فسأله قتيبة عن رأيه فقال ماذا أقول ؟؟

أقول إني سمعتك تعطي الله عهدًا أنك إذا تمكنت من قتله فلابد من ذلك ؟؟ فأطرق قتيبة مدة من الزمن ثم قال : والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت اقتلوه . وكررها ثلاثا وأمر بقتل نيزك وأقاربه وبعض أصحابه .

ويختلف الرواة في عدد القتلى فيروي علي بن محمد أن قتيبة قتل مع نيزك نحو السبعمائة . ولعله يقصد أولئك الذين بقوا في الشعب . وتروي باهلة أنه قتل معه اثني عشر ألفا . ونحن لا نصدق ذلك ، فإننا لا نظن بأنه حضر مع نيزك هذا العدد لأنه لم يخرج لغزو بل إن السبعمائة كثير أيضًا .

ولكن جرت عادة العرب على التكثير للفخر وبيان القوة والسطوة وما عرفوا أن ذلك سيكون موضع نقد سيا من أعداء الإسلام .

أما جيغويه فقد بدا مغلوبًا على أمره فيا حدث ولذلك لم يقتل بل اكتفي بإرساله إلى الوليد بالشام حتى مات الوليد ولم يسمع له بعدها خبر .

ورجع قتيبة إلى مرو وترك أخاه عبد الرحمن على بلخ [١] .

وقد كانت قصة قتل نيزك على هذا الوجه موضع التعليق . لذلك نرى ثابت قطنة يقحم الموضوع في إحدى قصائده فيعيب على قتيبة غدره بنيزك [٢] .

وشاركه في ذلك بعض المعاصرين فكان الواحد منهم يقول : غدر قتيبة .

على أن سلوك قتيبة كان موضع الرضى من الكثيرين فها هو ذا المغيرة بن جنباء ونهار بن توسعة يمتدحان ما صنعه قتيبة مع نيزك في قصيدتين [٣] لا تقل أبيات الواحدة منهما روعة عن البيت الفرد الذي جاء في قصيدة ثابت قطنة .

وفي تقديرنا أن قتيبة لم يكن يملك أن يفعل غير ما فعل فإن نيزك هو الذي أقام هذا الحلف في وجه الفتوحات العربية .

ولو تمت مؤامرته الواسعة النطاق لقضي على زهرة المسلمين فيما وراء النهر ولكانت نكبة ليس بعدها نكبة .

ولو بقي نيزك حيًا لكان خطرًا دائمًا على الفتوحات العربية ولقويت شكيمة الأتراك سواءً أفرج عنه وعاد إلى بلاده أم بقي أسيرًا في يد المسلمين .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص٢٣٦ ـ ٢٣٨ وابن الأثير جـ٤ ص١١٧ ودحلان جـ١ ص١٨٦ ـ ١٨٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٣٩ وابن الأثير جـ٤ ص١١٧ ، ١١٨ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٤٠ وابن الأثير جـ٤ ص١١٧ .

على أن نيزك لم يدخر وسعًا في محاولة وقف الفتوحات الإسلامية واستعمل في ذلك السياسة بمثل ما استعمل الجيش فظل يخادع وينافق ، حتى لقد قيل إنه أسلم وتسمى بعبد الله [١] .

ولعل قتيبة أراد بقتله وأصحابه أن يضرب المثل لغيره من الأتراك ممن تحدثه نفسه بالوقوف في وجه الفتوحات .

ولقد كان غدر نيزك وجمعه الجموع لقتال المسلمين سببًا في انتفاض بعض البلاد فقد انتهز ملك شومان هذه الفرصة ونقض العهد الذي كان بينه وبين قتيبة فطرد عامله ومنع الجزية فاستعمل معه قتيبة طريق اللين وسلك خطة حميدة وسياسة حكيمة بأن أرسل إليه رسولين أحدهما من العرب والآخر من خراسان ليذكراه بالعهد المعقود بينه وبين المسلمين وما يترتب على نقض هذا العهد من الآثار السيئة فتألب أهل شومان واعتدوا على الرسولين فقاوم الرسول العربي أهل المدينة الثائرة مقاومة شديدة وفر الرجل الخراساني وثبت العربي حتى خر صريعًا في ميدان الجهاد والمناضلة .

ولما علم قتيبة بتلك الحادثة الشنيعة المخالفة لقوانين الحرب استشاط غضبًا وزحف نحو شومان واختار أخاه صالحًا لصداقته لملك شومان كي يكون رسولاً بينهما عسى أن تحقن الدماء . وزوده بما زود به الرسولين من قبل . ولكن ملك شومان فهم الموقف على غير حقيقته وخيل إليه أن قتيبة أضعف من أن يناوئه وأنه ما لجأ إلى المفاوضة إلا ضعفًا فرفض الصلح على الرغم مما كان بينه وبين صالح من الصداقة فلم يجد قتيبة بدًا من مقاتلته ، فحاربه حتى هزمه واستولى على المدينة وما فيها عنوة [٢] .

ثم وجه جنوده إلى كش ونسف ومر في طريقه بالفارياب فامتنعت عليه فأحرقها وسميت المحترقة [٣] .

---

(١) اليعقوبي جـ٣ ص٣٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٤١ ، ٢٤٢ وابن الأثير جـ٤ ص١١٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٢ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٤٢ وابن الأثير جـ٤ ص١١٨ .

وسير قتيبة من كُش ونسف أخاه عبد الرحمن إلى ملك الصغد فقبض الجزية المتفق عليها فيما سبق .

ولعل إرسال قتيبة هذا كان لاختبار ملك الصغد الذي كان قد بلغه عنه أنه خالع للطاعة .

ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه أن الصغد قالت بعد رجوع عبد الرحمن لملكها : إنك قد رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك . وقبضوا عليه فحبسوه وولوا غوزك .

وبعد أن أخذ عبد الرحمن الجزية رجع إلى قتيبة ببخارى وكان قد سار إليها من كش ونسف وقفل قتيبة بعد ذلك إلى مرو وكان ذلك في سنة إحدى وتسعين [١] .

ساعد المسلمين في فتح خوارزم النزاع القائم فيها بين الملك وأخيه الأصغر فقد نغص هذا على أخيه حياته فلم يترك سبيلاً لمشاكسته إلا سلكه . يضاف إلى ذلك العداء المستمر بين ملك خوارزم شاه وخام جرد المجاور له .

فرأى ملك خوارزم أن خير وسيلة للتخلص من هؤلاء الأعداء هو الإرسال إلى قتيبة فبعث إليه سرًا يطلب منه أن يحضر إلى بلاده لحمايته ، فسارع قتيبة بالتوجه إليه وأظهر أنه يريد الصغد . وكما خدع قتيبة أهل خوارزم فقد خدعهم ملكهم بأن أكد لهم أن قتيبة لا يقصدهم وأنه خارج للصيد والقنص والتمتع بمظاهر الطبيعة في فصل الربيع .

وبهذا الصنيع تمكن قتيبة بسهولة أن يصل إلى هزراسب وعند ذلك شعر أهل خوارزم بدنو العدو من بلادهم فاستشارهم الملك فيما يفعل فأشاروا بالقتال ولكنه أبى عليهم ذلك مبينًا أنه قد عجز عنه من هو أقوى منهم فالواجب أن يقدموا إليه قرابين الطاعة والإخلاص وتم الاتفاق بين قتيبة وملك خوارزم على ما يأتي :

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٤٢ وابن الأثير جـ٤ ص١١٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٢ .

١ ـ أن يتمكن ملك خوارزم من أخيه الأصغر .

٢ ـ أن يساعده على خام جرد الذي طالما ناصبه العداء .

٣ ـ دفع جزية يؤديها ملك خوارزم لقتيبة .

وقد قام كل من الفريقين بتنفيذ ما عليه من شروط الاتفاق فأرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد فقتله وغلب على أرضه وسلم إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع ملك خوارزم أمواله إلى قتيبة وأدى إليه الجزية عن طيب خاطر وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين [١] .

ولكن أهل مملكته لم يرضهم هذا العمل واعتبروا هذا ضعفًا من الملك فوثبوا إليه وقتلوه [٢] .

وبعد أن انتهى قتيبة من أمر خوارزم نمت إليه الأخبار بأن الصغد قد نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ، فجهز الجيوش وخطبهم خطبة حثهم فيها على الاستبسال والاستماتة في القتال قال فيها : « إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن وهذه الصغد شاغرة برجلها وقد نقض أهلها العهد الذي كان بيننا وبينهم ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون وصنعوا به ما بلغكم وإني أرجو أن تكون الصغد وخوارزم كقريظة والنضير ومن نكث فإنما ينكث على نفسه فسيروا على بركة الله » فسار عشرون ألفًا على رأسهم أخوه عبد الرحمن ولحق به قتيبة بعد ثلاثة أيام وقدم معه أهل خوارزم وبخارى فقاتلوا الصغد وحصروهم نحو الشهر وخاف أهل الصغد طول الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش وخاقان الترك وأخشاد فرغانة : إن العرب إذا ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم ومهما كان

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٧ والطبري جـ٥ من ص٢٤٦ ـ ٢٤٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٥ ، ١٢٦ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ والعيني جـ١١ ص١٨٦ ودحلان جـ١ ص١٩٦ .

(٢) فتوح البلدان ص٤٢٧ والطبري جـ٥ ص٢٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ .

عندكم من قوة فابذلوها .

ففكروا وقالوا : إنما نؤتى من سفلتنا لأنهم لا يجدون كوجدنا : فانتخبوا من أبناء الطبقة العليا عددًا للخروج وجعلوا عليهم ابنًا لخاقان وأمروهم أن يبيتوا عسكر قتيبة وهو مشغول بحصار سمرقند ، فساروا قاصدين معسكر قتيبة .

بلغت هذه الخطة قتيبة فدبر لهم مكيدة تمكن بها من إحباط خطتهم بل وقتلهم وأسرهم .

وذلك بأن أرسل إليهم أخاه صالح في الطريق وأكمن لهم كمينين . فلما جاؤا وجدوا صالحًا فحملوا عليه واقتتلوا وبينما هم في القتال خرج إليهم الذين كمنوا وأعملوا فيهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلا القليل وغنموا منهم مغانم عظيمة .

علم الصغد بما حدث فضعفت نفوسهم ونصب قتيبة المجانيق على المدينة ورماهم فثلم السور واشتد في قتالهم فسئم أهل الصغد القتال ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب العرب فأرسلوا إلى قتيبة يلتمسون منه الصلح فقال حتى يبلغ الجيش الثلمة وحمل الجيش عليهم إلى أن تمكن من بلوغها وحينئذ قبل قتيبة الصلح على الشروط الآتية .

أولاً : أن يدفع أهل الصغد في كل عام مليونين ومائتي ألف مثقال [(١)] .

ثانيًا ـ أن يدفعوا في هذا العام ثلاثين ألفًا من فرسانهم [(٢)] .

ثالثًا ـ أن تخلى المدينة لقتيبة فلا يكون فيها مقاتل حتى يبني قتيبة فيها مسجدًا ويصلي فيه .

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص١٢٧ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ والطبري جـ٥ ص٢٥١ وابن كثير جـ٩ ص٨٥ ودحلان جـ١ ص١٩٨ .

ويروي البلاذري في فتوح البلدان ص٤٢٧ أنه صالحهم على مليونين ومائتي ألف درهم أو سبعمائة ألف درهم فقط

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٥١ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٧ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ وابن كثير جـ٩ ص٨٥ ودحلان =

رابعًا ـ الاستيلاء على بيوت النيران وحلية الأصنام [١] .

فأعطوه ما شرطه فأخذ الحلية وأحرق الأصنام .

وقد حاول غزوك ـ ملكهم ـ أن يمنعه من حرقها بحجة أن من أحرقها هلك وأبان له أنه مشفق عليه فلم يبال قتيبة ونفذ ما أراد مما كان سببًا في إسلام الكثير من الناس [٢] .

ولما أحرقها جمع بقايا مساميرها وكانت ذهبًا فبلغت خمسين ألف مثقال . ثم أراد أن يقيم حامية في المدينة لحفظ الأمن والنظام فأرسل إليهم حين دخلها وبنى المسجد يقول : من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه فإني لست خارجًا منها ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه غير أن الجند يقيمون بها [٣] .

فنرى أن قتيبة لم يلزم أحدًا بالخروج بل من أراد أن يساكن الجند فلا ضير عليه في ذلك ومن لا يريد فلا حرج عليه فإنه عند شرطه معهم في أنه سوف لا يأخذ إلا ما صالحهم عليه .

وقد اتخذ ڤان ڤلوتن [٤] صنيع قتيبة هذا مثلاً حيًا للاستدلال على أن العرب في ذلك الوقت لم يكن يحفزهم للفتوح الدافع الديني بل شن الغارات والسلب والنهب وأنهم لا وفاء عندهم بل كانوا كثيرًا ما يشنون الحرب على بعض الولايات قبل أن تعلن الحرب عليهم بل قبل أن تنقض المعاهدة .

= جـ١ ص١٩٨ وقيل إنه صالحهم على مائة ألف رأس . نفس المصادر .

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص٢٤٩ ـ ٢٥١ وابن الأثير جـ٤ ص٢٦ ، ٢٧ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ وفتوح البلدان ص٤٢٧ ودحلان جـ١ ص١٩٧ ، ١٩٨ وابن كثير جـ٩ ص٨٥ والعيني جـ١١ ص٣٨٦ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٧ ، ٤٢٨ والسير توماس أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام ص٢١٣ .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٧ ، ٤٢٨ والطبري جـ٥ ص٢٥١ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٧ والعيني جـ١١ ص٣٨٧ ، ٣٨٨ وابن كثير جـ٩ ص٨٦ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١١٥ ودحلان جـ١ ص١٩٨ .

(٤) السيادة العربية ص٢٢ ، ٢٣ .

فيقول : قد فتحت تلك المدينة أبوابها لسعيد بن عثمان بعد أن أبرمت بينه وبينها معاهدة ودفعت له سبعمائة ألف درهم كما قدمت إليه مائة ألف من سكانها رهائن . ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم فطرد أهلها واحتلت جنوده مساكنها ـ كما روى ذلك مؤرخو العرب ـ على الرغم من أن سكان هذه المدينة لم يخرجوا على تلك المعاهدة التي كانت بينهم وبين سعيد بن عثمان [١] .

وبرجوعنا إلى المصادر نرى أنه حاد عن جادة الصواب في كل عبارته . فإن سمرقند لم تفتح أبوابها لسعيد بن عثمان بل إنه حدث قتال عنيف فقئت فيه عين سعيد .

ولما لم يجد أهل المدينة بدًّا من التسليم وخافوا من الفتح عنوة وما يترتب عليه طلبوا الصلح . ثم انتقضوا بعد ذلك ؛ فسار إليها قتيبة بن مسلم وفتحها [٢] ، فلما فتحها لم يطرد أهلها كما سبق بل خيرهم بين الإقامة والخروج وأخبرهم أنه سيضع جندًا بها .

ولو نظر ڤان ڤلوتن إلى هذا العمل ـ بروح المؤرخ النزيه ـ لوجد أن بقاء الجند في المدينة تبرره الظروف والملابسات ، فقد نقضوا العهد غير مرة وكانوا يدَّعون أنهم مسلمون ثم لا يلبثون أن يشقوا عصا الطاعة على الخليفة عندما تنسحب جيوشه الفاتحة من البلاد [٣] .

وسوف لا أرجع بالقارىء إلى بعيد بل إلى عهد قتيبة بن مسلم فإننا قد رأينا أن وردان خداه ـ ملك بخارى ـ استنجد بملك الصغد ضد قتيبة في سنة تسعين فلبى طرخون الطلب .

---

(١) السيادة العربية ص٢٣ .
(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤١٨ .
(٣) توماس أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام ص٢١٣ .

وطبعي أن انضمامه إلى عدو قتيبة يعد نقضًا للصلح . ولما انهزم ملك بخارى بادر طرخون إلى طلب الصلح من قتيبة قبل أن يشن عليه حربًا جزاء انضمامه فأجابه قتيبة إلى الصلح . ولم يعاقبه بغزو بلاده بل كان مسلمًا حقًا . ولم يرض ذلك الصلح أهل الصغد الذي عقده ملكهم ونددوا عليه في قبول الجزية وحبسوه وولوا غوزك أيصح بعد هذا أن يقول ڤان ڤلوتن : « على الرغم من أن سكان هذه المدينة لم يخرجوا على تلك المعاهدة التي كانت بينهم وبين سعيد بن **عثمان»!؟وهمقد خرجوا** في عهد قتيبة مرتين بانضمامهم إلى عدو قتيبة أولاً وعدم رضاهم بالمعاهدة التي عقدها ملكهم ثانيًا ؟ وقد كان حبسه بسبب تلك المعاهدة لا غيرها فقد قالوا له : إنك قد رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك .

وبعد هذا يعاب على قتيبة في تركه حامية لضمان عدم خروجهم وشغلهم جيوش المسلمين بين كل حين وآخر ؟؟ ولقد كان قتيبة يود إسلامهم فقد قال في غزوته هذه : حتى متى ياسمرقند يعشش فيك الشيطان ؟ [١] .

وقد أصاب قتيبة بالصغد جارية من ولد يزدجرد اسمها شاهفريد فأرسلها إلى الحجاج وأرسلها الحجاج إلى الوليد فولدت له يزيد [٢] .

وقد قصّد الشعراء القصائد في فتح سمرقند فقد قال قتيبة لنهار بن توسعة أين قولك :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يا نهار ؟ قال هذا أحسن وأما الذي أقول :

وما كنا مذكنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٥٣ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٧ ودحلان جـ١ ص١٩٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٥٢ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٧ ودحلان جـ١ ص١٩٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ والعيني جـ١١ ص٣٨٨ والهمداني ص٢٠٩ وابن نباتة ص١١٥ .

أعم لأهل الشرك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مقسمًا بعد مقسم (١)

كان قتيبة حينما غزا بخارى ولى على حربها إياس بن عبد الله وعلى خراجها عبيد الله بن أبي عبيد الله - مولى بني تميم - فاستضعف أهل خوارزم إياسًا وجمعوا له الجموع فكتب عبيد الله إلى قتيبة بالخبر فبعث قتيبة أخاه عبد الله عاملاً وأمره أن يضرب إياسًا وحيان النبطي مائة مائة ويحلقهما ، فلما قرب عبد الله من خوارزم أرسل إلى إياس إنذارًا فتنحى وقدم فضرب حيان وحلقه .

ثم وجه قتيبة الجنود إلى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله فحاربهم وانتصر عليهم فعقدوا معه صلحًا (٢) .

وأراد قتيبة أن يغزو الشاش وفرغانة لمحاولتهم مساعدة ملك الصغد وحفز هممهم لحرب العرب ففرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل سير منهم عددًا عظيمًا إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة ونزل بالقرب من خُجَنْدة . فخرج أهلها لمقاومته ودارت بينهم معركة كان النصر فيها حليف قتيبة ثم توجه إلى كاسان عاصمة فرغانة والتقى عندها بالجيوش التي كان قد وجهها إلى الشاش وكانوا قد فتحوها .

وزحفوا جميعًا إلى كاسان ودارت معركة حامية الوطيس أسفرت عن الانتصار العظيم للمسلمين .

وبذلك أصبحت بلاد فرغانة في قبضة المسلمين وكان ذلك في سنة أربع وتسعين للهجرة (٣) . وفي هذا الوقت بعث الحجاج جنودًا من العراق ليتمكن قتيبة من إتمام

---

(١) راجع الطبري جـ٥ ص٢٥٤ ، ٢٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ وابن خلكان جـ١ ص٥٤١ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٥٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٢٨ وابن خلدون جـ٣ ص٦٣ ودحلان جـ١ ص١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣) الطبري جـ٥ ص٢٥٧ ، ٢٥٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٣١ وابن خلدون جـ٣ ص٦٤ ودحلان جـ١ ص١٩٩ .

مغازيه فوصولوا إليه وغزا بهم فلما كان بالشاش أتـاه نبـأ موت الحجـاج في شوال من سنة خمس وتسعين فغمه هذا النبأ وقفل راجعًا إلى مرو ، منتظرًا ما تأتي به الأقـدار ومتمثلاً بقول القائل :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر　　بحـوْران أمسى أعْلَقَتْـه الحبـائـل
فإن تحي لا أملل حيـاتي وإن تمت　　فما في حيـاةٍ بعـد مـوتـك طـائـل

وبينما هو في حيرته إذ أتـاه كتـاب الخليفـة الوليـد يقـول لـه : قـد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهـاد أعـداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعـك وصـانع بـك كالـذي يجب لـك فـأتم مغـازيـك وانتظر ثـواب ربـك ولا تَغَيَّبْ عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت به [١] .

وكان الحجاج قد كتب إلى قائديه ـ قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم ـ أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها [٢] .

فلما وصل قتيبة في فتوحه إلى هذا الحد وجه عزمه إلى فتح مدينـة كاشغر ـ أدنى مدائن الصين ـ فأعد جيشًا عظيمًا وعبر نهر بلخ وجعل على المجاز مسلحـة تمنع الراجع من العسكر إلا إذا كان معه جوازًا من قتيبة .

وبعث جيشًا مع كثير بن فلان إلى كاشغر فدخلهـا وغنم منهـا مغـانم كثيرة وأسر كثيرًا من الرجال فختم أعناقهم واستمر في سيره .

هال ذلك الأمر ملك الصين فكتب إلى قتيبة يطلب منه إرسال وفـد من أشراف العرب ليسـألهم عن حـالهم ودينهم ، فـانتخب قتيبـة عشرة من أشراف النـاس عليهم هبيرة بن المشمرخ وزودهم بـالعـدة الحسنـة والخيل المطهمـة وقـال لهم : أعلمـوا ملـك الصين أني حالـف ألا أعود حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبي خراجهم .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٣ ، ٢٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) اليعقوبي جـ٣ ص٣٣ .

فلما قدموا على ملك الصين دعاهم لمقابلته وفي حضرته عظماء أهل مملكته وقال لهم : لقد رأيتم عظمة ملكي وأنتم بين يدي وليس لكم من يمنعكم من بطشي ، وقد عرفت قلتكم فقولوا لصاحبكم ينصرف . وإلا بعثت إليكم من يهلككم : فقالوا له : كيف نكون في قلة وأول خيلنا في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟! وأما القتل فلا نخافه ولا نكرهه ولنا آجال إذا حضرت فلن نتعداها . وقد حلف صاحبنا أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ جزيتكم : فقال الملك إنا نخرجه من يمينه وذلك بأن نبعث إليه ترابًا من أرضنا ليطأه ويقبض أبناءنا فيختمهم ونبعث إليه بهدية ترضيه . ثم أجازهم فأحسن جائزتهم وقدم الوفد على قتيبة بما بعث به ملك الصين فقبل الهدية وختم الغلمان وردهم .

وعزم على الرجوع إلى مرو بما أفاء الله عليه فبلغه موت الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ست وتسعين للهجرة [1] .

خاتمة حياة قتيبة :

لقد كانت نهاية فاتح بخارى وسمرقند وخوارزم وكاشغر مثل نهاية غيره من عظماء التاريخ فإنه لما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك خاف قتيبة على نفسه وخشي أن ينتقم منه لأنه من صنائع الحجاج بن يوسف البغيض إلى سليمان من جهة ولأنه من الذين وافقوا على بيعه الوليد لابنه عبد العزيز وخلع سليمان من جهة أخرى [2] وتوقع أن يولى سليمان يزيد بن المهلب خراسان وهو العدو اللدود للحجاج ومن ينتمي إليه فكتب إلى سليمان ثلاثة كتب في وقت واحد . كتابًا يهنيه فيه بالخلافة ويعزيه في الوليد ويذكر فيه بلاءه وأعماله وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه سيكون له كما كان لأبيه وأخيه من الطاعة وحسن البلاء إذا رأى أن لا يعزله .

(١) الطبري جـ٥ من ص٢٦٨ ـ ٢٧١ وابن الأثير جـ٤ من ص١٣٥ ـ ١٣٧ وابن خلدون جـ٣ ص٦٧ وابن شاكر جـ٥ من ص٢٩٤ ، ٢٩٦ وسرح العيون ص١١٦ ودحلان جـ١ ص١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٦٧ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٨ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٢٨ وابن شاكر جـ٥ ص٢٨٩ وابن خلدون جـ٣ ص٦٨ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٨ ودجلان جـ١ ص٢٠١ .

وكتابًا ثانيًا يذكر فيه فتوحه ونكايته بالعدو ، وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم ويـذم المهلب وآل المهلب ويحلف بـالله لئن استعمل يزيـد على خراسـان ليخلعن سليمان . وكتابًا ثالثًا فيه خلعه [1] .

وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له : ادفع الكتاب الأول إلى الخليفـة فإن كان يزيد بن المهلب حاضرًا فقرأ الخليفة الكتاب ورمـاه إلى يزيـد فـادفع إليـه الثاني فإن قرأه ورماه فادفع إليه الثالث ، وإن قرأ الكتاب الأول ولم يعطه ليزيد فاحتبس الكتابين الآخرين .

فخرج الرسول وسار إلى سليمان فقدم عليـه وعنـده يزيـد بن المهلب فـدفع إليـه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه فأعطاه ليزيد فدفع إليـه الثالث فقرأه فتغير لونه وامتقع وجهه واحتبسه في يده .

وأمر بالرسول فحول إلى دار الضيافة ثم أحضره في المساء فـأجـازه وأعطـاه عهـد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة [2] .

فإن قتيبة كان غير مطمئن إلى سليمان وكان موقنًا أنه سيناله ما نـال آل الحجـاج سيما وأن الكتب التي أرسلها كانت تحوي تهديدًا قويًا من جـانبـه ، فثـارت الهواجس في نفسه وأشار عليه بعض إخوته بخلع سليمان فخلعه ودعا الناس والقبـائل إلى خلعـه وقارن بين نفسه ومن سبقه في ولاية خراسان وبين لهم أن سليمان ممن لا يرجى لخير ولكن الناس أبوا عليه خلع سليمان .

ولما لم يجبـه أحـد إلى مـا أراد ثـارت ثـائرتـه وغضب فشتم النـاس قبيلـة قبيلـة فتحزَّب النـاس ضـده وأسنـدوا أمرهم إلى وكيع سيـد بني تميم وثـاروا على قتيبـة حتى

(١) الطبري جـ٥ ص٢٧٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٩ والعيون والحـدائق جـ١ ص٢٣ وسرح العيون ص١١٧ وابن خلدون جـ٣ ص٦٨ وابن كثير جـ٩ ص٢٢٧ ويروى أن الكتاب الأول كان وقيعة في يزيـد وقلـة شكره والثاني ثناء على يزيد والثالث يهدد فيه الخليفة بالخلع إن عزله . الطبري جـ٥ ص٢٧٤ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٧٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٩ وابن شاكر جـ٥ ص٢٩١ .

قتلوه هو وإخوته وأكثر آل بيته [١] في سنة ست وتسعين .

وبذلك انتهت حياة هذا القائد الذي برهن على حزم وعزم في مدة ولايته .

وضاعت حياة ذلك الفاتح العظيم الذي كان له أعظم الأثر في مد نفوذ دولة الإسلام والفتوحات التي تشهد له بالقدرة مما جعله مهابًا لدى الترك والعجم فقد قال الإصبهبذ لرجل : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيدا العرب ؟! قال العربي : **فأيهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟؟ قال : لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر** به في الأرض مكبلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا واليًا علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد .

وقال رجل من أهل خراسان : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ؟؟ لو كان قتيبة منا فمات فينا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر [٢] .

وقد رثاه الشعراء بقصائد تدل على عظم قدره وما له من المكانة [٣] .

ورب قائل يقول : إن قتيبة هو الذي قتل نفسه بما صنع من إرساله للكتب وخلعه للخليفة وسبه للقبائل سبًا لم يطيقوا معه صبرًا فهو الذي يتحمل تبعة قتل نفسه .

وفي رأينا أنه كان مسئولاً ولكن إلى حد . فقد ركب المركب الصعب ووقف من

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص٢٧٥ ـ ٢٨١ وابن الأثير جـ٤ من ص١٣٩ ـ ١٤١ والبلاذري ـ فتوح البلدان من ص٤٢٨ ـ ٤٣٠ وابن خلدون جـ٣ ص٦٨ ، ٦٩ وابن شاكر جـ٥ ص٢٩٢ والجاحظ جـ٢ ص٦٧ والعيون والحدائق جـ٣ ص٢٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢٨٣ وابن الأثير جـ٤ ص١٤٢ وابن شاكر جـ٥ ص٢٩٤ والعيون والحدائق جـ٣ ص٢٤ ودحلان جـ١ ص٢٠١ .

(٣) راجع الطبري جـ٥ من ض٢٨٣ ـ ٢٨٥ وابن الأثير جـ٤ ص١٤٢ وابن كثير جـ٩ ص١٦٨ .

الخليفة هذا الموقف وهو يعلم أنه لابد معزول . فرأى أن يكون البادىء بالهجوم على الخليفة .

ولكن أساء تقدير العرب المحيطين به إذ أسرف في حسن الظن بهم فخيل إليه أنهم متابعوه على خلع الخليفة .

فلما أبوا عليه ذلك طاش عقله وتحقق من سوء خاتمته فجرى على لسانه سب القبائل العربية والمن عليهم بما أغدقه الله عليهم من نعم على يديه . فكانت خاتمته ما رأينا .

الفصل الثالث
محمد بن القاسم في السند وفتوحاته ونهاية حياته

تحدثنا المصادر العربية عن فتح العرب للسند مرات عدة ؛ ويجدر بنا قبل الكلام عن فتوح محمد بن القاسم للسند أن نقرر أن السند التي عرفها العرب تختلف في موقعها الجغرافي عن الإقليم الذي يطلق عليه هذا الاسم في العصر الحديث .

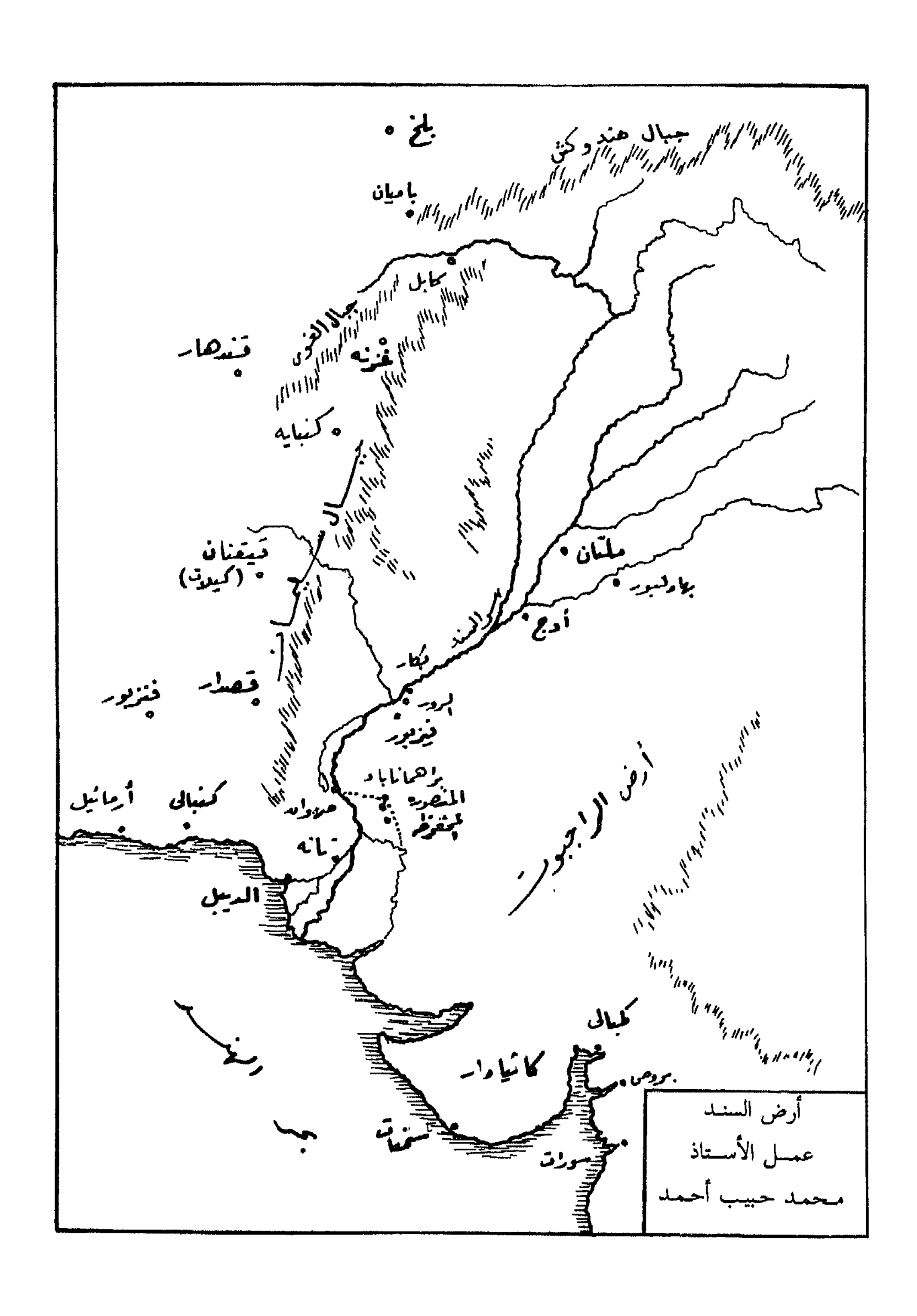
فالسند اليوم هي عبارة عن المجرى الأدنى لنهر السند من مدينة الملتان إلى كراتشي عند المصب .

أما في القرن الأول الهجري فكانت بلاد السند تشمل السند الحالية ووادي البنجاب (أرض الأنهار الخمسة) وتمتد غربًا حتى تصل إلى هرات فتشمل بذلك البلاد المعروفة اليوم بأفغانستان وتتجه جنوبًا إلى أن تصل إلى بحر العرب فتشمل بذلك بلوخستان الحالية .

وتنقسم السند ـ التي عرفها العرب ـ إلى إقليمين طبيعيين أحدهما شرقي جبال سليمان وهو خصب آهل بالسكان منذ القدم (وهو المعروف اليوم بالسند والبنجاب) .

وثانيهما قاحل ماحل كثير التضاريس واقع في الغرب من جبال سليمان (وهو المعروف اليوم بأفغانستان وبلوخستان) .

وإذا نظرنا إلى الفتوحات العربية التي امتدت شرقي بلاد فارس وجدنا أن العرب قد حاولوا في مناسبات متعددة أن يتوغلوا داخل إقليم السند الغربية فكانوا بين آن وآخر يصيبون فتحًا وفيئًا ثم لا تلبث الحامية العربية أن تستعصى عليها سبل الحياة أو يقوم السكان الوطنيون عليهم بثورة يتقلص بها نفوذ الإسلام ثم لا يلبث المسلمون بعد ذلك أن يقوموا بغزو جديد يكون في الغالب مصيره مصير ما سبقه من غزو .



بلخ
جبال هندوكش
باميان
كابل
جبال الغور
غزنه
قندهار
ملتان
أدج
أرض الراجبوت
الديبل
كاثياوار
سورت
أرض السند
عمل الأستاذ
محمد حبيب أحمد

وكان من التقاليد ـ في ولاية العراق أو في مقر الخلافة ـ أن يعين أحد العرب النابهين واليًا على السند .

وظاهر مما ذكرناه من ظروف أن تولية أحد العرب ولاية السند لم يكن معناه أن السند خضعت للعرب خضوعًا تامًا حتى يعين لها حاكم سياسي . كما يجب أن يستقر في الأذهان أن تعيين حاكم السند لم يكن معناه بحال من الأحوال أن يرى هذا الحاكم بلاد السند الحالية رأى العين .

فمن ذلك أن الحجاج لما ولي العراق سنة خمس وسبعين من الهجرة أسند ولاية السند إلى أسلم بن زرعة الكلابي فأقام بمكران ؛ ولم تستطع المصادر العربية أن تحدثنا بأكثر من ذلك اللهم إلا قولها (وغزا ناحية من الهند) . أما في حديثها عن الشؤون العربية فتفيض في هذه الناحية فتحدثنا عن خروج محمد ومعاوية ابني الحارث العلافيين على سعيد وقتلها له وأن الحجاج أرسل إليهما مجاعة بن سعر التميمي ففتح مجاعة أماكن من قندابيل .

ثم مات بعد سنة بمكران فولى الحجاج بعده محمد بن هارون بن ذراع النمري فسار إلى مكران وغزا في البلاد وظفر مرة بعد أخرى [١] ؛ ومن ذلك يستدل على أن مؤرخي العرب لم يستطيعوا ـ لأسباب خارجة عن إرادتهم ـ أن يحدثونا عن كنه الفتوحات الإسلامية في ذلك الإقليم إن كانت ثمت فتوحات .

على أنهم يقررون أن العرب لم يحاولوا فتح السند الحقيقية قبل عصر الحجاج اللهم إلا تلك المحاولة الكشفية التي قام بها المهلب بن أبي صفرة في سنة أربع وأربعين من الهجرة حيث توغل من كابول شرقًا حتى دخل بلادًا بين كابل والملتان ثم عاد [٢] .

---

(١) البلادري ـ فتوح البلدان ص٤٤١ وابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص٣٦ وابن خلدون جـ٣ ص٤٢ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٣٨ ، ٤٣٩ وابن الأثير ـ الكامل جـ٣ ص٢٢١ .

ويبدو من ظروف الحوادث أن تقريره الذي رفعه إلى دار الخلافة كان من النوع الذي لا يشجع العرب على إرسال بعوث جديدة إلى تلك الجهات .

وفي تقديرنا أن محاولة فتح العرب للسند (شرقي جبال سليمان) عن طريق كابول كانت محاولة محفوفة بالمخاطر إذ إن حال الإسلام لم يكن قد استقر في إقليم السند (غربي جبال سليمان) .

أما الفتح المنتج لتلك البلاد فكان يجب أن يأتي عن طريق السهل الساحلي الواقع على بحر العرب المعروف وقتئذ بساحل مكران ؛ وهذا هو الطريق الذي سلكته جيوش الحجاج .

حاول محمد بن هارون بن ذراع النمري أن يدخل السند الحقيقية عن طريق السهل الساحلي فوصل إلى دلتا نهر السند يريد الديبل فعلم ملكها بقدومه فجمع له جيشًا وحدثت معركة قتل فيها محمد بن هارون [١] .

كان يحكم بلاد السند في ذلك الوقت أمير هندوسي هو راجاداهر وكانت عاصمته مدينة ألور [٢] .

وكان يملك السند والبنجاب بأكملها ويحتمل أنه كان يملك السهول المجاورة وكانت إمارته موزعة بين أقاربه ويحتمل أنها كانت موزعة على الأسلوب الإقطاعي الذي لا يزال معروفًا بين قبائل الراجبوت [٣] .

وكان يحكم إقليم الديبل ابن لداهر هو الذي تلقى صدمات العرب الأولى وفي عهده اتجه الحجاج بنظره إلى السند فجرد عليها الحملات للفتح .

---

(١) اليعقوبي جـ٣ ص٢٢ ويروي البلاذري في فتوح البلدان ص٤٤٢ أنه لم يقتل وأنه تقابل مع محمد بن القاسم .

(٢) ألور بالقرب من بكار جنوبي مدينة الملتان ـ تاريخ الهند لألفنستون ص٢٦١ .

(٣) ألفنستون ـ تاريخ الهند ص٢٦١ .

ويتخذ المؤرخون لهذه الفتوحات قصة اختلفوا في حقيقة كنهها :

فيروي البلاذري [١] . أن ملك جزيرة الياقوت (سيلان) أهدى إلى الحجاج نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارًا فأراد التقرب بهن فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن - وكانت من بني يربوع - ياحجاج وبلغ ذلك الحجاج فقال : يالبيك .

ويروى أن ملك جزيرة الياقوت كان قد اعتنق الإسلام وأن السفينة التي نهبها القراصنة كانت تحمل الخراج إلى أمير المؤمنين ، ويروى كذلك أن عبد الملك كان قد أرسل إلى الهند بعثًا لشراء بعض الجواري وشيء من سلع الهند وأن السفينة التي كانت تحمل هذا البعث ألقت مراسيها في ثغر الديبل فنهبها اللصوص [٢] .

ومهما يكن من أمر فلسنا بصدد تفاصيل الحادث في ذاته بل كل ما يهمنا أنه أحدث أزمة بين داهر والحجاج كان من نتائجها أن اتجهت الفتوحات الإسلامية نحو السند .

كتب الحجاج إلى داهر على يد محمد بن هارون يسأله وضع الأمور في نصابها فقال إنما أحدث ذلك لصوص لا أقدر عليهم فاستأذن الحجاج الوليد في أن يغزو السند فلما أذن له أغزاها عبيد الله بن نبهان فقتل فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل فلما لقيهم نفر به فرسه فأطاف به الأعداء وقتلوه [٣] .

حملة محمد بن القاسم :

وفي سنة تسع وثمانين من الهجرة ولى الحجاج ذلك الثغر بطلاً من أبطال المسلمين ومحاربًا من خيرة المحاربين ذلكم هو محمد بن القاسم الثقفي فقد تمكن بجرأته وحزمه

---

(١) فتوح البلدان ص٤٤١ .

(٢) السيرولزلي هاريج - تاريخ كمبردج جـ٣ ص٢ .

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص٤٤١ .

من فتح السند في سنين قليلة مع أن سبعة من قواد المسلمين لم يتمكنوا من فتحها .

ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن فتوحاتهم كانت بمثابة مناوشات واستطلاعات كشفية .

أما الفتح الحقيقي الذي بقي زمنًا ثابت الأركان فقد كان بطله محمد بن القاسم وذلك لأنه تمكن من امتلاك البلاد والاستيلاء عليها .

ويبدو لنا أن الحجاج كان يُولي هذا البعث كل عنايته وكان يهتم بمصيره كل الاهتمام فنراه لا يعتمد فيه على جند العراق بل يجند له ستة آلاف من جند الشام يستطيع من أراد من أهل العراق وفارس أن ينضم إليه .

ورغبة منه في أن يكفل لهذا الجيش كل وسائل الراحة والتموين جهزه بكل ما يحتاج إليه حتى الخيوط والمسال والإبر (١) .

وأراد الحجاج أن يوفر لرجال جيشه الخل ليطبخوا به ويصطبغوا فهداه تفكيره إلى أن ينقع القطن في الخل ويجففه في الظل حتى إذا صار الجند بالسند نقعوا القطن في الماء فصار خلاً (٢) .

وبلغ من عناية الحجاج بهذه الحملة أن هيأ لها كل الوسائل التي تكفل لها الفتح والاستقرار فبعث معدات الحصار ـ في سفن خرجت من الخليج الفارسي وألقت مراسيها عند ثغر الديبل في الوقت الذي كانت قد وصلت فيه الجيوش البرية ؛ ومن تفاصيل الحملة التي اتبعها الحجاج ـ رغبة منه في الاطمئنان على مصير هذه الحملة ـ أنه أوصى محمد بن القاسم أن يوافيه بكتبه كل ثلاثة أيام (٣) .

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤١ واليعقوبي جـ٣ ص٣٢ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ ودحلان جـ١ ص١٨٨ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٢ ويروي أن محمد بن القاسم لما صار إلى السند ووجد الخل بها قليلاً كتب إلى الحجاج يخبره بذلك فبعث إليه القطن المنقوع في الخل ـ نفس المصدر .

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٢ .

وأمر محمد بن القاسم ـ وكان بفارس ـ أن يسير إلى مكران وأن يتابع الساحل حتى يصل إلى الديبل فقدمها يوم الجمعة ووافته السفن التي حملت معدات الحصار ومن بينها المنجنيق الذي كان يعرف باسم العروس ويقوم عليه خمسمائة رجل .

وقف العرب على أبواب المدينة وقد شاهدوا إلى جانبها معبدًا يحيط به جدار من الحجر ويأوي إليه كثير من أهل الطبقة العليا من الهندوس ويحرسه حرس كبير من الراجبوت فاتجه محمد بن القاسم إليه قبل أن يتجه إلى المدينة رغبة في تحطيم ما بداخله من الأصنام .

وقيل إن محمد بن القاسم قد علم من بعض الأهالي أن القوم يعتقدون أن منارة المعبد إذا تهدمت آمن الناس بالفتح ، فوجه ابن القاسم ضرباته نحو الهدف فما تحطمت المنارة إلا ودب الرعب والاضطراب في جميع القلوب وإذا بحاكم المدينة يفر منها نحو الشمال .

أما أهل المدينة فقد فتحوا أبوابها للغزاة المسلمين (١) .

وقيل إن المدينة لم تستسلم للفاتح بهذه السهولة والسرعة وإنما أغلق أهلها أبوابها عليهم واعتصموا بها ولكن هذا الاعتصام لم ينجهم إذ أمر محمد بن القاسم بالسلالم فوضعت على سور المدينة وصعد عليها الرجال واقتحموا المدينة وأعملوا السيوف في رقاب الأعداء ففتكوا بهم فتكًا ذريعًا (٢) .

ويفصل بعض المؤرخين ذلك فيروى أن محمد بن القاسم عرض الإسلام على أهل الديبل ـ بما فيه من عملية الختان ـ فرفض البراهمة وتابعهم بقية الشعب فأعمل محمد السيف في كل رجل زادت سنه عن سبع عشرة سنة وأسر كل من قلت سنه عن ذلك .

---

(١) الفنستون ص٢٦٢ وراجع البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٤٤٢ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ واليعقوبي جـ٣ ص٣٢ ، ٣٣ وابن خلدون جـ٣ ص٦٠ ودحلان جـ١ ص١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٢ واليعقوبي جـ٣ ص٣٢ ، ٣٣ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ وابن خلدون جـ٣ ص٦٠ .

أما النساء فقد أسرن جميعًا [١] .

وقد غنم المسلمون من البدو والمدينة غنائم لا تحصى أرسل الخمس منها للحجاج ووزع الباقي على المحاربين .

وجه ابن القاسم بعد ذلك عنايته لإصلاح المدينة فبنى مسجدًا لإقامة الشعائر الدينية وخلف بها حامية [٢] ثم اتجه نحو الشمال متابعًا حاكم المدينة الذي فر من وجهه .

وتقدم ابن القاسم حتى وصل (حيدر أباد السند) ولكن أهلها كفوا المسلمين عناء الفتح إذ كاتبوا الحجاج قبل ذلك في طلب الأمان والصلح فدخل ابن القاسم المدينة فقابله أهلها مقابلة حسنة وقدموا له العلوفة ووفوا بالصلح وجعل محمد لا يمر بمدينة إلا فتحت له أبوابها [٣] حتى أتى صهوان فحاصرها .

وعلى الرغم من استعداد المدينة للمقاومة وقعت في يد العرب بعد سبعة أيام [٣] .

وإلى هذه المرحلة كان محمد بن القاسم لم يلق عناءً كبيرًا في هذه الفتوحات إذ كان مسيره في واد زراعي محدود الأهمية بينما كانت بلاد داهر الحقيقية واقعة إلى الشمال من ذلك فكان ابن القاسم كلما سار شمالاً اقترب من مراكز المقاومة العنيفة دفاعًا عن كيان البلادُ الأصلية .

جهز داهر أكبر أبنائه لتنظيم المقاومة بينما كانت ظروف محمد بن القاسم تستدعي شيئًا من الراحة وانتظار المدد وتجديد العدة . وقد وافاه وقتئذ ألفا فارس من بلاد الفرس اتجه بهم شمالاً على الضفة الغربية للنهر حتى حاذى مدينة ألور (بكار الحديثة) الواقعة على الضفة الشرقية للنهر حيث اعتصم الهندوس تحت زعامة ابن داهر فعبر ابن القاسم النهر بوسيلة أرعبت الهندوس : ذلك أنه قاس بنظرة عرض

---

(١) ألفنستون ص٢٦٢ .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٣ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ ودحلان جـ١ ص١٨٩ .

(٣) ألفنستون ص٢٦٢ .

النهر ثم جاء بسفن ربطها ببعضها محاذية لشاطىء النهر حتى كان طول هذا الجسر من السفن مساويًا لعرض النهر ثم أقام الجسر فجأة وعبرت عليه جنوده فأرعبت هذه المفأجاة الهندوس ودارت بين الفريقين معركة هرع فيها داهر بنفسه إلى الوقوف بجانب رجاله البالغ عددهم نحو الخمسين ألفا

وبذلك دارت رحى معركة كانت الغلبة العددية فيها للهندوس يقابلها من جانب المسلمين ثبات وصبر واعتماد على الله واستشهاد في سبيله .

ودام القتال طويلاً فكانت الحرب سجالاً إلى أن أصابت قذيفة من قذائف المسلمين الفيل الذي كان يعتليه داهر فجمح الفيل وعليه راكبه فلم تهدأ ثائرته إلا بعد أن ألقى بنفسه وراكبه في النهر .

ولقد أحدث هذا المصاب الذي أصاب داهر خللا خطير في صفوف الهندوس وعلى الرغم من أن داهر استطاع أن يعود إلى ميدان القتال على ظهر جواد إلا أن الغلبة كانت قد صارت للعرب وظل داهر يحارب حتى سقط في ميدان القتال ؛ وبذلك كسب المسلمون الموقعة (١) وفر ابن الراجا داهر .

وبعد فراره قامت زوجته بعمل باهر فإنها جمعت شعث الجيش وحاولت مقاومة الفاتحين فحاصر المسلمون المدينة وقطعوا عنها الأرزاق فصمم الهندوس على المقاومة إلى النهاية فأوقدوا نارًا أحرقوا فيها الأطفال والنساء .

أما الرجال ففتحوا أبواب المدينة ودار بينهم وبين العرب معركة مخيفة فني فيها الهندوس عن آخرهم ولم يبق منهم إلا قلة رفضت المشاركة في هذه المغامرة فوقعوا أسرى في يد المسلمين .

اتجه ابن القاسم بعد ذلك شمالاً إلى أن أشرف على وادي البنجاب فكان قلما يلقى مقاومة تذكر .

---

(١) ألفنستون ص٢٦٢ ، ٢٦٣ وراجع اليعقوبي جـ٣ ص٣٣ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٣ ، ٤٤٤ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ .

ذلك أن داهر الملك الأعلى للبلاد كان قد قتل أما ابنه الأكبر فكان قد فر جنوبًا إلى براهمناباذ وبذلك استطاع ابن القاسم أن يدخل الملتان [١] .

وكان محمد بن القاسم يوافى الحجاج بكتبه كل ثلاثة أيام ويرسل إليه خمس الغنائم ؛ ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم ووجد ماحمل إليه مائة وعشرين ألف ألف فقال : شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر [٢] .

ومات الحجاج فأتت محمدًا وفاته فرجع من الملتان إلى ألور منتظرًا ما تأتي به الأقدار فكتب إليه الخليفة الوليد : إني أعرف همتك وعزمك فسر في طريقك ووافني بالكتب حتى كأني أنظر إلى الثغر الذي أنت فيه .

فبعث بعوثًا إلى جهات مختلفة فتحتها واستولت عليها غير أنها كلها كانت فتوحات محلية تختلف في طابعها عن الفتوحات التي قام بها أيام الحجاج إذ كان ابن القاسم في أيامه يجد في السير نحو الشمال ولعله كان وقتئذ يرجو أن ينتهي من فتح السند والبنجاب وأن يجاوزهما إلى كشمير في طريقه إلى الصين كما كان يفعل قتيبة بن مسلم في فتوحاته فيما وراء النهر في نفس الوقت .

ولعل كلا منهما كان يرجو أن يصل إلى الصين قبل صاحبه اعتمادًا على ما ذكره الحجاج في خطابه « أيكما سبق إلى الصين فهو عاملها » [٣] .

---

(١) ألفنستون من ص٢٦١ ـ ٢٦٤ وراجع اليعقوبي جـ٣ ص٣٣ وابن الأثير جـ٤ ص١١١ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٤ ، ٤٤٥ وابن خلدون جـ٣ ص٦١ .
وقد آثرنا أن نعتمد على تحقيقات ألفنستون لأن المصادر العربية في حديثها عن فتوحات السند اضطربت بعض الاضطراب ؛ ولها العذر في ذلك . إذ إن أخبار هذه الفتوحات وما إليها من أسماء المدن كانت كلها غريبة عليهم ؛ وقد دونت هذه الأخبار في وقت لم يكن للعرب في هذه الأقاليم نفوذ يستحق الذكر .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٥ وابن الأثير جـ٤ ص١١٢ ودحلان جـ١ ص١٨٩ .

(٣) اليعقوبي جـ٣ ص٣٣ .

ولكن وفاة الحجاج كانت بمثابة صدمة لكل منهما فوقفت الفتوحات الجديدة واقتصر الفاتحان على فتوحات محلية كما ذكرنا .

على أن هذه الفتوحات في ذاتها وقفت أيضًا بوفاة الوليد ؛ وبذلك طويت صفحة من صفحات الفتوحات الإسلامية الزاهرة ولو طال عمر الحجاج سنوات أو لو بقي الوليد بعده سنوات لتغير وجه التاريخ الإسلامي في تلك البقاع .

نهاية محمد بن القاسم :

تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة فأراد أن ينتقم من آل الحجاج فعزل محمد بن القاسم عن ولاية السند وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي فأخذ محمدًا وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلاً :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

وقد بكى أهل السند على محمد وصوره في الكرج تذكارا لعهده الزاهر وتقدير لأعماله الخالدة في بلادهم ولما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فقال :

فلئن تويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلاً مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وقد عذبه صالح في رجال من آل عقيل حتى قتلهم وكان الحجاج قد قتل آدم أخا صالح لأنه كان يرى رأي الخوارج .

وقال حمزة بن بيض الحنفي يرثي ابن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة　　　　ياقرب ذلك سؤددًا من مولد [1]

وهكذا طويت صحيفة من سفر البطولة وأغمد سيف من سيوف الإسلام التي سلها الله على رقاب المشركين .

فإليه يرجع الفضل في تثبيت أقدام المسلمين في بلاد الهند .

هذا ؛ ولم تشفع له لدى الخليفة سليمان أعماله الجليلة ولا مواقفه الجبارة ولا بلاؤه الحسن في فتح هذه البلاد الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف كما لم يشفع لموسى بن نصير فتحه للأندلس .

وهكذا تغلبت العوامل الشخصية على المصلحة العامة ففقد سليمان اثنين من خيرة قواد العرب ولو حاول الانتفاع بهما سيوفًا مسلولة للإسلام لكان ذلك خيرًا وأبقى .

ولقد كان لمحمد بن القاسم من قوته وشدة بأسه وطاعة جنده له والتفاف الشعب الهندي حوله ما يساعده على شق عصا الطاعة ومحاربة الخليفة سليمان والاستقلال

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص١٣٣ ، ١٣٤ والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٥ ، ٤٤٦ .

وقد أوردت بعض المصادر الأوربية قصة عن نهاية ابن القاسم ذهبت فيها إلى أن ابن القاسم أرسل إلى الوليد ابن عبد الملك بعد فتح الرورابنتين لداهر ملك السند كانتا قد أسرتا . فلما رآهما الوليد بهر بجمالها فأراد أن يتسرى بإحداهما فقالت له : ياأمير المؤمنين أنا لا أصلح لك فلقد عبث بي محمد بن القاسم قبل أن يرسلني إليك . فغضب الوليد وأرسل إلى ابن القاسم من وضعه في جلد ثور غير مدبوغ وأرسله إلى الخليفة إلا أن ابن القاسم مات في الطريق من شدة ما عانى . فلما حضر لدى الخليفة فتح عنه الجلد بحضور الخليفة فوجد ميتًا .

وفي رأينا أن هذه قصة خرافية حكمها في ذلك حكم ما صيغ من أمثالها من القصص فيما يشابه هذه المناسبة .

هذا ؛ وقد أجمعت المصادر العربية على أن ابن القاسم عاد إلى واسط حيًا مقيدًا بالسلاسل وقد رثى نفسه ورثاه الناس في عهد سليمان مما يستبعد معه تصديق القصة التي أوردتها المصادر الأوربية ـ ألفنستون ص٢٦٤ والسير أيلوت ص٢١١ نقلاً عن تاريخ شاشنامة والسير ولزلي جـ٣ ص٧ وقد استبعدها معتمدًا على ما اعتمدنا عليه من أن مأساة ابن القاسم حدثت في أيام سليمان لقيام العداوة بينه وبين آل الحجاج ؛ ولم تحدث في أيام الوليد .

بالهند ؛ ولكنه آثر الموادعة والمسالمة صدعًا لأمر الخليفة فذهب ضحية الإخلاص والوفاء وقد قال محمد في سجنه .

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عك عليّ أمير
وما كنت للعبد المزوني تابعًا فيالك دهرٌ بالكرام عثور

الباب الخامس

الحجاج في حياته الخاصة

الفصل الأول
أدب الحجاج
الحجاج والشعراء ، الحجاج الخطيب والكاتب

عرف الحجاج ـ وخاصة خلال حكمه العراق ـ بالقسوة وقال في ذلك المؤرخون ما طاب لهم أن يقولوه حتى لا يكاد الإنسان يجد كتابًا من كتب التاريخ أو مرجعًا من المراجع إلا وفيه إشارة أو أكثر لهذه الصفة .

ومهما أفاض المؤرخون في ذلك فلا يستطيع الإنسان أن ينكر أن الحجاج في حياته الخاصة كان يختلف عن ذلك الوصف كثيرًا .

أجل . لقد كانت ظروف العراق تستلزم أن يظهر لأهله بهذا المظهر الخشن وأن يعاملهم هذه المعاملة التي وصفت بالقسوة .

ولقد كانت هذه المعاملة موضع مدح الشعراء الذين اتصلوا بالحجاج وعاشروه .

أما حياته الخاصة تلك الحياة التي لا يربطه فيها بشؤون الدولة رابط فقد طغت عليها حياة الحجاج الأصلية من لين في المعاملة وتبسط في القول ودعابة في الحديث وإجزال في العطاء .

ومن أعجب ما في تاريخ الحجاج من تناقض بين صفاته العامة وصفاته الخاصة أن الرجل الذي أجمعت المصادر على اتهامه بالإسراف في الدماء هو بعينه الرجل الذي يشغف بالموسيقى إلى حد أن يعزف بنفسه على بعض آلاتها . يعزف لنفسه ثم يعزف كذلك لجلسائه (١) .

---

(١) راجع الإمامة والسياسة جـ٢ ص٤٢ ، ٤٣ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ١ ص١١٠ وابن خلكان جـ١ ص٢٥٧ .

وكان الحجاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم وكثيرًا ما كان ينقد الشعر بملكة الأديب كما كان **يحفظ الكثير** من جيد الشعر ويقتبس منه في خطبه بما يناسب المقام . وإذا كان الحجاج لم يقل من الشعر مايستحق التدوين لكثرته فأكبر ظننا أنه لم يجد من الفراغ ما يؤهله للإكثار منه وإن كان كثيرًا ما يختم كتبه لأمير المؤمنين بشيء من شعره .

ولقد استعاض عن الشعر بالتفنن في أسلوب الكتابة والخطابة . الكتابة **بنوعيها** إلى دار الخلافة في دمشق وإلى ولاته وقواده في الأمصار ، والخطابة بنوعيها الخطابة السياسية والخطابة الدينية .

ومثل من كانت هذه مكانته من الأدب والفن والميل إلى الشعر لم يكن غريبًا أن يقرب الشعراء ويرسل في طلبهم ويهش لرواية الشعر الجيد ويطرب له ويستزيد الشاعر منه .

ومن خيرة الشعراء الذين اتصلوا بالحجاج وأطنبوا في مدحه جرير بن عطية .

اتصل أول الأمر بحاكم البصرة ـ الحكم بن أيوب ـ وكان مقيمًا بها ومدحه فسر الحكم من شعره [١] وكتب إلى الحجاج (إنه قدم عليَّ أعرابي شيطان من الشياطين) فرد عليه يطلب منه إرساله فكساه الحكم وأرسله ولما وصل إلى واسط دخل على الحجاج فأحسن لقاءه وخلع عليه [٢] وأنشده قصيدة من عيون الشعر يقول فيها :

---

(١) راجع المبرد ص٣٠٠ والأغاني جـ٧ ص٤١ وديوان جرير ص٥٢٠ .

(٢) الأغاني جـ٧ ص٤١ ويروي الأصفهاني أيضًا جـ٧ ص٦٦ أن جريرًا دخل مدينة واسط من غير استئذان وهذا أمر كان لا يجيزه الحجاج واتصل بعنبسة بن سعيد فتمكن عنبسة من إيصاله بالحجاج بدون أن يلحقه أذى وأنشده القصيدة التي مطلعها .

سئمت من المواصلة العتابا وأمسى الشيب قد ورث الشبابا

ويروي المسعودي جـ٢ ص١٠٦ أن الحجاج أخذ جريرًا وأراد قتله فمشى إليه قوم من مضر ـ قوم جرير ـ فوهبه لهم .

من سَـدَّ مُطَّلَـعَ النفـاق عليهم　　　أم من يصـول كصولـة الحجـاج ؟
أم من يغار على النسـاء حفيظـة　　　إذ لا يثقـن بغَيْرَة الأزواج
إن ابن يـوسف فـاعلـوا وتيقنـوا　　　مـاضي البصيرة واضـحُ المنهـاج
قاضٍ على الغمرات يُمضْي هَمَّه　　　والليـل مختلف الطرائـق داجي
مَنَـع الرُّشا وأراكم سبـل الهـدى　　　واللِّصَّ نَكَّلَـهُ عن الإدلاج
فـاستوثقـوا وتبينـوا سُبُـلَ الهـدى　　　ودعـوا النَّجِيَّ فليس حين تنـاجـي
يـاربَّ نـاكِثٍ بيعتين تركتـه　　　وخضـاب لحيتـه دمُ الأوداج
وإذا رأيت منـافقين تخيروا　　　سُبُـلَ الضَّجـاج أقمت كل ضَجَـاج
داويتهم وشفيتهم من فتنـةٍ　　　غبراء ذاتِ دواجِنٍ وأُجـاج
إني لمرتقب لمـا خـوفتني　　　ولفضل سيبك ياابن يوسف راجي
ولقـدكسرتَ سيَاق كل منـافـق　　　ولقـد منعت حقـائب الحُجـاج (١)

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر ، ومطلعها يقول :

سئمت من المـواصلـة العتـابـا　　　وأمسى الشيب قـد ورث الشبـابـا
دعـا الحجـاج مثـل دعـاء نـوح　　　فـأسمع ذا المعـارج فـاستجـابـا
صَبْرت النفس يـاابن أبي عقيـل　　　محـافظـة فكيف ترى الثـوابـا
ولـو لم يرض ربـك لم يُنَـزِّلْ　　　مـع النصر المـلائكـة الغضـابـا
إذا سَعَـرَ الخليفـة نـار حرب　　　رأى الحجـاج أثقبهـا شهـابـا
ترى نصر الإمـام عليـك حقًـا　　　إذا لبسـوا بـدينهم ارتيـابًـا
عفـاريتُ العراق شفيت منهم　　　فأمسـوا خـاضـعين لك الـرقـابـا
وقـالـوا لن يجـامعنـا أمير　　　أقـام الحـد واتبـع الكتـابـا (٢)

وقد أعطاه الحجـاج جـاريـة كان قـد أرسلهـا حـاكم اليمامـة وهي أم أولاده بلال وحرزة وحكيم وكانت تسمى باسم هذا الأخير (أم حكيم) (٣) .

---

(١) ديوان جرير ص٩٠ ، ٩١ .　　　(٢) ديوان جرير من ص١٦ ـ ١٨ .
(٣) الأغاني جـ٧ ص٦٦ ويروي المبرد في الكامل ص٢٠١ أنها كانت من الرّي

ومن طريف ما يروى أن جريرًا لما قدم على الحجاج أول مرة استأذنته زوجته هند بنت أسماء أن تسمع لجرير من وراء حجاب فأذن لها فجلست من وراء حجاب وجلس الحجاج معها ودخل جرير وجلس حيث يسمع كلامها ولا يراها ؛ فقالت له ياابن الخطفى أنشدني ما شببت به في النساء .

فقال ما شببت بامرأة قط وما خلق الله شيئًا هو أبغض إليّ من النساء ؛ فقالت ياعدو الله وأين قولك ؟؟

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال ما قلت هذا ولكني أنا الذي أقول

لقد جرد الحجاج للحق سيفه ... ألا فاستقيموا لا يملين مائل

وما يستوي داعي الضلالة والهدى ... ولا حجة الخصمين حق وباطل

قالت دع عنك هذا فأين قولك ؟؟

خليلي لا تستغزرا الدمع في هند ... أعيذكما بالله أن تجدا وجدي

قال فما قلت هذا ولكني أنا الذي أقول :

ومن يأمن الحجاج؟ أما عقابه فمر ... وأما عقده فوثيق

يسر لك البغضاء كل منافق ... كما كل ذي بر عليك شفيق

قالت دع عنك هذا فأين قولك ؟؟

ياعاذليَّ دعا الملامة واقصرا ... طال الهوى وأطلتما التفنيدا

إني وَجِدْتُ ولو أردت زيادة ... في الحب عندي ما وجدت مزيدًا

فقال : باطل أصلحك الله ولكني أنا الذي أقول :

من سد مطلع النفاق عليهم ... أم من يصول كصولة الحجاج ؟

أم من يغار على النساء حفيظة إذا لا يثقن بغيرة الأزواج

فقال الحجاج ياعدو الله تحرض على النساء . قال لا والذي أكرمك أيها الأمير ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه وما علمت بمكانك فأقلني به جعلني الله فداك قال قد فعلت . ثم استأذن في الانصراف فأمرت له هند بجارية وكسوة (١) .

وقد قال في الحجاج أيضًا من قصيدة :

وأطفأت نيران العراق وقد علا لهنَّ دخان ساطع وحريق
وإن امرأ يرجو الغلول وقد رأى نكالك فيا قد مضى لسرُوق
وأنت لنا نور وغيث وعصمةٌ ونَبْتٌ لمن يرجو نداك وريق
ألا رب عاص ظالم قد تركته لأوداجه المستنزفات شهيق (٢)

وقال فيه أيضًا من أخرى :

ولولا أمير المؤمنين وأنه إمام وعدل للبرية فاصلُ
وبسط يد الحجاج بالسيف لم يكن سبيل جهاد واستبيح الحلائلُ
دعوا الجبن ياأهل العراق فإنما يباع ويشرى سبي من لا يقاتلُ
لقد جرد الحجاج بالحق سيفه لكم فاستقيموا لا يملين مائلُ
قدمت على أهل العراق ومنهمو مخالف دين المسلمين وخاذلُ
فكنت لمن لا يُبْرِيء الدّينَ قَلْبَهُ شفاءً وخَفَّ الْمُدْهِنُ المتثاقلُ
لقد جهد الحجاج في الدين واجْتَبَى جَبًا لم تَغُلْهُ في الحياض الغوائل
وما نام إذبات الحواضن وُلَّهَا وهن سبايا للصدور بلابل
تمنى شبيبٌ منيةً سفلت به وذو قطري لفه منك وابل

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير ص٣٩٩ .

تقول فلا تُلقَى لقولك نِبْوةٌ وتفعل ما أنبأت أنك فاعل (١)

وهكذا صار جرير يقول في الحجاج قصائد من عيون الشعر وطال بقاؤه في بلاطه فخشى الحجاج أن يكون في ذلك سبيل لدسيسة يتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين فرأى أن يوفده إلى دمشق ليمدح عبد الملك فأجزل له العطاء ثم قال : إن الطاقة تعجز عن المكافأة ولكني موفدك إلى أمير المؤمنين فسر إليه بكتابي هذا . فسار إليه مع محمد بن الحجاج وكان عبد الملك لا يسمع لشعراء مضر لأنهم من شيعة ابن الزبير فما زال بن الحجاج يتوسل إليه حتى سمح له بالمثول بين يدي الخليفة فأنشده قصيدة قال فيها :

تعزت أم حرزة ثم قالت رأيت الواردين ذوي امتناح
ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

فلما ختمها بقوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح (٢)

سر عبد الملك وكان متكئًا فاستوى جالسًا وقال : من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت . وأعطاه فأجزل له العطاء (٣) .

---

(١) ديوان جرير ص٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٢) راجع ديوان جرير من ص٩٦ ـ ٩٩ والجاحظ ـ التاج في أخلاق الملوك ص١٣٣ .

(٣) الأصفهاني الأغاني جـ٧ ص٦٢ ، ٦٣ وابن عبد ربه جـ١ ص١٥١ وابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص١٨٠ .
ويروي أبو علي القالي في ذيل الأمالي والنوادر ص٤٢ أن جريرًا لما مدح الحجاج أجازه بعشرة من الرقيق وأموال كثيرة وأوفده إلى عبد الملك مع وفد مكون من عشرة على رأسهم ابنه محمد فقدموا على عبد الملك فخطب بين يديه جرير ثم أجلسه على سريره عند رجليه ثم دعا بالوفد رجلاً رجلاً فكلما تكلم واحد قطع جرير كلامه وتكلم هو فسأل عبد الملك عنه محمدًا فأخبره أنه جرير فقال : مادح الحجاج ؟؟ فقال ومادح أمير المؤمنين فائذن لي فأنشدك . فقال هات ما قلت في الحجاج فأنشده : صبرت النفس ياابن أبي عقيل ..... إلخ إلى أن قال : إذا سعر الخليفة نار حرب : رأى الحجاج أثقبها شهابا . فقال عبد الملك صدقت .

واتصل الفرزدق أيضًا بالحجاج ونال جوائزه ومما قاله فيه من قصيدة طويلة يذم فيها ابن الأشعث وجيشه ويمدح الحجاج :

وليست هدايا القافلين أتيتمُ ... بها أهلكم يا شر جيشٍ عنصرًا

ثم يقول :

رماكم بميمون النقيبة حازم ... إذا لم يقم بالحق لله نُكّرا
لقيتم مع الحجاج قومًا أعزة ... غلاظًا على من كان في الدين أجورا
بهم يوم بدر أيد الله نصره ... وسوّى من القتلى الرَّكِيّ المعَّورا
جنودًا دعا الحجاج حين أعانه ... بهم إذ دعا رب العباد لينصرا
بشهباء لم تشرب نفاقًا قلوبهم ... شآمية تتلو الكتاب المنشّرا [1]

ودخل الناس على الحجاج يعزونه في وفاة ابنه وأخيه في يوم كان فيهم الفرزدق . فقال له الحجاج أما رثيت محمدًا ومحمدًا ؟؟ فقال نعم أيها الأمير وأنشده :

لئن جزع الحجاج ما من مصيبة ... تكون لمحزون أمَضّ وأوجعا
من المصطفى والمنتقى من نقاية ... جناحاه لما فارقاه وودعا
جناحا عتيق فارقاه كلاهما ... ولو نزعا من غيره لتضعضعا
ولو أن يوم جمعتيه تتابعا ... على شامخ صعب الذرى لتصدعا
سميا رسول الله سماهما به ... إذا لم يكن عند الحوادث أخضعا

فاستحسن الحجاج قوله وأمر له بصلة [2] .

وكان جرير والفرزدق يتنافسان على الحجاج طمعًا في كسب الحظوة لديه ولكن جريرًا تغلب [3] ؛ ومع ذلك فقد نال الفرزدق جوائز الحجاج وعطاياه [4] .

---

(١) راجع ديوان الفرزدق من ص٢٠٧ ـ ٢١٢ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٦ وابن شاكر عيون التواريخ جـ٥ ص٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣) الأغاني جـ٤ ص٥٢ ، ٥٣ .

(٤) راجع الأغاني جـ١٩ ص١٨ وجـ٧ ص٧١ .

ولما مات الحجاج رثاه الفرزدق بقصيدة يقول فيها :

ليبك على الحجاج من كان باكيًا ... على الدين أوسارٍ على الثغرواقف
وأيتام سوداء الذراعين لم يدع ... لها الدهر مالاً بالسنين الخوالف
وما ذرفت عيناي بعد محمد ... على مثله إلا نفوس الخلايف
ألم تعلموا أن الذي قد تدفنونه ... به كان يرعى قاصيات الزعانف
له أشرقت أرض العراق لنوره ... وأومن إلا ذنبه كل خائف (١)

ومن الشعراء المعاصرين الأخطل وكان شاعر البلاط الأموي يقيم في دمشق فقال الخليفه يومًا : سوف لا ترى الحجاج ولكنه يطلبك في رسائله . فاعتذر الأخطل عن ذلك وقال : الحمار لا يوازي الجواد الأصيل ، فسر عبد الملك لهذا الجواب ومنحه عشرة آلاف درهم .

واكتفى الأخطل بأن مدح الحجاج بقصيدة روى الأصفهاني أنها ليست من جيد شعره وأرسلها مع ابنه (٢) .

ومن خير الأدلة على تبسط الحجاج مع الشعراء قصته مع ليلى الأخيلية . وفدت عليه فطأطأ لها رأسه فأنشدته قصيدتها المشهورة :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ ... منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العصاة مناهم ... ولا الله يعطي للعصاة مناها
إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة ... تتبع أقصى دائه فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

إلى أن تقول :

فما ولد الأبكار والعون مثله ... ببحر ولا أرض يجف ثراها (٣)

---

(١) ديوان الفرزدق ص٢١٢ . (٢) الأغاني جـ٧ ص١٦٦ .

(٣) زهر الآداب جـ٤ ص٧٦ وابن شاكر - عيون التواريخ جـ٥ ص٦١ ، ٦٢ والأمالي جـ١م ص٨٦ ، ٨٧ وابن شاكر فوات الوفيات جـ٢ ص١٤١ .

فلما وصلت هذا البيت قال الحجاج لجلسائه : قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها . ثم التفت إليها وقال : حسبك فأخبرته أنها قالت غير هذا فقال : حسبك ويحك حسبك .

وقال لخادم له : قل لفلان يقطع لسانها فذهب بها وأخبره بما قال الأمير فأمر بإحضار الحجام فالتفتت إليه وقالت : ثكلتك أمك إنما أمر أن تقطع لساني بالصلة . فأرسل إلى الأمير للتثبت من الخبر فاستشاط الحجاج غضبًا وهمّ بقطع لسانه وأمر بردها إليه .

فلما دخلت عليه قالت : كاد وأمانة الله أن يقطع مقولى . وأنشأت تقول :

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد ... إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحَتْ ... وأنت للناس نور في الدجى يقد

ثم أخبر الحجاج جلساءه عن هذه المتكلمة والشاعرة الفصيحة وأنها التي مات توبة الخفاجي في حبها .

واستنشدها بعض ما قاله فيها توبة فأنشدته قصيدته التي يقول فيها :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... عليَّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح [1]

وطلب منها الزيادة فأنشدته غيرها كما أنشدته بعض مراثيها له .

ولما فرغت من كلامها استكثر أحد جلساء الحجاج هذا القول فيه وأنكره حالفًا بالله أنه يعتقد أنها كاذبة في كلامها فنظرت إليه ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لسره أن لا تكون عذراء في داره إلا وهي حامل منه . فقال الحجاج هذا وأبيك الجواب وقد كنتَ عنه غنيا .

---

(١) زهر الآداب جـ٤ ص٧٦ والأغاني جـ١٠ ص٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ والأمالي جـ١ ص٨٧ وابن شاكر - فوات الوفيات جـ٢ ص١٤١ وعيون التواريخ جـ٥ ص٦٢ ، ٦٣ .

وطلب منها الحجاج أن تطلب ما تريد فأبت وقالت : أعط فمثلك أعطى فأحسن فأمر لها بعشرين ومازالت تستزيده برقة لفظها حتى وصل العطاء إلى مائة فقال لها عند ذلك : واعلمي أنها غنم .

ولكنها تمكنت بما وهبها الله من فصاحة اللسان أن تجعلها من الإبل برعاتها . ثم قال لها الحجاج بعد ذلك : ألك حاجة بعدها ؟؟ قالت تدفع إليّ النابغة الجعدي وكانت تهجوه ويهجوها ـ فدفعه لها . فلما علم النابغة بذلك خرج هاربًا إلى عبد الملك فاتبعته إلى الشام فلحق بقتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة فماتت بقومس ويقال بحلوان [1] .

وبعد أن أجاب الحجاج طلباتها أراد أن ينزلها منزل الضيافة فطلب منها أن تخبره عن أي نسائه ترغب أن تنزل عندها فقالت أخبرني عن نسائك فَسَمَّى لها هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة فاختارت بنت أسماء فأدخلها عليها فسرت بنت أسماء وصبت عليها من الحلي ما أثقلها لاختيارها وتفضيلها على من سواها [2] وأكرمتها كما أكرمها الحجاج وتبسط معها في الحديث حتى أنهم قالوا : ما رؤي الحجاج أشد سرورًا ولا بشاشة مثل يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية [3] .

ومن مادحي الحجاج الشاعر أبو النجم بن فضالة وقد أقطعه الحجاج أرضًا [4] وعبيد بن موهب الذي رد على هجاء قيل في الحجاج [5] .

هؤلاء قليل من كثير ممن اتصل بالحجاج من الشعراء وأكثروا من مدحه وأجادوا فيه القول وغنموا منه بالعطاء . وهذه طبيعة الحجاج في حياته الخاصة من حب للمديح وإجزال العطاء لقائليه .

---

(١) ابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ ص٦٣ ـ ٧٠ والأمالي جـ١ من ص٨٨ ، ٨٩ .

(٢) زهر الآداب جـ٤ ص٧٦ وابن عبد ربه جـ١ ص١٢٣ .

(٣) زهر الآداب جـ٤ ص١٠١ والمبرد ص٢٩١ .

(٤) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٩ ص٧٨ .

(٥) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٣ ص ١٠٧ .

إلا أن رجلاً كالحجاج كان في حياته العامة عنوانًا للحزم وما يستتبعه من شدة ؛ وقد رأى بعضهم المجال واسعًا أمامه لهجاء الحجاج كما كان هؤلاء ـ بطبيعة الحال ـ ينشدون هجاء الحجاج في غير حضرته فيدخل بذلك شعرهم في حدود النقد العلني لسياسة الحجاج والتشهير به وهذا شر مايكرهه .

لذلك نراه يتصيد هؤلاء ويصب عليهم جام غضبه .

ومن هؤلاء العديل بن الفرخ العجلي وقف على باب الحجاج فلم يأذن له الحاجب بالدخول فسار إلى يزيد بن المهلب فمدحه وذم الحجاج (١) .

ونظرًا لأنه أضاف إلى جرمه هذا أنه كان متهمًا بجريمة قتل واستعدى ولي الدم عليه الحجاج فاشتد الحجاج في طلبه فخاف من يزيد بن المهلب أن يسلمه إلى الحجاج فرحل عنه وصار يتنقل في القبائل يطلب جوارها إلى أن أجاره بكر بن وائل ، والتمس بكر العفو من الحجاج فأجاب ملتمسه (٢) .

ويروى الأصفهاني وابن قتيبة (٣) أن العديل انتهى به المطاف إلى البلاط البيزنطي فبعث الحجاج إلى قيصر الروم « لترسلن به أو لأبعثن لك جيشًا أوله عندك وآخره عندي » فبعث به القيصر فلما مثل بين يدي الحجاج قال له أنت القائل :

ودون يد الحجاج من أن تنالني ... بساط لأيدى اليعملات عريض

مهامه أشباهٌ كأن سرابها ... مُلآء بأيدي الغاسلات رحيض

ياعديل هل نجاك بساطك العريض ؟؟ فقال أيها الأمير أنا القائل :

ولو كنت بالعنقاء أو بأسومها ... لكان لحجاج عليّ دليل

خليل أمير المؤمنين وسيفه ... لكل إمام مصطفى وخليل

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٢٠ ص١٣ .

(٢) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٢٠ ص١٢ ، ١٤ وابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص١٥٥ .

(٣) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٢٠ ص١٢ وابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص١٥٥ .

بني قبـة الإسـلام حتى كأنمـا ... هدى الناس من بعد الضلال رسول

فقال له الحجاج : اربح نفسك واحقن دمك وإياك وأختها ، فقد كان الذي بيني وبين قتلك أقصر من إبهام الحبارى [١] .

ومن هؤلاء أيضًا الأعشى عبد الله بن حبيب فقد نظم قصيدة في رثاء ابن الجارود واشترك في ثورة ابن الأشعث وناصب الحجاج العداء ومع ذلك فقد عفا الحجاج عنه حينما اعتذر للحجاج وأبان له أن كلا من الكوفة والبصرة قد اجتهد في قتال الحجاج ولم يكن أحد المصرين بأقل من الآخر في هذا الميدان [٢] .

ومن الذين هجوا الحجاج كعب بن معدان الأشعري الذي كان في جيش المهلب يحارب الأزارقة وقد هجا الحجاج يومًا فقال .

إن ابن سيف غره من غـزوكم ... خفض الجناح بجانب الأمصـار

لـو شاهـد الصفين حين تلاقيـا ... ضـاقت عليه رحيبة الأقطـار

ورأى معـاودة الـدبـاغ غنيمـة ... أيـام كان محـالف الإقتـار

ولما بلغ ذلك الشعر الحجاج كتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه فأوعز إليه المهلب أن يذهب إلى عبد الملك ويستجير به فسار إليه واستجار به فأجاره وكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن يعفو عنه ويرده إلى أمير مصره . فلما دخل على الحجاج قال له : إيهِ ياكعب « ورأى معاودة الدباغ غنيمة » فقال : أيها الأمير والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب وأهوالها أن أنجو منها وأكون حجامًا أو حائكًا فقال الحجاج : أولى لك لولا قسم أمير المؤمنين ما نفعك ما أسمع فالحق بصاحبك [٣] .

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني جـ٢٠ ص١٣ وابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص١٥٥ والجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) الأصفهاني ـ الأغاني جـ١٦ ص١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) الأغاني جـ١٣ ص٥٨ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٣ .

ومن الذين هجوا الحجاج وطاردهم طويلاً عمران بن حطان السدوسي من فحول شعراء عصره [١] ومن زعماء الخوارج .

وهو القائل في الحجاج :

أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى ؟ ... بل كان قلبك في جناحَيْ طائر .

وقد ظل الحجاج يطلبه طويلاً حتى ظفر به فقال للحرس : اضرب عنق ابن الفاعلة فقال عمران : بئس ما أدبك أهلك يا حجاج أبعد الموت منزلة أصانعك عليها ما على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتني به ؟؟ فقال الحجاج : صدق أطلقوا عنه فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له ارجع إلى قتال الحجاج فوالله ما هو أطلقك بل الله الذي أطلقك فقال هيهات : غلَّ يدًا مطلقها واسترق رقبة معتقها ثم قال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيدٍ تقر بأنها مولاته !!
ماذا أقول إذا وقفت حياله ... في الصف واحتجت له فعلاته !!
وتحدث الأقوام أن صنيعه ... غرست لدى فحنظلت نخلاته
تا الله لو جئت الأمير بآلة ... وجوارحي وسلاحي آلاته [٢]

---

(١) الأغاني جـ١٦ ص١٤٧ والمبرد ص٤٥٠ .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢٠٣ وزهر الآداب جـ٤ ص٥ وابن عساكر جـ٤ ص٦٧ .

ويروي المبرد ص٥٣٠ أنه صار يتنقل في القبائل وينتسب إلى كل قبيلة ينزل فيها حتى نزل عند روح ابن زنباع وبقى عنده وقتًا طويلاً يسمران معًا ويسأله روح عن مسائل مختلفة فيجيبه عنها بدون أن يعرف عن أمره شيئًا .

وقد حدث أنه بينما كان روح وعبد الملك بن مروان يتحادثان إذ ذكر روح حديثًا لعبد الملك تبين فيه عبد الملك أن هذا حديث عمران بن حطان الذي يطلبه الحجاج . فطلبه عبد الملك من روح ليسمر معه وقتًا . فلما طلب روح بن زنباع من ضيفه مقابلة عبد الملك هرب وسار يتنقل بين القبائل إلى أن استقر بعمان فمات بها .

ويروي صاحب الأغاني جـ١٦ ص١٤٨ أن الحجاج لما علم به أنه لدى روح ندّد به لدى عبد الملك وبلغ ذلك عمران فهرب واستقر في ضواحي الكوفة فكشف أمره وسيق إلى الحجاج فأمر بقتله على الرغم من =

أما علاقة الحجاج بالشاعر يزيد بن الحكم الثقفي فقد عينه الحجاج حاكمًا على فارس ولما دخل عليه ليأخذ عهده قال له الحجاج أنشدني بعض شعرك ـ وإنما أراد أن ينشده مديحًا له ـ فأنشده قصيدة يفخر بها فيقول .

وأبي الذي سلب ابن كسرى راية ‏ ‏ ‏ بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فغضب الحجاج ورد العهد ، وقال للحاجب قل له .

ورثتُ جدي مجده وفعاله ‏ ‏ ‏ وورثتَ جدك أعنزا بالطائف [١]

ومن الذين خرجوا على الحجاج أبو عبد الله بن الحجاج أبو الأقرع .

كان جوالا في الفتن فكان مرة مع عمرو بن سعيد وأخرى مع نجدة بن عامر الحنفي وثالثة مع ابن الزبير فأراد الحجاج قتله ولكنه استطاع أن يصل إلى بلاط عبد الملك وينال منه العطاء بما يستتبعه من عفوٍ عما حدث منه دون أن يعرف عبد الملك عن أمره شيئًا [٢] .

والحارث بن خالد المخزومي وقد حفظ لنا صاحب الأغاني مساجلة [٣] بين الحارث هذا وأبان بن عثمان هجا فيها الحجاج وكان سبب ذلك أنه لما شغل عبد الملك بن مروان بحرب ابن الأشعث لم يول أحدًا إمارة الحج وكان الحارث هو العامل على مكة فكان الطبيعي أن تكون إمارة الحج للحارث ولكن نازعه في هذه الرئاسة أبان بن عثمان وتغلب عليه فهجا خالد الحجاج لاعتقاده أن الحجاج هو الذي أوعز إلى أبان بهذا العمل .

= رضاء عبد الملك عنه ، كما يروي نفس المصدر جـ١٦ ص١٤٩ أنه لم يكشف أمره وأنه استمر بجانب الكوفة حتى مات .

(١) الأغاني جـ١١ ص٩٦ .

(٢) راجع الأغاني جـ١٢ من ص٢٤ ـ ٣٢ .

(٣) الأغاني جـ٣ ص١٠٤ .

فلما لقيه الحجاج عاتبه فقال خالد « ظننت أنك كاتبته فحلف الحجاج له أن هذا لم يحدث » فاعتذر إليه .

ومن الذين مدحوا الحجاج ثم خرجوا عليه عمران بن عصام العَنَزي الذي أوفده الحجاج إلى عبد الملك ليزين له البيعة لابنه الوليد وخلع أخيه عبد العزيز .

فلما كانت ثورة ابن الأشعث انضم إليها وخرج مع ابن الأشعث فظفر به الحجاج وقتله فبلغ ذلك عبد الملك فقال هلا رعى فيه قوله :

وبعثت من ولد الأغر معتب ... صقرا يلوذ حمامه بالعوسج
فإذا طبخت بناره أنضجتها ... وإذا طبخت بغيرها لم ينضج
وهو الهِزَبر إذا أراد فريسةً ... لم ينجها منه صياح الهجهج [1]

الحجاج الخطيب والكاتب :

كان الحجاج بليغًا يختار لكتابته وخطابته التعبيرات البديعية كما كان مولعًا بانتقاء الألفاظ ، وكان من الذين يتحمسون للغة العربية .

لذلك نراه يهش إذا سمع قولاً عربيًا فصيحًا ، ولا تمنعه هيبة الإمارة من أن يثني علنًا على قائله .

ويعزو بعض المؤرخين تحويله الديوان من الفارسية إلى العربية إلى عنايته باللغة العربية وشغفه بها [2] .

ولكنا نرى أن العامل الأول في ذلك هو اعتزاز الحجاج بقوميته ورغبته في أن تكون الدولة عربية لحمًا ودمًا .

ولي الحجاج العراق في ظروف تتطلب خطيبًا موهوبًا بمثل ما تتطلب إداريًا

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٥٦ ، ٥٧ .

(٢) فلهوزن ـ الدولة العربية وسقوطها ص١٥٧ ولامانس ـ دائرة المعارف الإسلامية ص٢١٥ الكراسة ٢١ .

حازمًا وقائدًا موفقًا .

كان أهل العراق قد وقفوا موقف التردد في محاربة الخوارج بينما كان الخوارج مستبسلين في ثورتهم تحفزهم في ذلك عقيدة دينية تملي على زعمائهم جيد القول وحسن الكلام وتتناقل الركبان وجهات نظرهم في الدين وجيد كلامهم فيه .

فكان لزامًا على ولي الأمر في العراق أن يكون موهوبًا في خطبه من الناحيتين الدينية والسياسية .

ولقد كان الحجاج من هذا الطراز من الرجال حتى لقد قال فيه الحسن البصري : إنه كان يعظ وعظ الأزارقة [١] .

ولما كان الحجاج أحد القراء المعدودين في زمانه وكان كثير التلاوة للقرآن فقد علقت معانيه في قلبه وظهرت في قوله . لذلك كان كثير الاستشهاد والاقتباس ، ولا يسع المتأمل في خطبته بالكوفة عندما ولي العراق وخطبته بعد دير الجماجم إلا أن يعترف بأنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر مطبوعًا على القدرة على الارتجال مع بلاغة في العبارة وروعة في الأسلوب ومطابقة مقتضى الحال .

وكان إذا توعد فكأن كلامه قصف المدافع ودوي القنابل [٢] وإذا وعظ ملك قياد الناس حتى أن الحسن البصري شيخ الوعظ في ذلك العصر قال لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج : سمعته يقول على أعواد هذه المنابر إن امرًأ ذهب من عمره ساعة في غير ماخلق له حريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة [٣] .

وقال مالك بن دينار : ما رأيت أبين من الحجاج كان يرقى المنبر فيذكر

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٣ ص١٠٨ .

(٢) راجع ابن عبد ربه جـ٣ ص١٠ والمبرد ص١٧٣ .

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٢ ص١٥٥ ، ١٥٦ والمبرد ـ الكامل ص٩٢ وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ٩ ص١٢٣ .

إحسانه لأهل العراق وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي إني لأحسبه صادقًا وأظنهم كاذبين [١] .

ومن خير ما يؤثر عن الحجاج خطبته عندما أراد الحج وقد استخلف ابنه محمدًا فإنه قال :

أيها الناس إني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني هذا وأوصيته بخلاف وصية رسول الله في الأنصار .

إن رسول الله ﷺ أوصى أن يقبل من محسنهم وأن يُتجاوز عن مسيئهم وإني أمرته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي ألا وإنكم ستقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة . ألا وإني معجل لكم الإجابة لا أحسن الله الخلافة عليكم ثم نزل [٢] .

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة أخيه محمد ففرح أهل العراق وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وَهِيضَ جناحه فخرج وصعد المنبر ثم خطب الناس فقال :

أيها الناس محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وأيم الله ليوشكن الباقي منكم ومني أن يفنى ، والجديد أن يبلى والحي منكم ومني أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ .

---

(١) ابن حجر العسقلاني ـ تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢١١ والجاحظ جـ١ ص٣٠١ والنويري ـ نهاية الأرب جـ٧ ص٢٤٤ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٠ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٦ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٢٤٤ والجاحظ ـ البيان والتبيين ص٢٩٧ والمسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٤ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ ص٢٦١ =

ثم تمثل بهذين البيتين .

عـزائي رســول الله من كل ميِّتٍ وحسبي ثـواب الله من كل هـالــك
إذا مـــا لقيت الله عني راضيًـــا فـإن سرور النفس فيا هنـالـك (١)

وفي مرة أرجف أهل العراق بموت الحجاج فخطبهم خطبة قال فيها :

إن طائفة من أهل العراق أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا مـات الحجـاج مـات الحجـاج . فمـه ، وهل يرجـو الحجـاج الخير إلا بعـد المـوت ؟! والله ما يسرني ألا أموت وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه : إبليس . ولقد دعا الله العبدُ الصالح فقال « رب اغفرلي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحـد من بعـدي » فـأعطـاه ذلـك إلا البقـاء . فـما عسى أن يكـون أيهـا الرجل ـ وكلكم ذلك الرجل ـ ؟؟ كأني والله بكل حي منا ميتًـا وبكل رطب يـابسًـا ونقل في ثياب أكفانـه ثلاثـة أذرع طولاً في ذراع عرضًـا وأكلت الأرض لحمـه ومصَّت صديده وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله .

إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول (٢) .

ومما ازدان به أسلوب الحجاج كثرة التشبيهات والاستعارات التي لهـا أبلغ الأثر في تصوير المعاني في النفوس .

من ذلك قوله في خطبته بالكوفة « والله لأحزمنكم حزم السلمـة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » .

وقوله في الخطبة التي ألقاها عقب موقعة دير الجماجم :

= وابن عساكر جـ٤ ص٦٧ .

(١) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٦ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٢٢ .

(٢) ابن قتيبـة ـ عيـون الأخبـار جـ٢ ص٢٤٣ والمسعـودي ـ مروج الـذهب جـ٢ ص١٠٢ وابن عســاكر جـ٤ ص٨٢ وابن عبد ربه جـ٢ ص١٣٢ وابن نباتة ص١٠٠ .

« يأأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقًا وشقاقًا » .

فالحجاج كان من أفصح العرب لفظًا وأقوامهم أسلوبًا حتى أن عمرو بن العلاء قال : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري [١] .

وسأل عبد الملك بن مروان خالد بن سلمة المخزومي عن أخطب الناس **فقال : أنا** قال ثم من ؟ قال سيد جذام - روح بن زنباع - **قال : ثم من** ؟ **قال : أخيفش ثقيف** - الحجاج - **قال : ثم من؟ قال** : أمير المؤمنين قال : ويحك جعلتني رابع أربعة ؟ [٢] .

وقد كان في العصر الذي وصل فيه الحجاج إلى الذروة في الخطابة أربعة رجال اشتهروا كلهم بالبلاغة .

وهم الحجاج وعبد الملك والحسن البصري وابن القرية .

وكان القدماء يقدمون عليهم الحجاج والحسن البصري ولكن الحسن كان خطيبًا دينيًا لا سياسيًا وقد شهد له الحجاج فقال : أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة [٣] .

أما الحجاج فقد كان خطيبًا دينيًا وسياسيًا ولم ينبغ بعد علي بن أبي طالب في ذلك النوع الذي يملك القلوب ويأسر العقول سواه ؛ فكلاهما كان إذا خطب مهددًا خرج كلامه يفيض حرارة وغيظًا وتقريعًا وإيجاعًا وإذا ما خطب مهدئًا كان كلامه برد النفوس وشفاء الصدور .

وهذا النوع من الخطابة لا يجيء في العادة وليد تكلف أو تصنع وإنما هو

---

(١) الجاحظ - البيان والتبين جـ١ ص١٤٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ وابن كثير جـ٩ ص٤١٩ وابن عساكر جـ٤ ص٤٩ والعيني جـ١١ ص٤٠١ .

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين جـ١ ص٢٧٣ .

(٣) الجاحظ - البيان والتبيين جـ١ ص٣٠٤ .

الوجدان المتقد ينساب على اللسان فيضًا خطابيًا عندما يجيش في النفس أمرٌ من الأمور .

انظر إلى خطبته عقب دير الجماجم وماورد فيها من العبارات المترادفة الجميلة في غير سجع مبتذل ثم تأمل تقريعه لأهل العراق وتنديده بمسلكهم تر أنه كان من ذلك الطراز من الرجال الذي يعرف كيف يتكلم .

ثم استعرضْ خطابه لجند الشام وما يشتمل عليه من فصاحة ودهاء تر أنه من ذلك الطراز من الرجال الذي يستهوي الألباب ويلعب بالعقول .

ثم استمع إلى حديثه في مواطن الجدل يتبين لك كيف كان بارعًا في الإدلاء بحجته حتى تخال أن ليس للقضية إلا هذا الوجه الذي يدلي به .

وإن الناظر في كلامه وخطبه في المقامات المختلفة يرى أنه كان يستخرج أكثر معانيه من مصادر أربعة : القرآن الكريم والسنة النبوية والشعر العربي وكلام من تقدم من خطباء الجاهلية والإسلام .

فنرى أن خطبه في الوعظ أشبه شيء بكلام الخلفاء الراشدين ومذاهبهم في استخراج المعاني الحكيمة من الدين . فمن ذلك قوله : امرؤ حاسب نفسه . امرؤ راقب ربه . امرؤ نظر فيما يقرؤه غدًا في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرًا . امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله .

فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه . إننا والله ما خُلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننتقل من دار إلى دار(١) .

وقوله : أيها الناس اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت وأعطى شيء إذا سئلت فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها بخطامها إلى

---

(١) ابن قتيبة جـ٢ ص٢٥١ وابن عبد ربه جـ٢ ص١٣٢ والجاحظ جـ٢ ص١٤٠ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص١٥٠ .

طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله [١] .

ومن كلامه الديني أيضًا « أن امرءًا أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه . إن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ؛ ولا قضاء لما كتب عليه البقاء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا الأمل بقصر الأجل [٢] .

وخطب مرة يسأل الله أن يبصره مواطن الحق فقال : اللهم أرني الغي غيا فأجتنبه وأرني الهدى هدى فأتبعه ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيدًا ؛ والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ولما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء [٣] .

هذا قليل من كثير مما يجب أن يقال في مواهب الحجاج الخطيب .

ولو أردنا أن ننقد خطبه ونحللها لكان من ذلك رسائل وكتب ؛ ولكنا أردنا بعضًا من كلٍّ فيه دلالة كافية على أن الحجاج كان من أعظم الخطباء في التاريخ .

أما الحجاج الكاتب فقد كان سيال العبارة سلس الأسلوب تواتيه المعاني والتعبيرات وفق هواه .

كتب إليه الخليفة عبد الملك بن مروان رسالة جافة خطيرة وأرسلها على يد غلامه نباتة فما أتم الحجاج قراءتها حتى طلب دواة وقرطاسًا وانكفأ يكتب فما كان

---

(١) ابن قتيبة جـ٢ ص٢٤٧ وسرح العيون ص١٢١ والمبرد ص٩١ والجاحظ جـ١ ص٢٠٦ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص١٥٠ .

(٢) المسعودي جـ٢ ص١٠٦ وسرح العيون ص١٢١ والمبرد جـ٢ ص٦٩ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٢ ص١٣٠ وسرح العيون ص١٢٢ والمبرد جـ١ ص٢٩٦ ، جـ٢ ص١١٣ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص١٥٠ .

يرفع القلم إلا مستمدًا حتى أتمها ودفع بها إلى نباتة وهي تتضمن من المعاني والأساليب مالا تأتي الرَّوية بخير منه حتى لقد قال عبد الملك عند قراءتها : إن من البيان لسحرًا .

لم تكن بلاغة الحجاج قاصرة على الكتب التي يشرح فيها وجهة نظره في سياسته للخليفة بل كانت تتناول فنونًا أخرى مثل الوصف .

كتب إليه عبد الملك مرة يسأله عن الفتنة فأجاب « إن الفتنة ليست بالنجوى وتخفى بالشكوى وتنتج بالخطب » فسر عبد الملك من هذه الإجابة[1] .

وكتب إليه مرة أخرى يسأله عن أمس واليوم والغد فأجابه « أما أمس فأجل وأما اليوم فعمل وأما غدًا فأمل » [2] .

وكتب إليه مرة يصف المطر فقال : أما بعد فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بلَّ وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ حتى دفعت الأرض واقشعرت واغبرت وثارت في نواحيها أعاصير تذر دقاق الأرض من ترابها فأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها ؛ وأرضنا أرض سريع تغيرها وشيك تنكرها سيء ظن أهلها عند قحوط المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة فأثارت زَبَرْجًا متقطعًا متمصرًا .

ثم أعقبته الشَّمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه وألقت متقطعه وجمعت متمصره حتى انتضد فاستوى وطما وطحا وكان جونًا مرثغًا قريبًا رواعده واعتدت عوائده بوابل منهمل منسجل يردف بعضه بعضًا كلما أردف شؤبوب ارتدفته شآبيب لشدة وقعه في العراض ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن قد

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص٩٢ .

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ٩ ص١٢٦ .

ملأ اليباب وسد الشعاب وسقى منها كل ساق ؛ فالحمد لله الذي أنزل غيثه ونشر رحمته من بعد ما قنطوا وهو الولي الحميد [١] .

وكان الحجاج من ذلك الطراز من الناس الذي تطيب له حسن السمعة وقد بلغت منه هذه الشهوة مبلغًا جعلته يضجر بالنقد - ولا يحتمله - مهما كان طفيفًا ويشتد في عقوبة ناقده - مهما كان مخلصًا بريئًا - .

روي أن يزيد بن المهلب لما فتح قلعة نيزك ببادغيس كتب إلى الحجاج يقول :

إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار .

فسأل الحجاج عن الذي يكتب ليزيد فقيل له يحي بن يعمر . فكتب إليه يطلبه فلما حضر لديه قال له أين ولدت ؟؟ قال : بالأهواز .

قال : فهذه الفصاحة ؟ قال حفظت كلام أبي وكان فصيحًا . قال : فأخبرني : هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثير . قال فهل يلحن فلان ؟ قال نعم قال : فأخبرني : هل ألحن أنا ؟؟ قال تلحن لحنًا خفيًا تزيد حرفًا وتنقص حرفًا وتجعل أن في موضع إن فقال الحجاج : قد أجلتك ثلاثًا فإن وجدتك بأرض العراق قتلتك . فرجع إلى خراسان [٢] .

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين جـ٣ ص٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٨٧ وابن الأثير جـ٤ ص٩٤ وابن خلدون جـ٣ ص٥٣ وشذور العقود ص٥٦ وابن عساكر جـ٤ ص٦٥ والمبرد ص١٥٨ وياقوت - معجم الأدباء جـ٢٠ ص٤٢ ، ٤٣ وابن خلكان جـ٢ ص٣٥٢ .

ويروي ابن عبد ربه جـ١ ص١٩٣ أنه قال ليحي بن يعمر هل تسمعني ألحن ؟ فقال ربما سبقك لسانك في إن وأن قال : فإذا كان ذلك فعرفني .

ويروي ابن خلكان جـ٢ ص٢٩٩ ، ٣٠٠ أنه قال له ترفع ما يوضع وتضع ما يرفع فكتب إلى يزيد بن المهلب : أن اجعله على قضائك .

وينفرد الجهشياري ص٢٥ برواية أن هذا الكتاب والمناظرة كانت عقب هزيمة يزيد بن المهلب لعبد الرحمن بن العباس الذي خلف ابن الأشعث في قيادة الجيش .

الفصل الثاني
أخلاق الحجاج تدينه ، وأوصافه الخِلْقية

إذا ما ذكر اسم الحجاج اقشعرت الجلود ووجلت القلوب وتصور السامعون الحجاج مصلتا السيف على رؤوسهم كما أسلطه على أسلافهم قائلاً : إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها .

كيف لا والحجاج في نظرهم قد أغرم بسفك الدماء فصارت أكبر لذاته أن يسوق الناس كرهًا إلى لقاء المنايا وخوض غمرات الحروب تارة بحد سيفه وأخرى بحد لسانه ، والناس مغلوبون على أمرهم لا يخالفون له رأيًا ولا يرجعون له قولاً بل يرى بعضهم أن لقاء الموت في ساحة القتال أهون من لقاء الحجاج في ساحة الجدال .

تلك هي الصورة التي ارتسمت في مخيلة الكثير ممن قرأوا أخباره فيا كتبه المؤرخون .

ولكننا نجد في تضاعيف تلك الأخبار ـ التي اختلط صحيحها بموضوعها اختلاطًا شديدًا ـ نجد أخبارًا أخرى تنبيء عما كان للحجاج من فضائل نفسية ومزايا عقلية وسياسية تجعله فوق مستوى عصره .

بل تصل به إلى مستوى الساسة العظام والقواد الكبار والمصلحين الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

ولسنا نتخيل أو ندعي فالأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة ؛ فقد كانت الشجاعة صفة واضحة في الحجاج وإلى هذه الصفة يعزى ما وصل إليه من عظمة في حياته ، ولا ينسى التاريخ موقفه من ابن الأشعث حينا أخبره بعض خاصته أن جنود الشام يُهزمون أمام جنود العراق فما طار لذلك لبه ولا ذهبت نفسه شعاعًا ، ولكنه جثا على ركبتيه وانتضى نحو شبر من سيفه واستعد للقاء الموت كريمًا وقال : لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل . فكان صنيعه هذا مما قوى قلوب جنده

فاستبسلوا حتى كتب لهم النصر على جند ابن الأشعث (١) .

كما لا ينسى له موقفه في ثورة ابن الجارود **وقد انفضّ** عنه أكثر خاصته وجاءه ابن مسمع يقول : إني قد أخذت لك الأمان . فلم يقبل ذلك الأمان ثقة بنفسه ولم يلبث أن عكس الآية وجعل يقول : والله لا أؤمنهم أبدًا . وصار يرفع صوته كيما يسمع ذلك أنصاره فترتفع روحهم المعنوية .

وقد كان الحجاج موهوبًا في ذكائه وسعة حيلته . قال عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام : **ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج** وإياس بن معاوية فإن عقلهما كان يرجح على عقول الناس (٢) فكان بذلك ثاني اثنين فاقا أهل عصرهما في الذكاء .

روى عبد الله بن ظبيان ـ قاتل مصعب بن الزبير ـ قال : كنت واقفًا بباب الحجاج فإذا هو قد خرج وحده وكانت القائلة وما بالباب أحد فوقع في نفسي أن أقتله فنظر إليّ فقال : هل لقيت يزيد بن أبي مسلم ؟؟ ـ كاتبه ـ قلت : لا . **قال : القه فإن عهدك على الرّي معه . فطمعت وكففت عنه وتوجهت إلى يزيد فلم** يكن عنده عهدٌ ولا شيءٌ من ذلك ، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً مني وشغلاً عما أردته به .

وقد بنى هو وعبد الملك بابين فوقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك فداخله حسدٌ للحجاج فكتب إليه الحجاج (إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي كمثل ابني آدم إذ قربا قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) فسر عبد الملك من ذلك الجواب وزال ما كان في نفسه (٣) .

---

(١) الطبري جـ٥ ص١٥٢ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص١٥٢ وابن عساكر جـ٤ ص٤٩ وابن كثير جـ٩ ص١١٩ .

(٣) ابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٨ .

وقد تجلى ذكاؤه خلال قتاله لابن الزبير إذا نزلت صواعق فقتلت عددًا من أهل الشام فقال لأصحابه هذا الفتح قد حضر فأبشروا إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم [١] .

فلما تحقق ذلك قويت روحهم المعنوية .

ولما قتل جبلة بن زحر في فتنة ابن الأشعث وجيء له برأسه حملها على رمحين ثم قال : ياأهل الشام هذا أول الفتح والله ما كانت فتنة قط فخبت حتى يقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن وهذا من عظمائهم [٢] .

وقد ساعده الحظ فلم يلبثوا كثيرًا حتى دارت الدائرة عليهم .

وكان الحجاج كريمًا ما وضع أمامه طعام إلا وطلب من يشاركه فيه [٣] ؛ وكان يقول البخل على الطعام أقبح من البرص على الجسد [٤] .

ولما ولي العراق كان يطعم في كل يوم على ألف مائدة [٥] يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس وقد وضع على تلك الموائد الملكية عشرة ألوان منها الثريد والشواء والسمك والأرز بالسكر . وكان الحجاج يطوف على هذه الموائد بنفسه ليتفقد المدعوين والطعام الموضوع [٦] فإذ رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بالسكر وقد أبطأ حتى أُكلت الأرزة بلا سكر ضرب الخباز مائتي سوط . فلما رأى خدمه ذلك كانوا لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر [٧] .

---

(١) اليعقوبي جـ٣ ص١٣ وابن الأثير جـ٤ ص٢٣ وراجع الرسالة ص٤٢ .

(٢) الطبري جـ٥ ص١٦٥ وابن الأثير جـ٤ ص٨٥ وراجع الرسالة ص .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص١٠٦ .

(٤) المبرد ـ الكامل ص١٧٣ .

(٥) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ وابن نباته ص١٠٨ والمبرد ص١٧٣ ويروي ابن عبد ربه جـ٣ ص٦ أن الألف كان في رمضان وفي بقية أيام العام خمسمائة .

(٦) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ وابن عبد ربه جـ٣ ص٦ والمبرد ص١٧٣ .

(٧) ابن عبد ربه جـ٣ ص٦ .

وكان يقول لأهل الشام اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم [١] وكان له ساقيان أحدهما يسقي العسل والماء والآخر يسقي اللبن [٢] .

وكان يرسل الرسل كل يوم إلى الناس لحضور الطعام فكثر عليه ذلك فقال : أيها الناس رسلي إليكم الشمس إذا طلعت فاحضرو للغداء وإذا غربت فاحضروا للعشاء فكانوا يفعلون ذلك .

واستقل عدد الناس في يوم فسأل عن سبب ذلك فأجابه رجل قائلاً : إنك أغنيت الناس في بيوتهم عن الحضور إلى المائدة ، فأعجبه ذلك الجواب اللطيف وقال لقائله : اجلس بارك الله فيك [٣] .

وبذلك ترك الحجاج صيتًا في تنظيم الموائد بانتقاء الأصناف وكثرتها ؛ وعدوه من مشاهير الأكلة في الإسلام مثل معاوية وسليمان بن عبد الملك وعبيد الله بن زياد [٤] .

وكان أحيانًا يوفق بين هذه الموائد ومجالس المنادمة ؛ فمن ذلك أنه كان على مائدته في يوم من الأيام بعض المدعوين ومنهم محمد بن عمير فالتفت إليه في وسط الوليمة وقال : ألا تذكر يامحمد حينما دعاك قتيبة بن مسلم للانضمام إلي في يوم رستقباذ فأجبته قائلاً لاناقة لي في هذا الأمر ولا جمل ؟ لا جعل الله لك فيه ناقة ولا جملاً يا حرس خذ بيده وجرد سيفك فاضرب عنقه . ثم التفت إلى حجار بن أبجر فوجده فقال امنع سيفك ؛ وأتى الخباز بقطعة من الحلوى فقال : اجعل هذا مما يلي محمدًا فإنه حَلَوِيٌّ يحب الحلوى [٥] .

---

(١) ابن عساكر جـ٤ ص٦١ وسرح العيون ص١٠٨ .

(٢) الجاحظ ـ التاج في أخلاق الملوك ص١١ والأبشيهي جـ١ ص١٨١ .

(٣) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ وسرح العيون ص١٠٨ والمبرد ص١٧٣ .

(٤) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ والمبرد ص١٧٣ .

(٥) المبرد ص١٧٤ والميداني ـ الأمثال ص١٤٤ .

وكان الحجاج صريحًا يحب الحق ولا يرى عيبًا ولازللاً في الرجوع إليه .

دخل **عليه** سليك بن سلكة فقال : أصلح الله الأمير أعرني سمعك واغضض عنى بصرك واكفف عني حزبك فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك العقوبة . فقال : قل . قال : عصى عاص من عرض العشيرة فَحُلِّق على اسمي وهدمت داري وحرمت عطائي . **فقال** : هيهات أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وإنما ... تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذٍ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال : أصلح الله الأمير سمعت الله قال غير هذا . قال :وماذاك ؟؟ قال : قال : **﴿ يأيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذًا لظالمون ﴾** (١) .

فقال الحجاج عليّ بيزيد بن أبي مسلم ؛ فلما أتي به أمره أن يفك له عن اسمه ، ويعطيه صكًّا بعطائه ويبني له منزله ، وأمر مناديًا ينادي في الناس « صدق الله وكذب الشاعر » (٢) .

وكان يصارح أهل العراق بكراهيته لهم .

خطبهم مرة فقال : ياأهل العراق إني لم أجد لكم دواءً أدوأ لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب الراحة . وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم وما أراكم إلا كارهين لمقالتي . أنا والله لرؤيتكم أكره ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ما حملت نفسي مقاساتكم والصبر إلى النظر إليكم والله أسأل حسن العون عليكم (٣) .

---

(١) سورة يوسف الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٦ وابن عساكر ـ تهذيب تاريخ دمشق جـ٤ ص٦١ وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ٩ ص١٣٣ وابن شاكر ـ عيون التواريخ جـ٥ ص٢٥٩ .

(٣) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٢ ص١٣١ .

وقد تجلت صراحته في رده على خطاب عبد الملك الذي أرسله مع غلامه نباتة [١] .

وكما كان الحجاج صريحًا لايحب المواربة كان يحب الصدق في القول ، فقد يأتي الرجل الجسيم من الأمر فلا يشك أن الحجاج قاتله فإذا أحضر بين يديه وسأله عن ذنبه فاعترف به كان اعترافه منجاة له من الموت .

ومن هؤلاء عامر الشعبي فقيه أهل العراق لما دخل على الحجاج بعد ثورة ابن الأشعث وأصدقه القول عفا عنه [٢] كما عفا عن رجل أجابه بأنه يبغضه كثيرًا وأنه لذلك لم يدافع عنه أمام ابن الأشعث حينما ذكر ابن الأشعث أم الحجاج بسوء [٣] .

وعفا عن ولدين عاصيين لربعي بن خراش لصدق أبيهما [٤] والمثل على ذلك واضحة وكثيرة .

وكان يعجبه الجواب السديد والنكتة البارعة . ففي مرة أتي بأسارى فضرب أعناق بعضهم فقال رجل منهم : والله لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت المكافأة . **فقال الحجاج : أفٍّ لهذه الجيف أفما كان فيهم أحد يحسن مثل هذا ؟؟ وكف عن** القتل [٥] .

وأمر مرة بقتل رجل فقال : أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذل موقفًا مني بين يديك إلا عفوت عني . فعفا عنه [٦] .

---

(١) راجع ابن عبد ربه جـ٣ ص٩ ، ١٠ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١١ ، جـ١ ص١٨٦ وابن قتيبة جـ١ ص١٠٦ .

(٣) ابن عبد ربه جـ١ ص١٨٤ والمبرد ص٣٤٥ وابن قتيبة جـ١ ص٩٨ وابن عساكر جـ٤ ص٦٢ وابن كثير جـ٩ ص١٢٥ .

(٤) ابن خلكان جـ٢ ص٢٣٣ والأتابكي جـ١ ص٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٥) الجاحظ جـ١ ص٢١٤ والأبشيهي جـ١ ص١٩١ وابن قتيبة جـ١ ص١٠٣ وابن عبد ربه جـ١ ص١٨٥ والنويري جـ٦ ص٦٤ .

(٦) الأبشيهي جـ١ ص١٩١ وابن عساكر جـ٤ ص٦١ وابن كثير جـ٩ ص١٠٧ .

وجيء إليه بامرأة خارجية فسألها فصوبت له جوابًا سديدًا تضمن نكتة بارعة بأن قالت له : لقد كان وزراء صاحبك خير من وزرائك ياحجاج قال : ومن هو صاحبي ؟؟ قالت فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا أرجه وأخاه بينما وزراؤك أشاروا بالقتل فعفا عنها الحجاج [١] .

وخرج الحجاج وهو بالمدينة مرة للصيد فانفرد وحده فرأى أعرابيًا فسأله عن سيرة أميرهم فقال ظلوم غشوم لا حياه الله . فقال له : لو شكوه إلى عبد الملك . فقال : أغشم وأظلم عليه لعنة الله . وبينما هم في الحديث إذا بالخيل قد أحاطت بالحجاج فأمر بالقبض على الأعرابي فقال الأعرابي : ياحجاج السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوما . فضحك الحجاج وعفا عنه [٢] .

وكان الحجاج حليما ، لما انتهى من أمر ابن الزبير وقدم المدينة لقى شيخا خارجا منها فلما رآه الحجاج قال له : من أهل المدينة أنت ؟؟ قال نعم قال : من أيهم قال : من بني فزارة . فسأله عن حال أهل المدينة فقال بشر حال ، لقتل ابن الزبير . فسأله عن القاتل فذمه ووصفه بعدم الخوف من الله فعرفه الحجاج بنفسه وهدده بالقتل فأراد الرجل أن يخترع حيلة لينجو من هذا المأزق من الحجاج فقال له : والله ياحجاج لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة أنا العباس بن أبي ثور أصرع في اليوم خمس مرات فتركه الحجاج [٣] .

وتروى بعض المصادر مثل هذه الرواية في خروجه إلى ظاهر الكوفة منفردًا وسؤال مولى لبني عامر عن حال أميرهم فلعن هذا المولى الحجاج ، فلما عرفه الحجاج

---

(١) ابن عبد ربه جـ١ ص١٨٥ والأبشيهي جـ١ ص٥٥ ويروي ابن عساكر جـ٤ ص٧٨ هذه الحكاية على أنها لرجل من الخوارج .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢٦٢ .

(٣) ابن عساكر جـ٤ ص٦٥ وابن كثير جـ٩ ص١٢١ والعيني جـ١١ ص٤٠٣ .

بنفسه اعتذر بأنه يجن في الشهر ثلاث مرات وأن هذا اليوم أشد الصرع عليه فضحك الحجاج من قوله وعفا عنه [١] .

وبمثل ما كان الحجاج يحب الصدق ويكبره كان يكره الكذب والخيانة ، فقد حبس صهره مالك بن أسماء إذ مد يده إلى مال الدولة .وكان يسقيه الماء ممزوجًا بالملح والرماد [٢] .

ووفد عليه الجماف يستعين على دفع الديات المطلوبة لبني تغلب من قيس فلم يأذن له الحجاج بالدخول .

إلى أن لقي الجماف أسماء بن خارجة الفرازي فرجاه أن يتوسط لدى الحجاج في الإذن له في الدخول عليه . فلما قبل رجاء أسماء ودخل الجماف قال الحجاج : متى عهدتني خائنًا ؟؟؟ فقال له : ولكنك سيد قومك وأمير العراقين وابن عظيم القريتين وعمالتك في كل سنة خمسمائة ألف درهم وما بك بعدها إليّ خيانة ، فقال الحجاج : أشهد أن الله وفقك وأنك نظرت بنور الله فإذ صدقت فلك نصفها العام وأدوا البقية [٣] .

وكان الحجاج يفخر بغيرته على الأحساب والأنساب : خطب في الناس بعد موقعة الزاوية فأوصاهم بالاعتدال في أمورهم وحذرهم من دخول رجل بيت امرأة وجعل عقاب ذلك القتل وقال : أنا الغيور ابن الغيور . رافعًا بها صوته [٤] .

ولما حدث أن أحد الشاميين دخل على امرأة وقتله زوجها وأخبر الحجاج بذلك قال : خذوا قتيلكم فإنه لا قود له ولا دية بل هو قتيل الله إلى النار [٥] .

---

(١) ابن نباتة ص١٠٠ ويروي الأبشيهي جـ١ ص٥٩ أنه قال : أنا مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين .

(٢) الأغاني جـ١٦ ص٤١ ويروي أبو علي القالي في الأمالي والنوادر جـ٢ ص١٩٥ أن الذي كان في حبس الحجاج هو أخوه عيينة .

(٣) راجع الأغاني جـ١١ ص٥٧ وابن الأثير جـ٤ ص٩ ويروي ابن الأثير جـ٤ ص٩ أنه أعطاه مائة ألف درهم .

(٤) تقدم ص ٢٦٥ . (٥) تقدم ص ٣١٧ .

وليس أدل على ذلك من حادثة ابن أخيه الذي كان حاكمًا بواسط وأغرم بامرأة فمنعته نفسها مرات حتى سئمت فأخبرت إخوتها فأمروها بأن تأذن له بالمجيء ليلاً ، ولما دخل في غسق الليل قتلوه وقطعوا أوصاله ثم رموا به في عرض الشارع وعلم الحجاج بالأمر وثبت بالأدلة أنه كان يريد أن يرتكب الفاحشة مع تلك المرأة فأمر بإلقائه للكلاب ووصل المرأة بكل ما خلفه ابن أخيه وقال لها : كثّرَ الله في النساء أمثالك (١) .

ولغيرته كان يكره فحش القول فإنه لما أتي بامرأة ابن الأشعث بعد دير الجماجم قال لأحد الخدم قل لها : عدوة الله أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك ؟فقال لها الخادم أين مال الله الذي جعلته تحت إستك ، فغضب الحجاج وقال له كذبت ما هكذا قلت وأمره بتخليته عنها (٢) .

وبقدر ما اشتهر الحجاج بالقسوة على المجرمين والمذنبين نراه كثيرًا ما عفا عن مذنبين لمكانتهم أو لاعترافهم بذنبهم أولإجابتهم المستحسنة أو شجاعتهم .

فقد عفا عن جحدر بن مالك الذي كان مقاتلاً شجاعًا وشاعرًا ولصًا قويًا ، ولكنه اشترط عليه أن يقتل أسدًا ضاريًا كان في إقليم كسكر . وبعد أن قتله مبارزة كَنِدٌ له خيره الحجاج بين الرجوع إلى وطنه ـ اليمامة ـ أو البقاء في خدمته فاختار هذا البقاء في خدمته فأجزل له الحجاج العطاء (٣) .

وقد تجلت رحمته وعطفه حينما بعث إليه الخليفة عبد الملك يطلب منه رأس أسلم بن عبيد البكري لأمر بلغه عنه ؛ بأنه لما وصله كتاب الخليفة أحضره فقال

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٨٣ ، ٨٤ والنويري جـ٢ ص١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٦ .

(٣) الجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص٧٧ وابن عساكر جـ٤ ص٦٣ ، ٦٤ وابن كثير جـ٩ ص١٢٥ وابن شاكر جـ٥ ص٢٦٠ والأبشيهي جـ١ ص٢٢٤ .

أسلم : أعز الله أمير المؤمنين هو للغائب وأنت للحاضر قال الله تعالى : ﴿ **يـاأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ [١] .

وما بلغه عني باطل فاكتب إليه أني أعول أربعًا وعشرين امرأة مالهن بعد الله كاسب غيري فقال الحجاج : ومن لي بتصديق ذلك ؟؟ قال هن بالباب أصلح الله الأمير فأمر بإحضارهن فجعل يسائلهن فهذه تقول عمي والأخرى تقول خالي والثالثه تقول زوجي وهكذا جعل يسألهن عن صلتهن به حتى انتهى إلى جارية دون العاشرة فقال لها : ومن أنت منه ؟؟ فقالت أصلح الله الأمير . ثم جثت بين يديه وأنشأت تقول :

أحجاج لم تشهد مقام بناته	وعماته يندبه الليل أجمعا
أحجاج كم تقتل به إن قتلته	ثمانًا وعشرًا واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه	علينا فهلاً أن تزدنا تضعضعا
أحجاج إما أن تجود بنعمة	علينا وإما أن تُقَتِّلنا معا

فما أتمت الجارية كلامها حتى سال دمعه وبكى لحالهن وقال : والله لا أعنت الدهر عليكن ولازدتكن تضعضعا ؛ وكتب إلى عبد الملك بقصة هذا الرجل فرضي عبد الملك وأمره بأن يصلهن صلة حسنة ويتفقد الجارية كل وقت [٢] .

وفي مرة كان متوجها إلى البصرة فقابلته امرأة وقالت له : اتق الله ياحجاج فإن أزواجنا غائبة عنا مع ابن أبي بكرة منذ ستة أشهر . فأشفق عليها وأمر بإطلاق زوجها وكل من كان معه [٣] .

---

(١) الآية ٦ سورة الحجرات .

(٢) ابن عساكر جـ٤ ص٦١ ، ٦٢ وابن كثير جـ٩ ص١٢٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) ابن شاكر جـ٥ ص٢٦٠ .

وكان الحجاج مخلصًا للخلافة فلم يحاول ولم يفكر في الغدر بأحد من الخلفاء على الرغم من أنه كان يحكم نصف أملاك الدولة وقد تجلى وفاؤه في استمرار صلته لعبد الله ابن جعفر وحمله له ما يلزم كل هلال [١] .

وكذلك مالك بن شرحبيل الخولاني – الذي كان معه في حصار مكة – فإنه كان يرسل إليه في كل عام بحلة وثلاثة آلاف درهم وولاه القضاء في سنة ثلاث وثمانين [٢] .

تدينة : اتصف الحجاج بكل ما عددنا من محاسن وتحلى بكل ما سجلنا له من صفات تدل على حسن اتباعه لتعاليم الدين .

ولم يكن غريبًا على الحجاج أن يتصف بكل ذلك وهو الرجل المسلم المتدين تدينًا صحيحًا .

حقًا لقد كان الحجاج مسلمًا مخلصًا في عقيدته ورعًا زاهدًا ؛ ولذلك كان إذا وعظ أخذ بمجامع القلوب وأثر في قرارة النفوس حتى قال إمام الواعظين في عصره ـ الحسن البصري ـ: لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج .

وقد رأينا بعض خطبه الوعظية تفيض بالإخلاص وتنم عما كان عليه الرجل من الإيمان الصحيح ، ولقد خطب مرة وذكر القبر وما فيه حتى بكى وأبكى من حوله [٣] .

ومن قوله في مناسبة دينية : إن إمرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ذنبه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكر في معاده لجدير أن يطول حزنه ويتضاعف أسفه [٤] .

---

(١) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه جـ١ ص١٤٦ والأبشيهي جـ٢ ص٢٢١ .

(٢) القضاة للكندي ص٣٢٠ ، ٣٢١ وابن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ص٢٣٦ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١٦٠ .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص١٣٢ وابن عساكر التاريخ الكبير جـ٤ ص٤٨ .

(٤) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٦٩ والمسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٦ .

ولم لا يقول الحجاج ذلك ؟؟ ، وهو الذي كان يحاسب نفسه ويراقبها وقد وصل في ذلك إلى الدرجة التي قال بها المتصوفة فيا بعد . ولذا لا نعجب لما قيل من أن الحجاج كان يقرأ القرآن كل ليلة [١] حتى حسده على ذلك عمر بن عبد العزيز حيث قال : ما حسدت الحجاج عدو الله حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله [٢] .

وبلغ من محبته للقرآن والمحافظة عليه أنه عندما وجد الناس يلحنون في كتاب الله عمل على شكله ونقطه مما يذكره له التاريخ بالفخر والإعجاب .

وكان الحجاج لا يضحك كثيرًا وإذا ضحك والى بين الاستغفار[٣] ولقد بكى وأكثر من البكاء خوفًا من الله تعالى حتى عمشت عيناه [٤] .

ولما أشير عليه بمعلّمَيْن لأولاده : أحدهما نصراني عالم والآخر مسلم أقل علمًا فضل المسلم معللاً ذلك بأن المسلم يذكر الولد ربه إذا نسي ويعلمه الشريعة [٥] .

وكان الحجاج يحب العلماء ويجلهم ؛ ولكنه كان يرى أن لايتدخلوا في السياسة وألا يشتركوا في الثورات ، وقد رأينا ما فعله مع سعيد بن جبير من توليته له المناصب وجعله من سُمّاره قبل أن يتدخل في ثورة ابن الأشعث وحتى بعد تدخله كاد أن يعفو عنه لولا ما بدر من سعيد .

وبلغ من إكباره للعلم أن ترك يحي بن وثاب يصلي بالناس مع أنه مولى [٦]

---

(١) ابن عساكر جـ٤ ص٤٩ وابن كثير جـ٩ ص٤١ .
ويروى صاحب مختصر صفوة الصفوة لابن الجوزي ص١٥١ أن الحجاج كان يختم القرآن في ركعة واحدة في جوف الكعبة وكان في رمضان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء .

(٢) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير جـ٤ ص٨٢ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١٩ .

(٣) المبرد ـ الكامل ص١٧٣ وابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٠ والأبشيهي جـ١ ص٥٠ .

(٤) مختصر صفوة الصفوة ص١٥١ .

(٥) الأصفهاني ـ الأغاني جـ١٨ ص٧٨ .

(٦) ابن عبد ربه جـ١ ص٢٠٧ .

وكان الحجاج يلتمس للعلماء طريقًا للعفو إذا ما أذنبوا ورجعوا كما حدث للشعبيّ

وعلى الرغم من أن الحجاج كان عالمًا معتزًا بعلمه فقيهًا معتزًا بمكانته كان لا يأ
أن يستمع للنصيحة ، وكان الحجاج مع كثرة مشاغله ـ لا ينئ عن الجلوس للعل
والاقتداء بهم فقد اقتدى بابن عمر في مناسك الحج (١) وصلى مرة وهو صغير بجا
سعيد بن المسيب فلم يحسن الصلاة . فلما انتهت الصلاة أمسك سعيد بطرف ردائ
صار يوبخه على صلاته تلك وكان مما قاله له : لقد هممت أن أضرب بهذا ال
وجهك فلم يرد عليه الحجاج شيئًا

ثم مرت الأيام والسنون وولي الحجاج الحجاز فأقبل على مجلس سعيد وج
بين يديه وقال له : جزاك الله من معلمٍ ومؤدبٍ خيرًا ما صليت بعدك صلاة إلا
أذكر قولك (٢)

وكان يحضر مجالس الحسن البصري فإذا أراد أن ينصرف يوصيه بالناس فية
له : لا تمل الناس ، فيقول الحسن : أصلح الله الأمير لم يبق إلا من له حاجة (٣) .

وكان يسال العلماء عما يشكل عليه وقد سأل الشعبي (٤) ويحي بن يعمر
وغيرهما .

وكان الحجاج لا يشرب الخمر وقد أجمعت المصادر على ذلك ويروى أن الخلي
عبد الملك (٦) أو الوليد (٧) عزم عليه أن يشرب معه النبيذ فأبى وقال : إني أ.

(١) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٢ .

(٢) ابن عساكر جـ٤ ص٧٢ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٧٩٩ وابن كثير جـ٩ ص١١٩ .

(٣) ابن عساكر جـ٤ ص٧١ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١٣ .

(٤) ابن عبد ربه جـ٣ ص١١ وجـ١ ص١٧٣ والمسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٣ والمبرد ص١٥٨ .

(٥) ابن عبد ربه جـ٣ ص٧ وجـ١ ص١٨٥ وابن عساكر جـ٤ ص٦٥ وابن كثير جـ٩ ص١٢٦ والذهبي ص٨٢٠ والعيني جـ١١ ص٤٠٣ والدميري ـ حياة الحيوان جـ١ ص١٦٠ .

(٦) ابن نباتة ص١٠٨ .

(٧) المبرد ص٣٢٣ وابن كثير جـ٩ ص١٢٧ وغرر الخصائص الواضحة ص٨٩ .

أهل عملي عنه وما أريد أن أخالف قول العبد الصالح : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

وكان لا يحب الطغاة ولا المتكبرين فإنه لما دخل العراق قيل له كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو أدركت به أربعًا لتقربت إلى الله بدمائهم . قيل : ومن هم ؟؟ قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال : فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم فقال لمثل هذا فليعمل العاملون . وعبيد الله ابن ظبيان قام فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا أمثالك . فقال : لقد سألتم الله شططًا . وسعيد بن زرارة كان ذات يوم جالسًا على الطريق فمرت به امرأة فقالت : ياعبدالله أين الطريق إلى مكان كذا ؟ فغضب وقال ألمثلي يقال ياعبدالله ؟؟!

وأبو سماك الحنفى أضل ناقته فقال : لئن لم يردها عليَّ لا صليت أبدًا . فلما وجدها قال : علم أن يميني كانت برًا [١] .

وكان الحجاج يحب آل بيت الرسول ويكرمهم وما زواجه ببنت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم ، وعلى الرغم من أنه طلقها فمازال واصلاً لعبد الله حتى مات فكان يرسل له في كل شهر عيرًا تحمل كسوة وتحفًا وميرة وكل ما يحتاج إليه [٢] .

وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة : ليقم كل رجل منكم يذكر بلاءه لنعطيه . فقام رجل فقال : أنا قاتل الحسين . فقال : كيف قتلته ؟؟ قال : دسرته بالرمح دسرًا ، وهبرته بالسيف هبرًا . فقال أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة ، وحرمه من العطاء [٣] .

---

(١) ابن عبد ربه جـ١ ص٢٤٢ وجـ٣ ص١٧ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ١ ص٢٦٩ .

(٢) ابن عبد ربه جـ١ ص١٤٦ والأبشيهي ـ المستطرف من كل فن مستظرف جـ٢ ص٢٢١ .

(٣) ابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص١٣٢ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١٢ وابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٨ .

وكان الحجاج يعتقد في الدعاء وقد روى في ذلك حديثًا (١) .

وإنه لما أبطأ خبر قتيبة بن مسلم في بلاد ماوراء النهر أمر الناس بالدعاء له في المساجد (٢) .

وخلاصة القول أن الحجاج كان يضع السيف في موضعه كما كان يضع الندى كذلك في موضعه حتى لقد قيل إن الحجاج كان يعظ عظة الأزارقة ويبطش بطش الجبارين (٣) .

على أن الحجاج ـ شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال ـ لم ينج من حسد الناس له وحقدهم عليه حتى لقد وصلت الحال ببعضهم أن كفره (٤) .

وعرف الحجاج منهم ذلك فخطب مرة فقال : ألا إن الحجاج كافر ، وأطرق ثم التفت عن يساره وقال ألا إن الحجاج كافر باللات والعزى (٥) أو بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء (٦) .

ولما مات الحجاج صار الناس يسألون عنه أهو في الجنة أم في النار ؟! فأفتى بعضهم أنه في النار (٧) وبذلك حكم عليه في آخرته ؛ وتورع البعض الآخر عن الحكم وقال : سبحان الله أأحكم على الله ؟! فسألوه عن سبه فنهى عن ذلك (٨)

---

(١) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير جـ٤ ص٤٨ .

(٢) الطبري جـ٥ ص٢١٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٠٧ وسرح العيون ص١١٤ .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٦ والجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٣ ص١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) راجع ابن عبد ربه جـ٣ ص١٧ والمسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١٠٢ ، ١٠٤ وابن كثير جـ٩ ص١٢٩ ، ١٣١ والعيني جـ١١ ص٤٠٣ وابن شاكر جـ٥ ص٢٦٢ والقرماني ص١٢٣ وكنز الدرر جـ٤ ق٢ ص١٤٥ .

(٥) العيني ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ١١ ص٤٠٤ .

(٦) ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ٩ ص١٣١ .

(٧) العيني جـ١١ ص٤٠٤ والعقد جـ٣ ص١٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٦٢ والقرماني ص١٢٣ .

(٨) ابن عساكر جـ٤ ص٨١ والذهبي جـ٤ ص٨١٨ .

وعزي إلى عمر بن عبد العزيز أنه رآه يعذب في النار[١] .

ولما رأى بعض الكتاب المحدثين ماله من الأعمال الطيبة وماروته المصادر في الحكم عليه وعلى أعماله مما لا يمكن أن يصدر عن شخص واحد قالوا إن الحجاج كان ذا شخصيتين : شخصية متدينة فتصدر الأعمال عنها عن فيض وإيمان صحيح ، وأخرى قاسية جبارة فتاكة تحب سفك الدماء[٢] .

وأما نحن فلسنا في حاجة إلى أن نظهر بطلان رأيهم من وجهة الفرض الذي فرضوه بل إننا نعتقد أن شخصيته كانت شخصية واحدة وهي المؤمنة تجزي المحسن وتعاقب المسيء .

أوصاف الحجاج الخِلْقية : ذكروا أن الحجاج ولد مشوه الخلقة ، ولكنهم لم يذكروا هذا الوصف حينما كانوا يريدون أن يعيبوه بعد أن نما وترعرع ، ولكنهم قالوا إنه كان صغير الجسم وأن رأسه كانت مفرطحة وغارقة بين كتفيه وأن عينيه كانتا ضيقتين فكان ضعيف البصر ، وقد نسب بعض رجال حاشيته ضعف عينيه إلى قراءته المستمرة في الأوراق[٣] لأنه بصفتة حاكمًا لإقليم واسع كان عليه أن يعرف كل صغيرة وكبيرة ويشرف على الأمور كلها بنفسه فكان على الدوام مكبًّا على أوراقه مجدًّا في عمله .

وينسب بعض المؤرخين ضعف عينيه إلى كثرة بكائه من خشية الله[٤] وأيًّاما كان فقد عيره أعداؤه بذلك فقال إمام بن أرقم النميري ـ وكان الحجاج جعله على بعض شرط أبان بن مروان ثم حبسه :

---

(١) راجع مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص١٣٩ وابن خلكان جـ١ ص٢٠٨ وابن عبد ربه جـ٣ ص١٩ والعيني جـ١١ ص٤٠٧ وابن كثير جـ٩ ص١٣٩ .

(٢) الثقافة ـ العدد ١٧٠ من السنة الرابعة .

(٣) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٥ .

(٤) مختصر صفوة الصفوة ص١٥١ .

وللحجـــاج عَيْنٌ بنت مـــاء تقلب طرفهـا حــذر الصقــور [١]

وأن سـاقيـه كانتـا صغيرتين وضعيفتين فـإذا مـا مشى اصطكت إحــداهمـا بالأخرى [٢] .

وكان الحجاج دقيق الصوت [٣] ، وكان يرجل شعره ويخضب أطرافه [٤] .

---

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص١٦٦ والجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٢٩٦ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٩ والبدء والتاريخ جـ٦ ص٢٧ .

(٣) المعارف ص١٧٣ .

(٤) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٦ .

الفصل الثالث
أسرة الحجاج - قرابته لبني أمية - نساؤه - تربيته لأولاده - مرضه - أطباؤه - وفاته

رأينا أن كثيرًا من أمراء الأسرة الحاكمة كان يكره حاكم العراق ومع ذلك ارتبطت أسرته بالأسرة الحاكمة بروابط المصاهرة .

وقد سبق بيان ذلك في الكلام عن العلاقة بين الحجاج والأسرة الأموية .

وكان الحجاج بارًا بأسرته محبًا لعشيرته عاملاً على إسعاد قرابته . لذلك لم يدخر الحجاج وسعًا في أن يرشحهم للمناصب الكبرى ؛ وقد رحب الخلفاء باستخدام آل الحجاج ؛ فأخوه محمد عينه عبد الملك حاكمًا على اليمن فأدار هذا الإقليم عدة سنوات بمهارة وجعل على أهل اليمن خراجًا محددا فاستاء أهل اليمن من هذه التصرفات وشكوه إلى الحجاج ولكنه لم يعزله اقتناعًا بسياسته ؛ واستمر أمر خراج اليمن على وضعه إلى عهد عمر بن عبد العزيز فألغاه واقتصر على العشر ونصف العشر ؛ فلما ولي يزيد بن عبد الملك أمر بجعل الخراج كما كان قبل عهد عمر [١] .

وفي مرة حاول رجل من أهل اليمن إيغار صدر عبد الملك عليه فقال له وهو يخطب : إن محمد بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام فقال له اجلس فجلس ثم قام فقال مثل مقالته الأولى فقال عبد الملك : لقد هممت أن أقتلك [٢] .

ولم يدخر أهل اليمن وسعًا في إيغار صدر الحجاج على أخيه .

كان بمكة فجاءه رجل من أهل اليمن فسأله عن أخيه فقال : خلفته ظلومًا غشومًا عاصيًا للخالق مطيعًا للمخلوق [٣] .

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص٨٠ وابن الأثير جـ٤ ص١٦٦ والأتابكي - النجوم الزاهرة جـ١ ص٢٣٩ .

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص١٩٤ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد جـ٢ ص٦٧ .

وقد استطاع محمد في ولايته أن يستصفى لنفسه بعض الممتلكات [١] فلما توفى في ولايته وجد في خزائنه نحو المائة والخمسين ألفًا من الدنانير فأخبر الحجاج الوليد بها قائلاً : إن محمد بن يوسف قد أصاب مائة وخمسين ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله وإن لم يكن أصابها من حلها فلا رحمه الله . فرد عليه الوليد « إنه قد أصابها من تجارة أحللناها له فارحمه رحمه الله » [٢] .

وقد رأينا فيما سبق أن الحكم بن أيوب بن أبي عقيل ـ ابن عمه وزوج أخته ـ كان خليفته على البصرة ومحمد بن القاسم ـ ابن عمه ـ كان قائد الحملة التي وجهت إلى السند وقد نجح فيما فشل فيه غيره . ومحمد ابنه كان قائد الجيش الذي ذهب إلى غزو الديلم وأبناء المغيرة الثلاثة كانوا أمراء فعروة كان أمير الكوفة والمطرف أمير المدائن وحمزة أمير همدان .

وقدم على الحجاج ابن عم له من البادية فسأله أن يعطيه ولاية فأبى عليه الحجاج محتجًّا بأنه لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، ولكن ذلك لم يقنع الأعرابي فامتحنه الحجاج بأن قال له : اقسم ثلاثة دراهم على أربعة أشخاص فلم يعرف ولما ضاقت حيلته اقترح بأن يعطي كل واحد درهمًا ويعطي الرابع درهمًا من عنده وعرض هذا الحل على الحجاج وجلسائه فضحكوا منه ، ولكن الأعرابي ظل مصرًا على ما يطلب !!.

فكر الحجاج فوجد أن أهل أصبهان قد كسروا خراجهم ثلاث سنين وكلما أتاهم والٍ عجزوه فقال : والله لأرمينهم ببدوية هذا وعنجهيته فأخلق به أن ينجب . فكتب له عهده على أصبهان فخرج إليها فلما وصلها استقبله أهلها استقبالاً عظيمًا واعتقدوا أن هذا سيكون آلة في أيديهم ، ولكنه لم يأخذه هذا الاستقبال ولم يلهه عما حضر لأجله فما كاد يستقر بداره حتى جمع الناس وقال لهم : ما لكم تعصون ربكم

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٨٠ .

(٢) المبرد ـ الكامل ص٢٩٤ .

وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم . فشكوا إليه ظلم الولاة وجور العمال فسألهم عما يصلحهم فطلبوا منه تأخير الخراج ثمانية شهور فمد لهم الأجل إلى عشرة وطلب منهم عشرة ضمناء .

ومضت الأيام والشهور وقرب الأجل وهم غير مكترثين بجمعه فطلب منهم المال فلم يسمعوا لقوله .

فلما رأى مطلهم جمع الضمناء وطلب منهم المال فقالوا إن الزراعة أصابتها آفة فحلف أن لا يفطر ـ وكان ذلك في شهر رمضان ـ حتى يجمع المال أو يضرب أعناقهم جميعًا . وقدم أحدهم فضرب عنقه وكتب عليه فلان ابن فلان أدى ما عليه وجعل رأسه في بدرة وختم عليها وقدم الثاني ففعل به مثل ذلك فلما رأى القوم الرؤوس تبدر قالوا : أيها الأمير توقف حتى نحضر لك المال ففعل وسرعان ما أحضروه .

بلغ ذلك العمل الحجاج فسر وقال : إنا معاشر آل محمد ـ يعني جده ـ نُجُبٌ فكيف رأيتم فراستي في الأعرابي ؟ . ولم يزل واليًا عليها حتى مات الحجاج[١] .

نساؤه وأولاده : تزوج الحجاج بأم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر وأم الجلاس بنت عبد الله بن خالد بن أسيد وأم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو ، وبالفارعة بنت هبار[٢] وأم أبان بنت النعمان بن بشير ولم تطل مدة إقامة هذه الأخيرة عند الحجاج لأنها كانت تريد أن يكون الحجاج رهين إشارتها ورهين حبها ، ولكن الحجاج لم يكن رجل حب وغرام بالنساء بل كان ينظر إلى المرأة نظرة أنها أم فحسب .

ذلك أنه كان رجل عمل فلم يكن لديه المتسع من الوقت لمبادلة نسائه الحب فطلقها[٣] .

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب جـ٢ ص١١٤ ، ١١٥ .

(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص٦ .

(٣) الأغاني جـ٨ ص١٣٥ .

أما الزوجتان المشهورتان للحجاج فهما هند بنت المهلب ؛ وهند بنت أسماء بن خارجة الفزاري وقد طلق هند بنت المهلب يوم أن سجن أخاها يزيد وعلا صوته من شدة العذاب فناحت وعلا صوتها (١).

ولم تكن زوجته الثانية بأسعد حظًا من سابقتها فقد كانت في بدء حياتها تحب عبيد الله بن زياد ـ والي العراق في عهد يزيد بن معاوية ـ ولكنها لم تتزوجه وأرغمت على الزواج ببشر بن مروان وقد أنجبت منه ولدين ومات عنها .

ولما مات وولي العراق الحجاج بن يوسف أراد أن يضم إليه الأميرين الصغيرين ليربيهما في بيته كأولاده وأرسل في هذا الشأن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري فلم تحاول هند الممانعة في أخذ نجليها إذ كانت المحاولة ضد حاكم العراق فاشلة .

وقد وصفها الرسول للحجاج فأشاد بما فيها من محاسن فرده ليخطبها إليه فوافق أبوها على زواجها من الحجاج فأرسل إليها الحجاج مهرًا عظيمًا وخدمًا وجواري يحملون فاخر الثياب ثم زفت إليه وقد أوصاها أبوها بوصايا قبل مفارقتها لمنزلها ؛ ولكن قلبها كان معلقًا بغرام الصبا وأيام الشباب وقد كانت كل أمنيتها أن تقوم يوم القيامة لترى وجه عبيد الله بن زياد فلم يتسع قلبها لغيره .

فلما نقلها الحجاج إلى البصرة لم تجد قصره في نظرها جميلاً كقصر عبيد الله بن زياد فنغصت حياتها وبالتالي حياته (٢) .

يروى أنه دخل عليها مره وهي تنظر في المرآة ـ وقد أعجبها جمالها ـ وتقول :

وما هند إلا مهرة عربية ... سلالة أفراس تحللها بغل

---

(١) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص١٢٠ وابن الأثير ـ الكامل جـ٤ ص١٢٥ وابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ٢ ص٣٥٦ .

(٢) الأغاني جـ١٨ ص١٢٩ ، ١٣٠ .

فإن ولدت فحلاً فلله درها   وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل [١]

فانصرف الحجاج راجعًا ولم يدخل عليها ـ ولم تكن قد علمت به ـ وأرسل إليها ابن القرية [٢] وقال له ياابن القرية طلقها بكلمتين ولا تزد عليها وأرسل معه ما كان لها قِبَلَه .

فدخل ابن القرية عليها وقال لها : يقول لك الحجاج « كنت فبنت » ، وهذه المائة ألف درهم التي كانت لك قبله [٣] . فقالت : اعلم ياابن القرية أنا والله كنا فما حمدنا وبنَّا فما ندمنا وهذه المائة ألف بشارة لك بطلاقي [٤] .

وأما الأولاد فهم محمد وقد مات في حياة أبيه ، وفي عهد المؤرخ ابن قتيبة كان لمحمد ذرية في دمشق ، وعبد الملك وكان له ذرية في البصرة . أما أبان والوليد فقد

= ويروي المبرد ص٢٩١ وابن خلكان جـ١ ص١٥٧ أن الحجاج طلق الهندين ـ هند بنت المهلب وهند بنت أسماء لسبب واحد وهو أنه رأى في المنام أن عينيه قلعتا فأول الرؤيا بطلاق زوجتيه فطلقها ، فلم يلبث أن جاءه نعي أخيه محمد من اليمن في اليوم الذي مات فيه ابنه محمد فقال : محمدان في يوم واحد إنا لله وإنا إليه راجعون .

(١) الأغاني جـ١٨ ص١٢٩ والجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص١٨٤ ، ويروي الأتابكي جـ١ ص٢٠٥ أن ذلك القول كان من هند بنت النعمان في حق زوجها روح بن زنباع بينما يروي الأبشيهي جـ١ ص٥٤ أن ذلك في الحجاج من هند بنت النعمان . وهذا خلط فإن الحجاج لم يتزوج بهند بنت النعمان وإنما تزوج أختها أم أبان وأن الذي تزوج بهند بنت النعمان بعد روح بن زنباع كما يقول صاحب الأغاني جـ١٤ ص١٢٥ إنما هو الفيض بن محمد الثقفي وكان يسكر ويقيء في حجرها فقالت فيه هذا الشعر ؛ وقد ولدت منه بنتًا تزوجها الحجاج ـ الأغاني جـ٨ ص١٣٥ .

(٢) الجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص١٨٤ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٢٠٩ .
ويروي الأبشيهي جـ١ ص٥٤ أن الرسول كان عبد الله بن طاهر .

(٣) الجاحظ ـ المحاسن والأضداد ص١٨٤ ويروي الأبشيهي جـ١ ص٥٤ مائتا ألف درهم بينما يروي ابن قتيبة جـ٢ ص٢٠٩ عشرة آلاف درهم وعلى أنها متعة .

(٤) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٢٠٩ .

ماتا دون عقب (١) وبنتان تزوجت إحداهما ابنًا للخليفة عبد الملك بن مروان (٢) وثانيتهما بمسرور ابن الخليفة الوليد (٣) .

وقد عمل على تربيتهم تربية صحيحة تحقق لهم السعادة فاهتم بغرس المبادىء الدينية فيهم باختيار أساتذة مسلمين ووصايته لهم .

يروي صاحب الأغاني أنه عندما أراد مؤدبًا لولده أشير عليه بأستاذين أحدهما نصراني عالم والآخر مسلم أقل علمًا فاختار الحجاج المسلم (٤) ، ولما حضر لديه قال له : ألا ترى ياهذا أنا قد دللنا على نصراني ، وقد ذكروا أنه أعلم منك غير أني لم أشأ أن أضم ولدي إلى من لا ينبههم للصلاة عند وقتها ولا يدلهم على شرائع الإسلام ومعالمه (٥) .

كما اهتم بأن ينشئهم تنشئة رياضية حتى يشبوا أقوياء البنية .

ورغبة منه في أن ينشأوا وهم لا يخافون ركوب البحار أبدى رغبته لمعلم أولاده أن يعلمهم السباحة قبل الكتابة قائلاً له : إنهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم (٦) .

وفاة الحجاج : كتب الحجاج إلى عامله قتيبة بن مسلم بأنه فكر في سنه فوجد أنه قد بلغ الثالثة والخمسين وأن من وصل إلى خمسين سنة أوشك من النهاية (٧) .

---

(١) ابن قتيبة ـ المعارف ص١٧٣ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص١٨١ .

(٣) ابن الأثير جـ٤ ص٢٥٦ وابن عبد ربه العقد الفريد جـ٢ ص٢٣٩ .

(٤) **تقدم ص ٣٩٧ .**

(٥) الأغاني جـ١٨ ص٧٨ .

(٦) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص١٦٦ والجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٢ ص١٤٥ .

(٧) الأغاني جـ١٨ ص١١٩ وذيل الأمالي والنوادر ص١ .

ويبدو لنا أن الحجاج قد كتب هذا حينما أحسّ بمبادىء المرض بـدا دبيبهـا في جسمه فقد مرض بسرطان المعدة [١] وقد أشرف على علاجـه طبيبـه تيـاذوق [٢] وكان له طبيبان آخران همـا الفرات بن سحنـاثـا [٣] وثـاذون [٤] ، ولكن الـذي أشرف على علاجه هو تياذوق الذي كان في إبان شبابه متصلا بخدمة الأكاسرة وألف كتبًا كثيرة في الطب منها كتاب الأدوية والكناشة الكبرى [٥] .

لم يُجْدِ العـلاج فقـد حـانت المنيـة وأحس الحجـاج بهـا فكتب وصيتـه المشهـورة للخليفة الوليد [٦] .

وقال للناس أسندوني فأسندوه وأذن للناس فدخلوا عليـه ، فـذكر الموت وكربـه واللحد ووحشته والدنيا وزوالها ، والآخرة وكربها وأنشأ يقول :

إن ذنبي وزن السمـــوات والأر ضِ وظنــي بخـالقي أن يحـابي
فلئن منَّ بـالرضـا فهـو ظني ولئن مرَّ بـالكتـاب عـذابي
لم يكن ذاك منـه ظلم وهل يظلم رب يرجـى لحسن المـــآب؟!

وقد فرح أهل العراق بمرضه وشمتوا به وظهر ذلك منهم في صورة شنيعة .

---

(١) شـذرات الـذهب جـ١ ص١٠٧ ومرآة الجنـان جـ١ ص١٩٥ . ومختصر التواريـخ للسـلامي ص٢٢ ويروي صاحب البدء والتاريخ جـ٦ ص٣٩ أنه مات بالسل الرئوي .

(٢) القفطي ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٧٤ وابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنبـاء في طبقـات الأطبـاء جـ١ ص١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) القفطي ـ إخبار العلماء بأخبـار الحكمـاء ص١٦٩ وابن أبي أصَيبعـة ـ عيون الأنبـاء في طبقـات الأطبـاء جـ١ ص١٦٢ .

(٤) القفطي ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٧٦ وابن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء في طبقات الأطبـاء جـ١ ص١٢٣ .

(٥) القفطي ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٧٤ .

(٦) تقدم ص ١٤٩ .

فقد دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد المجاشعي وقال لـه : كيف ترى مـا بـك ياحجاج من غمرات الموت وسكراته ؟؟ فقال : يايعلى غما شديدا وجهدًا جهيدًا وألما مضيضًا ونزعًا جريضًا وسفرًا طويلاً وزادًا قليلاً فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار .

فقال له يعلى ـ **في تلك اللحظة القاسية** ـ : يـاحجـاج إنما يرحم الله من عبـاده الرحماء الكرماء أولي الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقـه أشهـد أنـك قرين فرعون وهـامـان لسـوء سيرتـك وترك ملتـك وتنكبـك عن قصـد الحـق وسنن المحجـة وآثـار الصـالحين قتلت صـالحي النـاس فأفنيتهم وأبرت عترة التـابعين فبترتهم وأطعت المخلوق في معصية الخالق وهرقت الدمـاء وضربت الأبشـار وهتكت الأستـار وسست سياسة لا الدين أبقيت ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان وأذللت نفسـك وعمرت دورهم وأخربت دارك فاليوم لايُنجُونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هـذا اليوم ولا لما بعده نظر .

لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا وعناءً وبلاءً فالحمـد لله الـذي أراحهـا بموتـك وأعطاها مناها بخزيك .

فسكت الحجاج وتنفس الصعداء وخنقتـه العَبْرة ثم رفع رأسـه فنظر إليـه وأنشـأ يقول :

رب إن العبـاد قـد أيـأسـوني ورجـائي لـك الغـداة عظيم [1]

ودعا فقال : اللهم اغفر لي فـإن النـاس يزعمون أنـك لا تفعل [2] ؛ وصـار يردد هذين البيتن :

---

(١) أبو علي القالي ـ ذيل الأمالي والنوادر ص١٧١ .

(٢) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير جـ٤ ص٨٢ وابن كثير ـ البداية والنهـايـة جـ٩ ص١٣٨ والقرمـاني ـ أخبـار الدول وآثار الأول ص١٣٣ .

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا أيمانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم !! ما ظنهم بعظيم العفو غفار [١]

ويروى أنه أحضر منجمًا وسأله : هل ترى في علمك ملكًا يموت ؟؟ قال : نعم ولست هو - قال : وكيف ذلك ؟ قال المنجم لأن الذي يموت اسمه كليب . قال أنا والله سمتني أمي بذلك [٢] فأوصى عند ذلك بأن يؤم الناس في الصلاة ابنه عبد الملك وأن يلي إمارة الحرب يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن أبي مسلم الخراج [٣] وقد أقر الخليفة هذا التعيين ونفذ هذه الوصية كما أقر عماله على ما كانوا عليه [٤]

ومات على الأغلب في خمس وعشرين من رمضان [٥] ، وقيل في شوال [٦] من سنة خمس وتسعين للهجرة [٧] وسنه ثلاث وخمسون أو أربع وخمسون سنة متأثرًا بسرطان المعدة كما مات نابليون بونابرت بهذا المرض وفي سن الحجاج أيضًا .

---

(١) ابن عساكر - التاريخ الكبير جـ٤ ص٨٢ وابن شاكر - عيون التواريخ جـ٥ ص٢٧١ والعيني جـ١١ ص٤٠٧ والذهبي جـ٤ ص٨١٩ وابن خلكان جـ١ ص١٥٦ .

(٢) ابن قتيبة - المعارف ص١٧٤ والبدء والتاريخ جـ٦ ص١٣٩ والعيني جـ١١ ص٤٠٧ وشذرات الذهب جـ١ ص١٠٧ وابن خلكان جـ١ ص١٥٥ .

(٣) ابن قتيبة - المعارف ص١٧٤ والطبري جـ٥ ص٢٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ .

(٤) راجع ص١٣٧ من الرسالة .

(٥) الطبري جـ٥ ص٢٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ وابن كثير جـ٩ ص١٣٨ وفي رواية أخرى للطبري جـ٥ ص٢٣٥ وابن خلكان جـ١ ص١٥٧ أنه مات يوم الجمعة ٢١ من رمضان ، وفي شذرات الذهب جـ١ ص١٠٦ ، ورواية أخرى لابن كثير أنه مات في ٢٧ من رمضان . ويروي ابن شاكر أنه مات في ١٥ منه .

أما المعارف ص١٧٤ والعيون والحدائق جـ٣ ص١٥ والمسعودي - التنبيه والإشراف ص٢٧٣ فيذكرون أنه مات في رمضان بدون التعرض لتعيين اليوم .

(٦) الطبري جـ٥ ص٢٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ وابن خلكان جـ١ ص١٥٧ وابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ في روايتهم الثانية وابن كثير جـ٩ ص١٣١ في رواية له ثالثة .

(٧) الطبري جـ٥ ص٢٦٤ والمسعودي - التنبيه والإشراف ص٢٧٤ واليعقوبي جـ٣ ص٣٤ وأبو الفدا ص١٩٨ وابن قتيبة ص١٧٤ ويروي الذهبي في تاريخ الإسلام جـ٤ ص٧٧٧ وفاته في سنة أربع وتسعين ويردد ابن عساكر جـ٤ ص٨٢ وفاته بين سنة خمس وتسعين وست وتسعين .

ودفن الحجاج بمدينته التي أسسها ـ واسط ـ وعفى قبره وأجرى عليه الماء [١] .

وإذا كان قد عفى قبره فمما لا شك فيه أنه ترك اسمًا هو من أعظم الأسماء في تاريخ الإسلام .

ولما مات طغى شعور الفرح على الناس الذين كانوا يبغضونه ، فقد خر عمر بن عبد العزيز ساجدًا حينما بلغه النبأ [٢] وكذلك الحسن البصري [٣] وبكى إبراهيم النخعي من شدة الفرح [٤] .

أما الخليفة الوليد فإنه حزن وتفجع عليه وجلس يتقبل التعازي فيه وقد رثاه الفرزدق الشاعر .

وبدأ المسلمون يتحدثون في مصيره في الآخرة كما قالوا إنه سُمِعَ صياحه في قبره وأخبروا بذلك يزيد بن أبي مسلم فقال : يرحمك الله ياأبا محمد فما تدع القراءة حيا ولا ميتًا [٥]

ومات الحجاج ولم يترك من حطام الدنيا إلا ثلاثمائة درهم ومصحفًا [٦] وسرجًا ورحلاً ومائة درع موقوفة [٧] .

مصير أسرته : نفذ الوليد وصية الحجاج وأقر عماله على ما كانوا عليه ، وكتب إلى قتيبة بن مسلم يطلب منه أن لا يغيب عنه كتبه ويصف له خطواته حتى كأن

(١) ابن خلكان جـ١ ص١٥٧ وابن كثير جـ٩ ص١٣٩ **والقرماني** ـ أخبار الدول وآثار الأول ص١٣٣ والسلامي ص٢٢ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٨ .

(٣) الذهبي جـ٤ ص٨٢١ وابن خلكان جـ١ ص١٥٧ وابن عساكر جـ٤ ص٨٢ وابن حجر جـ٢ ص٢١٢ .

(٤) ابن عساكر جـ٤ ص٨٢ .

(٥) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٩ والجهشياري ص٢٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٧٤ .

(٦) ابن كثير جـ٩ ص١٣٩ .

(٧) ابن عساكر جـ٤ ص٨١ .

الوليد يرى الثغر الذي هو فيه [١] .

ولكن لم تطل مدة حياة الوليد بعد الحجاج أكثر من ثمانية شهور أو تسعة شهور إذ مات في منتصف جمادى الثانية من سنة ست وتسعين للهجرة وولي الخلافة بعده سليمان بن عبد الملك عدو الحجاج فأساء لأسرة الحجاج كما أساء لقتيبة بن مسلم ، فولى يزيد بن المهلب العراق وعين صالح بن عبد الرحمن على خراج الإقليم وكلفه بتعذيب آل الحجاج وقتلهم .

وقد قام صالح بذلك العمل يساعده عبد الملك بن المهلب [٢] ، فأخذ صالح أموال تلك الأسرة وعذب في ذلك السبيل الحكم بن أيوب بن أبي عقيل حتى مات تحت آلة التعذيب [٣] .

وبعث ابن المهلب إلى البلقاء من أعمال دمشق وبها عيال الحجاج فنقلهم وما معهم إليه وكان فيمن أتى به أم الحجاج ـ زوج يزيد بن عبد الملك ـ فعذبها [٤] .

ولما ذكر خالد القسري ـ حاكم مكة ـ الحجاج في يوم جمعة فحمد طاعته وأثنى عليه تلقى في الجمعة التالية أمرًا من سليمان بلعنه فلعنه [٥] .

ولم يذكر لنا المؤرخون سوى رجل واحد ظل وفيًا لذكر الحجاج ؛ ذلك هو يزيد بن أبي مسلم فإنه لما أخذ إلى سليمان بن عبد الملك ؛ وسأله عن الحجاج أهو قد استقر في قعر جهنم أم ما زال ؟ يهوي ؟ أجابه لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين فإن الحجاج عادى عدوكم ووالى وليكم وبذل مهجته لكم ، فهو يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فاجعله حيث شئت [٦] .

---

(١) الطبري جـ٥ ص٢٦٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ .

(٢) ابن الأثير جـ٤ ص١٣٨ .

(٣) مرآة الزمان جـ٩ ص٤ ، ٣١ .

(٤) الطبري جـ٥ ص٣١٧ وابن الأثير جـ٤ ص١٦٠ وقيل بل أخت لها . نفس المصادر .

(٥) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٠ وزهر الآداب جـ٢ ص٤٩ .

(٦) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٢١٠ ، ٢١١ والمبرد ص٣٤٧ وابن شاكر جـ٥ ص٤٠٢ وابن خلكان جـ٢ ص٣٦٦ والدميري ـ حياة الحيوان جـ١ ص٨٢ وشذرات الذهب جـ١ ص١٢٤ .

خـاتـمـة

نظرة في سياسة الحجاج وإدارته :

قبل أن نتكلم على سياسة الحجاج يحسن بنا أن نذكر كلمة عن العصر الـذي نشـأ فيه ونفسية الشعوب التي حكمها .

نشأ الحجـاج في عصر بني أميـة ، وهـو عصر كان يعـج بـالثـورات والفتن لكثرة الأحزاب السياسيـة وتبـاغضهـا وتنـافرهـا لأنـه بعـد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى شيعة على رأسهم علي بن أبي طالب وأمويين على رأسهم معاوية بن أبي سفيان .

وقـد أدى تنـافس هـذين الحـزبين على الخـلافـة إلى حروب نشبت بين المسلمين انتهت بالتحكيم الذي كانت نتيجته انتصار حزب معاويـة وانقسـام أصحـاب علي إلى فرقتين :

فرقـة معـه نصرتـه وآزرتـه واستمرت مـواليـة لـه ، وأخرى خرجت عليـه وعلى معـاويـة وسمـوا أنفسهم بـالشراة (الخـوارج) الـذين أكفروا الأمـة واستحلـوا دمهـا والخروج على أئمتها .

وقد ائتمر فريق منهم بعـد موقعـة النهروان ـ التي حـدثت بينهم وبين علي ـ على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص لاعتقادهم أنهم أصل الفتن التي دبت عقاربهـا بين المسلمين ، وانتهت هذه المؤامرة بقتل علي بن أبي طـالـب في رمضـان من سنـة أربعين للهجرة فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ولكنه تنازل عن الخلافة .

وسواء أكان تنازله طوعًا أم كرهًا فقد تمَّ الأمر لمعـاويـة في سنـة واحـد وأربعين للهجرة . وبذلك انتصر الحزب الأموي وصارت الخلافة لبني أميـة .

وقامت الخلافة الأموية في دمشق يشد أزرها قبائل عربيـة قويـة سكنت الشـام منذ الفتح الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب ، وقد ألفوا إمرة معاويـة الـذي وسعهم بحلمه وماله فكانوا طوع إرادة الأمويين ورهن إشارتهم .

وأما أمهات المدن الإسلامية فكانت تختلف حالها ، فمصر كان بها جماعة يتشيعون لأبناء علي وجماعة تمالىء بني أمية ، ولذلك كانت بها فتن واضطرابات لا تنقطع سيا عند موت خليفة وقيام آخر .

وأما الحجاز فقد آوى إليه فريق من المهاجرين والأنصار من الذين اعتزلوا السياسة وآثروا الاشتغال بالعلم على متابعة الطامعين في السلطان ، أو من الذين كانوا ذوي مطامع ، ولكنهم وجدوا في معاوية قناة لا تلين لهم فظلوا مرتقبين الفرصة .

وبجانب هذين الفريقين عاش فريق ثالث من ذوي اليسار ينعمون بحياة وادعة في ظل الشعر والغناء وما إليهما منصرفين عن السياسة ومتاعبها وما تجره من عناءٍ وآلام .

وأما العراق فقد كان أنشط الأقاليم العربية في السياسة إذ كان فيه قوتان كبيرتان من قوى المعارضة :

كان فيه الشيعة العلوية التي اتخذت الكوفة مقرًا لها ، وكان فيه الخوارج وهم منتشرون في الكوفة والبصرة وغيرهما من القرى والبلدان .

ولهذا السبب ظل هذا الإقليم منبع كثير من الأحداث التي أجهدت الأمويين واستدعت نفقات كثيرة من الأموال والأرواح في تثبيت الأمن ورد المخاوف التي تحدثها الخوارج حينًا والشيعة حينًا آخر .

رای معاوية في هذا الإقليم أن الخوارج قد أخافوا الناس وزلزلوا الأمن في المدن والقرى كما أن الشيعة كانوا يرجفون ببني أمية ويلعنون معاوية على المنابر ويضايقون عماله ويطردونهم .

لذلك رماهم بداهيتين من دهاة العرب : المغيرة بن شعبة الذي ولي الكوفة وزياد بن أبيه الذي ولي البصرة وخراسان وسجستان .

وكان المغيرة في سياسته يؤثر العافية ولا يبدأ أحدًا بالشر حتى يبدأه به . فهو يرخي للناس حبل السياسة حتى يشدوه فإذا راموا قطعه عاجلهم بضربة منه تقفهم عند حدهم وكان ينهج نهج معاوية أحيانًا في تألف الخصوم بالمال .

على أن سياسة المسالمة هذه لم تفد مع هؤلاء فقد اضطر آخر الأمر إلى أن يجرد سيفه من غمده ، ولكنه مات في سنة خمسين من الهجرة فضم معاوية الكوفة إلى زياد .

وكان زياد أشد من المغيرة وأقوى ، ونستطيع أن نعرف سياسته من قوله في خطبته (لين في غير ضعف وشده في غير عنف المحسن يجازى بإحسانه والمسيء يجازى بإساءته) .

وفي عهده سكنت الحالة بالعراق حتى توفى في سنة ثلاث وخمسين من الهجرة فولى بعده ابنه عبيد الله .

وفي عهده كاتب العراقيون الحسين بن علي يطلبون منه الحضور لديهم لإخراج الأمر من بني أمية ومبايعته بالخلافة وزينوا له ذلك الأمر فسار إليهم من الحجاز فلما بلغ كربلاء خذلوه كما خذلوا عليًا والحسن من قبل ، وحدثت موقعة كربلاء التي قتل فيها الحسين وكثير من آل بيته ، وكان لمقتل الحسين أثر مهم .

ذلك أن التشيع بعد أن كان نظريًا أصبح عملاً وفعلاً وبعد أن كان الشيعة متفرقين اجتمعوا نادمين على ما كان منهم من خذلان الحسين وآل بيته وقد لبى هذا النداء - نداء الندم والتوبة - العدد الكثير وعلى الأخص الموالي من الفرس .

وقام فريق كبير من هؤلاء النادمين على ما اقترفوا (التائبين) برئاسة سليمان ابن صرد لمحاربة قتلة الحسين وساروا قاصدين عدوهم ومازالوا سائرين حتى انتهوا إلى عين الوردة [1] في ربيع الآخر من سنة خمسٍ وستين للهجرة حيث اشتبكوا بجيش

---

(١) رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة - ياقوت جـ٦ ص٢٥٨ .

عبيـد الله بن زيـاد ودارت رحى الحرب التي انتهت بقتـل سليمـان بن صرد والكثير منهم وتفرق من بقي منهم .

وظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنـة ست وستين وتمكن من جمع ـ الشيعة التوابين ـ وغيرهم حولـه وقـام بحرب ضـد قتلـة الحسين وتمكن من قتل معظمهم ، ولكنه قتل على يـد مصعب بن الزبير الـذي كان العراق تحت إمرتـه ـ في سنة سبع وستين ، فبدأ الشيعة من ذلك الوقت يعملون في الخفاء .

انتهز عبد الله بن الزبير ـ وهو من أشد المنافسين للأمويين ـ فرصة مقتل الحسين فقام منددًا بالأمويين وسياستهم مرشحًا نفسه للخلافة الشرعية ، تلك الأمنيـة التي لم يكن يستطيع أن يجهر بها طالما كان الحسين على قيد الحياة .

وتمكن من أخـذ البيعـة في سنـة ثـلاث وستين من الهجرة حيث قـال لـه أهـل الحجاز : امدد يدك نبايعك فلم يبق غيرك [١] .

وقد صادفت دعوته نجاحًا عظيمًا في بلاد الحجـاز والعراق ومصر ، وبـذلـك ظهر في الجو السياسي حزب رابع هو حرب الزبيريين .

وفي هذه الأثناء حـدث الانقســام في البيت الأموي بعـد تنـازل معـاويـة الثـاني بسبب الخلاف على من يتـولى الخـلافـة وحـدثت مـوقعـة مرج راهـط في سنـة خمس وستين للهجرة التي انتصر فيهـا مروان بن الحكم وحزبـه وانتقلت الخـلافـة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني .

في هذه الحقبة قضى الحجاج عهد طفولته وصباه فسمع بتلك الحوادث أو شاهدهـا وللشئـون السيـاسيـة والأحـداث الاجتماعيـة الأثر الكبير في تكييف عقـول النـاس وأخلاقهم .

---

(١) موضع بنواحي دمشق ـ ياقوت جـ٨ ص١٦ .

ولقد أثرت هذه الأحداث في نفس الحجاج وزادها تأثيرًا ممارسته للتعليم فإنها أكسبته خبرة ومرانا مكناه من معرفة طبائع الناس وبواطن نفوسهم والأوقات التي تنفع فيها الشدة والأوقات التي ينفع فيها اللين . هذا ، فضلاً عما وهبه الله له من القوة الشخصية والاعتزاز بالنفس والتأثير البياني .

في هذا الجو الذي كان يعج بالثورات والاضطرابات ولي الحجاج بن يوسف قيادة الحملة التي وجهت إلى الحجاز ضد عبد الله بن الزبير العائذ بالبيت ، فلما انتصر عليه أسندت إليه حكومة الحجاز ، وبذاك قُدِّر للحجاج أن يتحمل المسؤلية مبكرًا فلم تكن له مندوحة من أن يلتمس سبيل الشدة والحزم وإلا سقط في إدارته سقطة لا تقوم له بعدها قائمة .

عرف الحجاج ذلك فشمر عن ساعد الجد فأرهب دعاة التفرقة ، وقام بعدة أعمال دلت على بعد نظره ودهائه في السياسة ، فأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن الرسول وفرق أموالاً وبنى مسجدًا وأصلح آبارًا .

على أن الحجاج لم تطل به الإقامة بالحجاز فقد اختاره عبد الملك لولاية العراق .

ذلك الإقليم الذي كان يعج بالثورات فكان إذا ما ولي على أهله عاهل لا يلبثون أن يطلبوا عزله أو هم كما وصفهم الأحنف بن قيس « كالمسومة تريد كل يوم بعلاً وهم يريدون كل يوم أميرًا » [١] فإذا لم يجابوا إلى ذلك قاموا بثورة .

وقد أدرك ذلك الداهية الكبير معاوية بن أبي سفيان فكان من وصيته لابنه يزيد (وانظر لأهل العراق فإن سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف) [٢] .

---

(١) ابن الأثير جـ٤ ص١١ .

(٢) الطبري جـ٤ ص٢٢٨ وابن الأثير جـ٣ ص٢٥٩ .

ذلك الإقليم الذي كان من طبيعة أهله الغدر ومن سجيتهم عدم الوفاء ، فهم قد كاتبوا الحسين بن علي - في عهد يزيد بن معاوية - في أن يحضر إليهم لينا صروه ويبايعوه فلما حضر إليهم قاتلوه ، وبعد قتله ودخول آل الحسين الكوفة وقفت أخته السيدة زينب رضي الله عنها فخطبت ووصفت أهل العراق بالغدر والنفاق [١] .

وكانوا مع مصعب بن الزبير ويكاتبون عبد الملك بن مروان بأن يحضر بجيشه حتى إذا ما حضر غدروا بمصعب وأسلموه في ميدان القتال [٢] .

وبعد قتله وخروج زوجه السيدة سكينة بنت الحسين قالوا : أحسن الله صحبتك يا ابنة رسول الله ، فقالت : لا جزاكم الله خيرًا من قوم ولا أحسن الخلاقة عليكم قتلتم أبي وجدي وعمي وزوجي ، أيتمتموني صغيرة وأيمتموني كبيرة [٣] .

ذلك الإقليم الذي كان أهله يرتكبون الكبائر ويسألون عن الصغائر وكما وصفهم بعض الناس بقوله (أسأل الناس عن صغيرة وأركبهم للكبيرة . يسألون عن قتل جرادة وقد قتلوا ابن بنت نبيهم) [٤]

استعرض الحجاج هذه الحال قبل أن يذهب للعراق ، فرأى أنه إن أعرض عن قبول المهمة التى أسندت إليه سقط من حساب الأمويين وهيهات أن تقوم له بعد ذلك قائمة ، فرأى أن يغامر بقبول المهمة التي أسندت إليه .

ويذهب بعض المؤرخين إلي أنه هو الذي طلب إلى عبد الملك أن يكل إليه أمر العراق .

---

(١) العيني جـ١١ ق١ ص٥٢ .

(٢) البلاذري جـ٥ ص٣٣٨ وابن الأثير جـ٤ ص١٢ والدينوري ص٣٠٣ .

(٣) تاريخ الكوفة ص٢٤٧ وابن عبد ربه جـ٣ ص٢٥٦ .

(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٧٧ وراجع ابن عبد ربه جـ٣ ص٢٥٦ .

وسواء أكانت إمارة العراق قد عرضت عليه فقبلها أم أنه سعى لها عند أمير المؤمنين فمما لا شك فيه أنها كانت مغامرة لا يقدم عليها إلا من كان في جرأة الحجاج

حزم الحجاج أمره وسار إلى العراق فاستهل حياته فيه بتلك الوقفة المسرحية التي وقفها من أهل الكوفة

قدم عليهم في هيئة أثارت استخفافهم وزرايتهم لبني أمية لاختيار مغمور مثله واليًا على العراق .

دخل عليهم متقلدًا سيفه متنكبا قوسه ، وقد غطى أكثر وجهه ثم لبث فترة طويلة لا يتكلم .

ولما أحس بأنه أثار في القوم الدهشة والاستغراب وحرك فيهم حسن الانتباه حسر اللثام عن وجهه ، ولم يلبث أن ملأ الأسماع دويًا ورنينًا وأفاض على الوجوه رهبة ورعبًا

(إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها .. ، إن أمير المؤمنين قد نثر كنانته بين يديه فوجدني أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بي) ...إلخ .

بهذه العبارات وأمثالها مما امتلأت به خطبة الحجاج الأولى أفاق أهل الكوفة من سباتهم وأدركوا أن أمر الخليفة في هذه المرة جد لا هزل فيه .

ولسنا مغالين إذا قلنا إن الحجاج قد لازمه التوفيق من أول يوم دخل فيه العراق ، فقد ولى عمالاً أكفاء وقد سبق أن ذكرنا أنه في أول ولايته طلب رجلاً يوليه الشرطة واشترط فيه شروطًا وأوصافًا خاصة فدُلَّ على عبد الرحمن بن عبيد التميمي .

وهذا العامل قد سار سيرة بسطت الأمن وقللت من وقوع الجرائم .

واختار المهلب بن أبي صفرة لحرب الأزارقة وأبان له بصراحة أنه في حاجة إلى

خدماته فقال له : إن بشرًا رحمه الله استكره نفسه عليك وأنا أريك حاجتي إليك فأرني الجد في قتال عدوك ، [١] .

واختار الحكم بن أيوب لولاية البصرة ، وناهيك بقتيبة بن مسلم فاتح بخارى وسمرقند ومحمد بن القاسم فاتح السند .

وكان يبحث عن الأشخاص الصالحين والأخيار ليوليهم الأعمال [٢]

وكان في اختياره للعمال لا يفرق بين القبائل بل كان يختار الكفء مهما كانت قبيلته فقد ولى قتيبة بن مسلم وهو باهلي عملاً من أهم أعمال الدولة .

حقيقة أن بطانته كانت من قيس ولكنه لم يعينهم لقيسيتهم بل لما توافر فيهم من كفاية ومقدرة وحسن تصريف للأمور .

ولو فرضنا أن الحجاج كان يؤثر القيسيين على غيرهم إذا تساوت الكفاية ، ففي رأينا أنه لا يلام على ذلك .

ومن إحدى فطن الحجاج سوء الظن بالعمال حتى لا يتورط معهم فكان يرسل الرسل الى المهلب وهو على حرب الأزارقة لتنظر ما هو عليه ويبعث الأرصاد لتأتيه بأخباره مخافة أن تحدثه نفسه بالخروج .

وعزل يزيد بن المهلب لما علمه عنه من الطغيان والجبروت ولإسرافه في الإنفاق على الشعراء واستمالة القلوب إليه وكذا مخالفته للأوامر [٣] .

وكان الحجاج لا يني عن أن يحاسب المسيء على إساءته مهما كانت حظوته

---

(١) المبرد ص٦٦٧ وابن أبي الحديد م١ ص٣٩٧ .

(٢) راجع ابن عساكر جـ٦ ص٣٣٦ وابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٢١١ وابن عبد ربه جـ١ ص١٨٦ .

(٣) راجع الأغاني جـ١٣ ص٥٦ .

لديه ، فقد حبس صهره مالك بن أسماء لارتكابه جريمه الخيانة [١] .

فمصلحة الدولة وما يستتبعها من طاعة للأوامر كانت في نظره فوق كل اعتبار ، وكان عماله لهذا يهابونه ويخافونه ويحسبون له حسابًا فيعملون على مرضاته إذ كان يكافىء المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ويبالغ في ذلك حتى قيل « ليس مثله لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه » [٢] .

وكان من حسن إدارته أنه لا يجمع أهل الشام بأهل العراق وإذ اجتمعوا لا يخلطهم [٣] حتى لا تنتقل جراثيم عدوى العصيان إلى أهل الشام ـ وكان هذا سببًا من الأسباب التي أدت إلى بنائه مدينة واسط .

وكان من حسن سياسته أن يأخذ بأيدي العلماء الذين لا يتدخلون في السياسة ويمنحهم العطايا وقد فعل ذلك مع غير واحد مع سعيد بن جبير قبل أن يخوض غمار ثورة ابن الأشعث ومع الشعبي وغيرهما ، وكان يسمع لنصح الناصح وخاصة إذا اعتقد أن النصيحة قد صدرت عن إخلاص [٤] .

ومن حسن إسلامه اهتمامه بالفتوحات فإنه لم يكد ينتهي من الخوارج حتى وجه الجيوش وأنفق عليها للفتح ، ولم يكن غرضه الأساسي المال وفرض الجزية كما يقول دوزي [٥] إنما كان غيورًا على نشر الإسلام غير طامع في سلب أو فيء .

وكان الحجاج يشرف على كل الأقاليم ويعلم أخبارها وما يجري فيها وقد وصل قلم المخابرات عنده إلى درجة كبيرة من الدقة ، فكان يعلم الأخبار كبيرها وحقيرها

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني جـ١٦ ص٤٠ ويروي أبو علي القالي جـ٢ ص١٩٥ أن الذي كان في السجن هو عيينة ابن خارجة .

(٢) الذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١١ .

(٣) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ٢ ص١١٣ .

(٤) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص٨٦ .

(٥) تاريخ مسلمي إسبانيا ص١٢٣ .

بعد حدوثها بقليل . ولقد سهل عليه ذلك بعدما اتخذ المناظر بين واسط ـ مقره ـ وبين قزوين [(١)] .

وكان الحجاج يعامل أهل العراق وفق عقلياتهم التي درسها ونفسياتهم التي كشفها فقد قطع ناس من عمروبن تميم وحنظلة الطرق . فكتب إليهم رسالة جاء فيها :

(من الحجاج بن يوسف : أما بعد فإنكم استخلصتم الفتنة فلا عن حق تقاتلون ولا عن منكر تنتهون وأيم الله إني لأهم أن يكون أول من يرد عليكم من قبلي خيل تنسف الطارف والتالد وتدع النساء أيامى والولدان يتامى والديار خرابًا والسواد بياضا ، فأيما رفقة مرت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه تقدمة مني إليكم والسعيد من وعظ بغيره والسلام) [(٢)] .

هذا وقد تعارف المؤرخون على القول بأن الحجاج كان لا يحتمل أن يُخالف له قول أو يُعصى له أمر أو أن يخرج عن طاعته أحد ورموه من أجل ذلك بالطغيان والاستبداد .

وواقع الأمر أن الحجاج كان من ذلك الطراز من الرجال الذين تأصلت فيهم غريزة الطاعة [(٣)] فكان من العسير عليه أن يستسيغ العصيان من غيره .

يضاف إلى ذلك أنه لم يأت أمرًا إدًّا ولا فعلاً منكرًا [(٤)].

ومن هنا يرى أنه لا يستحق أن يكون موضع لوم أو أن يعصى له أمر . فكان من نتائج ذلك أن قسا على كل من حدثته نفسه أن يأتي أمرًا من ذلك .

وقد أكثر المؤرخون من عدد ضحايا الحجاج فقالوا إنه قتل مائة ألف [(٥)] أو

---

(١) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ٢ ص٤٨ وياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨٢ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين جـ١ ص٣٠٤ وابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ١ ص٢٠ .

(٣) ابن كثير جـ٩ ص١٢٨ .

(٤) ابن كثير جـ٩ ص١٢٨ .

(٥) ابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٩ .

مائة وعشرين ألفا صبرًا طوال ولايته [1]، وقالوا إنه قتل هذا العدد بعد موقعة دير الجماجم فحسب .

وفي تقديرنا أن المؤرخين قد ذكروا هذا الرقم (مائة ألف) تمشيًا مع جاري عادة العصر في المبالغة فها نحن نرى معاوية بن أبي سفيان يقول لابنه يزيد : فإن سألك أهل العراق كل يوم عزل عامل عليهم فاعزله عنهم فإنه أهون عليك من سل مائة ألف سيف ... إلخ .

وقد قدر المؤرخون عدد جيش ابن الأشعث من العرب بمائة ألف ، ويقول يزيد أبن المهلب ليزيد بن عبد الملك : والله لأرمينك بمائة ألف سيف .
ولعل رقم المائة ألف كان شائعًا في تلك الأيام على الألسن ، ولعل المؤرخين اندفعوا إلى تسجيل الإسراف في الدماء على الحجاج لكثرة ما قرأوه في خطبه من التهديد والوعيد ، وحقًا لو أن الحجاج نفذ كل ما في خطبه وكتبه من تهديد لقتل أهل العراق جميعًا لا مائة ألف فحسب .

كما قالوا إنه مات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهم ثلاثة وثلاثون ألفًا لم يجب على أحد منهم قتل ولا صلب [2] .

ويستدلون بذلك على تفاهة الجرائم التي كان الحجاج يلقي من أجلها الناس في السجون ، ويستشهدون بحادث رجل بال في أصل مدينته « واسط » فسجن [3]

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد جـ٣ ص١٦ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٣ وابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ والعيني جـ١١ ص٤٠٥ وياقوت جـ٨ ص٣٨١ وابن عساكر جـ٤ ص٨٠ والذهبي جـ٤ ص٨١٧ والسلامي ص٢٢ والدميري جـ٢ ص٢٠٨ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٥ والعيني جـ١١ ص٤٠٦ وياقوت جـ٨ ص٣٨١ وابن عساكر جـ٤ ص٨٠ والقرماني ص١٣٣ والدميري جـ٢ ص٢٠٨ في رواية له ويروي في رواية أخرى له جـ٢ ص٨٢ أنه أخرج من السجون ثلثمائة ألف .

(٣) الدميري جـ٢ ص٢٠٨ في رواية له ويروي في رواية أخرى له جـ٢ ص٨٢ وابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ وابن كثير جـ٩ ص١٣٦ وابن عساكر في رواية له جـ٤ ص٨٠ وفي رواية أخرى له بال في الرحبة وقضى حاجته في المسجد .

وبآخر أخطأ في القراءة فسجنه [١] .

والواقع أن الحجاج كان يلقي بالناس في السجن لأتفه الجرائم . ولم لا . ؟؟ ألم يفد على العراق وحاله فوضى والناس مستهترون بسلطة الحكومة أيما استهتار؟؟

على أن النسبة بين الجريمة والعقوبة مسألة تقديرية تختلف باختلاف الظروف فجريمة إحراز المخدرات مثلاً كانت منذ بضع سنوات لا تستحق-صارم العقاب وكان يكتفي فيها بالغرامة فلما استفحل أمر المخدرات وخُشي على الشعوب منها أصبحت عقوبتها اليوم من أقصى العقوبات .

ولا نستطيع أن نقدر حزم الحجاج في تشديد العقوبة وملء السجون بمرتكبي الجرائم إلا إذا تصورنا حالة العراق في عصره .

وفي تقديرنا أن الحجاج لو سجن نصف أهل العراق لما كان ذلك كثيرًا عليهم ، ومتى كانت السجون مأوى لمن وجب عليهم القتل أو الصلب حتى يؤخذ على الحجاج (أنه لم يجب على أحد منهم قتل أو صلب) .؟؟

أما قصة سجونه وأنها كانت لا سقف لها تقي المساجين من حر الصيف ولا برد الشتاء [٢] ، فإن السجون كانت ولا تزال تتطور مع الزمن ولا تزال في العالم المتمدين اليوم سجون إذا قيست بغيرها في ممالك أخرى كانت هذه أتعس حالاً من سجون الحجاج .

ألسنا نرى الفرق بين السجون الملحقة بمراكز البوليس في مصر والسجون في انجلترا وأمريكا .؟؟

---

(١) ابن نباتة ـ سرح العيون ص١٠٩ .

(٢) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٣ وابن دقماق ـ الجوهر الثمين ص٢١ والسلامي ـ مختصر التواريخ ص٢٢ والقرماني ص١٣٣ والدميري جـ٢ ص٢٠٨ .

وبعد ، فمتى كان أهل العراق الذين عاصروا الحجاج يستحقون غير هذا النوع من السجون ؟؟!

أما اختلاط النساء بالرجال في سجون الحجاج [١] - ذلك الاختلاط **الذي** رواه المؤرخون - فنستطيع أن نقطع مطمئنين بأن الحجاج لم يفعل شيئًا من ذلك ، وكيف يفعل ذلك وهو الغيور على الأعراض والأنساب المحافظ على الأعراض العامة . فضلاً عن أننا نستبعد عليه أن يسمح لمسجونيه بهذا النوع من الترفيه .

وفي تقديرنا أن الحجاج كان ضحية المؤرخين الذين افتروا عليه شتى المفتريات تمشيًا مع روح العصر الذي كانوا يكتبون فيه ، ومن ذا الذي يصدق أن عبد الملك طلب منه مرة أن يصف نفسه فقال : أنا لجوج حسود ذو قسوة : فقال عبد الملك : ما في إبليس أشر من هذا . فقال الحجاج : إذا رآني إبليس سالمني [٢] ؟؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يتمشى مع المؤرخين في وصف الحجاج بأنه كان بينه وبين إبليس نسب ؟؟

وليس معنى هذا أن الحجاج كان ينفي عن نفسه تهمة القسوة على أهل العراق .لا . بل إن الحجاج كان في ذلك صريحًا .

قابل مرة في بلاط عبد الملك عدوه اللدود خالد بن يزيد فقال له : إلى كم هذا البسط والقتل فقال : ما دام بالعراق رجلٌ يدعي الخلافة .

ونرى أننا كلما بعدنا عن عصر الحجاج كثرت المفتريات والأباطيل ، وكراهية الروايات المتأخرة له تثبت قدره العالي الذي كان له في حياته وأن الذين عابوا

---

(١) ابن شاكر جـ٥ ص٢٧٣ وابن دقماق - الجوهر الثمين ص٢١ والسلامي - مختصر التواريخ ص٢٢ والقرماني ص١٣٣ والدميري جـ٢ ص٢٠٨ .

(٢) ابن عبد ربه جـ٣ ص١٧ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٣ والذهبي جـ٤ ص٨١٣ والعيني جـ١١ ص٤٠٤ وابن الأثير جـ٤ ص١٣٢ .

الحجاج مثل يزيد بن المهلب وولوا شيئًا من الأمور لم يستطيعوا إلا السير على طريقته ·

فقد أبقى الجيش السوري في العراق ولم يغير شيئًا من الضرائب التي كانت في عهد الحجاج حتى يبقى الدخل في الارتفاع ، وقد أراد ابن المهلب أن لا يتحمل شيئًا من التبعات فيما يتعلق بمالية الدولة فعين مديرًا للضرائب هو صالح بن عبد الرحمن ، ولكن هذا المدير كان حازمًا فقد استقل بالأمر ورفض أن يوقع على الصكوك التي كان يرفعها له يزيد ، وكان ذلك سببًا من أسباب كراهيته للعراق وعمل على أن يولى خراسان لينال أغراضه لعدم وجود أصبع آخر معه فيها ولكنه لم يوفق هناك أيضًا (١) .

ومن الغريب أن أعداء الحجاج ظلوا يذكرون المساويء ويضيفون عليها من عندياتهم ولا يذكرون المحاسن .

وبعد ، فالحجاج لم يكن ملكًا نزل من السماء بل كان بشرًا يخطىء ويصيب ، ومن الإنصاف أن يسجل للإنسان ما أصاب فيه بمثل ما يسجل عليه ما أخطأ فيه .

وفي مرة ذكر الحجاج في مجلس فيه عبد الوهاب الثقفي بسوء فغضب عبد الوهاب وقال : إنما تذكرون المساوىء أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهمًا عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة بعد الصحابه في الإسلام وأول من اتخذ المحامل ، وان امرأة سبيت في الهند فنادت يا حجاجاه واتصل به ذلك فجعل يقول لبيك لبيك وأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى أنقذ المرأة ؟!

واتخذ المناظر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارًا وإن كان ليلاً أشعلوا النيران فتجرد الخيل إليهم ، فكانت المناظر متصلة بينهم وبين قزوين (٢) .

---

(١) راجع الطبري جـ٥ من ص٢٨٦ ـ ٢٨٨ وابن الأثير جـ٤ من ص١٤٤ ـ ١٤٦ .

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ٨ ص٣٨١ .

وقـد أكبر أبو جعفر المنصور الحجـاج لهـذا الإخـلاص [١] الـذي كان الغرض منـه خدمة الدولة الإسلامية وتوطيد دعائمها ونشر رايـة الإسلام عـاليـة خفـاقـة في البلاد فقد استطـاع أن يوطـد دعـائم الـدولـة وأن يرفع الامبراطوريـة الإسلاميـة إلى أوج عظمتها وأن يقمع عناصر الشقاق فيها بقوة وحزم .

وبمثل ما كان الحجاج موفقًا في سياسته كان موفقًا في إدارته إذ عرف الحجـاج ـ قبل العصر الحديث بعشرات المئات من السنين ـ تحديـد مواعيـد السهر والأمر بعـدم التجول .

ولعل العوامل التي تحدوا برجال الحكم اليوم لفرض هـذا النظـام هي بعينهـا التي دعت الحجاج لفرضه وإن كان الحجاج قد التمس لذلك أسبابًا أخرى كرغبتـه في أن ينام الناس آمنين مطمئنين لا يزعجهم مزعج ولا يكدر صفوهم مكدر .

وتحقيقًـا للغرض الأصلي الـذي فرض الحجـاج من أجلـه هـذا النظـام ـ وهـو الاطمئنان على الدولة من المؤامرات التي تدبر بالليل في المجالس ـ كانت عيونـه تسير بالليل فإذا وجدت شخصًا مخـالفًـا للأوامر قبضت عليـه وسيق إلى الحجـاج للتحقيق معه [٢] .

وقـد عرف الحجـاج كـذلـك مجموعـة من أسـاليب الإدارة والحكم يظنهـا كثير من الناس اليوم من مبتـكرات العصور الحديثة .

بلغت عنايته بنظافة المـدن والحرص عليهـا من أن تلوث بـالأقـذار أن فرض في هذا السبيـل قيودًا عدة [٣] .

---

(١) راجع المسعودي جـ٢ ص١٠٨ وابن عساكر جـ٤ ص٦٨ والبلاذري جـ١١ ص١٧٢ .

(٢) ابن دقماق ـ الجوهر الثمين ص٢١ وابن عسـاكر جـ٤ ص٦٧ وقـد روت بعض المصـادر حـادثـة مستبعـدة الحدوث على الحجاج راجع ابن عساكر جـ٤ ص٧٧ والذهبي ـ تاريخ الإسلام جـ٤ ص٨١٦ .

(٣) ابن قتيبة جـ١ ص٢٣٦ وابن كثير جـ٩ ص١٣٦ وابن شاكر جـ٥ ص٢٧٢ .

ولعل الحجاج أول من فرض عقوبة السجن على من يضبط عابثًا بنظافة المدن مخلاً بالآداب . وقد نظم الحجاج الانتقال من مدينة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر [١] على النظام المعروف اليوم بنظام جوازات السفر أو بعبارة أدق علي النظام الذي عرفته الدول الدكتاتورية قبيل الحرب العالمية المعروف بنظام « السالفو كوندكتو » ، فإذا ما أراد أحد السفر من مكان إلى آخر - ولو داخل حدود الإقليم - كان لا بد له من أخذ جواز بذلك من موظف مختص يقيم في دار تعرف بقصر المجيز .

ونظرًا لما كان لمدينة واسط من أهمية خاصة جعل الدخول إليها بإذن خاص [٢] .

ولعل الحجاج أول من ابتدع إعدام الكلاب الضالة حتى لا تؤذي الناس وتسبب انتشار الأمراض [٣] .

وقد هاله إقبال العرب على ذبح الأبقار فخشي انقراض النسل وغلاء الألبان فأصدر أمره بتحريم الذبح [٤] وهي وسيلة قد لجأت إليها الأمم في العصر الحديث مدفوعة بنفس العوامل التي رآها الحجاج .

ولما كانت حاجة الحجاج ماسة إلى طراز طيب من الجند بدلاً من ذلك الخليط الذي عرفته الفتوحات الإسلامية قبل عهده فقد جعل الخدمة العسكرية إجبارية وكان يقبل الجند في الجيش بعد توقيع الكشف الطبي عليهم [٥] كما تفعل الأمم المتحضرة اليوم .

---

(١) البلاذري - أنساب الأشراف جـ١١ ص٢٧٩ .

(٢) راجع الأغاني جـ٧ ص٦٦ .

(٣) ابن قتيبة - عيون الأخبار جـ١ ص٢٦٣ وابن عساكر - التاريخ الكبير جـ٤ ص٧٩ ، ٨٠ .

(٤) تقدم ص ١١١ .

(٥) الأصفهاني - الأغاني جـ٤ ص١٢٤ .

وقد أراد أن يجعل لإمارته أهمية خاصة في المعاملات فاتخذ دارًا لضرب النقود وجمع فيها الطباعين وكان يحيطهم بضروب من المراقبة تجعل التزييف في حكم المستحيل [١] .

وكان يراقب الأسواق في البيع والشراء ففي مرة وجد رجلاً يبيع دواب معيبة فسأله عن طريقة بيعها فقال له إنه يبيعها على عيبها [٢] .

وخلاصة القول أنه لم يترك شاردة ولا واردة في شؤون الإدارة إلا وأولاها عنايته .

ولعل أهل العراق قد بهتوا للابتكارات التي أحدثها الحجاج في الإدارة فقالوا عنه إنه إبليس من الأبالسة وأنه ساحر [٣] .

ولي الحجاج العراق نحو عشرين عامًا كان فيها سيفًا من سيوف الإسلام المسلولة ودعامة من أهم دعامات الدولة الأموية .

ولا صحة لما ذهب إليه بعض الكاتبين [٤] من أنه كان سببًا من أسباب سقوط الدولة الأموية فيما بعد ، فإن تصرفاته كانت سليمة ولكن الأعداء استغلوه في دعايتهم ضد الأمويين تلك الدعاية التي مهد لها عمر بن عبد العزيز بسياسته الهادئة التي جعلت الدعاة يتمكنون من تأسيس الجمعيات ونشر الدعايات المختلفة تلك السياسة التي أنعشت الموالي وأعداء الإسلام ومكنتهم في عهده من الوقوف على أقدامهم .

ولقد ساعدهم على ذلك وقف حركة الفتوح الخارجية فاشتغل الجند بالسياسة

---

(١) تقدم ص ١٠٦ .

(٢) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار جـ١ ص١٦٠ .

(٣) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير جـ٤ ص٧١ وشرح ابن أبي الحديد م١ ص١١٥ .

(٤) ڤان فلوتن السيادة العربية ص٥٩ والخضري بك ـ تاريخ الأمم الإسلامية جـ٢ ص٢٢١ ، ٢٦٣ .

وقلت موارد الدولة فأثر ذلك على خزانتها ، فلما حاول الخلفاء من بعده أن يعيدوا الحال إلى ما كانت عليه حتى تسير السفين بدأ الناس يتذمرون وينتقدون .

فلو أن الدولة سارت على نظام واحد ـ وهو نظام الحجاج ـ لطال أجلها وامتدت حياتها.

فانهيار النظام الذي وضعه كان خسارة للإسلام عامة وللدولة الأموية خاصة فإن الدولة – كما قال رفيق بك العظم (١) – تموت برجل وتحيا بآخر وإن الرجال في الدول قليل .

والدولة الأموية لما فقدت رجالها المخلصين الصادقين في خدمتها مثل الحجاج وخالد القسري وموسى بن نصير وغيرهم فقدت بفقد هؤلاء الرجال وأمثالهم جانبًا لا يقدر من قوتها وأخذت من ثم تنحط هيبتها .

فموت الحجاج في الحقيقة مبدأ أفول نجم الدولة الأموية لأنه كان يدها التي بها **تضرب وعنيها التي بها تبصر ، فإنه بعد أن أخمد فتنة ابن الزبير كان واليًا على الكوفة** وخراسان ـ وكلاهما عش الفتنة ومنبع الإمامية ـ ومع هذا ضبط البلاد وأرهب ببطشه المنازعين للدولة النازعين إلى الشغب وأحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الأمويين في عهده إلى كابل من بلاد الأفغان شرقًا والتركستان الصينية شمالاً .

ولو جاء من بعد الحجاج من يخلص للدولة الأموية إخلاصه ومن يحكم الأمصار بمثل حزمه وعزمه لتغير وجه التاريخ .

---

(١) مجموعة الآثار ص٢٢ ، ٢٣ .

ملحقان

(١) أهم الحوادث وتواريخها وفق التقويمين الهجري والميلادي .

(٢) أهم الأماكن التي وردت في حرب الخوارج ، والأماكن التي فتحت في عهد الحجاج .

ملحق رقم (١) بأهم الحوادث وتواريخها وفق التقويمين الهجري والميلادي

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
رجب سنة ٦٥	خروج الحجاج ووالده مع مروان بن الحكم إلى مصر	فبراير سنة ٦٨٥
شعبان سنة ٦٥	خروج الحجاج ووالده مع جيش ابن دلجة القيني إلى المدينة وموقعة الربذة	مارس سنة ٦٨٥
١٤ رمضان سنة ٦٧	قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي	إبريل سنة ٦٨٧
١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٢	قتل مصعب ابن الزبير في مسكن	١١ نوفمبر سنة ٦٩١
غرة ذي القعدة سنة ٧٢	خروج الحجاج بحملته من الطائف متجها إلى مكة لحصار عبد الله بن الزبير	٢٥ مارس ٦٩٢
١٥ من ذي الحجة سنة ٧٢	حدوث الصواعق أثناء حصار الحجاج لابن الزبير	٩ مايو سنة ٦٩٢
الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣	قتل عبد الله بن الزبير	٤ أكتوبر سنة ٦٩٢
صفر سنة ٧٤	سير الحجاج إلى المدينة واليا عليها	يونيو ويوليو سنة ٦٩٣
رجب سنة ٧٤	موت بشر بن مروان	نوفمبر وديسمبر ٦٩٣
رجب سنة ٧٥	دخول الحجاج للعراق	نوفمبر وديسمبر ٦٩٤
أول شعبان سنة ٧٥	نزول الحجاج رستقباذ	٢٣ ديسمبر سنة ٦٩٤
٢٠ شعبان سنة ٧٥	كتاب الحجاج إلى المهلب بمناهضة الخوارج	يناير سنة ٦٩٥
٢٠ رمضان سنة ٧٥	إجلاء المهلب للخوارج عن رامهرمز	فبراير سنة ٦٩٥
ربيع الثاني سنة ٧٦	قيام ابن الجارود بالثورة	يوليو سنة ٦٩٥
أول صفر سنة ٧٦	قيام صالح بن مُسَرَّح الخارجي بالثورة	٢١ مايو ٦٩٥
١٧ جمادى الأولى سنة ٧٦	قتل صالح بن مُسَرَّح	٢ سبتمبر سنة ٦٩٥
سنة ٧٧	الحروب بين الحجاج والأزارقة من ناحية	

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
	وبين شبيب والحجاج من ناحية أخرى وانتصاره على الفريقين	سنة ٦٩٦
سنة ٧٨	تولية الحجاج أمور خراسان وسجستان وتقليد الحجاج خراسان للمهلب ، وسجستان لعبيد الله بن أبي بكرة	سنة ٦٩٧
سنة ٧٩	حملة عبيد الله بن أبي بكرة إلى سجستان وحربه مع زنبيل وانتصار زنبيل	سنة ٦٩٨
سنة ٨٠	غزو المهلب بلاد ما وراء النهر ، ومسير عبد الرحمن بن الأشعث إلى زنبيل	سنة ٦٩٩
سنة ٨١	خروج ابن الأشعث على الحجاج	سنة ٧٠٠
١٠ من ذي الحجة سنة ٨١	انتهاء معركة تستر وهزيمة الحجاج	أواخر يناير سنة ٧٠١
٢٣ من ذي الحجة سنة ٨١	نزول الحجاج الزاوية	٧ فبراير سنة ٧٠١
أول المحرم سنة ٨٢	بدء معركة الزاوية	١٥ فبراير سنة ٧٠١
آخر المحرم سنة ٨٢	انتهاء معركة الزاوية وانتصار الحجاج	١٥ مارس سنة ٧٠١
رجب سنة ٨٢	وفاة المغيرة بن المهلب	أغسطس سنة ٧٠١
٣ ربيع الأول سنة ٨٣	بدء معركة دير الجماجم	٦ إبريل سنة ٧٠٢
١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٣	انتهاء المعركة بانتصار الحجاج	١٥ يولية سنة ٧٠٢
شعبان سنة ٨٣	معركة مسكن	سبتمبر سنة ٧٠٢
سنة ٨٣	بناء مدينة واسط	سنة ٧٠٢
سنة ٨٤	فتوح ليزيد بن المهلب في خراسان	سنة ٧٠٣
سنة ٨٥	هلاك ابن الأشعث	سنة ٧٠٤
ربيع الثاني سنة ٨٥	عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية	إبريل سنة ٧٠٤

التقويم الهجري	الحوادث	التقويم الميلادي
	المفضل	
سنة ٨٦	قدوم قتيبة بن مسلم خراسان	سنة ٧٠٥
منتصف شوال سنة ٨٦	وفاة عبد الملك بن مروان	أكتوبر سنة ٧٠٥
سنة ٨٧	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر	سنة ٧٠٦
سنة ٨٨	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر	سنة ٧٠٧
سنة ٨٩	فتوح قتيبة في بلاد ما وراء النهر ، وولاية محمد بن القاسم للسند وقتل داهر ملكها	سنة ٧٠٨
سنة ٩٠	الفتوح في بلاد ما وراء النهر وفي السند ، وهرب آل المهلب من سجن الحجاج	
٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤	استمرار الفتوحات	٧١٠، ٧١١، ٧١٢
	استمرار الفتوحات ، وقتل سعيد بن جبير ، وموت الحجاج في بعض الروايات	
٢٥ رمضان سنة ٩٥	موت الحجاج في أغلب الروايات	١٣ يونية سنة ٧١٤
سنة ٩٦	وفاة الوليد بن عبد الملك وقيام قتيبة بن مسلم بالثورة وقتله	٧١٤ ، ٧١٥

* * *

ملحق رقم (٢)
بأهم الأماكن التي وردت في حرب الخوارج ، والأماكن التي فتحت في عهده

إخْسِيكْث : اسم مدينة بما وراء النهر ، وهي قصبة ناحية فرغانة ، وهي على شاطىء نهر الشاش (سيحون) .

أذربيجان : أرض واسعة الأرجاء ، اسمها القديم « أُتروباتان » : من بلاد الجبال جنوبًا ، والكرد غربًا ، والديلم وبحر قزوين شمالًا ، وأرمينينة وموقان شرقًا .

أرّجــان : مدينة بفارس .

أصبهان : مدينة مشهورة – من أعلام المدن – وهي من نواحي الجبل .

اصطخر : مدينة بفارس قرب مدينة « برسيبويس » التي كانت عاصمة تلك البلاد قديمًا ، وهي واقعة في الشمال الشرقي من شيراز على ٣٥ ميلًا في الطريق إلى أصبهان ، واسمها الآن « تشهيل منار » أي ذات الأربعين عمودًا .

ألــور : بالقرب من « بكار » جنوبي مدينة « الملتان » .

آمــد : مدينة « ديار بكر » الآن ، وسميت بهذا الاسم منذ الفتح العثماني .

الآنبــار : مدينة على شا طىء الفرات من نواحي بغداد .

الأهــواز : وهي كورة من كور خوزستان ، ومدينتها سوق الأهواز .

بابل مهروز : طوسج من طساسيج بغداد ، وهو نهر عليه قرى ، ولعل بابل إحدى هذه القرى .

بـاذغيـس : ناحية تشتمل على قرى من أعمال هرات ومرو الروذ .

بـروذبـار : وهي عدة مواضع : ناحية من طوسج أصبهان وهي تشتمل قرى كثيرة .

بــخاري : من أعظم مدن ما وراء النهر بينها وبين « جيحون » يوم .

بغــلان : بلدة بنواحي « بلخ » .

بــلــخ : مدينة مشهورة « بخراسان » ، وهي مدينة « بقطر » القديمة : بين « جوزجان » و « طخارستان » .

البــنجاب : كانت من حواضر الهند ، فتحها « الغزنوي » سنة ١٠٠٥م .

بهــرسـير : من نواحي سواد بغداد قرب « المدائن » وقيل : هي إحدى « المدائن » .

بيـــاس : نهر عظيم بالسند مفضاه إلى « ملتان » .
البـيـرون : من بلاد الهند ، يفصلها عن السند نهر « مهران » أو « تكران » .
بيـكـنْد : بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى .
تـرمـذ : مدينة من أمهات المدن على نهر « جيحون » من الجانب الشرقي .
تـكـريـت : من بلاد الجزيرة على نهر دجلة .
حـربـي : بليدة في أقصى دُجيَل بين بغداد وتكريت .
الجزيرة : إقليم في شمالي العراق ويشمل منابع دجلة وكثيرًا من منابع الفرات .
جـلـولاء : بلد شرقي القادسية .
جـوخـى : مقاطعة كبيرة بين بين خانقين وبغداد .
جـوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .
جيـرفـت : أعظم مدن كرمان .
حمام عمر : مكان حول الكوفة .
الحيـرة : مدينة كانت على فرسخ من الكوفة من جنوبيها .
خانـقين : بلد بسواد بغداد في طريق همذان .
الختـل : كورة واسعة كثيرة المدن ، وقال « الاصطخري » : أول كورة على «جيجون » من وراء نهر الختل .
خـجـندة : بلدة فيما وراء النهر على شاطىء سيحون ، بينها وبين سمرقند عشرة أيام .
خـوارزم : اسم للناحية بجملتها .
دارا : بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين .
دار بجرد : قرية من كورة اصطخر « ودار بجرد » أيضًا موضع بنيسابور .
الدسكرة : مدينة على طريق النهروان وجلولاء ، والدسكرة أيضًا قرية بخوزستان .
دقـوقـاء : مدينة بين الموصل وحلوان .
الديـل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .
رامشـة : قرية من أعمال بخارى .
رامهـرمـز : مدينة مشهورة بنواحي خوزستان .
زاغـول : من قرى مرو الروذ .

زرارة : محلة بالكوفة .

سابور : كورة واسعة بأرض فارس ومدينتها النوبندجان ، وقال البشاري : هي « شهرستان » .

السبخة : مكان حول الكوفة .

سرجان : موضع قرب سميساط على شاطيء الفرات .

سردان : بين فارس وخوزستان من أعمال فارس .

سمرقند : اسمها القديم « مرقند » : حاضرة الصغد فتحها « قتيبة » سنة ٩٣هـ .

سمنجان : بلدة من طخارستان ، وراء بلخ وبغلان .

سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة وبينها وبين الموصل « ثلاثة أيام » .

السند : بلاد ما بين الهند وسجستان وكران ، وهي خمس كور : فأولها من قبل كرمان . مكران . طوران . السند . الملتان . ومن مدنها ديبل .
واسم يطلقه العرب على ثلاثة أقاليم يفصلها عن الهند نهر كبير يسمى بمكران أو مهران ، وهي بلاد : أ - بلسكان (أفغانستان الآن) فتحها محمد ابن القاسم . ب - طوران . جـ - مكران (جدروسيا قديمًا) وهما بلوخستان الآن ، ومدنها : غزنة . كابل . قندهار .

سورا : موضع بالعراق من أرض بابل .

سوق حكمة : موضع بنواحي الكوفة .

السيلحين : قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية .

شهرزور : كورة واسعة في بلاد الجبال التي تسميها العامة عراق العجم ، وتقع بين الموصل وهمذان .

شومان : بلد من الصغانيان من وراء نهر جيحون .

الصراة : قرى من سواد الحلة الزيدية .

الصغانيان : ولاية عظيمة متصلة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ .

الصغد : ناصية قصبتها سمرقند ، بين سمرقند وبخارى .

الطالقان : ناحية من بلاد طخارستان ، وأخرى من بلاد قزوين .

طبرستان : ناحية واسعة ببلاد الفرس بين جرجان والديلم على « بحر قزوين » الذي

يسمى أيضًا باسمها « بحر طبرستان » .

عقرقوف : قرية قرب بغداد .

عين التمر : قرية قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له « شفاثا » .

فارس : ولاية واسعة : أول حدودها من جهة العراق : « أرجان » ، ومن جهة كرمان : السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند : سيراف ، ومن جهة السند : مكران .

الفارياب : إقليم من بلاد ما وراء النهر على نهر جيحون .

فرغانة : مدينة ، وكورة واسعة متاخمة لبلاد التركستان .

فسا : أكبر مدينة بكورة درابجرد .

قنديبل : مدينة بالسند . وهي قصبة لولاية يقال لها : « الندهة » .

« والندهة » أرض واسعة بالسند ما بين حدود طوران ومكران والملتان ومدينة المنصورة ، وهي في شرقي نهر « مهران » ومن « قناديل » إلى المنصورة ثمان مراحل ، ومن « قناديل » إلى الملتان مفاوز نحو عشرين مرحلة .

قومس : الآن إقليم ما زندران (طبرستان) من مملكة أتران .

كابل : اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى « أوهند » وقال ابن الفقيه : كابل من ثغور « طخارستان » .

كازرون : بلد بفارس في غربي شيراز .

كاشان : مدينة ما وراء النهر على بابها وادي « إخسيكث » وقاشان : بلدة بالجبل شمال أصبهان ، وقاشان أو كاشان بلدة فيما وراء النهر أيضًا .

كاشغر : هي مدينة وقرى ورساتيق - يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي . وبلد فيما وراء النهر لم فتح المسلمون ما بعدها ، وهي بمملكة الصين الآن (بلوخستان) .

كرمان : ولاية كبيرة بين فارس ومكران وخراسان وسجستان : فشرقيها : مكران ، ومفازة ما بين مكران : وغربيها أرض فارس : وشماليها مفازة خراسان ، وجنوبيها : بحر فارس .

كُش : مدينة تقارب سمرقند ، وهي من أعمالها .

كلـواذا : طوسج قرب مدينة بغداد في الجانب الشرقي منها ، وهي أطلال بينها وبين بغداد فرسخ واحد .

مـاردين : قلعة مشهورة مشرفة على قنة الجبل مشرفة على دنيستر ونصيبين .

ماه بهرذان: ما أظنها إلا ناحية « الراذنين » وماه : القمر – تضاف إليه الكلمة .

المدائن : في أيام ياقوت : بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ أو على الشاطىء الأيسر لنهر دجلة ، وأطلالها على بعد ٢٦ ك م من بغداد جنوبًا .

المـدبـج : قرية بين الموصل والعراق قتل بها صالح بن مسرح .

المـردمـة : بالقرب من الكوفة .

مـرو : أو « مرو الشاهجان » : قاعدة بلاد خراسان على نهر مرغاب ، ومتى ذكرت يراد بها « مرو الشاهجان » .

مرو الروذ : مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام وهي على نهر عظيم فلهذا سميت به ، وهي صغيرة بالنسبة لمرو الأخرى .

مـكـران : ولاية : كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها .

الملـتـان : مدينة نحو نصف المنصورة وتسمى « فرج بيت الذهب » .
وبلد بإقليم « البنجاب » من حواضر الهند فتحها الغزنوي سنة ١٠٠٥م .

المـوصـل : مدينة بأرض الجزيرة على نهر دجلة ، على جانبه الغربي :
والموصل المدينة المشهورة العظيمة ، وهي مفتاح باب العراق وباب خراسان ، ومنها يقصد إلى « أذربيجان » .

نسـا : مدينة بين « أبيورد » و « سرخس » .

نسـف : مدينة كبيرة في الرستاق بين جيحون وسمرقند .

نصيبين : هي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام .

نـفـر : بلد أو قرية على نهر « الفرس » من بلاد الفرس قديمًا ، والآن من بلاد الكوفة ، من أرض بابل .

النهـروان : كورة واسعة بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي ، وتنقسم ثلاثة أقسام : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل .

ثبت
بالمراجع والمخطوطات

أ - المراجع العامة مرتبة ترتيبًا زمنيًا

١ - ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ = ٨٤٥م : أبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدي
الطبقات الكبير الجزء الخامس والسادس والثامن طبع ليدن سنة ١٣٢٢هـ .
٢ - الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ = ٨٦٨م : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب .
● البيان والتبيين . (الطبعة الثانية ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م المطبعة الرحمانية) .
● التاج في أخلاق الملوك . طبع بولاق سنة ١٣٢٢هـ = ١٩١٤م بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا .
● المحاسن والأضداد . مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م .
٣ - ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ = ٨٨٩م : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .
● الشعر والشعراء . طبع مطبعة المعاهد ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م . مطبعة المعاهد .
● عيون الأخبار . طبع دار الكتب سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٥م .
● المعارف . المطبعة الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م .
● الإمامة والسياسة (المنسوب إليه) مطبعة الأمة بمصر سنة ١٣٢٨هـ .
٤ - البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ = ٨٩٢م : أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
● أنساب الأشراف الجزء الخامس طبع الجامعة العبرية بفلسطين سنة ١٩٣٦ والجزء الحادي عشر طبع عريفز ولد سنة ١٨٨٣م .
● فتوح البلدان . طبع مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩هـ = ١٩٠١م .
٥ - المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ = ٨٩٨م : أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد .
كتاب الكامل . طبع لبزج سنة ١٨٦٤م ما عدا الخوارج فقد رجعت إلى الجزء الثاني من طبع مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤هـ .
٦ - اليعقوبي المتوفى سنة ٢٩٢هـ = ٩٠٤م : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح .
● تاريخ اليعقوبي الجزء الثالث طبع النجف سنة ١٣٥٨هـ .
● البلدان « ليدن سنة ١٨٩١م » .
٧ - الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ = ٩٢٣م : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد المعروف بابن جرير الطبري .

● تاريخ الأمم والملوك الجزء الرابع والخامس . مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م والسادس . المطبعة الحسينية .

٨ – المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ = ٩٥٧م : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المشهور بالمسعودي .

● مروج الذهب ومعادن الجواهر الجزء الثاني . طبع المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٣هـ .

● التنبيه والإشراف مطبعة الشرق الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م .

٩ – ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٤٩هـ = ٩٦٠م : أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي .

● العقد الفريد طبع المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣١٦هـ .

١٠ – الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م . أبو الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصفهاني .

● الأغاني طبعة ساس (مطبعة التقدم بمصر) .

١١ – ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ = ١١٧٥م : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعرف بابن عساكر الدمشقي .

● التاريخ الكبير الجزء الرابع والسادس طبع مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٢هـ .

١٢ – ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .

● تنقيح فهوم أهل الأثر . طبع مطبعة جيِّد بريس يرقى ببلدة دهلي .

● شذور العقود في تاريخ العهود . مصور تصويرًا شمسيًا ومحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩٤ .

● مختصر صفوة الصفوة (لا يعلم من اختصره) طبع المنار سنة ١٣٣٩هـ .

● مناقب عمر بن عبد العزيز . طبع برلين .

١٣ – ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي .

● معجم البلدان طبع سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٦م بمطبعة السعادة .

● معجم الأدباء الجزء الأول والعشرون طبعة الدكتور فريد رفاعي بك .

● المقتضب من جمهرة أنساب العرب جـ٢ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٨٥ تاريخ .

١٤ – ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م : أبو الحسن عز الدين بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني .

● الكامل في التاريخ جـ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، طبع منبر سنة ١٣٥٧هـ .

● أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ ، ٤ طبع سنة ١٢٨٢هـ .

١٥ – ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥هـ = ١٢٥٧م : عز الدين بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد .

● شرح نهج البلاغة . المجلد الأول والثاني طبع دار الكتب العربية الكبرى .

١٦ – ابن خلكان المتوفى ٦٨١هـ = ١٢٨٢م : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .

● وفيات الأعيان . طبع بولاق سنة ١٢٩٩هـ .

١٧ – ابن أيبك المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن الهجري = القرن الرابع عشر الميلادي .

أبو بكر عبد الله بن أيبك صاحب صرخد المعروف بالداوداري .

● كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الرابع القسم الثاني منه مصور تصويرًا شمسيًا بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ .

١٨ – الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قابص الذهبي .

● تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام ، الجزء الثالث والرابع مخطوط بدار الكتب .

● دول الإسلام الجزء الأول طبع الهند (حيدرأباد) سنة ١٣٢٧هـ .

● ميزان الاعتدال في نقد الرجال م١ طبع سنة ١٣٢٥ هـ بمطبعة السعادة بمصر .

١٩ – ابن شاكر المتوفى سنة ٧٦٤هـ - ١٣٦٣م : صلاح الدين أبو عبد الله بن أحمد المعروف بابن شاكر الكتبي .

● عيون التواريخ . مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٤٩٧ .

● فوات الوفيات . طبع بولاق سنة ١٢٩٩هـ .

٢٠ - ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٦م : جمال الدين محمد بن نباتة المصري .

● سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون . طبع بولاق ١٢٧٨ هـ .

٢١ - ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي .

● البداية والنهاية جـ٤ ، ٨ ، ٩ . طبع مطبعة السعادة .

٢٢ - ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م :

عبد الرحمن بن محمد بن جابر بن إبراهيم بن خلدون .

● المقدمة . طبع عبد الرحمن محمد بالمطبعة البهية .

● العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٢ ، ٣ طبع بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

٢٣ - الأبشيهي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري = القرن الخامس عشر الميلادي شهاب الدين أحمد الأبشهي .

● المستطرف من كل فن مستظرف . مطبعة المعاهد سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م .

٢٤ - العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ = ١٤٥٢م : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الشهير بالعيني .

● عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . الجزء الحادي عشر مصور تصويرًا شمسيًا بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٤ .

٢٥ - الأتابكي المتوفى سنة ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م : جمال الدين أبي المحاسن بن يوسف ابن تغربردي الأتابكي .

● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع دار الكتب المصرية ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م .

٢٦ - العمادي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ = ١٦٧٨م : أبو الفلاح عبد الحي بن العمادي

● شذرات الذهب في أخبار من ذهب الجزء الأول . نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٠هـ .

٢٧ - ڤان ڤلوتن المتوفى سنة ١٩٠٩م .

● السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والشيخ محمد زكي إبراهيم طبع سنة ١٩٣٤م بمطبعة السعادة بمصر .

المراجع العامة مرتبة بحسب الحروف الأبجدية
مع الإشارة إلى رقم المصدر بحسب الترتيب الزمني

المرجع	الرقم
١ - الأبشيهي	٢٣
٢ - ابن أبي الحديد	١٥
٣ - الأتابكي	٢٥
٤ - ابن الأثير	١٤
٥ - الأصفهاني	١٠
٦ - ابن أيبك	١٧
٧ - البلاذري	٤
٨ - الجاحظ	٢
٩ - ابن الجوزي	١٢
١٠ - ابن خلدون	٢٢
١١ - ابن خلكان	١٦
١٢ - الذهبي	١٨
١٣ - ابن سعد	١
١٤ - ابن شاكر	٩
١٥ - الطبري	٧
١٦ - ابن عبد ربه	٩
١٧ - ابن عساكر	١١
١٨ - العمادي	٢٦
١٩ - العيني	٢٤
٢٠ - ڤان ڤلوتن	٢٧
٢١ - ابن قتيبة	٣
٢٢ - ابن كثير	٢١
٢٣ - المبرد	٥
٢٤ - المسعودي	٨
٢٥ - ابن نباتة	٢٠
٢٦ - ياقوت	١٣
٢٧ - اليعقوبي	٦

المراجع الخاصة بحسب الترتيب الزمني والأبجدي

– ١ –

الباب الأول

أولًا : بحسب الترتيب الزمني :

١ – الازرقي المتوفى سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٨م : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي .

– أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار طبع مكة سنة ١٣٢٥هـ .

٢ – ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ = ٨٧٠م . عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم .

– فتوح مصر وأخبارها . طبع ليدن سنة ١٩٢٠ .

٣ – مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ – ٨٧٤م : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .

– صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٦ طبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ .

٤ – الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م : أحمد بن أبي داود الدينوري .

– الأخبار الطوال ، طبع سنة ١٣٣٠هـ بمطبعة السعادة بمصر .

٥ – أبو زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م أحمد بن سهل البلخي .

– البدء والتاريخ – المنسوب إليه – ويروى أنه المطهر بن طاهر القدسي المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ الجزء السادس . نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩م .

٦ – ابن عبد البر القرطبي ، المولود سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م الحافظ أبو عمرو يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي .

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ١ ، جـ٢ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد سنة ١٣١٨هـ .

٧ – القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن عبد الواحد جمال الدين القفطي .

– إخبار العلماء بأخبار الحكماء . طبع سنة ١٣٢٦ بمطبعة السعادة بمصر .

٨ – أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : إسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين .

– المختصر في أخبار البشر جـ١ . المطبعة الحسينية بمصر .

٩ – اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٧م : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين اليافعي .

– مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان جـ١ . طبع حيدر أباد سنة ١٣٣٧هـ .

١٠ – الوطواط المتوفى سنة ٧٧١هـ = ١٣٦٩م : جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى ابن علي الأنصاري الكتبي .

– غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

١١ – الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ = ١٤٠٤م : نور الدين علي بن أبي بكر أبو الحسن الهيثمي .

– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢هـ .

١٢ – ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ = ١٤٠٦ ، ١٤٠٧م : صارم الدين أو غرس الدين إبراهيم بن محمد بن أبدمر العلائي .

– الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين . تصوير شمسي بدار الكتب رقم . ١٥٨٧ .

١٣ – ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣هـ = ١٤٤٩م : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

– تهذيب التهذيب جـ٢ حيدر أباد سنة ١٣٢٥هـ .

١٤ – السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .

– تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله . القاهرة سنة ١٣٥١هـ .

١٥ – الفاكهي ..... أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي .

– المنتقى في أخبار أم القرى . وهو منتخبات من :

● الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي المعروف بقطب الدين النهرواني المتوفى سنة ٩٩٠هـ = ١٥٨٢م .

● الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف . لمحمد بن أمين بن ظهيرة . من علماء القرن العاشر . ألف الكتاب سنة ٩٥٠هـ = ١٥٤٣م .

● شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام . لتقي الدين أبي الطيب محمد بن أحمد الفاسي المتوفى في شوال من سنة ٨٣٢هـ = ١٤٢٨م : ليبسك سنة ١٨٥٩م .

١٦ – الديار بكري المتوفى بعد سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م : حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري .

– الخميس في أحوال أنفس نفيس جـ٢ الوهبية سنة ١٢٨٣هـ .

١٧ – القرماني المتوفى سنة ١٠١٩هـ = ١٦١٠م : أبو العباس أحمد جلبي بن يوسف ابن أحمد الدمشقي القرماني .

– أخبار الدول وآثار الأول طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨١هـ .

١٨ – الخضري . المرحوم الشيخ محمد الخضري بك .

– تاريخ الأمم الإسلامية . طبع مصطفى محمد .

١٩ – رشيد رضا (المرحوم الشيخ رشيد رضا) مجلة المنار المجلد الخامس .

٢٠ – أحمد أمين . الأستاذ أحمد أمين بك .

– فجر الإسلام . مطبعة الاعتماد سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م .

٢١ – سنوك هرجوني .

– أخبار مكة جـ١ ترجمة الدكتور علي حسن (ترجمة خاصة) .

٢٢ – لامانس .

– الطائف . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .

ثانيًا : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر بالترتيب الزمني :

١ - أحمد أمين	٢٠
٢ - الأزرقي	١
٣ - البلخي	٥
٤ - ابن حجر	١٣
٥ - الخضري	١٨
٦ - ابن دقماق	١٢
٧ - الدينوري	٤
٨ - الديار بكري	١٦
٩ - رشيد رضا	١٩
١٠ - السيوطي	١٤
١١ - ابن عبد البر	٦
١٢ - ابن عبد الحكم	٢
١٣ - الفاكهي	١٥
١٤ - أبو الفدا	٨
١٥ - القرماني	١٧
١٦ - القفطي	٧
١٧ - لامانس	٢٢
١٨ - مسلم	٣
١٩ - سنوك حرجووني	٢١
٢٠ - الهيثمي	١١
٢١ - الوطواط	١٠
٢٢ - اليافعي	٩

- ٢ -

الباب الثاني

أولًا : بحسب الترتيب الزمني :

١ – الفرزدق المتوفى سنة ١١٠هـ = ٧٢٨م : همام بن غالب بن صعصعة الشاعر .
- ديوان الفرزدق . ليدن . بريل سنة ١٣٠٦هـ .

٢ – أبو يوسف المتوفى في سنة ١٩٢هـ = ٨٠٧ ، ٨٠٨م : يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة .
- كتاب الخراج المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦هـ .

٣ – الأزرقي المتوفى سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٨م : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الازرقي .
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . طبع مكة ١٣٢٥هـ .

٤ – ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ = ٨٢٩م : أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم .
- سيرة عمر بن عبد العزيز . رواية ابنه أبي عبد الله محمد المتوفى سنة ٢٦٨هـ . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م .

٥ – ابن خرداذبة المتوفى في منتصف القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي : أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة .
- المسالك والممالك . ليدن سنة ١٣٠٦هـ .

٦ – ابن رستة ألف الكتاب سنة ٢٩٠هـ = ٩٠٣م : أبو علي أحمد بن علي بن رستة .
- الأعلاق النفيسة . المجلد السابع ليدن سنة ١٨٩١م .

٧ – السجستاني المتوفى سنة ٣١٦هـ = ٩٢٨م : أبو بكر بن عبد الله بن أبي داود بن سليمان السجستاني .
- كتاب المصاحف ، الجزء الاول . مصر سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م .

٨ – الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ هـ = ٩٤٢م : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري .
- الوزراء والكتاب ، دار الصاوي بدرب الجماميز سنة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٩م .

٩ – الاصطخري المتوفى في أواسط القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي : أبو إسحق

الفارسي المعروف بالكرخي .
- مسالك الممالك . ليدن سنة ١٨٧٠م .
١٠ - أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م : أبو علي إسماعيل بن القاسم البغداي .
- ذيل الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م .
١١ - المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧هـ = ٩٩٧م : أبو عبد الله محمد بن البشاري المعروف بالمقدسي .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن سنة ١٩٠٩م .
١٢ - الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م : أبو علي الحسين علي بن محمد الماوردي .
- الأحكام السلطانية . القاهرة سنة ١٢٩٨هـ .
١٣ - الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ = ١٠٧٠م : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي .
- تاريخ بغداد الجزء الأول . القاهرة سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .
١٤ - سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ = ١٢٥٦م : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن علي غيزاوغلى المعروف بابن سبط الجوزي .
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان جـ٩ . تصوير شمسي بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ .
١٥ - القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ = ١٢٧٢م : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
- الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول . دار الكتب المصرية سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٣م .
١٦ - أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : إسماعيل بن علي بن محمود المظفر تقي الدين .
- المختصر في أخبار البشر جـ١ . الحسينية بمصر .
١٧ - النويري المتوفى ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .

- نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٦ ، ٧ دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .

١٨ - أحمد السلامي :

- مختصر التواريخ . انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦هـ = ١٤٠٣م : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٣٥ .

١٩ - الدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ = ١٨٠٥م : كمال الدين محمد بن عيسى الدميري .

- حياة الحيوان الكبرى جـ١ . المطبعة الكستلية سنة ١٣١٩هـ .

٢٠ - القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ = ١٤١٨م : أبو العباس أحمد القلقشندي .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ١ دار الكتب المصرية سنة ١٢٤٠هـ = . ١٩٢٢م .

٢١ - ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ = ١٤٣٣م : تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي .

- ثمرات الأوراق في المحاضرات ، مطبعة المعاهد سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م .

- على هامش المستطرف من كل فن مستظرف .

٢٢ - المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ = ١٤٤١م : تقي الدين بن أحمد بن عبد القادر المقريزي .

- النقود القديمة والإسلامية . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ .

٢٣ - ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣هـ = ١٤٤٩م : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

- تهذيب التهذيب جـ٢ . حيدر أباد سنة ١٣٢٥هـ .

٢٤ - النهرواني المتوفى سنة ٩٩٠هـ = ١٥٨٢م : قطب الدين النهرواني الحنفي .

- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . ليبسك سنة ١٢٧٤هـ .

٢٥ - الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود المعروف بالألوسي البغدادي .

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ١ . بغداد سنة ١٣١٤هـ .

٢٦ – العيون والحدائق في أخبار الحقائق . لم يعلم مؤلفه . عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين . الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تبدأ من خلافة الوليد بن عبد الملك – الخليفة الأموي – وتنتهي بالمعتصم – الخليفة العباسي – ليدن سنة ١٨٥٣م .

٢٧ – عبادة : الأستاذ عبد الفتاح عبادة .

– سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام . الفجالة بمصر سنة ١٩١٣م .

٢٨ – الخضري المرحوم الشيخ محمد الخضري بك .

– تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ (طبع مصطفى محمد) .

٢٩ – جورجي زيدان .....

– تاريخ التمدن الإسلامي جـ١ (الهلال سنة ١٩٣٥م) .

٣٠ – الببلاوي : السيد محمد الببلاوي .

التعريف بالنبي والقرآن الشريف . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٥هـ .

٣١ – كرد علي : الأستاذ محمد كرد علي .

– الإسلام والحضارة العربية جـ٢ دار الكتب سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م .

٣٢ – حسن إبراهيم : الدكتور حسن إبراهيم .

– النظم الإسلامية . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م .

٣٣ – الرسالة : المجلة العدد ٢٤٧ (السنة السادسة ٢٨ مارس ١٩٣٨م) .

٣٤ – كاترمير (١٨٥٧م) حياة عبد الله بن الزبير . المجلة الأسيوية الجديدة العددان ٩ ، ١٠ من سنة ١٨٣٢م ، ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد . (ترجمة خاصة) .

٣٥ – فراتياج (١٨٦١) .

– الأمثال العربية . ترجمة الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي (ترجمة خاصة) .

٣٦ – نولدكه . مستشرق ألماني من مستشرقي القرن التاسع عشر .

– تاريخ القرآن ، الجزء الثالث . ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر (ترجمة خاصة) .

٣٧ – دوزي (١٨٨٣) . تاريخ مسلمي إسبانيا . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق

(ترجمة خاصة) .
٣٨ – موير . الخلافة قيامها وسقوطها . طبع أدنبرة بإنجلترا سنة ١٩١٥م .
ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع (ترجمة خاصة) .
٣٩ – برتولد : إسلاميكا جـ٤ ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر ترجمة خاصة .
٤٠ – بريبه : جان بريبه . مستشرق فرنسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .
الحجاج كما تراه المصادر العربية (سنة ١٩٠٤م) .
٤١ – اشترك : أرض بابل القديمة أخذًا عن الجغرافيين العرب . ترجمة الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي (ترجمة خاصة) .
٤٢ – دائرة المعارف الإسلامية . مادة حجاج . ترجمة الدكتور علي حسن ترجمة خاصة .

ثانيًا : حسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى مصدر الرقم الزمني :

١ - أبو علي القالي	١٠
٢ - اشترك	٤١
٣ - الاصطخري	٩
٤ - الألوسي	٢٥
٥ - البيلاوي	٣٠
٦ - برتولد	٣٩
٧ - بريه	٤٠
٨ - جورجي زيدان	٢٩
٩ - الجهشياري	٨
١٠ - ابن حجر	٢٣
١١ - ابن حجة	٢١
١٢ - حسن إبراهيم	٣٢
١٣ - الخضري	٢٨
١٤ - الخطيب البغدادي	١٣
١٥ - ابن خرداذبة	٥
١٦ - الدميري	١٩
١٧ - دوزي	٣٧
١٨ - ابن رستة	٦
١٩ - الأزرقي	٣
٢٠ - سبط ابن الجوزي	١٤
٢١ - السجستاني	٧
٢٢ - السلامي	١٨
٢٣ - عبد الفتاح عبادة	٢٧
٢٤ - ابن عبد الحكم	٤
٢٥ - أبو الفدا	١٦
٢٦ - فراتياج	٣٥
٢٧ - الفرزدق	٣
٢٨ - القرطبي	١٥
٢٩ - القلقشندي	٢٠
٣٠ - كاتريمير	٣٤
٣١ - كرد علي	٣١
٣٢ - الماوردي	١٢
٣٣ - المقدسي	١١
٣٤ - المقريزي	٢٢
٣٥ - موير	٣٨
٣٦ - النهرواني	٢٤
٣٧ - نولدكه	٣٦
٣٨ - النويري	١٧
٣٩ - أبو يوسف	٢
٤٠ - العيون والحدائق	٢٦
٤١ - دائرة المعارف الإسلامية	٤٢
٤٢ - مجلة الرسالة	٣٣

- ٣ -

الباب الثالث

أولًا : بحسب الترتيب الزمني :

١ - الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م : أحمد بن أبي داود الدينوري .
- الأخبار الطوال . طبع سنة ١٣٣٠ بمطبعة السعادة .

٢ - البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م : أحمد بن سهل البلخي .
- البدء والتاريخ (المنسوب إليه) والمنسوب أيضًا لمطهر بن طاهر المقدسي المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ الجزء السادس . نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩م .

٣ - الهمداني المتوفى آخر القرن الثالث الهجري = أوائل القرن العاشر الميلادي : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه .
- كتاب البلدان . ليدن بريل سنة ١٣٠٢هـ .

٤ - البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ = سنة ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .
- الفَرْق بين الفِرَق (القاهرة سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م بمطبعة المعارف) .

٥ - الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ = ١١٥٣م : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني .
الملل والنحل ، الجزء الأول بهامش كتاب الفصل في الملل والنحل والأهواء (المطبعة الأدبية سنة ١٣١٨هـ) .

٦ - النويري المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١١٣١م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .
- نهاية الأرب في فنون الأدب جـ٧ . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .

٧ - اللقاني المتوفى سنة ١٠٤٧هـ = ١٦٤٧م عبد السلام بن إبراهيم اللقاني .
- شرح عبد السلام على الجوهرة في التوحيد . المطبعة الأزهرية سنة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٦م .

٨ - الأربلي . عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتوا الأربلي .
- خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك . لابن الجوزي المتوفى سنة

٥٩٧هـ = ١٢٠٠م مطبعة القديس جاذرجيوس ، للروم الأرثوذكس سنة ...
١٨٨٥م . ببيروت .

٩ – جورجي زيدان .
– تاريخ التمدن الإسلامي الجزء الرابع . طبع الهلال سنة ١٩٢٧ .

١٠ – أحمد أمين .
– فجر الإسلام . القاهرة سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م مطبعة الأعتماد .

١١ – فلهوزن .
– أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الدولة الإسلامية القديمة .
ترجمة الدكتورين محمد ماضي وعلي حسن (ترجمة خاصة) .
– الامبراطورية العربية وسقوطها (ترجمة خاصة) طبع سنة ١٩٠٢ برلين .

١٢ – ڤان برشم .
– الملكية العقارية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأوائل . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .

١٣ – حسن إبراهيم .
– تاريخ الإسلام السياسي جـ١ . مطبعة حجازي سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٥م .

١٤ – دائرة المعارف الإسلامية مادة . : حجاج . المهلب بن أبي صفرة . عبد الرحمن بن الأشعث .
ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر (ترجمة خاصة) .

ثانيًا : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر في الترتيب الزمني :

١ - أحمد أمين	١٠
٢ - الأربلي	٨
٣ - البغدادي	٤
٤ - البلخي	٢
٥ - جورجي زيدان	٩
٦ - حسن إبراهيم	١٣
٧ - الدينوري	١
٨ - الشهرستاني	٥
٩ - ڤان برشم	١٢
١٠ - فلهوزن	١١
١١ - اللقاني	٧
١٢ - النويري	٦
١٣ - الهمداني	٣
١٤ - دائرة المعارف الإسلامية	١٤

– ٤ –

الباب الرابع

أولًا : بحسب الترتيب الزمني :

١ – الهمداني المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري = أوائل القرن العاشر الميلادي :
أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه .
– كتاب البلدان . ليدن بريل سنة ١٣٠٢هـ .

٢ – السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
– تاريخ خلفاء أمراء المؤمنين القائمية بأمر الله . القاهرة سنة ١٣٥١هـ .

٣ – دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م : السيد أحمد بن السيد زيني دحلان .
– الفتوحات الإسلامية . مصر . مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠م .

٤ – العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، لم يعلم مؤلفه . عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين ، الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تحتوي على خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان – الخليفة الأموي – وتنتهي بالمعتصم بالله – الخليفة العباسي .
ليدن سنة ١٨٥٣ .

٥ – أرنولد . توماس أرنولد .
– الدعوة إلى الإسلام . لندن سنة ١٩٣٥ .

٦ – ألفنستون .
– تاريخ الهند . لندن سنة ١٨٤٩م .
ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد (ترجمة خاصة) .

٧ – ولزلي : السير ولزلي هاريج .
– تاريخ كمبردج الجزء الثالث : ترجمة الأستاذ محمد حبيب أحمد (ترجمة خاصة) .

ثانيًا : بحسب الترتيب الأبجدي مع الإشارة إلى رقم المصدر في الترتيب الزمني :

١ - أرنولد	٥
٢ - دحلان	٣
٣ - السيوطي	٢
٤ - ألفنستون	٦
٥ - الهمداني	١
٦ - ولزلي	٧
٧ - العيون والحدائق	٤

- ٥ -

الباب الخامس

أولًا : بحسب الترتيب الزمني :

١ - جرير المتوفى سنة ١١٠هـ = ٧٢٨م : جرير بن عطية الخطفي الشاعر .
- ديوان جرير بشرح الصاوي : مطبعة الصاوي سنة ١٣٥٣هـ .

٢ - الفرزدق المتوفى سنة ١١-هـ = ٧٢٨م : همام بن غالب بن صعصعة الشاعر .
- ديوان الفرزدق . ليدن بريل سنة ١٣٠٦هـ .

٣ - الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م : أحمد بن أبي داود الدينوري .
- الاخبار الطوال . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠هـ .

٤ - البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م : أحمد بن سهل البلخي .
- البدء والتاريخ (المنسوب إليه) والمنسوب أيضًا لطاهر بن مطهر المقدسي .
الجزء السادس نشر كلمان هوار سنة ١٩١٩م .

٥ - الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١هـ = ٩٤٢م : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري .
- الوزراء والكتاب . دار الصاوي بمصر سنة ١٣٥٧هـ = ١٩٣٩م .

٦ - الكِنْدِي المتوفى سنة ٣٥٠هـ = ٩٦١م : أبو عمر محمد بن يوسف الكِنْدِي .
- كتاب الولاة وكتاب القضاة . بيروت سنة ١٩٠٨م . مطبعة الآباء اليسوعيين .

٧ - أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م : أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي .
- الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م .
- ذيل الأمالي والنوادر . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م .

٨ - الحصري المتوفى سنة ٤٥٣هـ = ١٠٣٥م : أبو إسحق إبراهيم بن علي بن تميم المعروف بالحصري القيرواني .
- زهر الآداب وثمر الألباب جـ٤ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م .

٩ - الميداني المتوفى سنة ٥١٨هـ = ١٠٦١م : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري
الأمثال . بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

١٠ - القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م : الوزير جمال الدين أبو الحسن جمال الدين القفطي .

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦هـ .

١١ - ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ = ١٢٥٦م : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن علي غيزاوغلي المعروف بابن سبط الجوزي .

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان الجزء التاسع . تصوير شمسي بدار الكتب رقم ٥٥١ .

١٢ - ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م : موفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء . المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م .

١٣ - أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : إسماعيل بن علي تقي الدين .

- المختصر في أخبار البشر جـ١ . الحسينية بمصر .

١٤ - النويري المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م : أحمد بن عبد الوهاب النويري .

- بنهاية الأرب في فنون الأدب جـ١ . دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م .

١٥ - اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨هـ = ١٣٦٧م : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن عفيف الدين اليافعي .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان جـ١ . طبع حيدر آباد .

١٦ - الوطواط المتوفى سنة ٧٧١هـ = ١٣٦٩م : جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى ابن علي الأنصاري الكتبي .

- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . بولاق سنة ١٢٨٤هـ .

١٧ - السلامي : أحمد السلامي .

- مختصر التواريخ . انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦هـ = ١٤٠٣م . مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٣٥ .

١٨ - الدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م : كمال الدين محمد بن عيسى

الدميري .
– حياة الحيوان الكبرى الجزء الأول . المطبعة الكستلية سنة ١٣١٩هـ .
١٩ – ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ = ١٤٠٦ – ١٤٠٧م : صارم الدين أو غرس الدين إبراهيم بن محمد بن أبدمر العلائي .
– الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين . تصوير شمسي بدار الكتب رقم ١٥٨٧ .
٢٠ – القرماني المتوفى سنة ١٠١٩هـ = ١٦١٠م : أبو العباس أحمد جلبي بن يوسف ابن أحمد الدمشقي القرماني .
– أخبار الدول وآثار الأول . طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨٢هـ .
٢١ – العيون والحدائق في أخبار الحقائق . لم يعلم مؤلفه عني بنشره والتعليق عليه جماعة من المستشرقين ، الموجود منه قطعة من الجزء الثالث تبدأ من خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان وتنتهي بالخليفة المعتصم (ليدن سنة ١٨٥٣م) .
٢٢ – النجفي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م : السيد حسين بن السيد أحمد البراقي النجفي .
– تاريخ الكوفة . طبع النجف سنة ١٣٥٦هـ .
٢٣ – الخضري بك . المرحوم الشيخ محمد الخضري بك .
– تاريخ الأمم الإسلامية جـ٢ . طبع مصطفى محمد .
٢٤ – رفيق بك العظم .
– مجموعة الآثار . طبع المنار سنة ١٣٤٤هـ .
٢٥ – محمد خلف الله الأستاذ .
– مجلة الثقافة العدد ١٧٠ .
٢٦ – روزي .
– تاريخ مسلمي إسبانيا . ترجمة إستكس طبع سنة ١٩١٣ : ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق (ترجمة خاصة) .
٢٧ – فلهوزن .
الامبراطورية العربية وسقوطها : ترجمة الدكتورين محمد ماضي وعلي حسن عبد

القادر . ترجمة خاصة طبعة رامير ببرلين سنة ١٩٠٢ .

٢٨ – دائرة المعارف الإسلامية الكراسة ٢١ . ترجمة الدكتور علي حسن (ترجمة خاصة) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

مطابع زمزم - مهندس يوسف عز - العاشر من رمضان

١٢٠ شارع الأزهر فاكس ٢٦٢١٧٥٠
ت : ٩٣٢٨٢٠ - ٢٦٣١٥٧٨

Dar Al Salam
PRINTING PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 azhar.st fax 2621750
tel 932820 - 2631578

دار السلام
طباعة
نشر
توزيع

Dar Al Salam
PRINTING PUBLICATION
& DISTRIBUTION
120 azhar.st fax 2621750
tel 932820 - 2631578

دار السلام
طباعة
نشر
توزيع

١٢٠ شارع الأزهر فاكس ٢٦٢١٧٥٠
ت : ٩٣٢٨٢٠ ـ ٢٦٣١٥٧٨

